دراسات في السيرة النبوية

محمد سرور بن نايف زين العابدين

دار الأرقم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، وأشهد أن لاإله إلا الله وحده لاشريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله بلّغ الرسالة ، وأدى الأمانة ، ونصح الأمة ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه وسلم ، أما بعد :

فهذه بحوث في السيرة النبوية كنت قد نشرتها على شكل حلقات متسلسلة في عامي ١٣٩٤ و ١٣٩٥ هـ ، وكان الهدف من نشرها أن يطلع عليها أهل العلم والمعرفة لأستفيد من آرائهم ونصائحهم قبل جمعها في كتاب ، وقد تحقق ماكنت أبغيه والحمد لله .

ولم أستطع تنقيح هذه البحوث خلال الفترة الزمنية الماضية بسبب انشغالي بأمور أخرى لاتقل عنها أهمية ... وعندما تيسرت لي الأسباب أعدت قراءة هذه البحوث من جديد فازددت قناعة وثقة بما حوته من أدلة وبراهين ، غير أني أعدت الصياغة كلها ، كما أعدت ترتيب عرض الأدلة والردود ، وأضفت أموراً كثيرة اقتضاها الحال .

وقد يسأل بعض القراء :
وهل تشكو المكتبة الإسلامية من ندرة كتب السيرة ، ومالجديد الذي سوف يقدمه المؤلف ؟!

وجوابي على ذلك : نعم هناك أمور جديدة في فهم السيرة النبوية ، وفي كيفية ربطها بواقعنا المعاصر ، وقد تحدثت عن منهجي في البحث وعن الحاجة إلى مثل هذه المؤلفات في أبواب ثلاثة :
الباب الأول : لماذا منهج الأنبياء ؟! من كتابي « منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله » . وقد حذرت في هذا الباب من خطورة تقليد الرجال واعتبار أقوالهم وآرائهم مناهج وأدلة شرعية لايجوز مخالفتها أو الخروج عليها ، وبيّنت الأسباب التي توجب التمسك بمنهج أنبياء الله وعلى رأسهم خاتم الأنبياء والمرسلين نبينا محمد صلى الله عليه وعلى اخوانه أنبياء الله وسلم .

وبهذه المناسبة أقول :
إن هذا المؤلف ومايتبعه من مؤلفات في السيرة النبوية تعد جزءاً لايتجزأ من سلسلة الحديث عن منهج الأنبياء في الدعوة إلي الله .
الباب الثاني : ماأشبه الليلة بالبارحة ، وهو الباب الأول من هذا الكتاب ، تكلمت فيه عما تعانيه البشرية اليوم من ضياع وتفسخ وانهيار ... كما تحدثت فيه عن فساد العقائد والتصورات المعاصرة ، وبينت أوجه الشبه بين أحوال العالم قبل بعثة خاتم الأنبياء نبينا محمد ﷺ وأحوال عالمنا المعاصر ، وأنه لايصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها ، ونقلت طائفة من أقوال ومؤلفات كبار الساسة والعلماء الغربيين والشيوعيين الذين يشهدون على فشل النظامين : الرأسمالي والشيوعي ، ويبحثون عن منقذ لهذه البشرية من الدمار .
الباب الثالث : منهج رجال خير القرون في كتابة السيرة النبوية ، وهو الباب الثاني من هذا الكتاب ، وقد ختمت الباب بقولي :
« هذا هو منهج رجال خير القرون في كتابة سيرة الرسول ﷺ ، وفي رسم القواعد والضوابط التي نعرف من خلالها أحوال الرواة وأخلاقهم وميولهم .

وهذه شبهات المستشرقين تتهاوى واحدة تلو الأخرى ، وقد ظهر لكل منصف بطلان أقوالهم وفساد نواياهم .

وهذه اعترافات عدد من المستشرقين والعلماء الغربيين بسلامة المنهج الذي سار عليه علماء المسلمين في كتابة السيرة النبوية ، وقد ألجأتهم الحقائق المذهلة إلى تسجيل هذه الإعترافات .

ومما ينبغي التأكيد عليه أنني أردت من وراء كتابة هذا الباب : [منهج رجال خير القرون] مايلي :
ـــ هذا هو المنهج الذي سألتزم به إن شاء الله في كل ماسوف أكتبه عن السيرة النبوية ، وعن منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله .
ـــ أن يكون واضحاً عند من يتابع معي هذا البحث فساد مناهج المستشرقين ودعاة التغريب وزعماء المدرسة الإصلاحية » .

ومن شاء المزيد فليعد إلى قراءة هذه الأبواب الثلاثة ... ولاأجد كبير فائدة في هذه المقدمة من تكرار ماقد فصلت القول به .

ومما يحز في النفس ويكلم الفؤاد أن كثيراً من الدعاة لايكتبون في السيرة ربع أو عشر مايكتبون عن شيوخهم ، وإذا ذكروا أحاديث نبوية فمن أجل أن يثبتوا للمعترضين صحة أقوال شيوخهم ، وقد بلغني أن أحدهم يتكلم في محاضراته عن مسألة علمية ، ويسهب في سرد الأدلة وأقوال كبار الأئمة والمحققين ويختم حديثه قائلاً :
أما شيخنا ففي كلمات قليلة وضع النقاط على حروفها ، واستوفى كل ماقاله العلماء دون ملل ولاإسهاب .

ياسبحان الله كيف تكون أقوال شيخهم أكثر بلاغة وشمولية من أقوال رسول الله وصحابته الغر الميامين صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم ؟!

ونحن لانعرف عن هؤلاء الناس إلا حب الله ورسوله ... ولكن قاتل الله الغلو في تعظيم الرجال .

إن الواجب الإسلامي يفرض على العلماء وأصحاب الأقلام من الدعاة إلى الله الكتابة في سيرة الرسول ﷺ ، وهم واجدون فيها من غير شك كنوزاً ونفائس في مختلف أنواع العلوم : كالعقائد ، والتفسير ، والفقه ، والتربية والسلوك ، والدعوة والإرشاد ، والإدارة والتخطيط ، وفي العلوم العسكرية ، والسياسية ، وفي التضامن الإجتماعي والإقتصادي ...
كما أنهم واجدون في السيرة أنجح الحلول للمعضلات التي تواجهنا في هذا العصر ، وفوق هذا وذاك فلقد كان ﷺ قدوة حسنة في كل عمل طيب .
ولقد قلت غير مرة :

لم يحدث أن اجتمعت كلمة المسلمين في مختلف بقاع الأرض على مذهب من المذاهب ، أو حزب من الأحزاب ، أو على كتب ومؤلفات عالم من العلماء ، ولكنهم اجتمعوا واتحدوا على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وماكان عليه الصحابة والتابعون رضوان الله عليهم . وقد أوجب الله علينا طاعة الرسول ﷺ واتباع أمره . قال تعالى :
﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ﴾ . (سورة النور ، الآية : ٦٣)

وقال تعالى :

﴿ وماأرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله ﴾ . (سورة النساء ، الآية : ٦٤ ﴾

وقال تعالى :

﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ، ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم ﴾ . (سورة آل عمران ، الآية : ٣١)

وقال تعالى :

﴿ وماينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى ﴾ . (سورة النجم ، الآيتان : ٣ و ٤)

وقال تعالى :

﴿ وماآتاكم الرسول فخذوه ومانهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب ﴾ . (سورة الحشر ، الآية : ٧)

من أجل هذا كتبت « منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله » .

ومن أجل هذا أيضاً كتبت هذا الجزء من « دراسات في السيرة النبوية » ، وكان معظمه في نقد مناهج المستشرقين ودعاة التغريب ، وزعماء المدرسة الإصلاحية وغيرهم من الباطنيين والمبتدعين . وفي الجزء القادم سأبدأ في عرض وقائع السيرة ـــ إن شاء الله ـــ وسوف يكون عن سيرة الرسول ﷺ قبل البعثة .

ولن أعرض أحداث السيرة حسب ترتيبها الزمني أو التاريخي ـــ وربما تجاوزت ذكر بعض الأحداث ـــ ولكني سوف أدرس السيرة كموضوعات ، وكل موضوع يشمل مايلي :

ـــ الأحاديث والروايات الصحيحة مع ذكر تخريجها :

ـــ ربط هذه الأحاديث والروايات مع بعضها ، واستخراج ماتحويه من فقه وأحكام وعبر .

ـــ ربط الأحداث والموضوعات بواقع عصرنا ، وبيان مافيها من حلول لمعضلات العصر .

فإن وفقت إلى ماأبغيه فالفضل في ذلك والمنة لله وحده ، وإن كان الأمر غير ذلك فعزائي أني بذلت طاقتي واستفرغت جهدي ، ولم أتسرع فيما كتبت وجمعت .

وأسأل الله أن يجمع أمة محمد ﷺ على المنهج الحق الذي كان عليه خير القرون ، وأن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

المؤلف

برمنجهام : ١٥ شوال ١٤٠٦ هـ
٢٢ حزيران ١٩٨٦ م



القسم الأول

الباب الأول : ماأشبه الليلة بالبارحة
الباب الثاني : منهج رجال خير القرون في كتابة السيرة النبوية

الباب الأول

ماأشبه الليلة بالبارحة

الفصل الأول : العالم قبل البعثة
الفصل الثاني : العالم اليوم
الفصل الثالث : العالم الإسلامي اليوم

الفصل الأول

العالم قبل البعثة

تمهيد :

كان الناس قبل البعثة النبوية يعيشون في جاهلية جهلاء ، وضلالة عمياء ، وكان أثر الأنبياء في أقوامهم كرؤيا جميلة في نوم طال أمده ، أو كومضة برق في ليل حالك ظلامه .

وكان أتباع معظم أنبياء الله آحاداً من الناس ينقرضون بعد جيل أو جيلين ، ومأأن انتصف القرن السادس الميلادي حتى كانت شقاوة الجاهلية تلف العالم بأسره ، وتسقيه كؤوس الظلم والتخلف والوثنية ، لقد أطفئت مشاعل التوحيد ، وعم الفساد في كل واد ، ولجأ الحنيفيون إلى الكهوف وقمم الجبال فراراً بدينهم وخوفاً من بطش الظالمين وتنكيلهم ، وتفنن الناس في صناعة الأصنام والأوثان واتخاذها آلهة من دون الله .

وكانت الأمم الكبيرة تستعمر الشعوب الصغيرة وتستذلها ، وكان القوي يستعبد الضعيف ويستغله .

وسوف أتحدث في هذا الفصل عن أخلاق وعقائد أهم شعوب الأرض قبل البعثة النبوية .

أولاً ــ الرومان :

من أهم الإنحرافات في تاريخ النصارى تلكم الأناجيل التي ماأنزل الله بها من سلطان ، وليس هذا رأي للمسلمين وحدهم ، فالمحققون من المؤرخين

ـــ غربيين كانوا أو شرقيين ـــ لايعرفون متى كتبت الأناجيل الأربعة [١] التي اقتصر رجال الدين النصارى عليها ، ولا من الذين كتبوها ، ويؤكدون أن أحداً من كتاب هذه الأناجيل لم يلق عيسى بن مريم عليه السلام .

ثم توالت هذه الإنحرافات ففي سنة ٣٠٥ م استغل قسطنطين النصرانية أبشع استغلال واتخذها جسراً لبسط نفوذه وقهر أعدائه . لقد انتصر النصارى بقيادة قسطنطين في ساحات القتال ، وهزموا خصومهم ، وربحوا ملكاً عظيماً غير أنهم خسروا البقية الباقية من عقيدتهم ، وهُزموا حقاً في معترك الأديان ، وأصبحت النصرانية في عهد قسطنطين مزيجاً من فلسفة اليونان ، ووثنية الرومان والأفلاطونية المصرية .

وبلغت الإنحرافات أوجها سنة ٦٣١ م عندما صمم هرقل على إظهار المذهب « المنوثيلي » بسبب الصراعات الدامية بين « الملكانية » الذين كانوا يعتقدون ازدواج طبيعة المسيح ، و« المنوفيسية » الذين كانوا يستبشعون تلك العقيدة ويستفظعونها ، وكان القبط من دعاة المنوفيسية بينما كان الملك ومن حوله من دعاة الملكانية ... وعندما جعل المذهب « المنوثيلي » مذهباً رسمياً للدولة ثار عليه القبط ونابذوه العداء فاضطهدهم وخاض معهم عدداً من المعارك الطاحنة .

لقد كانت رسالة المسيح عليه السلام بريئة من هذه الأناجيل والمذاهب التي ابتدع بعضها رجال مجهولون عجز المؤرخون عن تحديد زمانهم ومعرفة أسمائهم ، وبعضها الآخر ابتدعه أباطرة الرومان ومن لاذ بكنفهم من الرجال الذين يتاجرون بالدين .

وجملة القول : لقد تلاشت تعاليم المسيح عليه السلام قبل بعثة المصطفى ﷺ كما تتلاشى القطرة في اليم .

أما من الناحية الإجتماعية والإقتصادية فقد بلغ الفساد غايته ، وتفشت الفوضى ، وتضاعفت الضرائب حتى أصبح أهل البلاد المستعمرة يمقتون حكامهم مقتاً شديداً ، ويبحثون هنا وهناك عن منقذ .

---

١ ـــ اختار مجمع نيقية سنة ٣٢٥ أربعة أناجيل هي : متّى ، ومرقس ، ولوقا ، ويوحنا من بين أناجيل كثيرة واستبعدوا الأناجيل الأخرى وأتلفوها .

صوّر الكاتب الأمريكي « درايبر » وضع الرومان الإجتماعي أجمل تصوير فكان مما قاله :

« بطر الرومان معيشتهم وأخلدوا إلى الأرض واستهتروا استهتاراً ، وكان مبدؤهم أن الحياة إنما هي فرصة للتمتع ، ينتقل فيها الإنسان من نعيم إلى ترف ومن لهو إلى لذة ، ولم يكن زهدهم وصومهم في بعض الأحيان إلا ليبعث على شهوة الطعام ، ولم يكن اعتدالهم إلا ليطول به عمر اللذة ، كانت موائدهم تزهو بأواني الذهب والفضة مرصعة بالجواهر ، ويحتف بهم خدام في ملابس جميلة خلابة وغادات رومية حسان وغوان عاريات كاسيات غير متعففات ، ويزيد في نعيمهم حمامات باذخة وميادين للهو واسعة ومصارع يتصارع فيها الأبطال مع الأبطال أو مع السباع ، ولايزالون يصارعون حتى يخرالواحد منهم صريعاً يتشحط في دمه (٢) .

ثانياً ـــ الفرس :

حكم الفرس معظم بلاد المشرق ، وكانوا والرومان كفرسي رهان يتنافسون على زعامة العالم واستعباد شعوبه ونهب خيراتهم ، ولم يكن الفرس أحسن حالاً من خصومهم الرومان في أخلاقهم وعقائدهم .

فمن حيث الإعتقاد كان « مزدا » من أشهر آلهة الفرس وأقدمها ، وهو إله القبائل المستقرة والمتمدنة ، أما القبائل الرحل والمحاربون واللصوص فكانوا يعبدون الشياطين .

ومنذ الوقت الذي دخل فيه الإيرانيون التاريخ و « مزدا » هو الإله الأعلى عندهم ، وهو الذي يتولى إرسال الأنبياء إلى أهل الأرض ، ومن أهم رسله : زردشت الذي زعم بأن النور والظلمة أصلان متضادان وهما مبدأ وجود العالم ، وحصلت التراكيب من امتزاجهما ، كما أن الصور حصلت من التراكيب المختلفة .

وقد انبثق عن امتزاج النور مع الظلمة : الخير ، والشر ، والصلاح ،

---

٢ ـــ ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، لأبي الحسن علي الحسني الندوي ـــ ص ١٦٥ .

والفساد ، والطهارة ، والخبث ، ولولا هذا الإمتزاج لما وجد العالم ... ولسوف يستمر الصراع بينهما حتى يغلب النور الظلمة ، ويغلب الخير الشر ، ثم يتخلص الخير إلى عالمه ، وينحط الشر إلى عالمه وذلك هو سبب الخلاص .

ويقدس الزردشتيون الماء إلى درجة أنهم لايغسلون به وجوههم ، ولايجوز استعماله عندهم إلا للشرب أو لري الأرض الزراعية .

والزردشتية دين يعتمد دعاته في نشر أصوله على تنظيم دقيق يربط القيادة بالقاعدة وعندهم درجات ومراتب ، وقد تطور أمرهم بعد اعتناق ازدشير الأول وابنه سابور الزردشتية واتخذا منها ديناً لدولتهم (٣) .

وبعد هلاك زردشت بعدة قرون ادعى « ماني » النبوة ، ونوجز فيما يلي أصول عقيدته :

ــ قال ماني : إن العالم مصنوع من أصلين : نور ، وظلمة ، لكنه خالف سلفه من المجوس في قولهم : إن الظلام محدث وليس قديماً .

ــ أخذ ماني عن النصرانية عقيدة التثليث ، فالإله عنده مزيج من : « العظيم الأول » ، و « الرجل القديم » و « أم الحياة » . وفي النصوص التي حفظت عن المانوية عبارات مأخوذة عن الأناجيل المسيحية .

ــ يعتقد ماني بتناسخ الأرواح ، وأن هذا التناسخ يقع على الأجزاء النورانية من الإنسان .

ــ آمن « ماني » بنبوتي عيسى عليه السلام وزردشت وزعم أنه خاتم الأنبياء ، وقد أرسل لتبليغ كلام الله للناس كافة (٤) .

وفي سنة ٤٨٧ م ظهر « مزدك بن بامداد » في عهد « قباذ » والد كسرى أنوشروان فنادى بتقسيم الأرزاق بين الناس بالتساوي ، ونهى عن المخالفة والمباغضة والقتال ، كما نادى بالإباحية والفجور .

قال ابن جرير :

« وحض [مزدك] السِّفْلَة على العِلْية ، وسهل السبيل للظَّلمةِ إلى الظلم وللعُهَّار إلى قضاء نهمتهم ، وشمل الناس بلاء عظيم لم يكن لهم عهد بمثله وصاروا لايعرف الرجل منهم ولده ، ولا المولود أباه ، ولايملك الرجل شيئاً مما يتسع

---

٣ ــ الملل والنحل للشهرستاني ١ / ٢٣٦ ، ٢٣٨ ــ دار المعرفة .

٤ ــ مروج الذهب للمسعودي : ١ / ٢٥١ ، وإيران في عهد الساسانيين ص ١٦٩ .

به . وساعد المزدكيين على المضي بجرائمهم ، وتحقيق الشيوعية التي يدعون إليها ، استجابة [قباذ] لهم وتعاونه معهم ، وأن أخاه [جاماسب] كان واحداً منهم ، وقوي أمرهم حتى كانوا يدخلون على الرجل في داره فيغلبونه على منزله ونسائه وأمواله » (٥) .

وكان أتباع مزدك يزهدون ويحرمون على أنفسهم بعض الأطعمة كاللحوم مثلاً ، وإذا أضافوا إنساناً لم يمنعوه من شيء يلتمسه كائناً ماكان ، ولهم فلسفة خاصة في الإباحية ومن ذلك قولهم :
إن العاديين من الناس لايستطيعون التخلص من حب اللذات المادية إلا في اللحظة التي يستطيعون فيها إشباع هذه الحاجات بالإختيار .

واستمر بلاء المزدكية حتى جاء كسرى أنوشروان بن قباذ ، فرد الأموال لأهلها ، وجعل الأموال التي لاوارث لها رصيداً لإصلاح مافسد ، وكان ذلك بعد ولادة الرسول ﷺ .

ومثل هذه العقائد تعكس أوضاعاً اجتماعية مزرية : منها ماذكرناه عن الإباحية التي كان ينادي بها مزدك وبطانته .
ومنها ماذكره المؤرخون في تاريخ فارس أن يزدجرد الثاني [الذي حكم في أواسط القرن الخامس الميلادي] تزوج بابنته ثم قتلها .
ومنها أن [بهرام جوبين] الذي تملك في القرن السادس (٦) كان متزوجاً بأخته ، يضاف إلى هذا وذاك أن تاريخ الفرس يمتاز بالفتن والمؤامرات، وطالما قتل الأخ أخاه والإبن أباه من أجل الحكم .

ثالثاً ــ الهند والصين :

عرفت بلاد الهند والصين ديانات كثيرة أهمها :
١ ــ **البرهمية** : يؤمن أتباع هذه الديانة بأن « برهماً » إلهاً لهم ، ونظام عقيدتهم طبقي ، فطبقة البراهمة يزعمون أنهم خلقوا من رأس إلههم [براهما] ، وطبقة الجند يعتقدون أنهم خلقوا من مناكب [براهما] ، وطبقة الزراع والتجار خلقوا

---

٥ ــ تاريخ الطبري : ٢ / ٩٩ .
٦ ــ ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، للندوي ص ٣٨ ، وتاريخ الطبري : ٣ / ١٣٨ .

من ركبتي [براهما] ، وطبقة الخدم والرقيق خلقوا من قدمي [براهما] ، ودون هذه الطبقات طبقة أبناء الزنى والمحرومين ، ويسمون من ليسوا من الهنود [ابلييج] ومعناها أنجاس .

وجاء في قانونهم وصفاً لطبقة الخدم ــ أي شودر ــ وهذا نصه :
« من سعادة شودر أن يقوموا بخدمة البراهمة وليس لهم أجر وثواب غير ذلك ، وليس لهم أن يقتنوا مالاً أو يدخروا كنزاً فإن ذلك يؤذي البراهمة ، وإذا مد أحد من المنبوذين إلى برهمي يداً أو عصاً ليبطش به قطعت رجله ، وإذا همَّ أحد من المنبوذين أن يجالس برهمياً فعلى الملك أن يكوي إسته وينفيه من البلاد ، وأما إذا مسه بيد أو سبه فيقتلع لسانه ، وإذا ادعى أنه يعلمه سقي زيتاً فائراً ، وكفارة قتل الكلب والقطة والضفدعة والوزغ والغراب والبومة ورجل من الطبقة المنبوذة ــ شودر ــ سواء » .

٢ ــ **البوذية** : في سنة ٥٦٠ ق.م نهض [بوذا] يبشر بدين جديد من أهم أركانه الزهد وعدم الإنتفاع من خيرات الدنيا ، وكانت تعاليمه شاقة لايقوى عليها إلا خواص الناس ، وعمل [بوذا] على انقاذ الهنود من انحراف البرهمية التي أرهقتهم بنظام طبقاتها .

ومن الجدير بالذكر أن [بوذا] أنكر وجود إله يصرّف شؤون الكون ... ولهذا انتشرت عبادة الأوثان بين من جاءوا بعده .

٣ ــ **كونفوشيوس** : ظهر [كونفوشيوس] في الصين ، وكان يؤمن بتعدد الآلهة ، ونادى بتجديد عقيدة الصينيين القدامى التي تتلخص في عبادة السماء ــ أي الأفلاك ومداراتها ــ والأرواح المسيطرة على ظواهر الأشياء ، والملائكة وأرواح الآباء .

وهناك آلهة وأوثان أخرى تعبد من دون الله سبحانه وتعالى ، وقد بلغ عددها في القرن السادس الميلادي ٣٣٠ مليون إله . هذا في الهند وحدها فكيف يكون الحال في جميع بلدان العالم ؟!

وتميزت ديانات الهند عن غيرها بالمواد الجنسية والمهيجات الشهوية ، فبعضهم كانوا يعبدون آلة التناسل ، وبعضهم الآخر كانوا يعبدون النساء

العاريات ، والنساء يعبدن الرجال العراة [٧] .

رابعاً ـــ اليهود :

كانوا منتشرين في كل من أوربا وآسيا وإفريقيا [٨] ، وهم اليهود الذين نعرفهم عن كثب في فلسطين المحتلة : يعبدون المادة ويتفننون في طرق جمعها واحتوائها . ومن ذلك : الإحتكار ، والربا .

وكانوا ينظرون إلى غيرهم نظرة استصغار ، ويتقوقعون على أنفسهم ، ومن أخص صفاتهم المكر والخبث والخيانة .. وقد أورثتهم هذه الصفات كرهاً من جميع شعوب الأرض ، وكانت سبباً في محن ومصائب ألمت بهم في جميع حقب التاريخ .

وفي القرن السادس الميلادي وقعت حرب طاحنة بين الفرس والرومان ، انتصر فيها الفرس لأن اليهود وقفوا بجانبهم ، وسهلوا لجندهم احتلال بلاد الشام ومصر .

وبعد رحيل الفرس عن البلاد التي احتلوها بطش الرومان باليهود وردوا لهم الصاع صاعين بسبب غدرهم وخيانتهم .

خامساً ـــ العالم العربي :

كان العرب في جزيرتهم متفرقين يعيشون حياة شاقة ، وكانت القبائل تجوب الصحاري الواسعة بحثاً عن الكلأ والماء ، وكان القوي يبطش بالضعيف ، وكانت الحروب تقع بينهم لأتفه الأسباب ، فحرب البسوس بين قبيلتي بكر وتغلب كان سببها ناقة ، ومع ذلك استمرت أربعين سنة وأكلت

---

٧ ـــ اعتمدت على المصادر التالية :
الملل والنحل للشهرستاني : ٤ / ١٢٧٠ ، وخاتم النبيين للشيخ محمد أبو زهرة : ١ / ١٤ ، وماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين للندوي من صفحة ٤٧ إلى ٥١ .

٨ ـــ كان الرومان يحكمون معظم البلاد الأوربية ، وبلاد الشام وشمال إفريقيا .

الأخضر واليابس .

وحرب داحس والغبراء بين عبس وذبيان ، سببها اعتراض فرس قيس بن زهير واسمها داحس . وقد انتهت بخسائر جسيمة في الأموال والأرواح .

وكان الحكم في البلدان العربية للنظام القبلي ، وأفراد القبيلة لايسألون من يستنصرهم بل يهبون جميعاً لنصرته ضد أعدائه وشعارهم في ذلك :

« انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » .

وقول الشاعر :

لايسألون أخاهم حين يندبهم
في النائبات على مافال برهاناً

لقد قامت للعرب ممالك في كل من اليمن والعراق والشام ، لكنها كانت ممالك هزيلة ضعيفة ، وكان الملك العربي كعصفور في قفص ذهبي لايستطيع أن يخرج منه إلا بأمر يصدر عن كسرى أو هرقل .

فالفرس كانوا يستعينون بالعرب اللخميين ، في حين كان الرومان يستعينون بالعرب من آل جفنة — الغساسنة — ، وإذا نشبت حرب بين الرومان والفرس كان الغساسنة يقاتلون المناذرة ، ولاخيار لهم بذلك ، وعندما اعتذر النعمان بن المنذر لكسرى لأنه لايستطيع تنفيذ ماأمره به ، غضب عظيم الفرس ففر ملك الحيرة رهبة وخوفاً ، وطاف القبائل العربية طالباً المنعة ، فأبوا عليه خوفاً من كسرى .

واضطر النعمان بن المنذر إلى الإستسلام ، فأودع أهله وماله عند هانيء بن مسعود الشيباني ، ثم توجه إلى كسرى ووقف ذليلاً ببابه يطلب منه أن يغفر له ذنبه فما كان من طاغوت الفرس إلا أن قيده وسجنه حتى مات ، ثم استعمل مكانه إياس بن قبيصة الطائي عاملاً له على الحيرة (٩) .

أما شبه الجزيرة العربية فكانت تقوم بها دويلات صغيرة ثم تنهار بعد زمن يسير لأنها تفتقد مقومات الدولة ، ولو كان في هذه البلاد نفع لما تردد الفرس أو الرومان في احتلالها والسيطرة عليها .

---

٩ — الكامل في التاريخ لابن الأثير : ١ / ٤٨٢ .

ومايوم « ذي قار » في تاريخ العرب إلا حدث طارىء ، لم يسبقه إعداد ولاتخطيط ، بل ولم يكن انطلاقة جديدة ثم عاد العرب بعده إلى سبات نومهم العميق ، ولهذا قال يزدجرد لرسول سعد بن أبي وقاص :
« إني لأعلم في الأرض أمة كانت أشقى ولاأقل عدداً ولا أسوأ ذات بين منكم ، قد كنا نوكل بكم قرى الضواحي ليكفوناكم ، ولاتغزوكم فارس ، ولاتطمعون أن تقوموا لهم . فإن كان عددكم كثر فلايغرنكم منا ، وإن كان الجهد دعاكم فرضنا لكم قوتاً إلى خصبكم وأكرمنا وجوهكم وكسوناكم وملكنا عليكم ملكاً يرفق بكم » (١٠) .

الأمراض الإجتماعية والخلقية :

من الأمراض التي كانت مستشرية في المجتمع الجاهلي شرب الخمر ، فهي لاتفارق التجار في أسفارهم ، ولاعامة الناس في نواديهم وحفلاتهم ، وتكاد لاتخلو أشعارهم من التغني بها وذكر أوصافها . قال حاتم الطائي :

إذا مابت أشرب فوق رِيٍّ ... لسكر في الشراب فلا رَوِيتُ(١١)

وقال عمرو بن كلثوم :

ألا هبي بصحنك فأصبحينا ... ولاتبقي خمور الأندرينا
مشعشعة كأن الحصى فيها ... إذا ما الماء خالطها سخينا
صددت الكأس عنا أم عمرو ... وكان الكأس مجراها اليمينا(١٢)

وكان الزنا متفشياً بين القبائل . « عن عروة بن الزبير عن عائشة زَوْجَ النبي ﷺ أخبرته أنَّ النِّكاحَ في الجاهلية كان على أربعة أنحاء (١٣) :

---

١٠ ـــ البداية والنهاية ٧ / ٤١ .
١١ ـــ ديوان حاتم الطائي ص ٤٢ ، دار المسيرة ، بيروت .
١٢ ـــ معلقة عمرو بن كلثوم النونية المشهورة .
١٣ ـــ أنحاء : أي أنواع .

فنكاحٌ منها نكاحُ الناس اليوم ، يخطب الرجل إلى الرجل وَلِيَّتَهُ أو ابنته فَيُصْدِقُها (١٤) ثم ينكحها . ونكاح آخر : كان الرجل يقول لامرأته : إذا طهرت من طمثها (١٥) أرسلي إلى فلان فاستبضعي (١٦) منه ، ويعتزلها زوجها ولايمسها أبداً حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه ، فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب ، وإنما يفعل ذلك رغبة في نجابة (١٧) الولد ، فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع .

ونكاح آخر : يجتمع الرَّهطُ مادون العَشَرَةِ فيدخلون على المرأة كلهم يصيبها (١٨) فإذا حملت ووضعت ومرَّ ليال بعد أن تضع حملها أرسلت إليهم فلايستطِعْ رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها ، تقول لهم : قد عرفتم الذي كان من أمركم وقد وَلَدْتُ فهو ابنكَ يافلان ، تسمي من أحبت باسمه فيلحق به ولدها ، لايستطيع أن يمتنع به الرجل .

ونكاحُ الرابع : يجتمع الناس الكثير فيدخلون علي المرأة لاتمنع من جاءها ، وهن البغايا كن ينصبن على أبوابهن رايات تكون عَلَماً لمن أرادهن دخل عليهن .

فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها جمعوا لها ودعوا لهم القافة (٢٠) ثم ألحقوا ولدها بالذي يرون فالْتاطَتْهُ (٢١) به ، ودعي ابنه ، لايمتنع من ذلك . فلما بعث محمد ﷺ بالحق هدم نكاح الجاهلية كله إلا نكاح الناس اليوم . » (٢٢) .

---

١٤ ــ يصدقها ثم ينكحها : أي يعين صداقها ثم يعقد عليها .
١٥ ــ طمثها : أي حيضها .
١٦ ــ أي اطلبي الجماع منه .
١٧ ــ قوله وإنما يفعل ذلك رغبة في في نجابة الولد : أي اكتساباً من ماء الفحل لأنهم كانوا يطلبون ذلك من أكابر رؤسائهم في الشجاعة أو الكرم أو غير ذلك .
١٨ ــ قوله كلهم يصيبها : أي يطؤها والظاهر أن ذلك إنما يكون عن رضا منها وتواطىء بينهم وبينها .
١٩ ــ البغايا : الزانيات ، الفاجرات ، والراية : العلامة .
٢٠ ــ القافة جمع قائف وهو الدي يعرف شبه الولد بالوالد بالآثار الخفية . [النهاية في غريب الحديث ٤ / ١٢١ ، ويراجع كتب اللغة مادة قوف] .
٢١ ــ فالتاطته ، في رواية الكشميهني : فالتاط ، أي استلحقته به وأصل اللوط بفتح اللام اللصوق .
٢٢ ــ رواه البخاري في صحيحه ، كتاب النكاح ، انظر فتح الباري ١١ / ٨٨ الحلبي .

ومن الأمراض التي كانت منتشرة عند بعض العرب في جاهليتهم وأد البنات وقتل الأولاد خشية العار أو الفقر . قال تعالى :
﴿ وإذا الموءودة سئلت بأي ذنب قتلت ﴾ (٢٣) .

وقال تعالى :
﴿ ولاتقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطئاً كبيراً ﴾ (٢٤) .

وقال تعالى :
﴿ ولاتقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقكم وإياهم ﴾ (٢٥) .

وكان أهل الحجاز يتعاطون الربا ، وكانوا لايرون فرقاً بين الربا والتجارة . قال تعالى :
﴿ قالوا إنما البيعُ مثلُ الرِّباَ ﴾ ، وكانوا من المطففين الذين ينقصون الكيل والميزان . قال تعالى :
﴿ ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ﴾ (٢٦) .

وكان الرجل في الجاهلية يقامر على أهله وماله فيقعد حزيناً سليباً ينظر إلى ماله في يد غيره ، فكانت تورث بينهم عداوة وبغضاً (٢٧) ... واستمرت مثل هذه العادات القبيحة حيناً من الزمن بعد بعثة المصطفى ﷺ ، ثم نزل قوله تعالى :
﴿ ياأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ، إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون ﴾ (٢٨) .

---

٢٣ ــ سورة التكوير ، الآيتان : ٨ و ٩ .
٢٤ ــ سورة الإسراء ، الآية : ٣١ .
٢٥ ــ سورة الأنعام ، الآية : ١٥١ .
٢٦ ــ سورة المطففين ، الآيات : ١ و ٢ و ٣ .
٢٧ ــ انظر تفسير الطبري ٧ / ٣٢ ــ ٣٥ لقوله تعالى : ﴿ إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء ... ﴾ .
٢٨ ــ سورة المائدة ، الآية : ٩١ .

فانتهى المسلمون طاعة لله واذعاناً لأمره .

الحالة الدينية :

روى ابن جرير عن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول لأكثم ابن الجون :

« ياأكثم رأيت عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف يجر قُصْبَه (٢٩) في النار فمارأيت رجلاً أشبه برجل منك به ولابه منك » . فقال أكثم : أتخشى أن يضرني شبهه يارسول الله ؟! فقال رسول الله ﷺ :

« إنك مؤمن وهو كافر ، إنه أول من غير دين إبراهيم ، وبحر البحيرة ، وسيب السائبة ، وحمى الحامي » (٣٠) . والبحيرة هي الناقة تشق أذنها فلايركب ظهرُها ولايُجَزّ وَبَرُها ، ولايشرب لبنها إلا ضيف أو يتصدق به ، وتهمل لآلهتهم .

والسائبة : التي ينذر الرجل أن يسيبها إن بَرِىءَ من مرضه ، أو إن أصاب أمراً يَطْلُبه . فإذا كان أساب ناقة من إبله أو جملاً لبعض آلهتهم ، فسابت فَرَعَتْ لاينتفع بها .

والوصيلة : التي تلد أمها اثنين في كل بطن ، فيجعل صاحبها لآلهته الإناث منها ولنفسه الذكور منها ، فتلدها أمها ومعها ذكر في بطن ، فيقولون : وصلت أخاها . فَيُسيَّب أخوها معها فلاينتفع به (٣١) .

ثم انتشرت عبادة الأصنام بين العرب في جزيرتهم ، وعمت قراهم وقبائلهم ، وأصبحت جزءاً لايتجزأ من تقاليدهم وعقائدهم ... عن أبي رجاء العُطارِديِّ قال :

« كنا نعبد الحجر فإذا وجدنا حجراً هو أخْيَرُ منه ألقيناه وأخذنا الآخر فإذا

---

٢٩ ـــ قصبه : أي أمعاءه .

٣٠ ـــ رواه ابن جرير ٧ / ٥٦ ، وابن إسحاق كما في السيرة النبوية لابن هشام ١ / ٧٨ ـــ ٧٩ ، وإسناده حسن ، والحاكم ٤ / ٦٠٥ وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي من طريق آخر عن أبي هريرة وسنده حسن . فالحديث صحيح .

٣١ ـــ سيرة ابن هشام ١ / ٨٩ ـــ ٩٠ ، مطبعة البابي الحلبي .

لم نجد حجرا جمعنا جُثْوَةَ من تراب ثم جئنا بالشاة نحلبها عليه ثم طفنا به . فإذا دخل شهر رجب قلنا مُنصِّلُ الأسنَّةِ فلاندع رمحاً فيه حديدةٌ ولاسهماً فيه حديدةٌ إلا نزعناه وألقيناه شهر رجب » [٣٢] .

واتخذ أهل كل دار في دارهم صنماً يعبدونه ، فإذا أراد الرجل منهم سفراً تمسّح به حين يركب ، فكان ذلك آخر مايصنع حين يتوجه إلى سفره ، وإذا قدم من سفره تمسّح به فكان ذلك أول مايبدأ به قبل أن يدخل على أهله فلما بعث الله رسوله محمداً ﷺ بالتوحيد ، قالت قريش : أجعل الآلهة إلهاً واحداً ، إن هذا لشيء عجاب .

وكانت العرب قد اتخذت مع الكعبة طواغيت وهي بيوت تعظمها كتعظيم الكعبة ، لها سدنة وحُجّاب ، وتُهْدي لها كما تُهْدي للكعبة ، وتطوف بها كطوافها بها وتنحر عندها . وهي تعرف فضل الكعبة عليها ، لأنها كانت قد عرفت أنها بيت إبراهيم الخليل ومسجده [٣٣] .

وكان في جوف الكعبة وفي فنائها ثلاثمائة وستون صنماً . قال الكلبي : كان الرجل إذا نزل منزلاً أخذ أربعة أحجار ، فنظر إلى أحسنها فاتخذه رباً ، وجعل ثلاث أثافي لقدره ، وإذا ارتحل تركه [٣٤] .

وهذه الأصنام كانت واسطة بينهم وبين الله سبحانه وتعالى . قال تعالى : ﴿ والذين اتخذوا من دونه أولياء مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ [٣٥] .

وكان من العرب من يعبد الجن والملائكة ، لأن الملائكة في زعمهم بنات الله ، والجن شركاؤه ... وأنكر العرب في جاهليتهم البعث والنشور ، وزعموا أن لاحياة بعد الموت . قال تعالى :

---

٣٢ ـــ رواه البخاري في صحيحه ، باب وفد بني حنيفة ، انظر فتح الباري ٩ / ١٥٣ البابي الحلبي . والجثوة : القطعة من التراب تجمع فتصير كوماً ، ويحلبون عليه لتصير نظير الحجر . والمنصل : نزع الحديد من السلاح لأجل شهر رجب إشارة إلى تركهم القتال لأنهم كانوا ينزعون الحديد من السلاح في الأشهر الحرم . عن فتح الباري ٩ / ١٥٣ .

٣٣ ـــ سيرة ابن هشام ١ / ٨٣ البابي الحلبي .

٣٤ ـــ كتاب الأصنام للكلبي ص ٣٣ .

٣٥ ـــ سورة الزمر ، الآية ٣ .

﴿ هيهات هيهات لما توعدون ، إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ومانحن بمبعوثين ﴾ (٣٦) .

وقال تعالى :
﴿ إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ومايهلكنا إلا الدهر ﴾ (٣٧) .

وأنكروا رسالة محمد ﷺ . قال تعالى :
﴿ أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم قال الكافرون إن هذا لساحر مبين ﴾ (٣٨) .

وهناك قلة من العرب كانوا يدينون بالنصرانية كآل جفنة ــ أي الغساسنة ــ في بلاد الشام ، وعرب شمال اليمن ، أما العرب اللخميون في العراق فقد تأثروا بعقائد الفرس وتصوراتهم . (٣٩) .

ومهما قال الأدباء والمؤرخون في وصف تلك الفترة ، فإنه لايساوي شيئاً مما أخبرنا به العليم الخبير في كتابه الكريم :
﴿ ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون ﴾ (٤٠) .

لقد عم الفساد أرجاء المعمورة ، لافرق في ذلك بين سكان البر أو سكان الجزر ، وكره سبحانه وتعالى أهل الأرض بما كسبت أيديهم من جرائم ومعاصي وذنوب . قال ﷺ :
« إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم ، عربهم وعجمهم ، إلا بقايا من أهل كتاب » (٤١) .

---

٣٦ ــ سورة المؤمنون ، الآيتين : ٣٦ و ٣٧ .
٣٧ ــ سورة الجاثية ، الآية : ٢٤ .
٣٨ ــ سورة يونس ، الآية : ٢ .
٣٩ ــ رغم كل ماذكرناه عن سلبيات العرب الجاهليين ، فلقد امتازوا عن غيرهم من الأمم بصفات نادرة : كالمروءة ، والشجاعة ، وإغاثة الملهوف ، وإقراء الضيف ، والصراحة في القول ، وكانوا يكرهون الذل ، ويوفون بالعهد ، ويضحون بالمال والأرواح في سبيل عقائدهم وتقاليدهم ، ولنا عودة إلى هذا الموضوع في الجزء الثاني من هذا البحث إن شاء الله تعالى .
٤٠ ــ سورة الروم ، الآية : ٤١ .
٤١ ــ رواه مسلم في صحيحه ٤ / ٢١٩٧ كتاب الجنة ص ٦٣ ــ طبعة عبد الباقي ، وأحمد في مسنده ٤ / ١٦٢ .

وفي قوله ﷺ : « بقايا من أهل كتاب » إشارة إلى قلتهم ، وتفرقهم وتباعد ديارهم ، ولم يقل ﷺ « إلا أهل كتاب » لأنهم جحدوا نبوة محمد ﷺ ، وغيروا أصول دينهم ، وأشركوا بالله مالم ينزل به سلطاناً .

ومن هؤلاء القلة كان النجاشي الذي أحسن وفادة المسلمين ، وآمن بنبوة محمد ﷺ .

وينزل الغيث من بعد ماقنطوا

بعث الله سبحانه وتعالى عبده محمداً ﷺ بالهدى ودين الحق بعد أن قنط الناس من رحمة الله تعالى ، واستمرأوا عبادة الأصنام والأوثان .

أتيت والناس فوضى لاتمر بهم
إلا على صنم قد هام في صنم
مسيطر الفرس يبغي في رعيته
وقيصر الروم من كبر أصمُّ عمي (٤٢)

واتجه ﷺ في بداية الدعوة إلى تربية الفرد وإعداده ، ونجح في تربية من استجاب له من أهل مكة نجاحاً لانظير له ... وكان ﷺ قدوة حسنة لأصحابه : في الشجاعة ، والمروءة ، والصدق ، والعفة ، والزهد ، والصبر على الأذى ، وفي كل أمر من أمور حياتهم ... لهذا فقد أحبوه ، وفدوه بأنفسهم وأموالهم ، وكانوا إذا أمرهم ابتدروا أمره ، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه ، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده (٤٣) .

لقد دخلوا رضوان الله عليهم في السلم كافة بقلوبهم وجوارحهم وأرواحهم ، فكانوا لايعصون للرسول أمراً ، ولايجدون في أنفسهم حرجاً مما قضى .

---

٤٢ ــ الشوقيات لأحمد شوقي .
٤٣ ــ قال هذا القول عروة بن مسعود الثقفي لأصحابه بعدما رجع من صلح الحديبية ، زاد المعاد ٣ / ١٢٥ ، واستفدت مما كتبه الندوي في كتابه [ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين] .

ويعجز القلم عن وصف تربية محمد ﷺ لأصحابه ، وقدرته على تهيئتهم وإعدادهم ليكونوا خير أمة أخرجت للناس ، وحسبك دليلاً على ذلك أنه قد تخرج من مدرسة هذا النبي الأمي ﷺ :
الخلفاء الراشدون ، والولاة الزاهدون ، والقادة العسكريون الذين يعدون من أكبر الفاتحين في التاريخ وأشجعهم وأعلمهم بأمر القتال وتعبئة الجيوش وإدارة رحى الحروب .

كما تخرج من هذه المدرسة العظيمة كبار أئمة الفقه والحديث الذين رووا سنن الإسلام وأحكامه ... فأية مدرسة هذه المدرسة ، وأية تربية هذه التربية ؟!

وعندما أذن الله جلَّ وعلا لرسوله ﷺ بالقتال ، كان السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار طليعة هذا الجيش الذي هزم أعداء الله في بدر والأحزاب وحنين وخيبر وغيرها من معارك الإسلام الخالدة .

وبمثل هذا الإعداد جاءه ﷺ نصر الله والفتح ففتح مكة وحطم مابها من أصنام ، ووحد الجزيرة العربية ، ودخل الناس في دين الله أفواجاً .

لقد نجح ﷺ في نقل العرب من الفرقة إلى الوحدة ، ومن الظلم إلى العدل ، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله وحده لاشريك له .

ونجح ﷺ في نقل العرب من الجهل إلى العلم ، ومن الفوضى إلى النظام ، وسنَّ عليه أفضل الصلاة والتسليم المساواة بين الناس ، لافرق في ذلك بين غني وفقير ، ولابين أسود وأبيض إلا بالتقوى .

وبعد سنين قليلة من وفاة الرسول ﷺ نجح صاحباه — أبو بكر وعمر — رضي الله عنهما في القضاء على الردة ، وفي الإطاحة بإمبراطوريتي الفرس والرومان ، وسيطر المسلمون على معظم بلدان العالم ، وساس رعاة الإبل مملكة لم يحلم بها قيصر من قبل أو كسرى . ومن الأمور التي لاعهد للناس بها من قبل أن حياة الخلفاء والولاة والقادة لم تتغير بعد أن دانت لهم الممالك ، وبعد أن هزموا الجبابرة والمتألهين ...

كانوا رضوان الله عليهم يلبسون الثياب الخشنة ، ويتسكنون الأكواخ والبيوت المتواضعة ، ويخشون أن يظلم أحد من رعيتهم وهم لايدرون .

حقا إن تاريخ البشرية لم يعرف رسولاً ومصلحاً ومجدداً كمحمد ﷺ . قد ينجح حاكم مستبد في تضييق الخناق على رعيته ، وفي فرض نظامه عليهم بقوة الحديد والنار ، لكنه لن ينجح في تطهير قلوبهم من الكفر والشرك والنفاق ، ونفوسهم من الغرور والفسوق والعصيان ، أما محمد ﷺ فقد استل الرذائل من قلوب الأفراد ، ووحدت دعوته العالم ، ورد للإنسان إنسانيته ، ورحم الله من قال :

أتطلبون من المختار معجزة
يكفيه شعب من الأجداث أحياه

من وحد العرب حتى كان واترهم
إذا رأى ولد الموتور آخاه *



* ـــ انظر ديوان صرخة في واد ، قصيدة وقفة على طلل للشاعر محمود غنيم .

الفصل الثاني

العالم اليوم

أولاً ـــ النصارى :

غيَّر النصارى كتابهم المنزل بكتب أخرى متناقضة ، واستبدلوا دينهم الذي جاء به المسيح عليه السلام بدين آخر صنعه قسطنطين وهرقل وغيرهما من حكام الرومان المتجبرين ، وعندما صدع المصطفى ﷺ بدعوة الحق ، جحدوا نبوته ، وزعموا بأن المسيح عليه السلام لم يرد على لسانه ذكر أحمد ﷺ ، وكانوا في ذلك من الكاذبين .

هذه هي أحوال النصارى قبل البعثة النبوية وبعدها ، أما أحوالهم في القرون الوسطى فيحدثنا عنها الراهب [جروم] فيقول :
« إن عيش القسوس ونعيمهم كان يزري بترف الأمراء والأغنياء المترفين ، وقد انحطت أخلاق البابوات انحطاطاً عظيماً واستحوذ عليهم الجشع وحب المال وعدوا طورهم ، حتى كانوا يبيعون المناصب والوظائف كالسلع ، وقد تباع بالمزاد العلني ، ويؤجرون أرض الجنة بالوثائق والصكوك وتذاكر الغفران ، ويأذنون بنقض القانون ، ويمنحون شهادات النجاة وإجازات حل المحرمات والمحظورات كأوراق النقد وطوابع البريد ، ويرتشون ويرابون ، وقد بذروا المال تبذيراً حتى اضطر البابا [أنوسنت الثامن] أن يرهن تاج البابوية . ويذكر عن البابا [ليو العاشر] أنه أنفق ماترك البابا السابق من ثروة وأموال ، وأنفق نصيبه ودخله ، وأخذ إيراد خليفته المترقب سلفاً وأنفقه ، ويروى أن مجموع دخل مملكة فرنسا لم يكن يكفي البابوات لنفقاتهم وإرضاء شهواتهم »
أما موقف رجال الدين من العلم والإكتشافات العلمية ، فلقد استحلوا دماء العلماء ، وأنشأوا محاكم التفتيش ، وأحصوا على الناس أنفاسهم ، وبلغ عدد الذين عاقبتهم هذه المحاكم ثلاثمائة ألف ، أحرق منهم اثنان وثلاثون ألفاً أحياء

كان منهم العالم الطبيعي المعروف [برونو] ، والعالم الشهير [غاليلو] لأنه كان يعتقد بدوران الأرض حول الشمس (٤٤) .

وكانت مثل هذه المواقف سبباً مهماً في ثورة المجددين النصارى بعد أن نفذ صبرهم ، كما كانت سبباً في اتجاه الغرب إلى المادية ، ونفوره من الكنيسة ورجالها ، ثم انتهى بهم هذا الطريق إلى الزندقة والإلحاد .

لقد انهزمت الكنيسة اليوم في عقر دارها — أوربا — وأصبحت أداة طيعة يستخدمها ساسة الغرب كما يستخدم جيوشه ومخابراته ، ويحدثنا عن هذه الظاهرة مطران بيروت للروم الكاثوليك — غريغوار حداد — فيقول :

« ... وأعترف أنه ليس كل ماكتبه المسيح قد وصل إلينا .. والذي كتب قد كتب بلغة مر عليها الزمن ، والذي بين أيدينا ناقص كمياً ونوعياً .

وقال أيضاً :

إن تعاليم المسيح ضاعت لسوء استغلال الكنيسة لها ، ولأنها احتكرت المسيح كما تحتكر أية شركة تجارية صنفاً من الأصناف ، أو كما تحتفظ دار نشر بحقوق الطباعة على أحد المؤلفات ، وصار المسيح — أسير الكنائس ورهينتها — محجوزاً عليه من قبلها ، لايصل إليه أحد إلا بواسطتها .

وبما أن الكنائس أصبحت مرفوضة أكثر فأكثر في عالم اليوم من الذين هم في الخارج بل في الداخل ، أصبح المسيح مرفوضاً معها .

وقال :

إن الإستعمار الغربي والمسيحية تلازمتا معاً ضد الحضارة والقيم الإنسانية ، لذا أطالب بتحرير القيم الإنسانية من سيطرة القيم المعتبرة مسيحية وجعلها مشاعاً للعالم ... إن معركة تحرير المسيح من الكنيسة بدأت مع [الهيبيين] الذين أطلقوا ثورة يسوع في الولايات المتحدة الأمريكية ، وامتدت إلى بلدان عديدة شاملة الماركسيين الذين يفتشون عن اشتراكية ذات وجه انساني كالفيلسوف الفرنسي روجيه غارودي (٤٥) .

---

٤٤ — ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، أبو الحسن الندوي ص ١٧٢ و ١٧٣ .

٤٥ — الفيلسوف الفرنسي روجيه غارودي تخلى عن الإشتراكية وأعلن إسلامه .

وقال :
إن النظام الكنسي ذاته ، إذا كان يحول دون وصول المسيح إلى الأمة كلها فعلى هذا النظام أن يزول ، وعلى الكنيسة المؤسسة أن تموت ، وينبغي كف وضع اليد الذي مارسته المسيحية على المسيح » (٤٦) .

قال غريغوار حداد هذا الكلام في محاضرة ألقاها في قاعة المحاضرات بمدرسة الفرنسيسكان في بيروت ، وقد استمع إليه أكثر من ألفي شخص ، وتناقلت صحف لبنان وغيرها أخبار هذه المحاضرة وماأثارته من ردود فعل .

ويقال أن غريغوار حداد حوكم فيما بعد أمام بابا الفاتيكان ، ورغم ذلك كله بقي مطراناً للروم الكاثوليك في بيروت .

نعم لقد احتكرت الكنيسة المسيح عليه السلام كما تحتكر أية شركة تجارية صنفاً من الأصناف ، وصار القول عندهم ماتقوله الكنيسة وليس مايقوله المسيح عليه السلام ... فبولس السادس عندما أصبح بابا للفاتيكان صدر عنه تصريح أعلن فيه تبرئة اليهود من دم المسيح [وهو حق أراد به باطلاً] وكذّب أصول دينه التي يتناقلها النصارى جيلاً بعد جيل ... وعندما زار القدس سنة ١٩٦٤ م قال مخاطباً اليهود :
« إن الصراع الدامي بين المسيحية واليهود قد انتهى »

واستغرب الناس مواقف بولس السادس التي تتعارض مع عقيدة صلب المسيح التي يؤمن بها النصارى والتي تخالف صريح القرآن الكريم ، وهل المسألة مرسوم عسكري يُلغى بمرسوم عسكري آخر ، وماذا وراء نفاق البابا لليهود ؟!

غير أن الأخبار (٤٧) جاءت تكشف صفحات كالحة من تاريخ البابا بولس السادس ، ومن بين هذه الأخبار نختار مانشرته وكالة رويتر :
« نسبت مجلة بانوراما الأسبوعية إلى العميل [فكتور مارتشيستي] الذي وصف بأنه كان مسؤولاً كبيراً في وكالة الإستخبارات المركزية قبل أن يتركها في عام ١٩٦٩ م قوله :

---

٤٦ ــ انظر الصحف اللبنانية الصادرة في ١٢ مارس ١٩٧٤ م .

٤٧ ــ أطلعني أحد الأصدقاء على كتاب مهم يكشف فضائح كبار رجال الكنيسة في الفاتيكان وفيه معلومات وأرقام مذهلة ، وهو كتاب : In God's Name.

إن البابا الذي كان يعرف آنذاك باسم [الكاردينال جيوفاني باتسيتا مونتيني] كان واحداً من عدة أساقفة وكاردينالات تلقوا أموالاً من وكالة الإستخبارات المركزية . وامتنع ناطق بلسان الفاتيكان عن التعليق على النبأ حتى الآن ، لكنه أشار إلى أن [مارتشيستي] نفسه اعترف في المقابلة بأن الكاردينال — أي البابا بولس السادس — ربما لم يكن مدركاً لمصدر هذه الأموال » (٤٨) .

ومن الملاحظ أن الناطق بلسان الفاتيكان لم يجرؤ على إنكار الخبر ، لكنه تمسك بقول [مارتشيستي] ربما لم يكن البابا مدركاً لمصدر هذه الأموال !!

ومثل هذا الزعم لايقبله عاقل منصف لأن رجل النصارى الأول ليس ساذجاً أو أبله ، ولايستحق مثل هذا المنصب إلا من كان داهية خبيراً يعرف مع من يتعامل وكيف يتعامل .

إن الصليبية اليوم تلفظ أنفاسها الأخيرة ، ومنذ القرون الوسطى وهي تلقى مقاومة عنيفة في عقر دارها ، وقد تنكر لها رجال الفكر والغالبية العظمى من الشباب ، ويكفي أن نعلن أنه في إنجلترا وحدها أغلقت [٥٠٠٠] كنيسة منذ الحرب العالمية الثانية ، وتحولت الشهيرة منها إلى مسارح تمثل فيها فرقة [الملكة إليزابيث] .

ومما يجدر ذكره أن هذا الرقم كان قبل عشر سنين ، وخلال هذه الفترة تضاعف عدد الكنائس التي أغلقت أو بيعت .

وفوق ذلك كله لقد أقبل الشباب النصارى في ديار الغرب على اعتناق الشيوعية أو البوذية والبهائية ، ومنذ أكثر من ربع قرن وزعماء الغرب يتدارسون ويبحثون عن السبل التي تبعد عنهم خطر الشيوعية والإشتراكية التي اكتسحت فرنسا وإيطاليا واليونان ودولاً أخرى ، ومما يدمي القلب أن رجال الدين النصارى الذين انهزموا في عقر دارهم ينشطون في الدعوة إلى أفكارهم ومبادئهم في بلاد المسلمين ، ويجدون من يستجيب لهم ولله الأمر من قبل ومن بعد .

---

٤٨ — لقد فاتني ذكر تاريخ اليوم الذي صدرت فيه وكالة رويتر وأرجو أن أوفق إلى ذلك في طبعة قادمة إن شاء الله .

ثانياً ــ صور من الوثنية المعاصرة :

هناك أكثر من [٢٠٠٠] مليون من البشر ! نعم من البشر !! في جنوب آسيا وشرقها ، وفي وسط إفريقيا وجنوبها وغربها ، وفي قارة أمريكا وغيرها ... هؤلاء البشر يعتنقون عقائد عجيبة غريبة . فإله الهندوس يتألف من ثلاثة آلهة :

١ ــ شخص الإله وهو أحمر اللون له أربعة رؤوس كان يسبح في البيضة ثم كسرها فأخرج من نصفها السماء ، ومن نصفها الآخر الأرض ، والتحق قسم منه بأحد النصفين ، والقسم الثاني بالآخر ، فالقسم الأول منه أصبح ذكراً والآخر أنثى ، ومن القسمين خلق الإنسان والحيوان والكون ، وبعد أن أتم الخلق انسحب وأصبح بعيداً ولذلك فإن عبادته خفت وتضاءلت .

٢ ــ فيشنو : كان يحلق في السماء على أجنحة طائر سحري وهو شعبي وله أثره عند المتعبدين ، ويعتقد أنه ينقذ الأرواح بالتقمص ، وله تقمصات عديدة وثامن تقمص له هو كريشنا ذلك الإله الجذاب الذي يعيش حياة شعرية تشبه الأغنية .

٣ ــ شيفا : هو إله الموت والخصب ، وفي يده إماتة الطبيعة وإخصابها وهو غريب في أطواره ، قاسي وشهواني يتنعم تارة ويتنزه أخرى (٤٩) .

وهناك أكثر من [٦٠٠ مليون] إنسان في الهند يقدسون البقر ، ويحرمون ذبحه أو ضربه ، وكم من المذابح أوقعها الهندوس بالمسلمين لأنهم ذبحوا بقرة ، ويدين بهذه العقيدة الغريبة زعماء يُجلّهم الناس في كل مكان من العالم أمثال غاندي ونهرو ، وتتصدى صحف مشهورة في الهند لتدافع عن أسرار تعظيم الهندوس للبقر . جاء في افتتاحية صحيفة [أوزجانايزر] الهندوسية :

« إن عدداً من المشكلات الوطنية تحل ــ أوتوماتيكياً ــ إن حرمنا ذبح البقر ... ولقد كتب كثيرون يعربون عن عجبهم من اهتمامنا بالبقرة بينما يتعرض الإنسان للموت ، وكان جوابنا : نحن نقول بأن الإنسان يتعرض للموت لمجرد أنه عرض البقرة للجوع » (٥٠) .

---

٤٩ ــ آمال في تاريخ الأديان للدكتور يوسف العش ص : ٢٤ .

٥٠ ــ انظر عدد الصحيفة الصادر بتاريخ ١١ ديسمبر ١٩٦٩ م .

وفي سنة ١٣٩٤ هـ طرح على مجلس الأمة في الهند مشروع يقضي بجواز ذبح البقر أو تصديره إلى الخارج ، وجاء هذا المشروع كحل للمجاعة التي تعانيها الهند ، ولكن عبَّاد البقر وقفوا بعنف يدافعون عن معبودهم ، وسقط المشروع لأن الهندوس يمثلون الأكثرية في المجلس ، ولو نجح المشروع لحلَّ مشكلة المجاعة ولكن الهندوس لايقبلون بهذا وشعارهم في ذلك : الموت لنا فداء للبقر .

ولاتقل عقائد البوذيين والسيخ غرابة عن عقائد الهندوس .

ثالثاً ــ الشيوعية :

من الأصول التي ينادي بها الشيوعيون مايلي :

ــ إنكار وجود الله تعالى عن ذلك علواً كبيراً .
ــ لايؤمنون بالأديان ولا بالغيبيات ، وكل دين مخدر للشعوب .
ــ المادة أزلية وهي أساس الحياة .
ــ الفكر انعكاس المادة على الدماغ .
ــ الأحداث السياسية والإجتماعية والأخلاقية انعكاس للأحداث الإقتصادية .
ــ لابد من صراع دام بين طبقات المجتمع .
ــ يجب تحرير المرأة من القيود الماضية كلها ، ثم توضع في مجتمع جديد وتأخذ لقاحها من أي رجل تريده ، وبعد أن يستوي هذا اللقاح تقدمه للدولة بدون عنوان خاص يحمله .
ــ إلغاء الملكية الفردية وشعارهم في ذلك : من كل حسب طاقته ولكل حسب حاجته (٥١) .

وكان اليهود وراء تأسيس الشيوعية ، فمؤسس الشيوعية [ماركس] حفيد للحاخام مردخاي ماركس ، وتلميذ لليهودي [موسى هس] صاحب كتاب [روما والقدس] وقد اقترح فيه إنشاء دولة يهودية في فلسطين .

ومن أقطاب الشيوعية اليهود الذين ساهموا في تأسيس هذا الفكر :

---

٥١ ــ لاينكر الشيوعيون هذه الأصول ، وأمهات كتبهم منتشرة في كل مكان ولهذا لم أتوسع في الحديث عنهم وذكر مصادرهم .

زينوفيف ، وكامينييف ، وتروتسكي ، وباكوف سفرولون ...

ويدين بهذه العقيدة حكام الإتحاد السوفياتي والصين الشيوعية ، ودول أوربا الشرقية ، وأحزاب في جميع بلدان العالم تعمل من أجل أن يكون العالم كله شيوعياً .

رابعاً ــ اليهود :

جحد اليهود نبوة محمد ﷺ ، وهموا بقتله ، ونقضوا عهودهم معه ، وألبوا عليه قبائل المشركين وجموع المنافقين ، ، فحاربهم ﷺ وأخرجهم من جزيرة العرب ، وأورث الله المؤمنين أرضهم وديارهم وأموالهم .

وغير مستغرب على الباحثين والمؤرخين موقف اليهود من الدعوة الإسلامية لأن الله سبحانه وتعالى بين لنا في كتابه الكريم كيف كانوا يقتلون أنبياء الله بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس ، ولهذا فقد استحقوا غضب الله سبحانه وتعالى ، وكتب عليهم الذلة والمسكنة ، ومسخهم فجعل منهم القردة والخنازير ، وحذّر جل وعلا المؤمنين في كل زمان ومكان منهم . قال تعالى : ﴿ لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ﴾ (٥٢) .

والذين يتصفحون كتب اليهود يجدونها مزدحمة بالأدلة على كفرهم بالله ، وشدة عداوتهم للمؤمنين ، وسوء أخلاقهم : فهم يؤمنون بتعدد الآلهة ، ورب اليهود عندهم أعظم من جميع الآلهة ، ويعتقدون أن داود عليه السلام زنى بزوجة أوريا ثم أمر بقتل زوجها وتزوجها بعد موته ، كما يعتقدون أن آمنون بن داود زنى بأخته تامار ، ويبيحون مضاجعة الإبن لزوجة أبيه ، ويزعمون أن هذه الأباطيل موجودة في التوراة . (٥٣) .

وجاء في التلمود الذي هو عندهم بمنزلة التوراة مايلي :

١ ــ المسيح مجنون وساحر ووثني وكافر والمسيحيون كفرة مثله .

٢ ــ إن الله يدرس التلمود منتصباً على قدميه .

---

٥٢ ــ سورة المائدة ، الآية : ٨٢ .

٥٣ ــ سفر الخروج اصحاح ١٨ : ١١ ، ١٠ : ٣ [عن كتاب جذور البلاء ، عبد الله التل ــ من ص ١٧ إلى ٢٤] .

٣ ــ إذا احتدم خلاف بين الله والحاخاميين فالحق مع الحاخاميين .
٤ ــ مباح تعاطي اللواط مع الزوجة لأنها بالنسبة للزوج كقطعة لحم اشتراها من الجزار وله الحق في أكلها مطبوخة أو مشوية حسب رغبته .
٥ ــ الأجانب ــ أي غير اليهود ــ كالكلاب ، والأعياد لبني إسرائيل وليست للأجانب والكلاب .
٦ ــ يحق لليهودي أن يغش الكافر وأن ينافق معه عند اللزوم (٥٤) .

وجاء في البروتوكول الرابع من بروتوكولات حكماء صهيون :
« لهذا السبب علينا أن نزرع الألغام لتهديم الإيمان ، وأن نمحو من عقول الغير مبادىء الله والروح ، وأن نبدل هذه المبادىء بحسابات رياضية ورغبات مادية » (٥٥) .

والدين عند اليهود شيء ثانوي ، والمهم أن يكون المرء قد وُلد من أبوين يهود . قال [ليو . ان . ليفي . رئيس جمعية بني بريت اليهودية] :
« لاتنشأ الصفة المميزة لليهودي عن دينه فحسب ... فإن الدين وحده لايكفي مطلقاً لتأليف الشعب ، ولايكفي مجرد اعتناق الديانة اليهودية إلى أن يصبح الإنسان يهودياً .
أما من الناحية الأخرى ، فإن اليهودي الذي يولد يهودياً يظل كذلك حتى ولو أبدل دينه بدين آخر » (٥٦) .

وقصارى القول : لايؤمن اليهود بالله ولابرسله وكتبه وملائكته واليوم الآخر ، ولايعتقدون بدين سماوي ، فدينهم مصالحهم وشهواتهم ، وينظرون إلى غيرهم من الناس نظرة احتقار وازدراء ، فهم السادة وغيرهم عبيد ، وهم العلماء وأصحاب المواهب ، وغيرهم جهلاء متخلفون .

واليهود وراء كثير من الأفكار والمذاهب الهدامة في العالم : منها الشيوعية ، والرأسمالية ، والعلمانية ، والوجودية والإباحية .

---

٥٤ ــ انظر جذور البلاء ، عبد الله التل ص ٧٩ ــ ٨٠ . ومما يجدر ذكره أن دائرة المعارف اليهودية تؤكد بأن الكتب الخمسة الأولى من الكتاب المقدس [العهد القديم] من تأليف النبي موسى كما تقول الأخبار اليهودية القديمة باستثناء ثماني آيات . عن كتاب السيرة النبوية للندوي ص ٣٢ ــ دار الشروق .
٥٥ ــ بروتوكولات حكماء صهيون .
٥٦ ــ اليهودي العالمي ، هنري فورد ، ص ٥٩ .

ومنها تنظيمات سرية باطنية ، تظهر تارة على شكل نادي رياضي كنوادي الروتاري ، وتظهر تارة أخرى على شكل تنظيمات سياسية عالمية منتشرة في جميع بلدان العالم ، وتضم معظم الزعماء والقادة كالحركة الماسونية .
ومنها البنوك والمصارف ومؤسسات النقد والإحتكار التي تتلاعب بالإقتصاد العالمي . ومنها المسارح ودور السينما والمطابع التي تنشر الكتب والصحف الماجنة الخليعة .

وحيثما حل اليهود فهم عناصر هدم وتخريب ، ولايستطيعون الحياة بسلام مع غيرهم من الأمم .

خامساً ـــ النواحي الإجتماعية والخلقية :

الأحوال الإجتماعية في عالمنا المعاصر ليست إلا انعكاساً للعقائد والتصورات الباطلة التي تحدثنا عنها في الصفحات الماضية من هذا البحث ، ولانعدو الصواب إذا قلنا : إن المادة من أهم أصنام هذا العصر .

إن عبادة المادة على سبيل المثال جعلت الرجل الغربي لايهتم إلا بذاته ، وعلى زوجته أن تعمل خارج المنزل كما يعمل ، وكذلك شأن ولده إذا بلغ سن الرشد ، وإذا كان من الممكن بقاء الزوجة مع زوجها في بيت واحد ، فالولد لايبقى ويخرج من بيت أبيه هائماً على وجهه يبحث عن بيت يأويه ، وعن عمل يكسب من ورائه قوت يومه .

لاأقول هذه حال كل أسرة في ديار الغرب ، وإنما هذه حال غالبية الأسر والنادر لاحكم له ... وهكذا تمر الأيام والشهور والأعوام أحياناً ولايلتئم شمل الأسرة ، وإن اجتمعوا فاجتماعهم جاف ليس فيه عواطف ومشاعر الأسرة الواحدة .

وقد يعلم الولد بمرض أبيه أو أمه في مأوى العجزى ولايزورهما ، ويلفظ الوالدان أو أحدهما أنفاسه الأخيرة دون أن يكون حوله أحد من أفراد أسرته .

وسوف نستعرض فيما يلي أهم الأمراض الإجتماعية التي نتجت عن تفكك الأسرة ، وخواء القلوب من الروح والخوف من الله سبحانه وتعالى :

١ ـــ **تجارة الرقيق الأبيض** :

البنت التي تخرج من بيت أهلها وهي في عنفوان شبابها ، ودون أن يكون لأحد من الناس رقابة عليها ، وكيف يراقبها من لايعرف معاني المروءة والشهامة والنخوة ؟!

هذه البنت التي ليس في قلبها مثقال ذرة من إيمان ، قد تجد أحسن عمل تعمله الإنتساب إلى شبكة من شبكات تجارة الرقيق الأبيض ـــ أي الدعارة ـــ التي تحرسها عصابات إرهابية مسلحة لها فروع في مختلف المدن الأوربية .

ويتضح من البيانات الإحصائية التي أصدرتها منظمة [فرق مقاومة تجارة الرقيق الأبيض] أن المكاسب التي يحققها زعماء شبكات الدعارة خلال عام وفي فرنسا وحدها [٣٠٠٠ مليون فرنك] أي [٢٣٠ مليون جنيه استرليني] .

وتكاد لاتوجد فتاة في السويد والدانمارك لاتعرف العلاقة الجنسية قبل الزواج ، وتبلغ عدد عمليات الإجهاض الناجمة عن العلاقات غير المشروعة في الدانمارك وحدها [٢٠,٠٠٠] في السنة ، ويتم ذلك تحت سمع السلطة وبصرها بل وبتشجيع منها [٥٧] .

وتستخدم أجهزة المخابرات الغربية والشرقية النساء الفاتنات في عمليات التجسس ، وتغدق عليهن الأموال الطائلة ، والخوف من الله وحده هو الذي يمنع المرء من السقوط في هذه الأوحال ، وكبار المسؤولين في هذه الدول لايعرفون شيئاً اسمه الخوف من الله .

ومن أشهر هذه الفضائح : بروفيمو ، ونورما ، وجون فيلبي ، وبلنت ، والديبلوماسيين الأمريكان ، وغيرها كثير جداً ، وكانت هذه الفضائح سبباً في انتحار بعض كبار الموظفين أو استقالتهم أو سجنهم .

٢ ـــ الهيبيون :

كفر الهيبيون بقيم أوربا وحضارتها ، لكنهم عالجوا الإنحراف بانحراف آخر فكفروا بالمبادىء والعقائد كلها سماوية كانت أو أرضية ، وأصروا على مخالفة قومهم في لباسهم وأخلاقهم وتصوراتهم ، ويرفضون كل أمر صادر عن

---

٥٧ ـــ جذور البلاء ، عبد الله التل ص ١٧٧ .

السلطة . نقلت وكالة رويتر في ١٣ ــ ٣ ــ ١٩٧٤ م الخبر التالي :
« شاعت في أمريكا مؤخراً التظاهرات العارية ... كان آخرها خروج أكثر من [١٥٠٠] من طلاب وطالبات جامعة [جورجيا] يركضون وهم عراة » (٥٨) .

٣ ــ الساديون :

نشروا الذعر في كل بيت من بيوت الأوربيين ، وروعوا الناس بجرائمهم التي ارتكبوها ، ولهم في لندن مسرح لاتقدم فيه إلا الأفلام الدموية ، ويغص المسرح كل يوم بالساديين من جميع أنحاء الأرض ، ومع أن الدماء التي تزهق اصطناعية وليست حقيقية ، والأمر تمثيل ، مع ذلك فالرواية ترضي نزعة الساديين الدموية وتريح أعصابهم (٥٩) .

٤ ــ اللواطة :

نظم المنحرفون في كندا مظاهرات في صيف ١٩٧٤ م ، وطالبوا الدولة بسن قانون بإباحة اللواطة ، واشتركت الأمهات في المظاهرات حتى لايتعقد أولادهن .

وأبيح الشذوذ الجنسي في بريطانيا ، وصدر قانون بذلك وافق عليه مجلس العموم البريطاني بأغلبية ١٦٤ صوتاً ضد ١٠٧ ، كما وافق عليه مجلس اللوردات بأغلبية ٩٤ صوتاً ضد ٤٩ .

وفي مطلع عام ١٩٧٤ م صدر قانون في السويد يجيز للأخ أن يتزوج أخته شريطة أن يكون أخاها لأمها أو لأبيها ، وليس للأبوين معاً (٦٠) .

٥ ــ كيف يعاملون أطفالهم ؟!

صدر تقرير عن جمعية حماية الطفولة العالمية في جنيف جاء فيه :

بلغ عدد الأطفال المعرضين للضرب أو الموت أو الخنق أو الحرمان من الأغذية في الولايات المتحدة الأمريكية [٦٠,٠٠٠] كل سنة ، وفي كندا

---

٥٨ ــ صحيفة أجيال : ٢٤ ــ ٣ ــ ١٩٧٤ م .
٥٩ ــ مجلة الأسبوع العربي : ٧ ــ ٦ ــ ١٩٦٥ م .
٦٠ ــ صحيفة أخبار الكويت : ٢ ــ ٤ ــ ١٩٧٤ م .

[٤٨١٠] ، وفي بريطانيا [٥٠٠٠] ، وعاقبت المحاكم [١١٧٦] شخصاً في ألمانيا الغربية من الآباء والأمهات لأنهم عذبوا أولادهم .

وقال العلماء المختصون عن أسباب هذه الجرائم :
بعض الآباء يشوهون أولادهم للتسول ــ كما في البيئات الفقيرة ــ والبعض الآخر يعيش في جو متوتر يميل للإجرام حتى نحو أولادهم (٦١) .

ومن المؤسف أن الذين يقترفون مثل هذه الجرائم هم الذين ينشطون في تأسيس الجمعيات والمؤسسات للرفق بالحيوان ، وينفقون أموالاً طائلة على كلابهم ثم يعاملون أبناءهم بهمجية ووحشية .

٦ ــ المخدرات :

جاء في التقارير الرسمية في الولايات المتحدة الأمريكية ، أن نسبة عدد الشباب الأمريكيين الذين كانوا يتعاطون المخدرات عام ١٩٨٢ م وصل إلى ٤ ٪ وقد ارتفع عددهم إلى نسبة ٦٤ ٪ في عام ١٩٨٤ .

وجاء في تقرير مكتب المحاسبة العامة ولجنة الإستخبارات الوطنية الأمريكية المكلفة بمتابعة مدمني ومروجي المخدرات أن هناك ١٣ ٪ من المخدرات يتم مصادرتها قبل ترويجها داخل الأراضي الأمريكية . وجاء في التقرير الأمريكي الرسمي الصادر في سبتمبر ١٩٨٣ م أن الولايات المتحدة الأمريكية تعتبر الدولة الأولى في المخدرات وأنها تتقدم على المدمنين خاصة الذين يتعاطون الهيروين في ألمانيا وعددهم نصف مليون شخص ... ويبلغ عدد الذين يتعاطون المخدرات في أمريكا ٣٠ مليون . وجاء في تقارير إدارة مكافحة المخدرات أن نسبة المدمنين على المخدرات قد تضاعف عددهم بين عام ١٩٧٧ إلى ١٩٨٤ ست عشرة مرة ، والذي يخشاه المسؤولون في إدارة مكافحة المخدرات أنه بحلول عام ٢٠٠٠ م سيصبح جميع أفراد شعب أمريكا من مدمني الكوكايين (٦٢) .

وظاهرة انتشار المخدرات يشكو منها المصلحون وكبار المسؤولين في كل

---

٦١ ــ أخبار الكويت ، العدد تاريخ ١٢ ــ ٦ ــ ١٩٧٤ .
٦٢ ــ نقلت هذه المعلومات عن صحيفة الوطن الكويتية الصادرة في شهر رمضان من عام ١٤٠٥ هـ وفاتني معرفة تاريخ اليوم الذي صدرت فيه الصحيفة .

مكان من العالم ، ولم تُجد شدة المراقبة ولاقسوة العقاب في الحد من انتشار المخدرات لأن كبار السياسيين والديبلوماسيين متورطون في هذه التجارة ، ويستخدمون ــ لترويجها ونقلها من بلد لآخر ــ حقائبهم الديبلوماسية لأنها غير خاضعة للمراقبة ، يضاف إلى هذا وجود عصابات منظمة ومسلحة يعمل فيها بعض رجال الأمن المسؤولون عن مكافحة المخدرات . ويرتبط بتجارة المخدرات عصابات قطاع الطرق الذين يستخدمون أحدث الطرق العلمية في جرائمهم ، وصحف العالم تذكر العجيب من أخبارهم ، ولشدة وثوقهم من كفاءاتهم تراهم يعيدون الأشياء المسروقة لصاحبها ــ مع الإعتذار ــ إذا كانت تنفعه ولاتنفعهم كجواز سفر المسروق مثلاً .

٧ ــ التمييز العنصري :

صدرت قوانين في بريطانيا والولايات المتحدة وبعض دول العالم بمنع التمييز العنصري بين البيض والملونين ، ولكن هذه القوانين بقيت حبراً على ورق ، وتقاريرهم الرسمية تؤكد ذلك وتعززه ، فقد جاء في التقرير السنوي الذي أذاعته لجنة المساواة بين الأعراق ــ وهي جهاز تموله الحكومة البريطانية أن نسبة العاطلين عن العمل من غير البيض تبلغ تقريباً ضعفي النسبة بين الأكثرية البيضاء ، ونسبة البطالة بين حاملي شهادة الثانوية من البيض ٩ ٪ مقابل ١٨ ٪ بين الآسيويين و٢٥ ٪ للسكان الذين يعودون بأصولهم إلى جزر الهند الغربية .

ويشير التقرير إلى أن غالبية العاملين من غير البيض هم أكثر أهلية مما تستوجبه الوظائف التي يشغلونها ، ورغم ذلك فأجورهم تقل عن أجور البيض الأقل أهلية (٦٣) .

وفي دول أخرى كالولايات المتحدة الأمريكية وجنوب إفريقيا تقع معارك غير متكافئة بين البيض الذين يملكون أسباب القوة كلها ، وبين السود العزل المجردين من كل شيء .

وبعد :

هذه معتقدات وأخلاق الذين يخفون عجزهم وعقدهم خلف بريق الأقمار الصناعية ، والأسلحة النووية والجرثومية والكيماوية ، ويرون أن الآخرين من

---

٦٣ ــ الشرق الأوسط ، العدد رقم ٢٣٩ ، تاريخ ١٤ ــ ٦ ــ ١٩٨٥ .

أمم الأرض ما خلقوا إلا ليكونوا عبيداً و خدماً لهم .

ولم يعد مستغرباً في ظل هذه المدنية الزائفة أن يذهب المريض إلى عيادة طبيبه يشكو من مرض نفسي إثر صدمة من الصدمات التي تصيبهم ، لا بل أصبحت الأمراض العقلية عندهم أكثر انتشاراً من مرض الزكام عند تقلب الطقس ، فعدد الذين يحاولون الإنتحار في بريطانيا وحدها [٥٠,٠٠٠] في السنة ، وفي أمريكا اخترعوا طريقة للحاسبة [٦٤] [الإلكترونية] لتصبح قادرة على استيعاب أرقام حوادث الإنتحار وصدق من قال :
« لقد تعلم الإنسان كيف يطير في الهواء ، ولايزال يجهل كيف يسير فوق الأرض » .



٦٤ ــ صحيفة النهار البيروتية نقلت تصريح الدكتورين ستيفن غريد وكريستوف باغلي في عددها : ٤ ــ ٤ ــ ١٩٧٤ .

الفصل الثالث

العالم الإسلامي اليوم

فُتِنَ الناس في البلدان الإسلامية بحضارة الغرب ، وبهرتهم الإكتشافات والإختراعات العلمية الحديثة في مختلف أنواع العلوم والمعرفة ، وظن المنحرفون من أبناء أمتنا أننا لن نتحرر من الجهل والتخلف ، ونبلغ شأن الأوربيين إلا إذا خلعنا ربقة الإسلام من أعناقنا وسرنا وراءهم حذو القذة بالقذة .

ومن مظاهر هذا التقليد المؤسفة أن بلادنا أصبحت حقل تجارب لجميع العقائد والمذاهب المستوردة ، ونكاد لانجد مذهباً في العالم إلا وفي بلادنا من يؤمن به ويدعو له ، ويقاتل من أجله ، وقد أخبرنا الصادق المصدوق ﷺ عن هذه الظاهرة فقال :
« لتتبعن سنن الذين من قبلكم شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع ، حتى لو دخلوا في جحر ضب لاتبعتموهم . قلنا : يارسول الله آليهود والنصارى ؟ قال : فمن ؟ (٦٥)

ومن المحزن حقاً أ ن كثيراً من أبناء المسلمين استمرأوا مثل هذا الإنحراف وألفوه ... وسوف نعرض ـــ بشيء من الإيجاز ـــ أهم العقائد والمذاهب المنحرفة في بلدان العالم الإسلامي ، ونشير إلى غربة الدعاة إلى الله سبحانه وتعالى في أوطانهم .

أولاً ـــ الشيوعية :

١ ـــ كانت تركستان المسلمة أول بلد إسلامي اكتوى بنار الشيوعية الكافرة . لقد جمع البلاشفة نسخ القرآن وأمهات الكتب الإسلامية وأحرقوها ،

---

٦٥ ـــ رواه مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخدري . ٤ / ٢٠٥٤ ج ٦ من كتاب العلم ـــ طبعة فؤاد عبد الباقي .

وحولوا المساجد والمدارس الإسلامية إلى دور للسينما ، ومسارح ، واصطبلات لخيولهم ، وقتلوا العلماء والدعاة إلى الله بطرق همجية ، ومن ذلك دق مسامير طويلة في الرأس حتى تصل إلى المخ ، وإحراق المسجون بعد صبِّ البترول عليه وإشعال النار فيه ، وتمشيط جسم المسجون بأمشاط حديدية حادة ، وخياطة أصابع اليدين والرجلين وشبك بعضهما إلى بعض .

وتتولى الأجهزة الشيوعية تعليم الإلحاد للتلاميذ الصغار ، وأما تعليم الدين فتنص الفقرة ١٢٢ من قانون العقوبات لروسيا السوفيتية المطبوع عام ١٩٣٨ م في موسكو على مايلي :
« ... إن تعليم الدين للأحداث في مدارس الدولة أو المدارس الخاصة أو في المعاهد الشبيهة بهما يعاقب عليه القائمون بأمره بالحبس لمدة أقصاها سنة مع الشغل »

وفعل البلاشفة الشيوعيون بالمسلمين في ألبانيا ، ويوغوسلافيا ، وبلغاريا ، كما فعلوا بالمسلمين في تركستان ، لقد أهلك الأوغاد الحرث والنسل في بلاد أنجبت فحول علماء المسلمين ، ولايزالون يقتلون ويسلبون ويرهبون ، وبلغت نسبة الفناء في بعض المناطق ٤٥ ٪ باعتراف جريدة برافدا الرسمية (٦٦) .

٢ ـ في سنة ١٩٥٩ م غدر الشيوعيون العراقيون بحلفائهم القوميين العرب الذين كان لهم القدح المعلى في الإنقلاب الذي أطاح بنوري السعيد والنظام الهاشمي ... وبدأوا عهدهم الأسود بمذابح رهيبة في مدينة الموصل وغيرها من المدن العراقية ... ولايزال أهل العراق يذكرون كيف سحل الشيوعيون الأحياء بالحبال ، وعلقوا الجثث على أعمدة الكهرباء ، وهتكوا أعراض الحرائر ، وانتقموا حتى من الأموات ، فأخرجوهم من قبورهم ثم سحلوا جثثهم وأضرموا فيها النار .

واعتدى الشيوعيون العراقيون على حرمات المساجد ، وداسوا القرآن الكريم بأرجلهم بعد أن مزقوه بأيديهم الملوثة ... وكانوا يرتكبون هذه الجرائم الفظيعة وهم ينشدون قول شاعرهم :

---

٦٦ ـ المسلمون وراء الستار الحديدي ، عيسى يوسف آلب تكين ، ودراسات إسلامية ، للأستاذ سيد قطب ص ٢٠٢ .

بحارة الفولغا [٦٧]

على شطآن قلبي
ينزلون

ياإخوتي الخضر العيون

إنا سنجعل من جماجم
المتآمرين
لعباً لأطفال الغد المتضاحكين [٦٨]

ولكن الله سبحانه وتعالى كان لهم بالمرصاد ، فسلط عليهم أصدقاءهم فبطشوا بهم ، وقتلوا طاغية العراق ـــ عبد الكريم قاسم ـــ الذي مكَّن لهم .

٣ ـــ في سنة ١٩٦٧ م سلَّم المستعمرون الإنجليز الحكم في اليمن الجنوبي إلى القوميين وحلفائهم الشيوعيين ، وكعادة الشيوعيين انقضوا على القوميين فيما بعد وانفردوا بالحكم ، وعجزوا في تحقيق مافعله إخوانهم الشيوعيون في تركستان بسبب ضعف حكمهم وقلة خبرتهم ، ومع ذلك فلقد مزقوا القرآن الكريم وكتب الحديث ، وفتكوا بعدد غير قليل من العلماء والدعاة ، وكموا الأفواه ، وأخذوا يربون الناشئة على مبادىء الشيوعية الكافرة ، وحولوا بلدهم إلى مستعمرة سوفياتية تهدد المسلمين في اليمن الشمالي وأرض الحرمين وسائر دول الخليج .

كان الله في عون أهل عدن وحضرموت ... هؤلاء الذين نشروا الإسلام في الهند ، وأندونيسيا ، وماليزيا ، وفي وسط إفريقيا وعلى ساحلها الشرقي ، وكانوا نماذج صالحة للدعاة ... إنهم اليوم يعيشون تحت وطأة نظام مجرم يعمل على إشاعة الكفر والرذيلة [٦٩] .

٤ ـــ وفي سنة ١٩٦٩ م نجح الحزب الشيوعي السوداني في السيطرة على مقاليد الحكم بالتعاون مع جعفر نميري وعصابته من العسكريين .

---

٦٧ ـــ الفولغا : اسم نهر يجري في روسيا ، وشاعرهم هو عبد الوهاب البياتي ، ويقال إنه تخلى عن الشيوعية . ومن هذه الأبيات نعلم مدى ارتباط الشيوعيين العرب بقيادتهم في موسكو .

٦٨ ـــ انظر تجربة عربي في الحزب الشيوعي ، لقدري قلعجي ص ٢٢٥ .

٦٩ ـــ انظر كتاب اليمن الجنوبي خلف الستار الحديدي ... وأعداد صحيفة الجنوب العربي .

ومن جرائمهم التي لاتنسى في السودان هدم جزيرة « أبا » على من فيها من العلماء والدعاة والمواطنين الآمنين من النساء والشيوخ والأطفال ، وكانت إذاعة موسكو تبارك ثورتهم الحمراء وتقول هل من مزيد ؟!

وانقلبوا على حليفهم نميري ووضعوه في السجن ، وهذه سياسة ثابتة ومواقف مشهورة للشيوعيين مع حلفائهم في كل زمان ومكان ... ولكن أنصار نميري تمكنوا في اللحظات الأخيرة من إفشال مخطط الشيوعيين فقتلوا بعضاً من قادة الحزب بينهم عبد الخالق محجوب ، وسجنوا بعضهم الآخر ، وقليل منهم نجح في الهروب من السودان والإلتجاء إلى إحدى دول المعسكر الشيوعي وبمثل ماتدين تدان .

٥ ـ في سنة ١٩٧٩ م طلب العسكريون الشيوعيون الذين حكموا أفغانستان المسلمة بالحديد والنار من قيادتهم في موسكو التدخل لحمايتهم من الشعب الأفغاني المسلم الذي رفض الطغمة العسكرية وأعلن الجهاد في سبيل الله .

واستجاب السوفييت فأرسلوا جيشاً ـ يربو عدد أفراده على مائة ألف جندي ـ مدججاً بأحدث أنواع الأسلحة ، وظن المجرمون أن أفغانستان ستكون تركستان الثانية وأن حربهم مع المجاهدين لن يطول أمدها .

وبعد أكثر من ست سنين من القتال علم الشيوعيون أنهم قد أخطأوا في تقديراتهم ، وأن أفغانستان ستكون مقبرة الشيوعيين إن شاء الله ...

ومما يجدر ذكره أن خسائر المسلمين باهظة جداً . لقد استشهد آلاف من الشباب ، ولجأ إلى باكستان مئات الألوف من الشيوخ والنساء والشباب والأطفال ، يأكل بعضهم ورق الأشجار من شدة الجوع .

هذه بعض جرائم الشيوعيين في عالمنا الإسلامي ، ولولا خشية الإستطراد لذكرنا جرائم أخرى تفضح الذين يزعمون أنهم دعاة إلى العدالة والسلام والحضارة .

ثانياً ـــ الحركات القومية :

كان النصارى أول من رفع لواء القومية العربية ، وأسسوا لهذا الغرض الجمعيات الأدبية والعلمية في دمشق وبيروت والقاهرة وباريس ، ثم أسسوا التنظيمات السرية التي فجرت مايسمى بالثورة العربية الكبرى ، وكان الضابط الإنجليزي لورنس من أهم قادتها . وضم النصارى العرب إلى جمعياتهم جمع كبير من أبناء المسلمين الذين درسوا في جامعات ومعاهد الغرب ، وفتنوا بأفكار وتصورات أساتذتهم المسستشرقين ، وزين لهم الشيطان وحزبه بأن الإسلام سبب تأخر العرب عن ركب الحضارة .

وقامت أحزاب وجمعيات في البلاد العربية يزعم قادتها بأن القومية العربية دين وعقيدة وحضارة وتاريخ . قال عمر الفاخوري :
« لاينهض العرب إلا إذا أصبحت العربية أو المبدأ العربي ديانة لهم يغارون عليها كما يغار المسلمون على قرآن النبي الكريم ، والمسيحيون والكاثوليك على إنجيل المسيح ، والبروتستانت على تعاليم لوثر الإصلاحية [٧٠] ... ويتعصبون لها تعصب الصليبيين لدعوة بطرس الناسك ».
وقال ميشيل عفلق :
« إن الرسالة الخالدة حضارة وقيم معينة يستطيع العرب في المستقبل عندما يبلغون المستوى الراقي السليم المبدع أن يحققوها وينشروها بين البشر ».

وفي موضع آخر من كتاب في سبيل البعث يزعم عفلق بأن الأمة العربية تفصح عن نفسها بأشكال متنوعة تارة في تشريع حمورابي ، وتارة في الشعر الجاهلي ، وتارة بدين محمد (!!) ، وأخرى بعصر المأمون [٧١] .

وأصبحت هذه الأفكار الخبيثة أدباً يدرس في الجامعات والمعاهد العلمية في البلاد العربية باسم أدب المهجر ، أو الحنين إلى الأوطان ، وماإلى ذلك من أباطيل وانحرافات .

---

٧٠ ـــ الأمة العربية في معركة تحقيق الذات ، محمد المبارك ص ٤٠٧ .

٧١ ـــ في سبيل البعث ، ميشال عفلق ، وليس الكتاب تحت يدي عند التبييض لأنقل عنه كلامه بالنص .

ولم يعد مستغرباً أن يتغنى القوميون بقول شاعرهم :

يامسلمون ويانصارى دينكم ... ديـن العروبـة واحـد لااثنـان

وقول شاعرهم :

سلام على كفر يوحد بيننا ... وأهلاً وسهلاً بعده بجهنم

بل أشاد فيلسوف القومية العربية ساطع الحصري بمثل هذا النوع من الشعر . ولم يعد مستغرباً أن تردد أجهزة الإعلام :

ــ لقد ناضل فلان وسقط شهيداً (!!) في سبيل عروبته .

ــ يجب أن نقاتل ونجود بالروح من أجل تراب الوطن .

ــ قسماً بالعروبة لأفعلن كذا وكذا..وغير ذلك من الشركيات التي تتقزز منها نفوس المؤمنين .

ولم يعد مستغرباً أن تقع الحروب الطاحنة في العالم الإسلامي بين العرب والفرس ، أو بين العرب والأتراك ، أو بين الأكراد والأتراك ، أو بين العرب والبربر ، وتأكل هذه الحروب الأخضر واليابس لأن الأكراد يتطلعون إلى دولة قومية مستقلة أو لأن الفرس يريدون أن يعيدوا عهود الأكاسرة الذين كانوا يحتلون أجزاءً من البلاد العربية وهكذا ...

ونجح حزب البعث الطائفي في استلام مقاليد الحكم في كل من العراق وسورية ، وتحت ستار القومية والوحدة : هدموا المساجد ، وطاردوا الدعاة إلى الله ، وأقاموا دويلات طائفية ــ لكنهم يسمون الأمور بغير مسمياتها الصحيحة ــ وأبادوا أحياء كاملة في حماة وغيرها ، وراحت إذاعتهم تردد :

آمنت بالبعث رباً لاشريك له ... وبالعروبـة دينـاً مالـه ثـان

ــ البعث ديني ، والعروبة مذهبي .

وسلموا الجولان لليهود من غير قتال ، وفشلوا في وحدة بعثية بين العراق وسوريا رغم زعمهم أنهم دعاة إلى وحدة عربية من المحيط إلى الخليج ، ولكن الشعارات المطروحة شيء والتطبيق شيء آخر ، فهل يستيقظ المغفلون من أبناء أمتنا من سبات نومهم العميق ؟!

هل يفهم التائهون كيف بدأ خط الإنحراف وكيف كان دور اليهود والنصارى في المؤامرة ؟! نرجو ذلك .

ثالثاً ـــ النصارى :

عزز النصارى مراكز نفوذهم في العالم الإسلامي بعد فشل الحروب الصليبية ، وتوثقت علاقاتهم مع زعماء العالم الغربي ، ولعبوا دوراً مهماً في هدم الخلافة ، وتفتيت وحدة المسلمين ، وتذليل العقبات أمام الجيوش الفرنسية والإنجليزية والإيطالية الغازية .

وساعدهم على تحقيق أطماعهم الإمكانات المادية التي يتحركون من خلالها . لقد نجحوا في فتح الجامعات والمعاهد العلمية ، ومن هذه الأوكار الهدامة تخرج علية القوم في بلاد المسلمين ، وأنشأوا المستوصفات والمستشفيات ، وأقاموا المؤسسات والشركات الإقتصادية العملاقة ، وتسللوا إلى أرفع المناصب وأخطرها في الوزارات كالتعليم ، والأمن ، والجيش ، وشؤون الإقتصاد والتجارة .

وفي بلد مثل باكستان تمكنوا من إنشاء وإدارة المؤسسات التالية :
١٣ معهداً لإعداد المبشرين .
٧٨٢ معهداً مختصاً بعلوم اللاهوت .
٦٣٤٦٠ مدرسة .
٧٢ مستشفى . (٧٢)

وهذه الأرقام متواضعة جداً أمام أنشطتهم في أندونيسيا وإفريقيا ، وبكل أسف لايملك الدعاة إلى الله في بلد مثل باكستان مثل هذه المؤسسات ، ولايستطيعون إقامة نصف أو ربع هذه الأرقام .

ومما يجدر ذكره أن مؤامرات النصارى في بلاد المسلمين لاتنقطع ، فهم عون لكل عدو من أعداء الإسلام ، ومن الأمثلة على ذلك مايلي :

١ ـــ تم ضبط مؤامرة لهم في القدس وماحولها ، ووضعت السلطة يدها على وثائق ، وأسلحة ، وأموال ، وصحف ، ونشرات ، وكان لهم جيش سري يبلغ عدد أفراده أكثر من [٢٠,٠٠٠] ، وما سمعنا أن أحداً منهم أعدم أو قُدم

٧٢ ـــ وردت هذه الأرقام في تقرير أعدته جمعية العلماء في باكستان سنة ١٩٧٥ م .

إلى محاكمة ، علماً بأن بعض قادة هذا التنظيم ـــ الذي أطلقوا عليه اسم الجيش المريمي ـــ كانوا من المتنفذين في السلطة .

وأهداف القائمين على قيادة الجيش المريمي إقامة حكومة مسيحية تكون القدس عاصمة لها ، ولو كانوا مسلمين لبطشت بهم السلطة وأعدمت قيادتهم على الأقل ، ولسُخِّرت أجهزة الإعلام المحلية والعالمية في حربهم والإساءة إليهم (٧٣) .

٢ ـــ اكتشفت المخابرات المصرية سنة ١٩٧٢ م خطة رسمها البابا شنودة ومساعدوه ، وتهدف هذه الخطة إلى إقامة دولة قبطية في مصر خلال خمس عشرة سنة .

واكتفت المخابرات بتسريب أقوال البابا إلى أيدي بعض المواطنين ، أما الدعاة في مصر فتقوم الدنيا ولاتقعد بسبب أمور ليس فيها مايخيف السلطة ويرهبها .

وعندما استخف البابا شنودة بالسلطة ، وأخد يعد عدته ويعمل من أجل أن تكون مصر قبطية كما صارت الأندلس صليبية ، وفلسطين يهودية ـــ على حد قوله ـــ فرضت عليه أجهزة الأمن الإقامة الجبرية ، وعزلته عن منصبه لكنها فشلت لأنه ليس موظفاً عندها كشيخ الأزهر ، ورفض الأقباط قرار السلطة ، واضطرت بعد ثلاث سنين إلى الإعتراف به ، ورفع الإقامة الجبرية عنه .

٣ ـــ اضطر الفلسطينيون إلى اقتحام دير من أديرة النصارى في المتن الأعلى في حرب لبنان سنة ١٩٧٥ م لأنه كان قلعة عسكرية ، وأثناء تفتيشه تم العثور على منشور مكتوب باللغة الفرنسية ، ويعود تاريخه إلى سنة ١٩٤٣ م ، وتضمن خطة وضعتها فرنسا لنصارى لبنان من أجل إقامة وطن مسيحي لهم في لبنان ، وتم نشر الوصايا العشر ـــ أي الخطة ـــ في الصحف اللبنانية في شهر ١٢ من عام ١٩٧٥ .

وماجاء في هذه الوصايا نفذه النصارى بحذافيره من غير جعجعة ولا ضجيج ، ونجحوا في السيطرة على جميع المؤسسات والمرافق المهمة في لبنان ، وأصبح المسلمون في بلدهم غرباء فقراء لاحول لهم ولاقوة .

---

٧٣ ـــ انظر كتاب المخططات الإستعمارية للشيخ محمد محمود الصواف .

وكشفت حرب لبنان أموراً كان يجهلها السذج من أبناء أمتنا : كشفت قوة تخطيط النصارى ، وشدة عداوتهم لكل مسلم وإن كان منحرفاً ، ووقاحتهم في التعامل مع اليهود وغير اليهود من أعداء الإسلام .

نكتفي بذكر هذه الأمثلة ولولا خشية الإستطراد الذي يتعارض مع موضوعية البحث لكتبت مجلدات عن مخططات النصارى وأوكارهم في العالم الإسلامي ، ومع ذلك مازلنا نجد من أبناء جلدتنا من يوادهم ويثق بهم ، ولايقبل بهم كلاماً .

ومن جهة أخرى فهؤلاء الذين يرسمون الخطط في بلادنا هم الذين انهزموا في عقر دارهم ، وارتد شبابهم وعلماؤهم عن النصرانية .

رابعاً ـــ اليهود :

في سنة ١٩٤٨ م احتل اليهود فلسطين ، وطردوا أهلها منها بعد معارك غير متكافئة ، وأقاموا دولتهم ، في قلب العالم الإسلامي ، وفي الأرض التي باركها الله سبحانه وتعالى من فوق سبع سماوات .

وقد فشل اليهود في الحصول على أرض الحولة ـــ جزء صغير من أرض فلسطين ـــ في ظل الخلافة الإسلامية ، ورغم العروض المجزية التي عرضوها على السلطان عبد الحميد ، ورغم فقر النظام وحاجته الملحة إلى المال رفض السلطان عبد الحميد أموال اليهود ، وطرد وفدهم ، وقال لهم قولته المشهورة : فلسطين فتحها المسلمون بدمائهم ولن يخرجوا منها بالمال .

وفي ظل الأنظمة الثورية الإشتراكية القومية ، أقام اليهود دولتهم ، وفي سنة ١٩٦٧ م تمكنوا من احتلال غزة وسيناء والضفة الغربية والقدس والجولان ، بل وسُلِّمَت الجولان من غير قتال .

وثبت بأدلة لايرقى إليها شك بأن اتصالات كانت تجري في الخفاء بين اليهود وزعماء الأنظمة الثورية ... وجاء السادات عام ١٩٧٧ م بزيارته الذليلة لقادة النظام الصهيوني فحقق ماعجز عنه غيره وأصبحت الإتصالات علنية وبدون حياء .

وفي سنة ١٩٨٢ م احتل اليهود جنوب لبنان ، ووصلت قواتهم إلى مشارف بيروت ، وفرضت حصاراً على بيروت الغربية ، أما بيروت الشرقية فكان زعماؤها النصارى ينسقون مواقفهم مع اليهود وغير اليهود . وبعد معارك عنيفة بين اليهود من جهة والمسلمين السنة ــ من اللبنانيين والفلسطينيين ــ من جهة أخرى اضطر المقاتلون الفلسطينيون إلى مغادرة لبنان بعد أن تخلت عنهم قوات أسد وسائر القوات الثورية الباطنية منها واليسارية .

ويتطلع اليهود إلى إقامة دولتهم التاريخية ــ على حد زعمهم ــ التي تمتد من الفرات إلى النيل ، وهم جادون في العمل من أجل تحقيق هذا الهدف ، ويستفيدون من جميع الظروف والتناقضات الدولية ، كما يستفيدون من ضعف الدول العربية وما تعانيه من خلافات وصراعات مذهبية وعرقية .

ومن أهداف اليهود المرحلية : إقامة دويلات طائفية تحيط بها إحاطة السوار بالمعصم ، وتعزلها عن المناطق التي يشكل المسلمون السنة الغالبية فيها .

ويشجع النظام الإسرائيلي هجرة اليهود من جميع بلدان العالم إلى فلسطين المحتلة ، ويقيمون للوافدين اليهود مستعمرات ومراكز تدريب ، وعندما يزداد عددهم ينقضون على أرض عربية مجاورة وهكذا .

ويحدثنا القادمون من فلسطين المحتلة أن اليهود يشجعون الرذيلة ، وينشرون الفساد والإنحلال بين المراهقين والناشئة من أبناء المسلمين وهذه أخلاق اليهود وسياستهم حيثما حلوا وارتحلوا . وسوف يستمر اليهود في تنفيذ أهدافهم حتى يقيض الله للأمة الإسلامية من يجدد لها أمر دينها ، ويطهر بلادنا من أعوان اليهود وعملائهم ، ويرفع راية الجهاد كما أمر الله تعالى ، ويومئذٍ يفرح المؤمنون بنصر الله .

خامساً ــ الباطنيون :

يندرج تحت هذا العنوان فرق ومذاهب كثيرة من أهمها :

١ ــ القاديانية : يؤمن أتباع هذه الفرقة بتناسخ الأرواح وتقمصها ، كما يؤمنون بتعطيل الجهاد . وادعى زعيمهم [المرزا غلام أحمد] النبوة ، وأنه سيعود

كعودة المسيح عليه السلام ، ويرى أن إبراهيم عليه السلام ولد وسمي محمداً ﷺ ، كما يرى أن أنبياء الله جميعاً تمثلوا بشخصه ، وأن الله يخاطبه ويقول له : [اسمع ولدي] .

وقد كان الإنجليز وراء إنشاء هذه الفرقة المنحرفة سنة ١٨٩١ م لتؤدي دوراً مشبوهاً ضد جهاد المسلمين الذي أقض مضاجع جنود المستعمر الإنجليزي في شبه القارة الهندية . وللقاديانيين اليوم وجود غير قليل في الهند ، وباكستان ، وأندونيسيا ، وإفريقيا ، والعراق ، ولهم أيضاً نشاط واسع في أوربا والولايات المتحدة الأمريكية .

٢ ـــ البهائية :

أنكر البهائيون أسماء الله وصفاته ، كما أنكروا إعجاز القرآن ومعجزات الرسول ﷺ ، وقالوا بنسخ صلاة الجماعة وفريضة الجهاد . وفي خطوة أخرى في دعوتهم نادوا بالحلول ، ووحدة الأديان ، وأنه لافرق عندهم بين مسلم ويهودي ونصراني .

وفي أواخر حياة زعيمهم [ميرزا حسين] ادعى الألوهية ، وزعم أن من حقه تغيير الأحكام وتبديلها . ولهذا فقد نادى بنسخ الأديان . والمواطن التي ينشط فيها البهائيون إيران ، والبلاد العربية ، والهند ، وأمريكا ، وفي فلسطين المحتلة وعلاقاتهم باليهود متينة .

٣ ـــ الحاكمية :

أو الدروز ويعتقدون بتناسخ الأرواح أي انتقال النفس بعد الموت من جسم بشري إلى جسم بشري آخر ... ويسميه بعض علمائهم [التقمص] .

كما يعتقد الدروز بالحلول ، وهو عندهم نوع من التقمص لكنه يختلف عنه في أن النفس المنتقلة من جسم إلى آخر ، تنتقل معها أحياناً جميع صفاتها ، أو بعض صفاتها البارزة ، ومن ذلك نشأ اعتقادهم أن نفوس الأنبياء والمرسلين تنتقل من دور إلى دور . فحمزة بن علي في دور الحاكم هو نفس سلمان الفارسي في دور النبي (٧٤) . ويسكن الدروز في فلسطين المحتلة وسوريا

---

٧٤ ـــ أصل الموحدين الدروز للقاضي الدرزي أمين طليع وقدم له محمد أبو شقرا شيخ عقل الدروز في لبنان .

ولبنان .

٤ ــ النصيرية :

يؤمنون بالحلول ، وتناسخ الأرواح ، وقدم العالم ، وينكرون البعث والنشور والجنة والنار ، ويؤلهون علياً بن أبي طالب رضي الله عنه .

ويعتقد النصيريون بأن الصلوات عبارة عن خمسة أسماء هي : علي ، وحسن ، وحسين ، ومحسن ، وفاطمة ، وذكر هذه الأسماء يجزىء عن الغسل وعن الجنابة والوضوء .

ومن حقيقة الخطاب في الدين عندهم أن علياً هو الرب ، وأن محمداً هو الحجاب ، وأن سلمان هو الباب ، وإبليس الأبالسة ــ كما يزعمون عليهم لعنة الله ــ عمر بن الخطاب ، ويليه أبو بكر وعثمان رضي الله عنهم أجمعين . ويسكن النصيريون في شمال سورية ، وفي جنوب تركيا ــ في لواء إسكندرون ــ وشمال لبنان .

٥ ــ غلاة الشيعة :

يعتقدون أن لهم قرآناً غير القرآن الكريم ، وليس فيه من قرآننا حرف واحد ، ولايؤمنون بسنة المصطفى ﷺ ، وإنما يؤمنون بأحاديث وروايات يتناقلها أئمتهم الذين يدعون لهم العصمة ، ويرون أنهم أفضل من الأنبياء ــ باستثناء محمد ﷺ ــ وأنهم يعلمون الغيب ولايموتون إلا باختيارهم . ويعتقدون بكفر الصحابة رضوان الله عليهم إلا خمسة منهم ، وإذا ذكروا الجبت والطاغوت فالمقصود بهما أبو بكر وعمر رضي الله عنهما .

ويُعظِّم غلاة الشيعة المشاهد والقبور ، فيشدون إليها رحالهم ، ويطوفون حولها ، ويسألون الأموات أموراً لايقدر عليها إلا الله جلَّ وعلا .

ويؤمن غلاة الشيعة بالمتعة والرجعة والتقية ، ويرون أن إمامهم المنتظر حي يرزق منذ أكثر من ألف عام ، وهو يرى الناس ولكن لايراه أحد من الناس . ويزعمون أن أهل السنة كفار مارقون عن الدين لأنهم نواصب ، وأمهات كتبهم مزدحمة بمثل هذه الأقوال . ويكثر غلاة الشيعة في إيران ، والعراق ، ولبنان ، والهند ، وباكستان .

٦ ــ غلاة الصوفية :

يؤمنون بالحلول ووحدة الوجود ، والديوان الباطني عندهم يتألف من الأقطاب والأوتاد والأبدال ، وهؤلاء جميعاً موكول إليهم إدارة شؤون الكون .

ويعتقد غلاة الصوفية بأن التفسير الباطني للقرآن لايعلمه إلا شيوخهم ، أما التفسير الظاهري المحفوظ في أمهات كتب التفسير فلا قيمة له عندهم . ويقدس الصوفيون الأضرحة والقبور كغلاة الشيعة سواء بسواء ، ويتوسلون بالأموات ويعتقدون أنهم ينفعون ويضرون ، ويعظمون شيوخهم ، فلا يعصون لهم أمراً ، ولا يردون لهم قولاً ، ولايبخلون عليهم بمال أو متاع [٧٥] .

وبعد :

نحن لانتحدث عن فرق أكل الدهر عليها وشرب ، ولو كان الأمر كذلك لما كتبت عنهم في هذا الموضع ، ولكن أتباع هذه الفرق يعيشون بين ظهرانينا ، ويتربصون بنا الدوائر ، ويمكرون بنا مكر الليل والنهار ، ويزعمون بعد ذلك كله بأنهم مسلمون . وقد تمكن بعضهم من استلام مقاليد الحكم في بعض بلدان العالم الإسلامي ، فطغوا ، وبغوا ، وأعادوا لنا ذكريات السبأية ، والقرامطة ، والعبيديين ، والحشاشين ، ونجحوا أيما نجاح في ركوب موجات الحركات الإشتراكية ، والقومية ، والوطنية ، والتقدمية ، وماإلى ذلك من شعارات جوفاء فارغة .

ويفعل الباطنيون كل شيء دون حسيب أو رقيب ، فتارة يتحالفون مع الدول الإستعمارية ، وتارة أخرى يشنون حملات ظالمة ضد الدعاة إلى الله ، وإذا حاول المسلمون الدفاع عن أنفسهم امتدت إليهم أصابع الإتهام ، وراحت أجهزة الإعلام العالمية تتهمهم بالطائفية والخيانة .

سادساً ــ عبادة الفرد من دون الله :

في العالم الإسلامي اليوم شعوب وأقوام يعبدون زعماءهم كما كان يُعبد فرعون والنمرود وغيرهما من الطغاة ، ومن بين الأمثلة الكثيرة على ذلك سوف

---

٧٥ ــ مما يجدر ذكره أنني تحدثت عن غلاة الصوفية ، أما غير الغلاة من الذين لايؤمنون بالحلول ووحدة الوجود فهم مسلمون ، وإن كانوا من أهل البدع ، وكذلك شأن عامة الشيعة .

نختار فيما يلي ثلاثة منها :
١ — استمال الفرنسيون خلال استعمارهم لبلاد الشام سلمان المرشد كما استمال الصليبيون والتتار أجداده من قبل ، وجعلوا لجبل النصيرية نظاماً خاصاً ، فقويت شوكته وتلقب برئيس الشعب العلوي الحيدري الغساني .

وفي منتصف الأربعينات ادعى سلمان المرشد الألوهية ، وكان يلبس ثياباً فيها أزرار كهربائية ، ويحمل في جيبه بطارية صغيرة متصلة بالأزرار ، فإذا أوصل التيار أضاءت الأنوار من الأزرار فيخر لهُ أنصاره ساجدين .

ومن الطريف أن المستشار الفرنسي الذي كان وراء هذه الألوهية المزيفة كان يسجد مع الساجدين ، ويخاطب سلمان بقوله : [ياإلهي] .

وقصارى القول : وجد سلمان المرشد في القرن الرابع عشر الهجري ، وبالتحديد ، قبل أربعين عاماً نصف مليون من البهائم البشرية يعتقدون بأنه إلههم الذي خلقهم ورزقهم ، وهو الذي يميتهم ويحييهم . ومازال سلمان المرشد رباً مطاعاً عند قومه النصيريين حتى جاءت أول حكومة وطنية بعد الإستقلال فأمرت بإلقاء القبض عليه وتم إعدامه (٧٦) .
٢ — يؤمن الإسماعيليون — النزاريون — بألوهية آغاخان — زعيم الطائفة — ويسجدون له ذلاً وانقياداً وعبادة ، ويقدمون له مايشاء من مال ومتاع .

ويعيش زعيم طائفتهم حياة في أوربا لايحلم بها أباطرة القرون الوسطى ، ويعد من كبار الأغنياء المعدودين في العالم .

حدثني أحد أبناء الطائفة عن رحلته إلى الإسلام فقال :
قبل خمسين عاماً زار آغاخان — أو كريم خان لاأدري فقد نسيت الإسم الذي ذكره لي محدثي — بيروت ، فهرعت مع نفر من أبناء بلدتي السلمية (٧٧) وجلسنا أياماً نتسكع في شوارع بيروت حتى تمكنا من رؤيته عند خروجه من الفندق الضخم الذي كان ينزل فيه ، وكم كانت فرحتنا عارمة عندما أذن لنا بتقبيل يديه وقدميه ثم مضى في طريقه دون أن يتفضل في الجلوس معنا ولو

٧٦ — انظر الأعلام لخير الدين الزركلي اسم سلمان ٣ / ١٧١ ، وكتاب اسلام بلا مذاهب للدكتور مصطفى الشكعة ص ٢٢١ حتى ٢٣٨ ، وأهل بلاد الشام يعرفون هذه القصة جيداً .

٧٧ — السلمية بلدة تقع قرب مدينة حماة في بلاد الشام ، ومعظم أهلها من أتباع آغاخان .

بضع دقائق ... وعدنا إلى السلمية ونحن نشعر بسعادة لانظير لها ... وأخذ الناس يتحلقون حولنا ويسألوننا عن ربهم وبماذا أمرنا ... ومع ذلك كانت هناك أسئلة تفرض نفسها عليَّ بإلحاح وما كنت أستطيع البوح بها ، ومن أهمها :

ـــ كيف تتسع غرفة في فندق من فنادق بيروت لهذا الإله ؟!

ـــ كيف يعيش هذا الإله في فندق يعج بالفساد ولايصلحه ؟!

ـــ أهكذا يحتقر الإله عبيده فلا يجالسهم ولا ينصحهم ؟!

ومازلت أبحث عن أجوبة لهذه الأسئلة إلى أن منَّ الله علي بالإسلام ، فعبدته جلَّ وعلا وحده لاشريك له وكفرت بكل ما يعبد من دونه .

٣ ـــ فتن كثير من الناس في البلدان العربية بعبادة جمال عبد الناصر ، وظنوا أنه حي لايموت ، وأصبحت أقواله وأفعاله عندهم مقدمة على أقوال الله تعالى .

وبعض هؤلاء الناس ماكانوا يعتقدون بألوهيته ، لكنهم وضعوه في مصاف الأنبياء ، وقال شاعرهم :

....

ويطهـر الدنيـا نبـي أسمـــر(٧٨)

وإن نسيت لاأنسى موقف الناصريين من مبادرة [روجرز] ، لقد كانوا يحاربون بعنف أي مشروع صلح مع إسرائيل ، وعندما أعلن عبد الناصر سنة ١٩٧٠ م عن قبوله لمبادرة روجرز ـــ وزير خارجية الولايات المتحدة السابق ـــ صفق له أتباعه ، وأصبح المشروع عندهم مغنماً كبيراً للعرب ، وخرجت جموعهم بمظاهرات صاخبة في عدد من العواصم العربية يهتفون لسيدهم ، وشاهدت في بيروت مثل هذه المظاهرات ، كما شاهدت [يافطة] مكتوب عليها : [ومايـنطق عن الهوى]

ولو قبل حكام العرب هذه المبادرة ورفضها عبد الناصر لعدها الناصريون خيانة لاتغتفر ووصمة عار في تاريخ العرب .

---

٧٨ ـــ شطر بيت من قصيدة للشاعر السوري سليمان العيسى ، ألقاها بمناسبة إحدى زيارات عبد الناصر لسورية .

سابعاً ــ الأحوال الإجتماعية والخلقية :

خرجت جيوش المستعمرين من بلاد المسلمين ، أما أخلاقهم وعاداتهم وتصوارتهم فلاتزال باقية ... ولو كتب لإنسان مات قبل مائة عام أن يرى أوضاع المسلمين اليوم وأحوالهم لاعترته الدهشة وشك بحاستي سمعه وبصره .

فشريعة الله قد نحيت واستبدل بها أدعياء الوطنية القانون المدني الفرنسي وقانون الجزاء الإيطالي .

ومسخ اللورد كرومر والقسيس دنلوب مناهج التعليم فأصبحت خاوية من الروح ، مجردة من العقيدة ، حافلة بفلسفة اليونان وعلمانية الأنظمة الغربية .

وفي ظل هذه القوانين والمناهج عم الفساد ، وانتشرت الرذيلة ، وأصبحنا نشاهد في بعض أو معظم بلدان العالم الإسلامي مايلي :
ــ دوراً رسمية للبغاء والفجور يحرسها رجال الأمن ، يدخلها من شاء ولو كان محصناً ويزني تحت سمع وبصر السلطة بل وحمايتها ، ولو أراد أحد أن ينكر مثل هذا المنكر لكان مصيره السجن والجلد .
ــ مدارس للناشئة من أبناء المسلمين يدرسون فيها أصول الإجرام ، وقضايا الجنس ... وتسمى هذه المدارس : المسارح ، دور السينما ، الإذاعة ، التلفاز ، الصحافة ، معاهد الفنون والموسيقى .
ــ مخازن ومحلات عامة لبيع جميع أنواع الخمور ، ومن المؤسف أننا صرنا نرى حانوتاً لبيع الخمور في جوار مسجد من المساجد ، ولايستطيع المسلمون منع هذه المفسدة لأن السلطة التي تشرف على المساجد وترعى شؤونها هي نفسها السلطة التي ترعى شؤون محلات بيع الخمور ، وتنظم تصديرها أو استيرادها ، وتحدد أسعارها ، فوزارة الأوقاف مسؤولة عن المساجد ، ووزارة التموين مسؤولة عن محلات بيع الخمور ، والوزارتان جزء من مجلس يرأسه رئيس الحكومة ، ولاتستطيع أية وزارة في قراراتها أن تستقل عن سياسة الدولة وأوامر رئيسها .
ــ مزارع لزراعة [الحشيش] ، ومؤسسات مختصة بتهريب المخدرات وبيعها ، ويدير هذه الأوكار علية القوم ، وأصحاب النهى والسلطان .

ـــ استغلالاً للمرأة لم يسبق له مثيل ، لقد أصبحت سلعة تباع وتشترى ، ويتاجرون بعرضها وشرفها ، وبشكل أخص الجميلات منهن .

ومن التقاليد المشهورة عند بعض الطغاة إقامة حفلات راقصة تكريماً لضيوفهم من كبار المسؤولين ، وفي هذه الحفلات يقدمون المطربات والراقصات ليقمن بأدوار مؤسفة جداً ... ويزعم بعد ذلك هؤلاء الطغاة أنهم عرب فأين المروءة العربية بل أين النخوة العربية ؟! ولانسألهم عن الأخلاق الإسلامية لأنها عندهم رجعية وجمود وغلو ، وإنما نطالبهم بالتزام مايؤمنون به ويدعون له .

نحن نطالب هؤلاء الطغاة أن يأتونا بدليل على أن زعيماً من زعماء العرب الجاهليين قدم زوجته لزعيم آخر ليقبلها ويحتضنها أمام عينيه .

وفي ظل هذه الأجواء المحمومة تفشت الرشوة ، وبدأت حوادث العراة ، وانتشرت موجات [الهيبيين] ، وكثر الحديث عن الجنس الثالث ، وازدادت نسبة الجرائم ، وشعر الناس كل الناس بفقدان الأمن والإستقرار وأنه لابد من منقذ يرد لهم مافقدوه من حرية وكرامة .

وإذن :

لقد عادت عبادة الأصنام من جديد في هذا العصر ، ولاأدري كيف أن ناساً من الناس لايزالون يستغربون مثل قولنا هذا ويرون أن عبادة الأصنام انتهى أمرها إلى غير رجعة .

وهذا منهم فهم قاصر ، فالصنم كل ماعبد من دون الله جلَّ وعلا ، والعبادة تعني الذل والخضوع والإنقياد ، فكل من يرضى أن ينقاد الناس له في كل مايأمر به أو ينهى عنه ـــ خيراً كان أو شراً ـــ كان طاغوتاً ويكون المنقادون له مشركين إذا كان ذلك عن علم منهم ورضى . وليس صحيحاً أن الصنم لايكون إلا حجراً أو شجراً أو نوعاً من أنواع الطعام ، فقد يكون الصنم طاغوتاً متسلطاً كما كان فرعون ، وكما هو شأن فراعنة اليوم . وقد يكون الصنم حزباً من الأحزاب الجاهلية التي تحكم غير شرع الله ، وقد يكون فكرة أو قوماً أو أرضاً أو امرأة .

قال تعالى :
﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله ﴾ (٧٩) .

ومشركوا عصرنا يحبون أصنامهم الحديثة أكثر من حبهم لله ، بل وبعضهم لايؤمنون بالله (٨٠) .

من المنقذ ؟!

يتخبط العالم اليوم في دياجير الفوضى والفساد ، ويقترب من الهاوية والدمار ، وترتفع الأصوات في كل مكان من المعمورة ، مندددة بسوء الأوضاع ، محذرة من أخطر مصير ينتظر البشرية . ويتطلع الناس ، كل الناس — على اختلاف تصوراتهم وعقائدهم — إلى منقذ يصلح مافسد ، ويقوم مااعوج .
فمن هذا المنقذ ؟!
— الوثنيون : ليسوا مرشحين أصلاً لإحداث تغيير في العالم ، لأن عقولهم قاصرة ، ونفوسهم ضعيفة ، ولأنهم قد استهلكوا تماماً بمشاكلهم الداخلية .
— اليهود : لو كانوا يملكون وسائل الإنقاذ لحجبوها عن البشرية لأنهم جبلوا على الحقد وحب الذات واحتقار غيرهم ، ولايوجد في العالم من ينتظر منهم القيام بمثل هذا الدور .

وأهم الدول التي تتطلع للقيام بدور المنقذ الولايات المتحدة الأمريكية والإتحاد السوفياتي ، ولكل منهما مناطق نفوذ واسعة في العالم ، وتزداد حدة الصراع بينهما يوماً بعد آخر ... فهل تملك هاتان الدولتان أو إحداهما مقومات البقاء والإستمرار ، وهل تنتظر البشرية من إحداهما إنقاذ العالم ؟!

— الولايات المتحدة الأمريكية :

لابد من التنويه في البداية أن الولايات المتحدة تتزعم الدول الغربية التي تدين شعوبها بالنصرانية ، كما تتزعم دول العالم التي تؤمن بالإقتصاد الحر — النظام الرأسمالي — وتدعو له .

---

٧٩ — سورة البقرة ، الآية : ١٦٥ .
٨٠ — ذكرت في الصفحات الماضية من هذا الباب أمثلة كثيرة عن أصنام العصر الحديث ، ومالم أذكره لضيق المجال أكثر .

وقد رأينا فيما مضى كيف كفر الغربيون بالكنيسة ورجالها ، وعبدوا صنماً أسموه العقل ، وصنماً آخر أسموه المادة ، وبعد رحلة مضنية دامت أكثر من قرنين كفر شبابهم بكل القيم والتصورات ، وأقبلوا على اللذات والشهوات ، فانتشرت بينهم المخدرات ، وراجت تجارة الرقيق الأبيض ، وتفشت الأمراض النفسية ، وارتفعت صيحات زعمائهم ومفكريهم تنذر بالخطر وتؤكد إفلاس الحضارة الغربية .

يقول الكسيس كاريل (٨١) :

« إن الحضارة العصرية تجد نفسها في موقف صعب ، لأنها لاتلائمنا ، فقد أنشئت دون أية معرفة بطبيعتنا الحقيقية ، إذ أنها تولدت من خيالات الإكتشافات العلمية ، وشهوات الناس ، وأوهامهم ، ونظرياتهم ، ورغباتهم . وعلى الرغم من أنها أنشئت بمجهوداتنا ، إلا أنها غير صالحة بالنسبة لحجمنا وشكلنا ... إن مبادىء [الدين العلمي] و [الآداب الصناعية] قد سقطت تحت وطأة غزو الحقيقة [البيولوجية] فالحياة لاتعطي إلا إجابة واحدة حينما تستأذن في السماح بارتياد [الأرض المحرمة] ... إنها تضعف السائل ، ولهذا فإن الحضارة آخذة في الإنهيار لأن علوم الجماد قادتنا إلى بلاد ليست لنا فقبلنا هداياها جميعاً بلا تمييز ولاتبصر !

ولقد أصبح الفرد ضيقاً ، متخصصاً ، فاجراً ، غبياً ، غير قادر على التحكم في نفسه ومؤسساته .

ستفقد المادة سيادتها ، ويصبح النشاط العقلي كالنشاط الفسيولوجي ، وسيبدو ألا مفر من دراسة الوظائف الأدبية والجمالية والدينية ، كدراسة الرياضيات والطبيعة والكيمياء ... » .

ثم يمضي كاريل في نقد حضارة هذا العصر فيتوقع أن يأتي ذلك اليوم الذي يسأل علماء الصحة عن السبب الذي يحدوهم إلى الإهتمام بالأمراض العضوية دون الأمراض الروحية ... وسوف يعزلون في يوم ليس ببعيد الذين ينشرون الأمراض العقلية والأدبية كما يعزلون اليوم الذين ينشرون الأمراض

٨١ ـــ الدكتور الكسيس كاريل : هو الطبيب المتخصص في بحوث الخلية ونقل الدم والأعضاء والمشتغل بالطب علماً وجراحة وإشرافاً على معاهد العلاج والنظريات العلاجية ، وصاحب جائزة نوبل سنة ١٩١٢ م ، ومدير معهد الدراسات الإنسانية بفرنسا خلال الحرب العالمية الثانية ، وكان قد تولى الإشراف على معهد روكفلر للتجارب العلمية .

العضوية .

ويقول وزير خارجية الولايات المتحدة الأمريكية السابق [دالاس] في كتابه [حرب أم سلام] :
« إن هناك شيئاً ما يسير بشكل خاطىء في أمتنا وإلا لما أصبحنا في هذا الحرج ، وفي هذه الحالة النفسية ... لايجدر بنا أن نأخذ موقفاً دفاعياً ، وأن يتملكنا الذعر ... إن ذلك أمر جديد في تاريخنا !
إن الأمر لايتعلق بالماديات ، فلدينا أعظم إنتاج عالمي في الأشياء المادية ، إن ماينقصنا هو إيمان صحيح قوي ، فبدونه يكون ما لدينا قليلاً . وهذا النقص « لايعوضه السياسيون مهما بلغت قدرتهم ، أو الدبلوماسيون مهما كانت فطنتهم ، أو العلماء مهما كثرت اختراعاتهم أو القنابل مهما بلغت قوتها !
فمتى شعر بالحاجة إلى الإعتماد على الأشياء المادية ، فإن النتائج السيئة تصبح أمراً حتمياً .
إننا لانستطيع أن نكافح الشيوعية السوفييتية في العالم ، وأن نحبط أساليبها في الخداع والإرهاب والعنف ، مالم يكن لدينا إيمان واستعانة بالوسائل الروحية في مجتمعنا الحديث المعقد ، والتي تحول نفسها إلى أعمال خالصة من الدناءة ، وظروف الحياة الذليلة ، التي لايمكن أن تنمو فيها الروح » (٨٢) .

ويقول رئيس وزراء بريطانيا السابق [إيدن] في بعض خطبه سنة ١٩٣٨ م :
« إن أهل الأرض كادوا يرجعون في أخريات هذا القرن إلى عهد الهمجية والوحشية ، ويعيشون عيشة سكان الكهوف والمغارات ، ومن الغريب المضحك أن البلاد والدول تنفق ملايين من الجنيهات على وقاية نفسها من آلة فتاكة تخافها ، ولكنها لا تنفق على ضبطها ، وإني أتعجب في بعض الأحيان وأقول : كيف لو زار العالم الجديد زائر من كوكب آخر وهبط إلينا فما عسى أن يشاهده ؟ سيجدنا نعد العدة لإهلاك بعضنا ، ونتبادل الأنباء عنها ويخبر بعضنا بعضاً كيف نستعمل هذه الآلات الجهنمية » (٨٣) .

كثير جداً من علماء أوربا أدركوا أنه من الخطأ الإعتماد على العقل وحده ، وآمنوا بوجود عالم آخر لاتدركه هذه العقول القاصرة المحدودة ... وقد ألف

---

٨٢ ــ المستقبل لهذا الدين ، لسيد قطب رحمه الله .
٨٣ ــ ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، ص ٢٢٣ .

الأستاذ عباس محمود العقاد كتاباً أسماه [عقائد المفكرين في القرن العشرين] حشد فيه تجارب أكثر من أربعين عالماً من كبار علماء الغرب ، معظمهم آمن بالله واليوم الآخر لكنهم لم يجدوا من يرشدهم إلى الإسلام ، ويبلّغهم دعوة خاتم الأنبياء عليه أفضل الصلاة والتسليم .

وآخرون من علماء الغرب أعلنوا إسلامهم ، وكتبوا عن رحلتهم من الكفر إلى الإسلام ، ومن أراد مزيداً من المعلومات فليقرأ :

ــ لماذا أسلمنا ؟!

ــ رجال ونساء أسلموا وهو عبارة عن ثلاثة أجزاء .

وسوف يجد في هذين الكتابين تجارب أكثر من مائة عالم ومثقف غربي ، والذين لم يكتب عنهم أضعاف هذا العدد .

ولو قامت مؤسسة إسلامية عالمية مستقلة ، وصدق القائمون عليها مع ربهم وأخلصوا له النية ، وأخذوا بكافة الأسباب المشروعة مادية كانت أو معنوية ، ولو رُصِدَ لهذه المؤسسة بعض الأموال التي ينفقها المترفون من أبناء المسلمين على شهواتهم ، وبعض الأموال التي ينفقها الطغاة المتسلطون على وسائل إعلامهم المنحرفة ، وبعض أموال الأمة الإسلامية المودعة في البنوك الغربية التي يسيطر عليها اليهود ... نعم لو قامت مثل هذه المؤسسة في ديار الغرب لدخل الناس في دين الله أفواجاً ، ولتغيرت خريطة العالم ، وانهارت قلاع وحصون الكافرين المتسلطين .

ــ الإتحاد السوفياتي :

حاول الشيوعيون تطبيق المبادىء والتصورات التي رسمها زعماؤهم ، وكان ضحية هذه المحاولة أكثر من عشرين مليوناً سفك دماءهم الرفاق الحمر ... والسؤال الذي يفرض نفسه : هل حقق الشيوعيون مبادءهم بعد الكبت والإرهاب الذي فرضوه على شعوبهم أكثر من ستين عاماً ؟!

وجوابنا على ذلك : لقد فشل الشيوعيون في كل شيء :

فشلوا في إلغاء الملكية الفردية لأنها غريزة فطرية عند الإنسان ، واعترفوا بحد معين من الملكية الفردية ، وأقروا بضرورة وجود فوارق في أجرة العمال ، وفي كل عام يزداد هذا التراجع .

وفشلوا في اجتثاث جذور العقيدة من قلوب المسلمين وغير المسلمين من

أصحاب الكتب السماوية ، واعترفوا بشيء ضئيل من الحرية الدينية .
وفشلوا في القضاء على النزعات القومية والوطنية ، وصراع السوفيات مع الشيوعيين الصينيين قومي ، وكذلك كان صراعهم مع المجر ويوغسلافيا .
وفشلوا في تحقيق الإزدهار الإقتصادي الذي كانوا يَعِدُون به شعوبهم ، ولم تعد بلادهم ـــ كما كانت ـــ أول دول العالم في الصادرات الزراعية .
وفشلوا في تحقيق السلام الذي طالما تشدقوا به ، ومجازرهم في المجر ، وأفغانستان ، وتركستان ، وبولندا ، والصومال خير شاهد على ذلك .

ويهون الحديث عن الفشل الذي منيت به الشيوعية أمام سياسة الكبت والإرهاب الذي فرضته السلطة على المواطنين ... لقد فر من جحيم الشيوعية علماء كبار ، وسياسيون كانوا يشغلون مناصب قيادية ، وكان من بين هؤلاء الفارين ابنة ستالين التي كتبت مايبكي القلوب لا العيون ، ويفتت الأحجار لا الأكباد ، بينما هي لم تكن ترى إلا النزر اليسير مما يقاسيه الشعب لأنها كانت تعيش في نعيم الكرملين . أما الزعماء والمفكرون الشيوعيون الذين كفروا بشيوعيتهم وكشفوا جرائم قادة الحزب ومفكروه ، فلمن شاء أن يقرأ بعض ما كتبه هؤلاء في الكتب التالية :

ـــ الصنم الذي هوى .
ـــ عائد من الجحيم .
ـــ تجربة عربي في الحزب الشيوعي .
ـــ اخترنا الحرية .
ـــ تجربتي في الحزب الشيوعي .

ولولا الكبت والقهر الذي يمارسه قادة الكرملين لاندرست المبادىء الشيوعية ، وأصبحت أسطورة يتحدث عنها الناس كما يتحدثون عن أساطير اليونان القديمة ... ورغم ذلك لقد أفلست الشيوعية في الصين ، وتكاد تلفظ أنفسها الأخيرة في الإتحاد السوفياتي ودول أوربا الشرقية ، وانهزم الشيوعيون في العالم العربي ، وتحول الحزب إلى أحزاب متعددة ، وتبددت آمال السوفيات ومخططاتهم في العراق ، والسودان ، وبلاد الشام ، ومصر ، والجزائر .

الإسلام هو المنقذ

لقد شهدنا ــ والحمد لله ــ فشل العقائد والمبادىء المستوردة التي فتن الناس بها ، وظنوا أنها سفينة نوح في كل طوفان .

● شهدنا فشل الزعماء الذين تفنن المستعمرون في صنع دعاية لهم ، وجعلوا منهم أبطالاً وقادة ، وسلموهم زمام الأمور ومقاليد الحكم فكانوا أسوأ خلف لأسوأ سلف . لقد فرضوا على أمتهم قوانين الأوربيين وعاداتهم ومناهجهم ، وعطلوا شريعة الله ، واستنفروا جميع أجهزتهم : الإعلامية ، والتربوية ، والعسكرية من أجل صد الناس عن دين الله ومطاردة دعاة الإسلام ، ، وتشويه صورتهم في أذهان الناس .

لقد شهدنا والحمد لله فشل هؤلاء الزعماء الذين سرقوا ثمرات الجهاد من أصحابه الحقيقيين الذين كانوا يبتغون إحدى الحسنيين : النصر أو الشهادة .

● وشهدنا فشل وهلاك طغاة آخرين عبدهم الناس من دون الله سبحانه وتعالى ، وأطاعوهم في جميع أمور حياتهم ومماتهم ، وظنوا أنهم خالدون مخلدون لاينالهم موت ولافناء ... لقد هزموا شر هزيمة ، وتمرغت أنوفهم في التراب ، وتخلى عنهم أقرب الناس إليهم وكفروا بزعامتهم ، كما تخلى عنهم سادتهم في موسكو وواشنطن ولندن وباريس ، وأصبحوا يتمنون الموت قبل أن يروه .

● وشهدنا فشل الأحزاب العربية التي كانت تدعو إلى القومية العلمانية ، والإشتراكية ، وما إلى ذلك من أفكار إقليمية ضيقة ومحدودة .

شهدنا وشهد الناس جميعاً فشل هذه الأحزاب الذريع ، بل وشهد على ذلك بعض قادة هذه الأحزاب الذين انقلبوا على مبادئهم ، وكشفوا فضائح رفاقهم ، وما ارتكبوه من ظلم وسلب واستبداد ونهب (٨٤) .

لقد كفر الناس في عالمنا الإسلامي ــ إلا من لايؤبه له ــ بجميع القيم والمبادىء المستوردة ، وتطلعوا إلى الإسلام لينقذهم مما يعانون وليس الإسلام تجربة من التجارب القابلة للفشل أو النجاح . إنه دين الفطرة التي فطر الله الناس

---

٨٤ ــ من شاء مزيداً من التفاصيل فليقرأ كتاب [التجربة المرة] لمنيف الرزاز ــ أحد قادة حزب البعث العربي الإشتراكي ــ .

عليها ، فليس فيه كهنوت ولاغلو أو تسيب . دين يحفظ التوازن ، ويجمع بين الروح والمادة ، والعاطفة والعقل ، ولايطغى فيه جانب على آخر . دين يضمن للفرد حريته وكرامته ، ويحميه من الظلم والإستغلال ، ويحمي المجتمع من طغيان الفرد . دين الله الذي بعث به محمداً ﷺ ليكون رحمة للعالمين : أسودهم وأبيضهم ،غنيهم وفقيرهم .

قال الأستاذ سيد قطب رحمه الله :

« ليس الإسلام نظاماً تاريخياً لفترة من فترات التاريخ ، كما أنه ليس نظاماً محلياً لمجموعة من البشر في جيل من الأجيال ، ولافي بيئة من البيئات ... إنما هو المنهج الثابت الذي ارتضاه الله لحياة البشر المتجددة ، لتبقى هذه الحياة دائرة حول المحور الذي ارتضى الله أن تدور عليه أبداً ، وداخل الإطار الذي ارتضى الله أن تظل داخله أبداً ، ولتبقى هذه الحياة مكيفة بالصورة العليا التي أكرم الله فيها الإنسان عن العبودية لغير الله » (٨٥) .

ماأشبه الليلة بالبارحة ، وماأحوج البشرية اليوم إلى الإسلام الذي حفظه الله جلَّ وعلا من التغيير والتبديل والتحريف . وإنه لايصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها عندما أشرق نور الإسلام قبل أربعة عشر قرناً من الزمن .

لقد آن للبشرية أن تتحرر من طغيان القادة والزعماء الذين عبَّدوا الناس لشهواتهم وأطماعهم ، وهانت عندهم دماء الأبرياء الذين رفضوا جبروتهم وطغيانهم ... آن للبشرية أن تنتزع القيادة من هؤلاء العابثين المفسدين ، ويتقدم لها ورثة الأنبياء الذين لايريدون علواً ولافساداً في الأرض .

ومن أجل مزيد من المعرفة في فهم سيرة رسول الله ﷺ كتبت هذه الفصول لتكون زاداً للدعاة في جهادهم وعملهم الدائب من أجل أن يكون الدين كله لله .

---

٨٥ ـــ المستقبل لهذا الدين ، سيد قطب ، ص ١٠ ـــ مكتبة وهبة ، وانظر إلى كتابه [الإسلام ومشكلات الحضارة] .

الباب الثاني

منهج رجال خير القرون في كتابة السيرة النبوية

الفصل الأول : تدوين السنة
الفصل الثاني : الجرح والتعديل
الفصل الثالث : شبهات

معنى السيرة وأهميتها

السيرَةُ : الطريقة . يقال : سار بهم سيرة حسنة ، والسيرة : الهيئة . قال تعالى :
﴿ سنعيدها سيرتها الأولى ﴾
وسَيَّر سيرة : جاء بأحاديث الأوائل ، ويقولون : بارك الله في مسيرك أي في سيرك ، وسار الكلام والمثل في الناس : شاع . ويقال : هذا مثل سائر .

والسيرة : السُنَّةُ . ومن معاني السنة ــ كما ذكر صاحب لسان العرب الطريقة . قال الله تعالى : ﴿ سنة الله في الذين خلوا من قبل ﴾ ، نصب سُنَّةَ الله على إرادة الفعل ، أي سنَّ الله ذلك في الذين نافقوا الأنبياء وأرجفوا بهم أن يقتلوا أين ثقفوا ، أي وجدوا .

والسُّنَّةُ : السيرة ، حسنة كانت أو قبيحة . وسَنَنْتُهاُ سناً واسْتَنَنْتُهاَ :سِرْتُها ، وسَنَنْتُ لكم سنة فاتبعوها . وفي الحديث :
من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها ، ومن سن سنة سيئة ، يريد من عملها ليُقْتَدى به فيها ، وكل من ابتدأ أمراً عمل به قوم بعده قيل : هو الذي سنه .

وقد تكرر في الحديث ذكر السنة وما تَصَرَّفَ منها ، والأصل في الطريقة والسيرة ، وإذا أُطلِقَتْ في الشرع فإنما يراد بها ما أمر به النبي ﷺ ، ونهى عنه ، وندب إليه ، قولاً وفعلاً مما لم ينطق به الكتاب العزيز ، ولهذا يقال في أدلة الشرع : الكتاب والسنة [١] .

وفي اصطلاح المحدثين : السنة : ماأثر عن النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو صفة خلُقية أو خلْقية أو سيرة ، سواء كان قبل البعثة أو بعدها [٢] .

---

١ ــ القاموس المحيط : ٢ / ٥٦ ، ومختار الصحاح ٣٤٧ ، ولسان العرب فعل سير ، وفعل سن ، ص ٢١٢٤ و ٢١٦٩ .
٢ ــ قواعد التحديث ص ٣٥ ــ ٣٨ ، للقاسمي ، ط البابي الحلبي .

هذه هي السيرة ، ولايمكن الفصل بين الجانب العسكري والجانب التشريعي أو الإقتصادي في حياة الرسول ﷺ . لايمكن فصل غزوة بني قريظة عن قوله ﷺ لأصحابه :
« لا يصلين أحدكم العصر إلا في بني قريظة » (٣) ، وأقوال العلماء المحققين في فقه هذا الحديث . ولايمكن فصل حجة رسول الله ﷺ عن خطبة الوداع ، وماحوته من أحكام شرعية وآداب نبوية .

فالسيرة إذن : أقوال الرسول ﷺ وأفعاله ، وهي ضرب من التاريخ ، لكنه تاريخ لأنصع الصفحات في حياة أمتنا وأطهرها ، تاريخ لحياة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ منذ ولادته وحتى وفاته .

فما حملت من ناقة فوق ظهرها ... أبر وأوفى ذمة من محمد

إن سيرة المصطفى ﷺ تذكرنا كيف يكون التغيير ، كما تذكرنا كيف حطم عليه أفضل الصلاة والتسليم الأصنام ، وهزم الأحزاب ، وصبر على الأذى وشظف العيش . ولاشك أن مثل هذه الذكريات تملأ قلوبنا إيماناً ، وتشحن نفوسنا عزيمة ومضاءً .

---

٣ ــ أخرجه البخاري [الفتح ٧ / ٤٠٧ ــ ٤٠٨ // ٤١١٩ الطبعة السلفية] ، ومسلم [٣ / ١٣٩١ // ٦٩ من كتاب الجهاد طبعة عبد الباقي ، وفيه صلاة الظهر بدل العصر] .

مصادر السيرة النبوية

١ ــ القرآن الكريم :

من أهم مصادر السيرة النبوية وأوثقها القرآن الكريم الذي لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد . ولقد حدثنا القرآن الكريم عن ولادة الرسول ﷺ ، ويتمه ، وأميته ، وفقره .

وحدثنا القرآن الكريم أيضاً عن بدء الوحي ، وعن الجهر بالدعوة ، وعداوة المشركين لرسول الله ﷺ وزعمهم بأن مايأتي به سحر وشعر وأضغاث أحلام وجنون ، وأن له رئيساً من الجن يعلمه ، ومنهم من قال : إن رجلاً نصرانياً كان يعلم رسول الله ﷺ القرآن .

وورد في القرآن الكريم قصة المجرم أبي لهب ــ عم النبي ــ وامرأته أم جميل التي كانت تطرح الشوك على طريق رسول الله ﷺ حيث يمر ، فسماها القرآن [حمالة الحطب] .

وأشار القرآن الكريم إلى قصة الإسراء ، والجن الذين كانوا يستمعون القرآن ، وبيعة النساء ، وهجرته ﷺ من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة .

واستفاض القرآن العظيم في الحديث عن غزوات الرسول ﷺ ومن أشهرها : بدر ، وأحد ، والأحزاب ، والحديبية ، وفتح مكة ، وحنين ، وتبوك .

وأنزل الله سبحانه وتعالى سوراً وآيات في المنافقين ، بيَّنت لنا أخلاقهم ، وصفاتهم ، وتناقض مواقفهم ، وشدة عداوتهم لرسول الله ﷺ ، وكيف يعرفهم المسلمون .

وفصَّل لنا القرآن الكريم القول في اليهود الذين جاوروا رسول الله ﷺ حيناً من الزمن في المدينة ، كما فصَّل القرآن القول في اليهود قديماً وحديثاً وكيف أشربوا الغدر والكفر والمكر والخيانة .

وذكر لنا القرآن الكريم شيئاً غير قليل عن أخلاق الرسول ﷺ وفضائله ، وما أكرمه الله به من معجزات .

وأسلوب القرآن فريد في عرض الأحداث : فريد في البيان المعجز ، وفريد في دقة الوصف ، وجلّ من قائل :
﴿ صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون ﴾ (٤) .

وإذا كانت كتب السيرة قد وقفت عند ذكر الوقائع والأحداث ، فالقرآن الكريم كان يذكر الحدث ويعقب عليه ويبيّن مافيه من أحكام شرعية تتجاوز ظروف الحدث ويلتزم بها المسلمون في كل عصر ومصر .

٢ ـــ كتب الحديث :

حفظت لنا كتب الحديث أقوال الرسول ﷺ وأفعاله ، وامتاز الصحيح منها عن الضعيف والموضوع بطريقة علمية لايرقى إليها شك .

ومن أهم كتب الحديث وأشهرها : الكتب الستة : أي صحيح البخاري ، وصحيح مسلم ، وأبو داود ، والنسائي ، والترمذي ، وابن ماجة ، ويتلوها المسانيد : كمسند الإمام أحمد ، ومسند الدارمي ، ومسند أبي يعلى الموصلي ، ومسند الحميدي ... وأصح هذه المسانيد وأوثقها مسند الإمام أحمد .

وقد تضمنت كتب المسانيد مرويات كل صحابي مجموعة ومذكورة على حده ، أما الكتب الستة فقد صنفت أحاديثها على الأبواب ـــ أي حسب تصنيف كتب الفقه . ومما يجدر ذكره أن الصحيح من كتب الحديث وحده يكفي للكتابة عن سيرة المصطفى ﷺ .

٣ ـــ كتب السيرة والتاريخ :

وهي كثيرة ومتنوعة ومن أشهرها مايلي :
أ ـــ كتب المغازي ومن أهمها : مغازي ابن إسحاق ، ومغازي الواقدي .
ب ـــ كتب التاريخ الإسلامي ومن أهمها : طبقات ابن سعد ، تاريخ الأمم والملوك للإمام أبي جعفر الطبري ، والتاريخ الصغير والتاريخ الكبير لمحمد بن اسماعيل البخاري ، وتاريخ ابن حبان ، وتاريخ ابن أبي خيثمة البغدادي .

٤ ـــ سورة البقرة ، الآية : ١٣٨ .

ومن كتب المتأخرين : الروض الأنف للسهيلي ، والمختصر في سيرة خير البشر للدمياطي ، والبداية والنهاية لابن كثير ، وجوامع السيرة لابن حزم ، وزاد المعاد لابن القيم ، وشرح المواهب اللدنية للزرقاني ، والسيرة الحلبية .

ج ـ كتب دلائل النبوة ، ومن أهمها : دلائل النبوة للبيهقي ، وأعلام النبوة للماوردي ، ودلائل النبوة للأصفهاني ، والخصائص الكبرى للسيوطي .

د ـ الشمائل ، ومن أهمها : الشمائل النبوية للترمذي ، وكتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض ، وله شروح كثيرة من أبرزها شرح الشفا للشيخ علي القاري .

هـ ـ كتب صنفها بعض العلماء المتقدمين في أحوال مكة المكرمة والمدينة المنورة ، ومن أقدم الكتب في هذا الموضوع : أخبار مكة المشرفة أو كتاب فضائل الكعبة لأبي الوليد الأزرقي ، والعقد الثمين في أخبار البلد الأمين للتقي الفاسي ، وتاريخ مكة لمحمد بن إسحاق الفاكهي ، وأخبار المدينة النبوية لإبن شبه ، ووفاء الوفاء للسمهودي وغيرها .



الفصل الأول

تدوين السيرة

متى بدأت كتابة السيرة :

لم تدون السنة في حياة الرسول ﷺ كما دُون القرآن الكريم لأنها واسعة ، متعددة الجوانب ، شاملة لأعمال الرسول ﷺ وأقواله ... وتدوينها في تلك المرحلة فيه حرج كثير ، فقد تختلط بالقرآن الكريم ولو كان ذلك عن غير قصد ، ولهذا فقد نهى النبي ﷺ عن كتابة الحديث ، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :
« لاتكتبوا عني ، ومن كتب عني غير القرآن فليمحه ، وحد ثواعني ولاحرج » (٥) .

وعندما نزل أكثر القرآن وكثر حفاظه ، وصارت حمايته من الخلط متيقنة بالكتابة والتلاوة والترتيل أذن الرسول ﷺ لبعض أصحابه رضوان الله عليهم بالكتابة ، والأدلة على ذلك كثيرة منها :
أ ــ طلب رجل من أهل اليمن يوم فتح مكة من الصحابة أن يكتبوا له خطبة النبي ﷺ بعد الفتح فاستأذنوا النبي ﷺ في ذلك فقال : « اكتبوا لأبي فلان » . وعند غير البخاري : « اكتبوا لأبي شاه » (٦) .

ب ــ عن أبي هريرة قال : ما من أصحاب النبي ﷺ أحد أكثر حديثاً عنه مني إلا ما كان من عبد الله بن عمرو بن العاص ، فإنه كان يكتب ولا أكتب (٧) .

٥ ــ صحيح مسلم بشرح النووي : ١٨ / ١٢٩ .
٦ ــ صحيح البخاري ١ / ٣٨ ، ومسند أحمد ١٢ / ٢٣٢ ، وتقييد العلم للخطيب ص ٨٩ .
٧ ــ صحيح البخاري ١ / ٣٨ .

ج ـ وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال :
« كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله ﷺ أريد حفظه فنهتني قريش ، وقالوا تكتب كل شيء سمعته من رسول الله ﷺ ورسول الله ﷺ بشر يتكلم في الغضب والرضا ؟ فأمسكت عن الكتابة ، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فأومأ باصبعه إلى فيه وقال : اكتب فوالذي نفسي بيده ما خرج منه إلا حق » (٨) .

وسمى عبد الله بن عمرو بن العاص صحيفته التي كان يكتب فيها [الصادقة] ، وكان يقول : لقد حبَّبَ الحياة إلي أمران : أحدهما هذه [الصادقة] ... ثم قال : وأما الصادقة فهي صحيفة ماكتبت فيها إلا ماسمعت أذناي من رسول الله ﷺ . ويقول مجاهد : رأيت عند عبد الله بن عمرو كتاباً ، فسألته : ماهذا ؟ فقال : هذه [الصادقة] فيها ماسمعته من رسول الله ﷺ ليس في ذلك بيني وبين رسول الله ﷺ أحد (٩) .

د ـ في صلح الحديبية أمر الرسول ﷺ علياً فكتب كتاب الهدنة في نسختين أعطى المشركين نسخة منها وبقيت النسخة الأخرى عند النبي ﷺ (١٠) ، وكتب ﷺ كتاب الصدقات والديات والفرائض والسنن لعمرو بن حزم (١١) ، وبعد هجرته إلى المدينة المنورة طلب أن يحصى له كم عدد الذين يلفظون بالإسلام فأحصوا فكان عددهم خمسمائة وألفاً (١٢) .

التدوين بين النهي والإباحة :

هل تتعارض أحاديث إباحة الكتابة مع أحاديث النهي ؟!

الذي يراه الأئمة المحققون أن ليس هناك أي تعارض بين النصوص ، لأن السنة لم تدون في حياة الرسول ﷺ كما كان يدون القرآن الكريم ، ومن

٨ ـ مسند أحمد ٢ / ١٦٢ و ١٩٢ ، وسنن أبي داود ٢ / ٢٢ ، وسنن الدارمي ١ / ١٢٥ ، وجامع بيان العلم ١ / ٧١ .
٩ ـ طبقات ابن سعد ٢ / ٢ / ١٢٥ .
١٠ ـ ابن سعد في المغازي ص ٧١ [عن الرسالة المحمدية ص ٨١] .
١١ ـ جامع بيان العلم وفضله ١ / ٧١ ، وكنز العمال ٣ / ١٨٦ .
١٢ ـ صحيح البخاري ، كتاب الجهاد ، انظر فتح الباري ٦ / ١٧٧ // ٣٠٦٠ السلفية .

جهة أخرى فالسماح كان لبعض الصحابة الذين لايخشى عليهم من الخلط ، وكان بعد نزول أكثر القرآن الكريم .

ومن يتأمل نصوص إباحة الكتابة يعلم أنها وردت في الفترة الأخيرة من حياة الرسول ﷺ . وذهب بعض العلماء — ورأيهم ينسجم مع ماذكر آنفاً — إلى أن أحاديث السماح بالكتابة نسخت أحاديث النهي عنها ، وممن قال بهذا الرأي :
ابن قتيبة الدينوري ، وابن حجر العسقلاني ، وابن القيم ، ونقل ابن كثير وأبو عمرو بن الصلاح إجماع الأمة على جواز كتابة الحديث ، ولولا تدوينه لدرس في الأعصر الأخيرة (١٣) .

التدوين في عهد عمر بن عبد العزيز :

عندما اتسعت رقعة الدولة الإسلامية ، وكثرت طبقات الرواة ، وتفشى الكذب على رسول الله ﷺ ، وقل الإعتماد على قوة الذاكرة وملكة الحفظ وصفاء الذهن ، وتفرق كبار العلماء في الأمصار ، اشتدت الحاجة في تلك المرحلة الحرجة إلى جمع السنن خوفاً عليها من الضياع ، فكان الخليفة العادل أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أول من فكر في الجمع والتدوين (١٤) فكتب إلى أحد كبار علماء عصره أبي بكر بن محمد بن حزم المتوفى [١١٧] :
« انظر ماكان من حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أو سنة ماضية أو حديث عمرة فاكتبه فإني خفت دروس العلم وذهاب أهله » (١٥) .

وكتب عمر إلى علماء المدن الإسلامية الأخرى :
« انظروا حديث رسول الله ﷺ فاجمعوه » . وفي رواية :
« فإني خفت دروس العلم وذهاب العلماء ولايقبل إلا حديث النبي ﷺ ، وليفشوا العلم وليجلسوا حتى يعلم من لايعلم ، فإن العلم لايهلك حتى يكون

١٣ — تأويل مختلف الحديث ص ٣٦٥ ، وزاد المعاد ، دار الكتب العلمية ٤ / ١٨٢ .
١٤ — انظر فتح الباري : ١ / ٢٠٤ .
١٥ — سنن الدارمي ١ / ١٢٦ ، وتقييد العلم ص ١٠٥ ، وعمرة هي بنت عبد الرحمن الأنصارية من أعلم الناس بحديث عائشة ، وهى خالة أبي بكر بن محمد بن حزم .

سراً » (١٦) .

وقد توفي أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز قبل أن يرى الكتب التي جمعها أبو بكر بن حزم كما يذكر ذلك بعض العلماء ، ولكن لم تفته أولى ثمار جهوده التي حققها ابن شهاب الزهري الذي يقول :
« أمرنا عمر بن عبد العزيز بجمع السنن فكتبناها دفتراً دفتراً فبعث إلى كل أرض له عليها سلطان دفتراً » (١٧) .

٣ ـــ أعلام رجال الطبقة الأولى :

أ ـــ أبان بن عثمان (١٨) :

هو ابن الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه ولد في المدينة المنورة حوالي عام عشرين للهجرة وتوفي فيها حوالي عام ١٠٥ هـ .

كان رضي الله عنه من فقهاء المدينة السبعة المشهورين ، ومن كبار رواة الحديث ، وفضلاً عن ذلك فقد كان عالم المدينة في المغازي والسير ، قال ابن سعد وهو يترجم للمغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث ابن هشام بن المغيرة :
« وكان ثقة قليل الحديث ، إلا مغازي رسول الله ﷺ ، أخذها عن أبان بن عثمان » .

وكان أبان بن عثمان من تلامذة أنس بن مالك المعدودين ، وتتلمذ على يديه ـــ أبان ـــ عدد من العلماء الأفذاذ من أبرزهم محمد بن مسلم بن شهاب الزهري .

وكتب أبان صحفاً عن حياة رسول الله ﷺ وصلتنا بروايات تلاميذه عنه (١٩) .

١٦ ـــ فتح الباري ١ / ٢٠٤ .
١٧ ـــ جامع بيان العلم وفضله ١ / ٧٦ .
١٨ ـــ لم نتوقف في حديثنا عن أعلام رجال الطبقة الأولى عند الذين كتب إليهم عمر بن عبد العزيز ، وإنما تحدثنا عن بعض أساتذتهم الذين كان لهم اليد الطولى في هذا العمل الجليل .
١٩ ـــ في الترجمة لأبان بن عثمان اعتمدت على المصادر التالية : تهذيب التهذيب ١ / ٩٧ ، والطبقات الكبرى لابن سعد ٥ / ١٥١ و ٥ / ١٧٩ .

ب ــ عروة بن الزبير :

هو عروة بن الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب ، وأمه أسماء ــ ذات النطاقين ــ بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما . ولد في المدينة المنورة سنة ٢٦ للهجرة ، وتوفي رحمه الله سنة ٩٣ هـ وقال ابن سعد سنة ٩٤ هـ . قال محمد بن عمر : روى عروة عن أبيه ــ الزبير بن العوام ــ وعن زيد بن ثابت ، وأسامة بن زيد ، وعبد الله بن الأرقم ، وأبي أيوب ، والنعمان بن بشير ، وأبي هريرة ، ومعاوية ، وعبد الله بن عمرو ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن العباس ، وعبد الله بن الزبير ...

وكانت عائشة ــ أم المؤمنين ــ رضي الله عنها خالة عروة ، وكان كثير التردد عليها والتعلم منها وقد روى عنها .

وكان عروة أحد فقهاء المدينة السبعة ، ومن أبرز علماء السيرة والمغازي فيها ، وتتلمذ على يده عدد غير قليل من علماء التابعين ، منهم ابن شهاب الزهري ، وكان عبد الملك بن مروان ــ الخليفة الأموي ــ يرسل إليه يسأله عن أحداث السيرة .

قال العجلي عن عروة :
لم يدخل نفسه في شيء من الفتن ، وقال ابن شوذب : كان يقرأ كل ليلة ربع القرآن ومات وهو صائم ، وقال الزهري : عروة بحر لاتكدره الدلاء ، وكان يتألف الناس على حديثه .

وروى ابن سعد عن هشام بن عروة أن أباه أحرق يوم الحرة عدة كتب ، وفي هذا الخبر دليل على انتشار التأليف في عصره (٢٠) .

ج ــ وهب بن منبه :

هو أبو عبد الله وهب بن منبه اليماني الصنعاني صاحب الأخبار والقصص ، ولد سنة ٣٤ هـ ونشأ في أسرة اشتهر معظم رجالها بالعلم ، وتأثر باهتمامات

٢٠ ــ انظر وفيات الأعيان ٢ / ٤٢٠ ، والطبقات الكبرى ٥ / ١٧٩ ، وخلاصة تهذيب الكمال ٢٦٥ .

أهله وذويه العلمية ، وولي القضاء لعمر بن عبد العزيز ، وكانت وفاته رحمة الله عليه سنة ١١٠ هـ .

وروى وهب عن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري ، وعبد الله بن عمر ، وابن عباس ، وجابر بن عبد الله وغيرهم ، وروى عنه ابناه عبد الله وعبد الرحمن ، وأخواه اسماعيل وهمام ، وعمرو بن دينار ، واسرائيل ابن موسى ، وأخرج له البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي والترمذي ، وحديثه في الصحيحين عن أخيه همَّام .

وكان وهب واسع العلم ، طرق موضوعات شتى ، وكانت له عناية واهتمام بأحاديث أهل الكتاب . سئل أبو زرعة عن وهب بن منبه فقال : يماني ثقة . وقال الذهبي : كان ثقة صادقاً كثير النقل من كتب الإسرائيليات . وقال الإمام أحمد : كان يتهم بشيء من القدر ثم رجع [٢١] .

ومما يجدر ذكره أنه قد وجد في مجموعة أوراق بردى في مدينة هيدلبرج بألمانيا قطعة من كتابه الذي ألفه في المغازي ، وتاريخ نسخ هذه القطعة عام ٢٢٨ هـ وتحتوي على معلومات عن بيعة العقبة الكبرى ، وحديث قريش في دار الندوة ، والإستعداد للهجرة ، ووصول النبي ﷺ إلى المدينة [٢٢] .

د ـــ ابن شهاب الزهري :

هو أبو بكر محمد بن مسلم بن عبيد الله بن شهاب الزهري القرشي ، ولد سنة [٥٠] للهجرة وتوفي سنة ١٢٤ هـ .

بذل الزهري جهداً جباراً في جمع الروايات عن سيرة النبي ﷺ وهديه وأحاديثه . قال صاحب تهذيب التهذيب :

كان يطوف على بيوت الأنصار في المدينة ويغشى كل بيت منها ، ويسأل عن أحاديث النبي ﷺ وهديه وسيرته كل من يلقاه من نساء ورجال وشيوخ وشباب ، حتى كان يسأل العواتق في خدورهن عن أحوال النبي ﷺ وأقواله

---

٢١ ـــ انظر تذكرة الحفاظ ١ / ١٠٠ ، والطبقات الكبرى لابن سعد ٥ / ٥٤٣ .

٢٢ ـــ محمد بن إسحاق وأثره في كتابة السيرة ، بحث أعده عبد الشافي محمد عبد اللطيف ونشره في مجلة كلية العلوم الإجتماعية بجامعة الإمام محمد بن سعود ـــ العدد الخامس عام ١٤٠١ هـ .

ويكتبه .

روى الزهري ــ من الصحابة ــ عن أنس بن مالك ، وسهل بن سعد ، وأبي الطفيل ، والسائب بن يزيد ، وعبد الله بن ثعلبة ، ورأى ابن عمر ... ثم جلس إلى كبار التابعين في عصره : كسعيد بن المسيب ، وعروة بن الزبير ، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة .

وروى عنه عدد من الأئمة الأعلام منهم : مالك بن أنس ، وعطاء بن أبي رباح ، وعمر بن عبد العزيز ، والأوزاعي ، وابن جريج ، وأبو حنيفة النعمان ، وابن إسحاق ، وخرج له الشيخان ــ البخاري ومسلم ــ وأصحاب السنن الأربعة ، ولايخلو مسند محدث ولاحافظ من تخريج أحاديث له .

نشأ الزهري فقيراً وتوجهت عنايته أولاً للقرآن الكريم فحفظه في ثمانين ليلة . قال الإمام مالك :
« كان الزهري إذا دخل المدينة لم يحدث بها أحد من العلماء حتى يخرج منها ، وأدركت بالمدينة مشايخ أبناء سبعين وثمانين لايؤخذ عنهم ، ويقدم ابن شهاب وهو دونهم في السن فيزدحم عليه » . وقال ابن خلكان :
« كتب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه إلى الآفاق : عليكم بابن شهاب ، فإنكم لاتجدون أحداً أعلم بالسنة الماضية منه » .

وقال أبو الزناد :
« كنا نكتب الحلال والحرام ، وكان ابن شهاب يكتب كل ماسمع ، فلما احتيج إليه علمت أنه أعلم الناس » .

وقال صاحب وفيات الأعيان :
« كان ــ أي الزهري ــ إذا جلس في بيته وضع كتبه حوله فيشتغل بها عن كل شيء من أمور الدنيا فقالت له امرأته يوماً والله لهذه الكتب أشد عليَّ من ثلاث ضرائر » (٢٣) .

---

٢٣ ــ انظر تهذيب التهذيب في ترجمة الزهري ، وجامع بيان العلم ص ٣٧ ، والسنة ومكانتها في التشريع ص ٣٩٤ .

هـ ــ عبد الله بن أبي بكر بن حزم :

هو عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم المدني المتوفى ١٣٠هـ كان محدثاً ومؤرخاً ، وقد عهد إليه عمر بن عبد العزيز أن يبدأ في تدوين سنن النبي ﷺ وأخباره ، وأوصاه أن يكتب له ماعند خالته عمرة بنت عبد الرحمن الأنصارية وكانت من كبريات تلاميذ أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ، فاختص القاضي أبو بكر بتدوين مروياتها .

فقام أبو بكر بن حزم بمهمته خير قيام ، وكتب الأحاديث والأخبار والسنن في قراطيس ، وأرسلها إلى دار الخلافة بدمشق ، ونسخت في الصحف والكتب وبعث بها إلى البلاد الإسلامية وكبريات المدن يومئذٍ (٢٤) .

٤ ــ محمد بن اسحاق

لايجهل منصف إمامة ابن اسحاق في المغازي والسير ، ويكفيه أنه مامن عالم من علماء المسلمين الذين جاءوا بعد عصره في القديم والحديث كتب عن حياة رسول الله ﷺ وغزواته وشمائله ولادلائل نبوته إلا ونقل عن ابن اسحاق .

فمن هذا الذي لاتكاد تذكر السيرة النبوية من غير أن يذكر معها اسمه ، وعمن أخذ العلم ومن الذين تتلمذوا على يديه ، وماذا قال عنه علماء الجرح والتعديل ؟!

نبذة عن حياته :

هو أبو بكر محمد بن اسحاق بن يسار أبو عبد الله المدني ، المطلبي بالولاء صاحب المغازي والسير . وكان جده يسار مولى قيس بن مخرمة بن المطلب بن عبد مناف القرشي سباه خالد بن الوليد من عين التمر بالعراق عندما فتحها عام ١٢ هـ ، وأرسل مع غيره من الأسرى إلى المدينة ... وقد أسلم يسار فأعتقه مولاه .

---

٢٤ ــ انظر الفهرست لابن النديم ص ٢٢٦ ، ومختصر جامع بيان العلم ص ١٣٨ .

وكان ليسار ثلاثة أولاد أحدهم اسحاق الذي أنجب محمداً صاحب هذه الترجمة .

ولد محمد بن اسحاق في المدينة المنورة عام ٨٥ من الهجرة ، ونشأ في بيت علم ، فلقد كان أبوه ــ اسحاق ــ عالماً محدثاً فقيهاً ، وكثيراً مانجد محمداً يقول : حدثني أبي اسحاق بن يسار .

وقد أدرك ابن اسحاق أنس بن مالك ، وتتلمذ على كبار التابعين ، ومنهم القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق ، وأبان بن عثمان بن عفان ، وسعيد بن المسيب ، ونافع مولى عبد الله بن عمر ، وعبد الله بن أبي بكر بن حزم ، وسعيد ابن أبي هند ، والمقبري ، وعطاء ... وكان من أبرز تلاميذ الزهري .

وروى عن ابن اسحاق : زياد بن عبد الله البكائي ، ويونس ابن بكير ، وسلمة بن الفضل ، وإبراهيم بن سعد ، والحمادان ، ويزيد بن هارون .

وفي عام ١١٥ هـ رحل ابن اسحاق إلى مصر فسمع من علمائها وعاد إلى المدينة المنورة ولم يغادرها إلا بعد سقوط الدولة الأموية سنة ١٣٢ هـ ، ففي هذه السنة زار العراق وتجول فيها ، واتصل بالخليفة العباسي أبي جعفر المنصور وهو في الحيرة ، ويقال أنه وضع كتاب المغازي بأمر منه ، وسمع منه أهل الكوفة ، وأخيراً وافته المنية ودفن في بغداد عام ١٥١ هـ .

الموثقون لابن اسحاق :

قال ابن شهاب الزهري : « من أراد المغازي فعليه بابن اسحاق » وذكر الساجي أن أصحاب الزهري كانوا يلجأون إلى محمد بن اسحاق فيما شكوا فيه من حديث الزهري ، ثقة منهم بحفظه .

وروي عن الإمام الشافعي رضي الله عنه أنه قال : من أراد أن يتبحر في المغازي فهو عيال على ابن اسحاق . وقال يحي ابن معين : « ابن اسحاق ثبت في الحديث » ، وسئل ابن معين عن ابن اسحاق فقال :
« قال عاصم بن عمر بن قتادة لايزال في الناس علم ماعاش محمد بن اسحاق » .

وقال سفيان بن عيينة : « ماأدركت أحداً يتهم ابن اسحاق في حديثه » ، ويقول شعبة بن الحجاج : « محمد ابن اسحاق أمير المؤمنين ــ يعني في

الحديث ـــ ، وروى يزيد بن هارون عن شعبة أنه قال : « لو كان لي سلطان لأمرت ابن اسحاق على المحدثين » .

وقال أبو زرعة : « قد أجمع الكبراء من أهل العلم على الأخذ منه ... ثم قال : سألت يحي بن معين عن ابن اسحاق ، هو حجة ؟ قال : هو صدوق ، الحجة عبيد الله بن عمر ، والأوزاعي ، وسعيد بن عبد العزيز .

وقال الذهبي عن حديث ابن اسحاق : « فالذي يظهر لي أن ابن اسحاق حسن الحديث ، صالح الحال صدوق ، وماانفرد به ففيه نكاره ، وقد احتج به أئمة ، فالله أعلم » .

وقال الذهبي عن مكانة ابن اسحاق في المغازي والسير : « والذي تقرر عليه العمل أن ابن اسحاق إليه المرجع في المغازي والأيام النبوية ، وكان أحد أوعية العلم حبراً في معرفة المغازي والسير » .

وذكر البخاريُ ابن اسحاق في تاريخه ووثقه ، ولم يذكره في كتاب الضعفاء ، وخرَّج له مسلم في صحيحه ، كما روى له أبو داود والنسائي وابن ماجة والترمذي .

وقال المرزباني : « محمد ابن اسحاق أول من جمع من مغازي رسول الله ﷺ ، وألفها » .

وقال أبو بكر بن الأثرم سألت أحمد بن حنبل عن محمد بن اسحاق كيف هو ؟ فقال : هو حسن الحديث .

المجرحون لابن اسحاق

بلغ الإمام مالك أن ابن اسحاق قال : « هاتوا حديث مالك فأنا طبيب بعلله ، فقال مالك : ومابن اسحاق ؟ إنما هو دجال من الدجاجلة ، نحن أخرجناه من المدينة يشير ـــ والله أعلم ـــ أن الدجال لايدخل المدينة » .

وذكر العلماء أسباباً أخرى للعداوة بين مالك بن أنس وابن إسحاق ، منها أن ابن اسحاق كان يتهم بالتشيع وينسب إلى القدر ، ومنها أن ابن اسحاق كان يطعن بنسب الإمام مالك .

وجرَّح هشامُ بن عروة ابن اسحاق لما سمع أنه يروي عن امرأته فاطمة بنت المنذر بن الزبير . فأنكره وقال : أهو كان يدخل على امرأتي .

وقال الذهبي يرد على هشام بن عروة : « قد أجبنا على هذا ، والرجل فما قال أنه رآها ، أفبمثل هذا يعتمد على تكذيب رجل من أهل العلم . هذا مردود » .

وقد أصاب الذهبي فيما قاله ، فالصحابة رووا عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنهم أجمعين ، والرواية عن امرأة لاتعني أن الراوي قد شاهدها ، ويضاف إلى ذلك أن فاطمة بنت المنذر تكبر ابن اسحاق بسبع وثلاثين سنة ، فقد ولدت عام ٤٨ هـ .

أما اتهامه بالقدر فيرد عليه محمد بن عبد الله بن نمير فيقول : « كان ابن اسحاق يرمى بالقدر ، وكان أبعد الناس منه » .

ولاقيمة لتجريح الإمام مالك وهشام بن عروة بابن اسحاق . قال الذهبي رحمه الله : « كلام الأقران بعضهم في بعض لايعبأ به لاسيما إذا لاح لك أنه لعداوة أو لحد لاينجو منه إلا من عصم الله وماعلمت أن عصراً من الأعصار سلم أهله من ذلك سوى الأنبياء والصديقين ولو شئت لسردت من ذلك كراريس » .

ومن الجدير بالذكر أن الذين وثقوا ابن اسحاق من كبار علماءالحديث ما كانوا يجهلون مثل هذه الإتهامات ، ورغم ذلك لم يعبأوا بها .

وقصارى القول : فإن الذين نقدوا ابن اسحاق من غير خصومة أخذوا عليه أنه كان يضع في السيرة شعراً ـــ الدارقطني وغيره ـــ ومع هذا قالوا : إنه صالح الحديث .

وأخذ عليه بعض العلماء أنه كان يأخذ روايات أهل الكتاب دون أن يمحصها ، وكان يقول : حدثني بعض من يسوق أحاديث الأعاجم من أهل الكتاب .

وإذا استبعدنا من سيرة ابن اسحاق الشعر والإسرائيليات فيبقى ابن اسحاق ثقة عدلاً عند علماء الجرح والتعديل في السيرة والمغازي ، أما في الحديث

فهو صدوق وحديثه حسن . والله أعلم [٢٥] .

تدوين السيرة بعد ابن اسحاق

شهدت السيرة النبوية عصرها الذهبي من العناية والتدوين بعد وفاة ابن اسحاق رحمه الله ، وقد نهض من طلابه بهذه المهمة :

ــ زياد بن عبد الله البكائي المتوفي عام ١٨٣ والذي قال عنه ابن إدريس : « ماأحد أثبت في ابن اسحاق منه لأنه أملى عليه إملاءً مرتين » ، وقال صالح بن محمد :

« ليس كتاب المغازي عند أحد أصح منه عند زياد ، وزياد في نفسه ضعيف ولكن هو أثبت الناس في هذا الكتاب ، وذلك أنه باع داره وخرج به مع ابن اسحاق حتى سمع منه الكتاب » [٢٦] .

ــ يونس بن بكير الشيباني الكوفي المتوفى عام ١٩٩ هـ ،وثّقه عدد كبير من المحدثين ، وقال الذهبي عنه :

« صاحب المغازي وأنه ألف ذيلاً على مغازي ابن اسحاق » .

وقد استفاد من روايته عن ابن اسحاق كل من الحاكم في مستدركه ، وابن الأثير في أسد الغابة ، وابن حجر في الإصابة [٢٧] .

ــ سلمة بن الفضل المتوفى عام ١٩١ هـ والذي اعتمد عليه الطبري فيما يرويه عن ابن اسحاق .

سيرة ابن هشام :

هو أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المتوفى عام ٢١٣ هـ مؤرخ ونسابة ونحوي .

٢٥ ــ اعتمدت فيما كتبته عن ابن اسحاق على المراجع التالية :
وفيات الأعيان ٣ / ٤٠٦ ، وميزان الإعتدال ١ / ١١١ و ٣ / ٤٦٨ ــ ٤٧٥ ، وتهذيب التهذيب ٩ / ٣٨ ، والطبقات الكبرى ٧ / ٢ / ٦٧ ، وتذكرة الحفاظ ١ / ١٧٢ ، وتاريخ بغداد ١ / ٢١٨ .

٢٦ ــ تهذيب التهذيب ٥ / ٥٣ .

٢٧ ــ تذكرة الحفاظ ١ / ٣٢٦ .

هذب ابن هشام سيرة ابن اسحاق ، وقال في مقدمة كتابه :
« وأنا — إن شاء الله — مبتدأ هذا الكتاب بذكر إسماعيل ابن إبراهيم ومن ولد رسول الله ﷺ ، من ولده وأولادهم لأصلابهم ، الأول فالأول ، من إسماعيل إلى رسول الله ﷺ ، ومايعرض من حديثهم وتارك ذكر غيرهم من ولد إسماعيل على هذه الجهة ، للإختصار إلى حديث رسول الله ﷺ ، وتارك بعض ماذكره ابن إسحاق في هذا الكتاب مما ليس لرسول الله ﷺ فيه ذكر ، ولا نزل فيه من القرآن شيء ، وليس سبباً لشيء من هذا الكتاب ، ولاتفسيراً له ، ولاشاهداً عليه ، لما ذكرت من الإختصار ، وأشعاراً ذكرها لم أرى أحداً من أهل العلم بالشعر يعرفها ، وأشياء بعضها يشنع الحديث به ، وبعض يسوء بعض الناس ذكره ، وبعض لم يقر لنا البكائي بروايته ، ومستقصى — إن شاء الله — ماسوى ذلك بمبلغ الرواية له والعلم به » (٢٨) .

وإذن فابن هشام ترك من سيرة ابن إسحاق بعض الأشعار التي لم يرى أحداً من أهل العلم بالشعر يعرفها ، وأموراً أخرى لم تثبت صحتها عنده ، ومما يجب ذكره أن كثيراً مما حذفه ابن هشام ذكره غيره من المؤرخين كالطبري وغيره .

وتعد سيرة ابن هشام من أقدم وأجمع مادون في السيرة ، وقد طبعت في بولاق ثم ظهرت عدة طبعات لها ، وقد حظيت بعناية العلماء على مر العصور والأزمان ، فبعضهم شرحها وحقق شيئاً منها ، وبعضهم هذبها ولخصها .
وبعد ابن هشام غلب طابع التخصص على المؤلفين : فابن سعد في طبقات الصحابة والتابعين ومن بعدهم إلى وقته .
والطبري في التاريخ ، وقد جمع في سفره النفيس الكتب التي ألفت في القرنين السابقين عليه . والبيهقي وابن قتيبة في دلائل النبوة ، والترمذي والقاضي عياض في الشمائل .

وكان التصنيف في كتب الحديث يسير جنباً إلى جنب مع كتب السيرة منذ الطبقة التي تلي طبقة الزهري ، ومن أشهر هؤلاء المصنفين :
عبد الملك بن جريج إمام أهل الحجاز المتوفى ١٥٠ هـ . ومالك بن أنس [ت ١٧٩] إمام أهل المدينة . وسفيان الثوري [ت ١٦١] في الكوفة ، والأوزاعي [ت ١٥٧] في الشام .

---

٢٨ — سيرة ابن هشام ١ / ٢٩ من ترجمة محمد محي الدين لابن هشام .

ومنذ بداية القرن الثالث الهجري أخذ العلماء يفردون الحديث بالجمع والتأليف بعد أن كان ممزوجاً بأقوال الصحابة وفتاوى التابعين .

ولقد كان القرن الثالث الهجري من أهم عصور الحديث وأسعدها ففيه ظهر كبار المحدثين كالإمام أحمد ، والبخاري ، ومسلم ، وأبي داود ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجة .



الفصل الثاني

الجرح والتعديل

هو علم يبحث في أحوال الرواة وميولهم وأخلاقهم وعقائدهم ، وقد دعت الحاجة إليه أثر الفتن التي وقعت بين المسلمين كموقعة الجمل وصفين والنهروان والتي أسفرت عن ظهور أهل البدع والأهواء كالرافضة والخوارج .

ولجأ أتباع هذه الفرق إلى الوضع في الحديث تأييداً لمذاهبهم الباطلة ، فالشيعة وضعوا أحاديث في فضل علي والطعن في معاوية ، والمنحرفون من خصومهم وضعوا أحاديث في فضائل أبي بكر وعمر وعثمان .

قال ابن سيرين :

« لم يكونوا يسألون عن الإسناد ، فلما وقعت الفتنة قالوا : سمُّوا لنا رجالكم ، فينظر أهل السنة فيؤخذ حديثهم ،وينظر إلى أهل البدع فلايؤخذ حديثهم » (٢٨) .

وفي رواية لمسلم عن مجاهد قال :

« جاء بشير العدوي إلى ابن عباس فجعل يحدث ويقول : قال رسول الله ﷺ ، فجعل ابن عباس لايأذن لحديثه ، ولاينظر إليه ، فقال :

ياابن عباس ، مالي لاأراك تسمع لحديثي ، أحدثك عن رسول الله ﷺ ولاتسمع ؟ فقال ابن عباس :

إنا كنا مرة إذا سمعنا رجلاً يقول : قال رسول الله ﷺ ابتدرته أبصارنا ، وأصغينا إليه بآذاننا ، فلم ركب الناس الصعب والذلول لم نأخذ من الناس إلا مانعرف » (٢٩) .

---

٢٨ ــ رواه مسلم في صحيحه ، انظر صحيح مسلم بشرح النووي ١ / ٨٤ .

٢٩ ــ صحيح مسلم بشرح النووي ١ / ٨١ .

وفي رواية لمسلم بسنده عن عبد الله بن المبارك قال :
« الإسناد (٣٠) من الدين ، ولولا الإسناد لقال من شاء ماشاء » (٣١) .

وإذن فلقد كان الصحابة يتشددون في قبول الرواية بعد وقوع الفتنة ، كما أنهم كانوا يتشددون قبلها ، ومن الأدلة على ذلك أن أبا بكر الصديق حين سئل عن الجدة هل ترث ؟ فأجابه المغيرة بن شعبة أنها ترث السدس فطلب منه أن يأتيه بشاهد (٣٢) فشهد محمد بن مسلمة ، ولعمر بن الخطاب مواقف كثيرة تدل على تشدده في قبول الرواية ، وقد أصاب الذهبي عندما قال في ترجمته :
« وهو الذي سنَّ للمحدثين التثبت في النقل » .

وفيما استدركته عائشة على الصحابة أنها سمعت حديث عمر وابنه عبد الله أن رسول الله ﷺ قال : « إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه » فقالت : رحم الله عمر ، والله ماحدث رسول الله ﷺ أن الله يعذب المؤمنين ببكاء أحد ، ولكن قال :

إن الله يزيد الكافر عذاباً ببكاء أهله عليه . وقالت : حسبكم القرآن : ﴿ ولاتزرُ وازرةٌ وزرَ أخرى ﴾ .

وفي رواية مسلم أنها قالت : « إنكم لتحدثوني غير كاذبين ولامكذبين ، ولكن السمع يخطيء » (٣٣) .

وممن عرف بالكلام من الرجال من الصحابة : علي بن أبي طالب ، وعبد الله بن عباس ، وعبد الله بن سلام ، وعبادة بن الصامت ، وأنس ابن مالك ، وعائشة .

ومن التابعين : الشعبي ، ومحمد بن سيرين ، وسعيد بن المسيب ، وسعيد

---

٣٠ ــ سلسلة الرواة المتلقى عنهم ، وهو أيضاً العلم الذي يعرف به حال الراوي والمروي ، من حيث القبول والرد ، وما يتبع ذلك من كيفية التحمل ، والأداء ، والضبط وسماه علماء الحديث [علم الحديث دراية] .

٣١ ــ صحيح مسلم بشرح النووي ١ / ٨٧ .

٣٢ ــ لم يكن الصحابة الذين يتشددون سيكذبون أحداً ، ولكن كانوا يتثبتون في النقل ، لأهمية الحديث ولما يترتب عليه من أحكام شرعية .

٣٣ ــ صحيح البخاري ، الجنائز ٢ / ٧٧ ــ ٨٠ ، ومسلم ٣ / ٤٢ ــ ٤٣ .

بن جبير .

وفي آخر عصر التابعين ـــ أي في حدود سنة ١٥٠ هـ تكلم في الجرح والتعديل طائفة من الأئمة النقاد منهم : شعبة بن الحجاج ، ومالك بن أنس ، ومعمر بن راشد الأزدي ، وهشام الدستوائي ، وعبد العزيز بن الماجشون ، وحماد بن سلمة ، والأوزاعي ، وسفيان الثوري ، والليث بن سعد ، وحماد بن زيد ، وعبد الله بن المبارك ، وهشيم بن بشير ، وأبو إسحاق الفزاري ، وسفيان بن عيينة ، ووكيع بن الجراح ، ويحي بن سعيد القطان ، وعبد الرحمن بن مهدي ، وأبو داود الطيالسي ، وعبد الرزاق بن همام ، وعبد الله بن الزبير الحميدي ، وأبو عبيد القاسم بن سلام .

وجاء بعدهم : يحي بن معين ، والدارمي ، والبخاري ، وأبو زرعة ، وأبو حاتم ، والرازي ، ومسلم وأبو داود ... وتلاهم جماعات يضيق المقام عن ذكر أسمائهم [٣٤] .

ومن الجدير بالذكر أن علماء الجرح والتعديل تميزوا بالورع والدقة ، وتجردوا لله غاية التجرد ، وترفعوا عن الشحناء والبغضاء ، وكانوا في دراستهم لأحوال الرواة أمناء أتقياء ، لم تؤثر فيهم روابط الصداقة أو القرابة ، ولاكانوا يخشون بطش الحاكمين وظلم الظالمين ، لأن سنة رسول الله ﷺ أحب إليهم من الدنيا وشهواتها ... وهذا أبو ذر رضي الله عنه يقول :
« لو وضعتم الصَّمصامة على هذه ـــ وأشار إلى قفاه ـــ ثم ظننت أنّي أنفذ كلمة[٣٥] سمعتها من النبي ﷺ قبل أن تُجيزوا عليّ لأنفذتها » [٣٦] .

وقال أبو بكر بن خلاد ليحي بن سعيد القطان : أما تخشى أن يكون هؤلاء الذين تركت حديثهم خصماءك عند الله ؟ فقال :لأن يكونوا خصمائي أحب إلي من أن يكون خصمي رسول الله ﷺ . يقول : لمَ لم تذب الكذب عن حديثي .

وقال أبو تراب النخشبي لأحمد بن حنبل : لاتغتب العلماء . فقال له أحمد : ويحك هذا نصيحة ليس هذا غيبة [٣٧] .

٣٤ ـــ الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث ، وتدريب الراوي .
٣٥ ـــ الصمصامة : السيف الصارم الذي لاينثني .
٣٦ ـــ صحيح البخاري ـــ كتاب العلم ـــ باب العلم قبل القول والعمل .
٣٧ ـــ تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي ٢ / ٣٦٩ ، دار الكتب الحديثة .

لقد عرف الناس في أئمة الجرح والتعديل مثل هذه الأخلاق الفاضلة فوثقوا بهم ، وأصبحت أحكامهم في الرجال مقبولة عند العلماء في كل عصر ومصر .

معرفة من تقبل روايته

كان المحدثون إذا أتوا الرجل ليأخذوا عنه نظروا إلى سمته ، وإلى صلاته ، وإلى حاله ، ثم يأخذون عنه [٣٨] إذا اطمأنوا إلى متانة دينه واستقامة سلوكه ، وقال غير واحد من التابعين رضوان الله عليهم :

« إنما هذه الأحاديث دين ، فانظروا عمن تأخذون دينكم » [٣٩] .

واشترط العلماء في المقبول روايته أن يكون عدلاً ضابطاً لما يرويه .

والعدل هو المسلم البالغ العاقل ، الذي سلم من أسباب الفسق وخوارم المروءة ، على ماحقق في باب الشهادات من كتب الفقه ، إلا أن الرواية تخالف الشهادة في شرط الحرية والذكورة وتعدد الراوي .

والذي لاتقبل روايته بسبب فقدان العدالة : الكافر، والمجنون ، والكذاب ، والفاسق ، وصاحب البدعة إذا استحل الكذب أو كفر ببدعته أو كان داعية لها ، والمنافقون .

وتثبت عدالة الراوي باستشهاره بالخير والثناء الجميل عليه ، أو بتعديل الأئمة ، أو اثنين منهم ، أو واحد على الصحيح .

ولايسأل عن عدالة الذين اشتهروا بالتوثيق وشاع الثناء عليهم : مثل مالك ، والشافعي ، وشعبة ، والثوري ، وابن عيينة ، والأوزاعي ، وأحمد بن حنبل ... سئل ابن معين عن أبي عبيد ؟ فقال :

« مثلي يسأل عن أبي عبيد ؟ أبو عبيد يسأل عن الناس » .

وأما الضبط : فهو إتقان مايرويه الراوي . بأن يكون متيقظاً لما يروي ، غير مغفل ، حافظاً لروايته إن روى من حفظه ، ضابطاً لكتابه إن روى من الكتاب ، عالماً بمعنى مايرويه . ويعرف ضبطه بموافقة الثقات المتقنين

---

٣٨ ــ تدريب الراوي ١ / ٣٠١ ، دار الكتب الحديثة .

٣٩ ــ الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ١ / ١٥ .

الضابطين ، إذا اعتبر حديثه بحديثهم ، ولاتضر مخالفته النادرة لهم ، فإن كثرت مخالفته لهم وندرت الموافقة ، اختل ضبطه ، ولم يحتج بحديثه .

والتعديل يقبل من غير ذكر السبب ، لأن تعداده يطول ، فقبل إطلاقه بخلاف الجرح ، فإنه لايقبل إلا مفسراً ، لاختلاف الناس في الأسباب المفسِّقة ، فقد يعتقد الجارح شيئاً مفسِّقاً ، فيضعفه ، ولايكون كذلك في نفس الأمر ، أو عند غيره ، فلهذا اشترط بيان السبب في الجرح .

وإذا اجتمع في الراوي جرح مبين السبب وتعديل ، فالجرح مقدم ، وإن كثر عدد المعدلين ، لأن مع الجارح زيادة علم لم يطلع عليها المعدل ، ولأنه مصدق للمعدل فيما أخبر به عن ظاهر حاله ، إلا أنه يخبر عن أمر باطن خفي عنه .

وأعلى العبارات في التعديل والتجريح أن يقال « حجة » أو « ثقة » ، وأدناها أن يقال « كذاب » وبين ذلك أمور كثيرة يعسر ضبطها (٤٠) .

كتب الجرح والتعديل :

ألف العلماء عدداً كبيراً من المؤلفات في الجرح والتعديل ، منها ماأفرد لذكر الثقات ، ومنها ماأفرد للضعفاء ، ومنها ماجمع فيها بين الثقات والضعفاء ، وهي كثيرة جداً ، ونكتفي فيما يلي بذكر أهمها :

أ ــ كتب الثقات :

ــ كتاب الثقات ، لأبي الحسن أحمد بن عبد الله بن صالح العجلي [ت ٢٦١ هـ]
ــ كتاب الثقات ، وكتاب مشاهير علماء الأمصار ، محمد بن أحمد بن حبان البستي [ت ٣٥٤ هـ] .
ــ كتاب الثقات لعمر بن أحمد بن شاهين الواعظ [ت ٣٨٥] .
ــ كتاب المدخل إلى الصحيحين لأبي عبد الله الحاكم [ت ٤٠٥ هـ] .

٤٠ ــ الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث ، أحمد محمد شاكر ، النوع الثالث والعشرون من صفحة ٨٧ إلى ١٠٠ مختصراً .

ـ كتاب الثقات لابن قطلو بغا [ت ٨٨١ هـ] في أربع مجلدات .
ـ كتاب الثقات ، خليل بن شاهين [ت ٨٧٣ هـ] .

ب ـ كتب الضعفاء :

ـ كتاب [الضعفاء الكبير] وكتاب [الضعفاء الصغير] ، محمد بن إسماعيل البخاري [ت ٢٥٦ هـ] .
ـ كتاب [الضعفاء والمتروكين] لأبي زرعة عبيد الله بن عبد الكريم الرازي [ت ٢٦٤ هـ] ، ويقتصر على أسماء الرواة وبيان جرحهم .
ـ كتاب الضعفاء لأبي جعفر محمد بن عمرو العقيلي [ت ٣٢٢ هـ] .
ـ كتاب [الضعفاء والمتروكين] لأبي عبد الرحمن النسائي [ت ٣٠٣ هـ] .
ـ كتاب [الكامل في معرفة ضعفاء المحدثين وعلل الحديث] لأبي أحمد عبد الله بن محمد بن عدي الجرجاني [ت ٣٦٥ هـ] .
ـ [ميزان الإعتدال] لأبي عبد الله بن أحمد الذهبي [ت ٧٤٨ هـ] .
ـ كتاب [لسان الميزان] لابن حجرالعسقلاني [ت ٨٥٢ هـ] وقد ضمنه ميزان الإعتدال وزوائد .

ج ـ الكتب الجامعة بين الثقات والضعفاء :

ـ تواريخ البخاري [ت ٢٥٦ هـ] وهي ثلاثة : كبير وأوسط وصغير .
ـ كتاب [التأريخ] لأبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي [ت ٢٧٩ هـ] .
ـ كتاب [الجرح والتعديل] عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي [ت ٣٢٧ هـ] .
ـ كتاب [معرفة الرجال] ، وكتاب [التأريخ والعلل] يحي بن معين [ت ٢٣٣ هـ] .
ـ كتاب [التكميل في معرفة الثقات والضعفاء والمجاهيل] للحافظ ابن كثير جمع فيه بين تهذيب المزي ، وميزان الذهبي مع زيادات وتحرير في العبارات .

د ـ كتب الموضوعات :

ـ كتاب [تذكرة الموضوعات] لأبي الفضل محمد بن طاهر المقدسي [ت ٥٠٧ هـ] .

ـ كتاب [الموضوعات من الأحاديث المرفوعات] لأبي عبد الله الحسين بن إبراهيم الجوزقاني [ت ٥٤٣ هـ] .
ـ كتاب [الموضوعات] لأبي الفرج عبد الرحمن بن علي الجوزي [ت ٥٩٧ هـ] .
ـ كتاب [تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعة] علي بن محمد بن عراق الكناني [ت ٩٦٣ هـ] .
ـ كتاب [الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة] لأبي عبد الله محمد بن علي الشوكاني [ت ١٢٥٠ هـ] .

وثمة كتب أخرى في الجرح والتعديل وفي علم الرجال نذكر منها كتب معرفة الصحابة :
ـ كتاب [الطبقات] ، خليفة بن خياط [ت ٢٤٠ هـ] .
ـ كتاب [الطبقات الكبرى] ، محمد بن سعد [ت ٢٣٠ هـ] .
ـ كتاب [الطبقات] ، محمد بن الحجاج القشيري [ت ٢٦١ هـ] وقد اقتصر فيه على الصحابة والتابعين ، ولم يترجم لهم .
ـ كتاب [الإستيعاب في أسماء الأصحاب] لأبي يوسف عمر بن عبد البر حافظ المغرب ، وقد سماه بذلك لظنه أنه استوعب كتب من قبله في كتابه ، وقد فاته شيء كثير .
ـ كتاب [أسد الغابة في معرفة الصحابة] ، عز الدين بن الأثير [ت ٦٣٠ هـ] .
ـ كتاب [الإصابة في تمييز الصحابة] الحافظ أحمد بن حجر العسقلاني [ت ٨٥٢ هـ] جمع فيه مافي الإستيعاب ومافي أسد الغابة واستدرك عليهما كثيراً (٤١) .

---

٤١ ـ المصادر التي اعتمدت عليها : الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث ، والسنة ومكانتها في التشريع للدكتور مصطفى السباعي ، وبحوث في تاريخ السنة المشرفة للدكتور أكرم ضياء العمري .

الفصل الثالث

شبهات

الشبهة الأولى :

قال المستشرقون :

« إن تدوين السيرة النبوية بدأ في القرن الثالث من الهجرة النبوية [ومنهم من قال : إن التدوين بدأ بعد تسعين عاماً من وفاة الرسول ﷺ] أي بعد وفاة الذين عاصروها من الصحابة ، وبعد نسيان كثير من الحوادث ، ولهذا تم نقلها بصورة خالية من الدقة وفيها كثير من المبالغة » .

وردي عليهم من الوجوه التالية :

الوجه الأول : إن التدوين الرسمي للسيرة النبوية تم في عهد عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، أي بعد حوالي تسعين عاماً من وفاة الرسول ﷺ ، وهذا لايعني أنه لم يكن هناك تدوين غير رسمي للسيرة ، لقد ذكرنا فيما مضى من هذا الباب أن رسول الله ﷺ كتب إلى ملوك وأمراء عصره كتباً يدعوهم فيها إلى الإسلام ، وكتب ﷺ لبعض عماله كتباً حددت فيها الزكاة في الإبل والغنم ، وذكرنا أدلة صحيحة تؤكد أن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يكتبون الحديث في حياة الرسول ﷺ ، ومن صحفهم المشهورة :

الصحيفة الصادقة لعبد الله بن عمرو بن العاص ، والصحيفة الصحيحة لأبي هريرة ، دوَّنها ورواها عنه همام بن منبه ، وصحيفة سعد بن عبادة الأنصاري ، وصحيفة أبي موسى الأشعري ، وصحيفة جابر بن عبد الله الأنصاري ، وصحيفة عبد الله بن أبي أوفى .

ومن هذه الصحف ماوصل إلينا ، كصحيفة أبي هريرة رضي الله عنه ، وطبعت بتحقيق الدكتور محمد حميد الله ، وأبو هريرة توفاه الله سنة ٥٩ هـ ، وصحيفته التي دونها ورواها تلميذه همام بن منبه محفوظة في المكتبات الأوربية

المشهورة ، ولابد أن يكون المستشرقون قد اطلعوا عليها أفلا يخجلون بعد هذا من قولهم : لم تدون السيرة إلا في القرن الثالث الهجري ؟!

وبقية الصحف وصلتنا بروايات تلاميذهم من خيار التابعين ، واشتملت عليها كتب المجاميع والمسانيد والسنن .

الوجه الثاني : إن الذين حفظوا أقوال النبي ﷺ من الصحابة رضوان الله عليهم أدّوها إلى الذين دونوها وضبطوها من التابعين ، وليس صحيحاً قول المستشرقين : إن تدوين السيرة بدأ بعد الذين عاصروها من الصحابة ، وبعد نسيان كثير من الحوادث ... « وفيما يلي أسماء آخر من مات من الصحابة ، والبلاد التي ماتوا فيها ، وسنوات وفاتهم :

آخر الصحابة موتاً	المدن التي توفوا فيها	سنة الوفاة
١ ــ أبو أمامة	الشام	٨٦ هـ
٢ ــ عبد الله بن الحارث بن جزء	مصر	٨٦ هـ
٣ ــ عبد الله بن أبي أوفى	الكوفة	٨٧ هـ
٤ ــ السائب بن يزيد	المدينة	٩١ هـ
٥ ــ أنس بن مالك	البصرة	٩٣ هـ
٦ ــ جابر بن عبد الله	المدينة	٧٨ هـ
٧ ــ أبو سعيد الخدري	المدينة	٧٤ هـ
٨ ــ عبد الله بن عباس	الطائف	٦٨ هـ
٩ ــ عائشة أم المؤمنين	المدينة	٥٨ هـ
١٠ ــ عبد الله بن عمر	مكة	٧٣ هـ
١١ ــ أبو هريرة	المدينة	٥٩ هـ

وعلى هؤلاء يعتمد في نقل السنة النبوية ، وإليهم يرجع الفضل في حفظ الرسالة المحمدية ، فإذا نظرنا إلى أعوام وفاتهم بدا لنا أن الله عز وجل نسأ في آجالهم وأطال حياتهم وأخر موتهم ، حتى تسنى لكثير من الناس أن يتلقوا عنهم ماحفظوا ، ويعوا أقوالهم ، وينشروا رواياتهم » (٤٢) .

وكان منهم خدام رسول الله ﷺ ، وزوجه عائشة ، وشباب شغلهم حفظ الحديث وفهمه عن كل أمر من أمور حياتهم .

٤٢ ــ الرسالة المحمدية ، ص ٧٤ بتصرف يسير .

وظن بعضهم خطأ أن عهد التابعين يبدأ بعد انقضاء عهد الصحابة ، والصحيح أن من التابعين من ولد في حياة النبي ﷺ لكنهم لم يروه ، « وقد ذكر ابن سعد في الطبقات ١٣٩ من التابعين أهل الطبقة الأولى الذين كانوا في المدينة وأدركوا كبار الصحابة وسمعوا منهم أحاديث النبي ﷺ ورووها عنهم . وذكر ١٢٩ من الطبقة الثانية الذين لقوا عامة الصحابة ورووا عنهم . أما الطبقة الثالثة من التابعين فهم الذين حظي الواحد منهم برؤية صحابي واحد أو عدة من الصحابة وعدد هؤلاء ٨٧ . فمجموع عدد التابعين ٣٥٥ في مدينة واحدة وهي مدينة الرسول ﷺ » (٤٣) .

ثم شاع التدوين بعد جيل التابعين ، وتتابع المسلمون جيلاً بعد جيل يحفظون حديث رسول الله ﷺ ويكتبوه حتى اكتمل جمعه أو كاد في نهاية القرن الثالث الهجري .

فأين هذا الإنقطاع الذي يزعمه المستشرقون في تدوين السنة ، وقد رأينا فيما مضى القواعد والأصول المحكمة الدقيقة التي قعدها علماء الحديث لمعرفة صحة سند الحديث ومتنه ، ومن أبسط هذه القواعد أن يكون الراوي من طبقة المروي عنه ، وقد شاهده وسمع منه ؟!

الوجه الثالث : لم يكن معظم الصحابة والتابعين يكتبون حديث رسول الله ﷺ ، لكنهم كانوا يملكون ذاكرة نادرة في الحفظ .

وقوة الذاكرة في الحفظ ميزة امتاز بها العرب عن غيرهم من الأمم ، وكل من يكتب في علوم الحديث أو في تاريخ العرب عليه أن لايتجاهل هذه الظاهرة ويكتب عنهم وكأنه يكتب عن العرب في هذا العصر .

إن العرب في جاهليتهم كانوا يحفظون آلاف القصائد والخطب والقصص ، ونمت ملكة الحفظ بعد البعثة النبوية ، فكان المحدثون يحفظون آلافاً بل عشرات الألوف من الأحاديث النبوية ، وكانوا يرون أن القراءة من الكراريس والصحف من علامات ضعف المحدث ، وأن الحفظ في الصدور أصون من التدوين في السطور .

---

٤٣ ــ المصدر السابق ص ٧٣ . والصحيح أن الطبقة الثالثة يزيدون ٦٩ على ماذكر مؤلف الرسالة المحمدية رحمه الله .

الشبهة الثانية :

ادعى المستشرقون ومن نحا نحوهم أن علماء السنة النبوية اهتموا بنقد سند الرواية ، وأهملوا نقد متنها ، وإذا ثبت الإسناد عندهم يعتبر الحديث صحيحاً ، ولو تضمن فكرة مستحيلة يصعب قبولها وتصديقها .
وردنا عليهم من الوجوه التالية :

الوجه الأول :

من يتناول كتاباً من أبسط كتب علوم الحديث يستطيع أن يقرأ فيه مايلي :
ـ الشذوذ : هو رواية الثقة حديثاً يخالف ماروى الأوثق منه .
ـ الإعلال : الإطلاع على علة تقدح في صحة الحديث مع أن الظاهر سلامته منها .
ـ اضطراب الحديث : هو أن يجيء على أوجه مختلفة في المتن أو السند من راوٍ أو أكثر وتكون الروايات متساوية بحيث يمتنع الترجيح .

والحديث لايكون صحيحاً إذا كان فيه اضطراب أوشذوذ أو إعلال ، ولو كان سنده صحيحاً ، بل وقد قال علماؤنا في تعريف الشاذ :
الشذوذ قسمان : شذوذ في السند ، وشذود في المتن ، وكذلك الحال في الإعلال والإضطراب ... وفي هذا دليل واضح على أن علماء السنة نقدوا متن الرواية كما نقدوا سندها .

الوجه الثاني :

من أهم علامات الوضع في المتن :
ـ ركاكة اللفظ لأن رسول الله ﷺ أفصح الفصحاء وسيد البلغاء .
ـ فساد المعنى ، أو مخالفته للقواعد العامة في الحِكَمِ والأخلاق .
ـ ماكان مخالفاً لصريح القرآن ، أو صريح السنة المتواترة ، أو القواعد العامة المأخوذة من الكتاب والسنة .
ـ ماكان مخالفاً لحقائق التاريخ المعروفة في عصر النبي ﷺ .
ـ اشتمال الحديث على إفراط في الثواب العظيم على الفعل الصغير ، والمبالغة

في الوعيد الشديد على الأمر الحقير .
ـــ أن يخبر عن أمر وقع بمشهد عظيم ثم ينفرد راوٍ واحد بروايته ، كحديث غدير خمّ فإنه لايجوز بل يستحيل عادة اتفاق الصحابة جميعاً على كتمانه .

هذه أهم القواعد التي وضعها العلماء لمعرفة الحديث الصحيح من الموضوع ، ومن شاء مزيداً من التفاصيل فليعد إلى كتب علوم الحديث ، وسوف يجد فيها مايلجم أفواه أصحاب الأهواء .

وقد طبق الأئمة منهجهم الرائع في نقد أسانيد الأحاديث ومتونها ، وكانوا أصحاب ذوق فني رفيع ، ومن مواقفهم المشهورة مارواه الإمام الذهبي في تذكرة الحفاظ . قال :
« أظهر بعض اليهود كتاباً بإسقاط النبي ﷺ الجزية عن الخيابرة ـــ يعني يهود خيبر ـــ ، وفيه شهادة الصحابة ، فعرضه الوزير على أبي بكر [هو أحمد ابن علي الخطيب البغدادي ت ٤٦٣ هـ] فقال : هذا مُزَوَّر .
قيل : من أين قلت هذا ؟
قال : فيه شهادة معاوية وهو أسلم عام الفتح بعد خيبر ، وفيه شهادة سعد بن معاذ ، ومات قبل خيبر بسنتين .
فاستحسن الوزير ذلك منه ولم يقبل منهم مافي هذا الكتاب » اهـ .

الوجه الثالث :

هل الخلاف بين علماء السنة النبوية والمستشرقين [ومن نحا نحوهم في القديم والحديث] حول معرفة الحديث الصحيح من الموضوع ؟

إن الخلاف بينهم أكثر عمقاً ، وأرسخ جذوراً ، وأشد خطراً !!

فعلماء السنة النبوية يؤمنون بأن القرآن الكريم كلام الله جل وعلا نزل به الروح الأمين على رسول الله محمد ﷺ .

ويعتقدون أن رسول الله ﷺ معصوم في أقواله وأفعاله ، لأنه لاينطق عن الهوى ، وتجب طاعته في كل مايأمر به .

ويرون أن الله جلّ وعلا قد أجرى على يدي نبيه بعض المعجزات وخوارق العادات .

أما المستشرقون فينكرون ابتداء نبوة محمد ﷺ ، وكل مايترتب على ذلك من وحي ومعجزات .

ومن هنا جاء نقد المستشرقين لمناهج أئمة الحديث وقولهم : لقد توسع علماء الحديث في نقد أساليب الأحاديث وأهملوا متونها .

ومن هنا جاء اعتقاد المستشرقين بأن كل حديث يخالف عقولهم غير صحيح ، مع أن عقولهم متناقضة ولايضبطها ضابط .

والغريب أن هؤلاء المستشرقين يهود ونصارى ويؤمنون بخرافات وأوهام لايقبلها دين ولاعقل .

وليس هنا مجال الحديث عن تناقضات المستشرقين فسيجيء شيء عنها في الفصول القادمة .

ومن هنا انطلقت فلول المعتزلة وتلامذة المستشرقين يرددون :
يجب تقديم العقل على النقل ــ أي الحديث النبوي الذي ثبتت صحته ــ عند التعارض ، وبشكل أكثر وضوحاً : يجب تقديم أهوائهم وبدعهم على ماصح من حديث رسول الله ﷺ عند التعارض .

لقد توسع المسلمون حقاً في نقد الأسانيد وهذه مفخرة من مفاخر ديننا ، وميزة امتاز بها المسلمون عن غيرهم من الأمم ، أما متون الأحاديث فلم يتوسعوا في نقدها إلا في النطاق الذي لابد منه ، ذلك لأن العقل عند علماء أهل السنة ليس له وصاية على الشرع ، وأن القضية من أساسها ليست قضية توسع في نقد أسانيد الأحاديث وإهمال لنقد متونها ، وإنما هي قضية تمس أصول العقيدة الإسلامية التي تفرق بين المستشرقين من جهة وبين علماء المسلمين من جهة أخرى .

الشبهة الثالثة :

يرى كثير من الكتاب الإسلاميين المحدثين أن كل ماحوته سيرة ابن هشام صحيح ، ولايقدمون أدلة علمية على ذلك ... وهذا هو مبلغهم من العلم .

وإذا اطلعت على كتاباتهم في السيرة تراهم ينقلون نصوصاً من سيرة ابن

هشام ، ويربطون بينها بجمل وعبارات إنشائية فضفاضة ، أو يتجاهلون النصوص ، ويعرضون السيرة عرضاً أدبياً ليس فيه أدنى اهتمام بالأسانيد ، بل وفي معظم الحالات يلصقون بها مفاهيم وتصورات غريبة عن المفاهيم والمعاني الإسلامية .

وفي المقابل هناك كتاب آخرون يرون أنه لايصح الإعتماد على كتب المغازي والسير البتة ، لأن الذين رووا أخبارها لم يوثقهم أحد من المحدثين ، وحسبنا الإعتماد في كتابة السيرة على ماصح من حديث رسول الله ﷺ .

والحق في هذه المسألة أنه يجب الإعتماد في كتابة السيرة النبوية على القرآن الكريم الذي لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وعلى سنة المعصوم عليه أفضل الصلاة والتسليم .

وقد بذل علماء السنة النبوية جهداً عظيماً ، ووضعوا قواعد دقيقة لمعرفة الصحيح من الموضوع .

ويقرأ من شاء في كتب السنن والمسانيد والمجاميع الأبواب التالية :

— غزوات الرسول ﷺ .
— سيرة الرسول ﷺ .
— دلائل نبوته ﷺ .
— شمائله وأخلاقه ﷺ .

ويسرف في الخطأ من يكتب في سيرة رسول الله ﷺ وهو يعتقد أن كل ماجاء في سيرة ابن هشام صحيح ، ويجعلها مرجعه الأول والأخير .

إن كتب المغازي والسير تشتمل على الروايات الضعيفة والموضوعة ، ولكنك تجد لكل رواية إسناداً ، والواجب على الباحث أن يحقق هذه الأسانيد ويختار الصحيح منها .

أما القائلون بأنه لايصح الإعتماد على كتب المغازي والسير البتة ، لأن الذين رووا أخبارها لم يوثقهم أحد من المحدثين فقد أبعدوا النجعة للأسباب التالية :

١ — من أشهر كتاب المغازي والسير : محمد بن إسحاق ، ومحمد بن جرير الطبري ، ومحمد بن سعد ... وهؤلاء محدثون أولاً ومؤرخون ثانياً .

٢ ـــ ذكرنا فيما مضى أن معظم علماء الجرح والتعديل وثقوا ابن إسحاق ، ومع أني لم أتحدث عن الطبري وابن سعد فهما من الثقات عند المحدثن . فأين من ذلك قولهم : لم يوثقهم أحد من المحدثين ؟!.
٣ ـــ من الأدلة التي يعتمد عليها هؤلاء مانقل عن الإمام أحمد أنه قال : « ثلاثة ليس لها أصل : التفسير والملاحم والمغازي » .

ولعل الذي أراده الإمام أن ماصح من هذه العلوم قليل ، أما أن يكون الإمام أحمد قد قصد أنه لم يصح شيء من هذه العلوم ، فلانعتقده لأنه ذكر في مسنده أحاديث كثيرة في التفسير والمغازي والملاحم .

ولاأدري كيف يطالب هؤلاء الناس بهدم هذا التراث العظيم من كتب المغازي والسير والشمائل ودلائل النبوة ؟!.

ولاأدري أيضاً كيف يطالبون بهدم جهود جهابذة العلماء المحققين الذين حققوا كثيراً من هذه المؤلفات وشرحوها أو هذبوها ؟!.

ونكرر القول : إن كتب المغازي والسير تشتمل على الروايات الصحيحة والموضوعة ، ويجب أن تحقق ، وقد قام كثير من طلاب العلم في هذا العصر بتحقيق عدد لايستهان به من كتب التفسير والحديث والمغازي والسير ، وأسأل الله أن يثيب هؤلاء الدعاة الغيورين على مابذلوه من جهد طيب ، وأن يسخر لتراثنا الإسلامي من ينقيه مما علق به من الشوائب .

كلمة قيمة للمؤرخ العلامة شبلي النعماني :

لما أرادت الأمم الأخرى من غير المسلمين أن تجمع في أطوار نهضتها أقوال رجالها ورواياتهم كان قد فات عليهم زمن طويل ، وانقضى بينها وبينهم عهد بعيد ، فحاولوا كتابة شئون أمة قد خلت ، ولم يميزوا بين غث ذلك الماضي وسمينه ، وصحيحه وسقيمه ، بل لم يعلموا أحوال رواة تلك الأخبار ولا أسماءهم ولا تواريخ ولادتهم ، فاكتفوا بأن اصطفوا من أخبار هؤلاء الرواة المجهولين ورواياتهم مايوافق هواهم ويلائم بيئتهم وينطبق على مقاييسهم .

ثم لم يمض غير زمن يسير حتى صارت تلك الخرافات معدودة كالحقائق

التاريخية المدوّنة في الكتب وعلى هذا المنهاج السقيم صنفت أكثر الكتب الأوربية مما يتعلق بالأمم الخوالي وشئونها ، والأقوام القديمة وأخبارها ، والأديان السالفة ومذاهبها ورجالها .

أما المسلمون فقد جعلوا لرواية الأخبار والسير قواعد محكمة يرجعون إليها ، وأصولاً متقنة يتمسكون بها وأعلاها أن لايروي واقعة من الوقائع إلا عن الذي شهدها ، وكلما بعد العهد على هذه الواقعة فمن الواجب تسمية من نقل ذلك الخبر عن الذي نقله عمن شهد .

وهكذا بالتسلسل من وقت الإستشهاد بالواقعة والتحدث عنها إلى زمن وقوعها ، والتثبت من أمانة هؤلاء الرواة وفقههم وعدالتهم وحسن تحملهم للخبر الذي يروونه ، وإذا كانوا على خلاف ذلك وجب تبيينه أيضاً .

وهذه المهمة من أشق الأمور ، ومع ذلك فإن مئات من المحدِّثين تفرغوا لها ووقفوا أعمارهم على تحري ذلك واستقصائه ، وتدوينه ، وطافوا لأجله البلاد ، ورحلوا بين الأقطار ، باحثين دارسين لأحوال الرواة وكانوا يلقون المعاصرين لهم من الرواة لينقدوا أحوالهم ، وإذا اطمئنوا إلى سيرة فريق منهم سألوهم عما يعرفونه من أحوال الطبقة التي كانت قبلهم ، وقد اجتمع من هذا المجهود العلمي العظيم علم مستقل من العلوم الإسلامية أطلق عليها فيما بعد عنوان [أسماء الرجال] فتيسر لمن أتى بعدهم أن يقفوا على أقدار مئات الألوف من الحفاظ والعلماء والرواة وغيرهم .

هذا فيما يتعلق بالرواية وحملتها ، وهنالك علم نقد الحديث من جهة الدراية والفهم ، وأن له أصولاً محكمة وقواعد متقنة اتخذوها لنقل المرويات وتمييز صحيحها من سقيمها وغثها من السمين والراجح من المرجوح ، وقد تحرّى علماء السنة في هذا الأمر الحق وحده وتمسكوا فيه بالمحجة البيضاء وكل مايؤدي إليه ، فكان عملهم هذا من مفاخر الإسلام .

وأنت تعلم أن ممن تحمل الرواية رجالاً من الولاة والحكام والأمراء الذين يخشى جانبهم ويحذر الناس بطشهم وجبروتهم ، فكان المحدّثون يلتزمون فيهم قول الحق وينزلونهم في المنازل التي يستحقونها ، ولايبالون بما قد يصيبهم من مكروه بسبب هذه المصارحة بما يرضي الله ويصون أمانات الإسلام .

وكان وكيع محدثاً كبيراً ، وكان أبوه عاملاً للدولة على بيت المال ، فكان إذا روى عن أبيه شيئاً عضده برواية راو آخر ، فإذا انفرد أبوه بخبر توقف وكيع عن الأخذ بذلك حتى تعضده رواية أخرى .

فهل رأيت مثل هذا الإحتياط ومثل هذه المبالغة في التثبت عند أهل ملة أخرى غير ملة الإسلام ؟

ويقول الإمام معاذ بن معاذ رأيت المسعودي (٤٤) في سنة ١٥٤ هـ يطالع كتاباً ــ يعني أنه قد تغير حفظه (٤٥) ــ ومما يثير العجب والإستغراب أن الإمام معاذ بن معاذ تقدم إليه رجل بألف دينار على أن لايكتب في كتابه شيئاً عن رجل سماه فلايوثقه ولايجرحه بل يسكت عنه ، فرفض الإمام ذلك المال بشدة وقال :
« إني لاأكتم الحق » (٤٦) ، فهل يعرف أحد في تاريخ البشر مثالاً للإحتياط في العلم والأمانة للحق والإستقامة على منهج الصدق أعلى من هذا المثال ؟

على أن جميع مرويات السنة لاتزال محفوظة كما هي إلى زماننا هذا وفي كل زمان أن يميز بها بين الصحيح والسقيم والغث والسمين والراجح والمرجوح والقوي والضعيف (٤٧) .

والفضل ماشهدت به الأعداء

شهد كثير من المستشرقين بصحة المنهج الإسلامي في كتابة السيرة النبوية وسلامته من التغيير والتبديل والتحريف ، ونستعرض فيما يلي طائفة من هذه الشهادات :

□ ــ إن العالم الألماني المعروف الدكتور [سبرنكر] كان في سنة ١٨٥٤ م ومابعدها موظفاً في ديوان من دواوين المعارف في ايالة البنغال وأمين السر للجمعية الآسيوية فيها . وقد عني بكتاب المغازي للواقدي ، ونشر بعناية [فان

٤٤ ــ هو عبد الرحمن بن عبد الله بن عتبة بن عبد الملك بن مسعود . توفي سنة ١٦٥ هـ .
٤٥ ــ تهذيب التهذيب ٦ / ٢١١ .
٤٦ ــ تهذيب التهذيب .
٤٧ ــ الرسالة المحمدية ، سليمان الندوي ، صفحات ٩٠ ، و٩١ ، و٩٢ .

كرامر] وتصحيحه سنة ١٩٥٦ م ، وبعنايته طبع كتاب الإصابة في أحوال الصحابة للحافظ ابن حجر العسقلاني . وقد ادعى أنه أول أوربي كتب في سيرة محمد ﷺ معتمداً على المصادر العربية الأولى ولم يعتمد في تأليفه إلا عليها . ومع أنه — في الحقيقة — لم يكتب كتابه دفاعاً عن صاحب الرسالة ﷺ بل كان متحاملاً عليه ومخالفاً له ، إلا أنه قال في مقدمته بالإنجليزية على كتاب الإصابة المطبوع في كلكته سنة ١٨٥٣ — ١٨٦٤ :

« لم تكن فيما مضى أمة من الأمم السالفة ، كما أنه لاتوجد الآن أمة من الأمم المعاصرة ، أتت في علم أسماء الرجال بمثل ماجاء به المسلمون في هذا العلم العظيم الخطر الذي يتناول أحوال خمسمائة ألف رجل وشئونهم » (٤٨) .

□ — كتب المستشرق [جون ديون بورت] سنة ١٨٧٠ م كتاباً بالإنجليزية في السيرة المحمدية عنوانه [اعتذار من محمد والقرآن] والذي يقرأه يخيل إليه أنه كتبه بنزعة الإخلاص والإنصاف ، ويقول في مقدمته :

« لاريب أنه لايوجد في الفاتحين والمشرعين والذين سنوا السنن من يعرف الناس حياته وأحواله بأكثر تفصيلاً وأشمل بياناً مما يعرفون من سيرة محمد ﷺ وأحواله » (٤٩) .

□ — وألقى [ريورند باسورت سميث] — عضو كلية التثليث في أوكسفورد سنة ١٨٧٤ م — محاضرات عن محمد والمحمدية جاء فيها :

« كل مايقال في الدين يغلب فيه الجهل ببدايته ، ومما يؤسف له أن هذا يصح إطلاقه على الديانات الثلاث — يريد ديانات بوذا وكونفوشيوس وزردشت — وعلى أصحابها الذين نعدُّهم تاريخيين لأننا لانعلم لهم وصفاً أحسن من هذا الوصف ، فإننا قلما نعلم عن الذين كانوا في طلائع الدعوة ، والذي نعلمه عن الذين جاءوا بعدهم واجتهدوا في نشر عقائدهم أكثر من الذي نعلمه عن أصحاب الدعوة الأولين .

فالذي نعلمه من شئون زردشت وكونفوشيوس أقل من الذي نعلمه عن سولون وسقراط . والذي نعلمه عن موسى ، وبوذا أقل مما نعلمه عن أمبرس وقيصر .

٤٨ — الرسالة المحمدية ، سليمان الندوي ص ٧١ .

٤٩ — المصدر السابق ، ص ٩٨ .

ولانعلم من سيرة عيسى إلا شذرات تتناول شعباً قليلة من شعب حياته المتنوعة والكثيرة . ومن ذا الذي يستطيع أن يكشف لنا الستار عن شئون ثلاثين عاماً هي تمهيد واستعداد للثلاثة أعوام التي لنا علم بها من حياته . إنه بعث ثلث العالم من رقدته ، ولعله يحيي أكثر مما أحيا ، وحياته المثالية بعيدة عنا مع قربها منا ، وإنها تتراوح بين الممكن والمستحيل . بيد أن كثيراً من صفحاتها لانعلم عنها شيئاً أبداً ، وما الذي نعلمه عن أم المسيح ، وعن حياته في بيته ، وعيشته العائلية ، وما الذي نعلمه عن أصحابه الأولين ، وحوارييه ، وكيف كان يعاملهم ، وكيف تدرجت رسالته الروحية في الظهور ، وكيف فاجأ الناس بدعوته ورسالته وكم وكم من أسألة تجيش في نفوسنا ولن يستطيع أحد أن يجيب عليها إلى يوم القيامة .

أما الإسلام فأمره واضح كله ، ليس فيه سرٌّ مكتوم عن أحد ، ولاغمَّة ينبهم أمرها على التاريخ ، ففي أيدي الناس تاريخه الصحيح ، وهم يعلمون من أمر محمد ﷺ كالذي يعلمونه من أمر لوثر وملتن . وإنك لاتجد فيما كتبه عنه المؤرخون الأولون أساطير ولا أوهاماً ولا مستحيلات وإذا عرض لك طرف من ذلك أمكنك تمييزه عن الحقائق التاريخية الراهنة ، فليس لأحد هنا أن يخدع نفسه أو يخدع غيره ، والأمر كله واضح وضوح النهار ، كأنه الشمس رأد الضحى يتبين تحت أشعة نورها كل شيء » (٥٠) .

□ ــ وقال [كارليل] :

« لقد أصبح من أكبر العار على كل فرد تمدن من أبناء هذا العصر أن يصغي إلى مايظن من أن دين الإسلام كذب وأن محمداً ــ ﷺ ــ خداع مزور . إن الرجل الكاذب لايقدر أن يبني بيتاً من الطين ، وعلى ذلك فلسنا نعد محمداً قط رجلاً كاذباً متصنعاً يتذرع بالحيل والوسائل إلى بغيته ، أو يطمع إلى درجة ملك أو غير ذلك من الحقائق والصغائر .

وما الرسالة التي أداها إلا حقاً صراحاً ... وما كلمته إلا صوت من أعماق المجهول ... إن محمداً قطعة من الحياة فإذا هي شهاب قد أضاء العالم أجمع » (٥١) .

□ ــ وقال [برناردشو] :

« إن العالم اليوم أحوج مايكون إلى رجل في تفكيره مثل محمد ... إنه دين

---

٥٠ ــ الرسالة المحمدية ص ٩٩ و ١٠٠ .

٥١ ــ سيرة سيد المرسلين ، محمود الحسيني ١ / ٨ .

خالد خلود الأبد ... وإني أرى كثيراً من بني قومي قد دخلوا هذا الدين عن بينة ، وسيجد هذا الدين مجاله الفسيح في القارة ــ يعني قارة أوربا ــ عقب هذه الحروب ، وإذا أراد العالم النجاة من شروره فعليه بهذا الدين » (٥٢) .
هذه شهادات سجلها بعض المستشرقين ، ولم يكونوا من خلالها يريدون الدفاع عن الإسلام ، وإنما أنطقتهم الحقائق الملجأة التي لم يجدوا عنها مهرباً .

وبعد ذلك كله فإننا لانستشهد بمثل تلك الأقوال لنزداد قناعة بديننا وسيرة نبينا ، وإنما نستمد قناعتنا في ديننا من إيماننا الذي لايتزعزع بالله تعالى ، وثقتنا بسلامة المنهج الذي نزَّله الذي يعلم السر ومايخفى ، وبلَّغه خاتم الأنبياء والمرسلين عليه أفضل الصلاة والتسليم .

وكل الدلائل تؤكد بأن نبوءة برناردشو قريبة المنال ، وأسأل الله تعالى أن يكرم أمة الإسلام بدعاة مجددين ، ومؤسسات إسلامية عالمية مستقلة تؤدي دورها المطلوب في أوربا وفي كل أنحاء المعمورة .

وبعد :

هذا هو منهج رجال خير القرون في كتابة سيرة الرسول ﷺ ، وفي رسم القواعد والضوابط التي نعرف من خلالها أحوال الرواة وأخلاقهم وميولهم .

وهذه شبهات المستشرقين تتهاوى واحدة تلو الأخرى ، وقد ظهر لكل منصف بطلان أقوالهم وفساد نواياهم .

وهذه اعترافات عدد من المستشرقين أنفسهم بسلامة المنهج الذي سار عليه علماء المسلمين في كتابة السيرة النبوية ، وقد ألجأتهم الحقائق المذهلة إلى تسجيل هذه الإعترافات دون أن يعلن أحد منهم إسلامه .

ومما ينبغي التأكيد عليه أنني أردت من وراء كتابة هذا الباب « منهج رجال خير القرون في كتابة السيرة النبوية » مايلي :
١ ــ هذا هو المنهج الذي سألتزم به إن شاء الله في كل ما سوف أكتبه عن السيرة النبوية ، وعن منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله .

٥٢ ــ المصدر السابق ١ / ١٥ .

٢ ــ أن يكون واضحاً عند من يتابع معي هذا البحث فساد مناهج المستشرقين ودعاة التغريب وزعماء المدرسة الإصلاحية .



القسم الثاني

السيرة النبوية في كتابات أصحاب المناهج المنحرفة

الباب الأول : المستشرقون
الباب الثاني : دعاة التغريب
الباب الثالث : المدرسة الإصلاحية

الباب الأول
المستشرقون

الفصل الأول : أهداف المستشرقين وغاياتهم
الفصل الثاني : دراسة لكتاب تاريخ الشعوب الإسلامية
الفصل الثالث : دراسة لكتاب الدعوة إلى الإسلام
الفصل الرابع : من تناقضات المستشرقين
الفصل الخامس: ردود حاسمة

الفصل الأول

أهداف المستشرقين وغاياتهم

ناصب اليهود والنصارى الدعوة الإسلامية العداء منذ أيامها الأولى في المدينة ، وماتركوا وسيلة إلا واستخدموها في الصد عن سبيل الله والإفساد في الأرض .

كانوا يعقدون الأحلاف والمعاهدات مع المشركين والمنافقين العرب ، كما كانوا ينقضون عهودهم مع رسول الله ﷺ ، وكانوا يبذلون أعز ماعندهم من أموال من أجل القضاء على الرسول والرسالة .

وكان الحقد يأكل نياط قلوبهم وهم يرون الناس يدخلون في دين الله أفواجاً ، وحصون المشركين تتهاوى أمام جند الله الذين ينشدون النصر والتمكين أو الشهادة في سبيل الله .

واشتد غيظهم وحقدهم عندما هزمت جحافلهم في خيبر ، واليرموك ، والقدس ، ودمشق ، ومصر، فأحنوا رؤوسهم ، وقبلوا سياسة الأمر الواقع ، لكنهم لم يكفوا عن التآمر يوماً من الأيام ، وكانوا يقولون شيئاً ويفعلون شيئاً آخر ، وقد كشف الله لنا نواياهم وأخلاقهم فقال جلّ من قائل :
﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل إن هدى الله هو الهدى ، ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولانصير ﴾ (١) .

وأخبرنا سبحانه وتعالى بأن المشركين ــ واليهود والنصارى من المشركين ــ سيقاتلوننا حتى يردونا عن ديننا إن استطاعوا . قال تعالى :

---

١ ــ سورة البقرة ، الآية : ١٢٠ .

﴿ ولايزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ﴾ [٢] .
ومن أجل أن يردونا عن ديننا كانت الحروب الصليبية التي دعا إليها بطرس الراهب ، وسيَّر الجيوش الجرارة بابا روما [إربانيوس] بعد خطبة تاريخية تتناقض وروح المحبة والسلام التي جاء بها المسيح عليه السلام .

ومن أجل أن يردونا عن ديننا ، خرج النصارى في الأندلس من جحورهم وسراديبهم ، وانقضوا ـــ كالوحوش ـــ على المسلمين الذين أنهكتهم الصراعات القبلية والإقليمية وأصبح بأسهم بينهم .

وعمل عبّاد الصليب على إبادة كل من يقول لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وأقاموا محاكم التفتيش التي تعد وصمة عار في تاريخهم الحافل بالغدر والخيانة .

ومن أجل أن يردونا عن ديننا احتل البرتغاليون والإسبان معظم شواطىء بلدان العالم الإسلامي ... ولكن الله جلت قدرته حفظ بلدان المسلمين من التنصير ، ورد كيد الأعداء إلى نحورهم ، وهيأ لهذه الأمة من يوحد شتاتها ، ويجدد لها أمر دينها ، ويقودها من نصر إلى نصر .

أدرك الصليبيون بعد هذه المعارك الضارية أن سياسة الإحتلال ، ولغة الحديد والنار لاتزيد أمة الإسلام إلا ثباتاً على الحق ، وإصراراً على الجهاد ، وعلموا أن لابد من أسلوب آخر أو لابد من تعدد الأساليب ... وبعد البحث والدراسة لجأوا إلى ماأسموه « البحث العلمي ، وحرية النقد » ، وكان نواة هذا النشاط المشبوه مجموعة من الرهبان الغربيين الذين قصدوا الأندلس إبان عظمتها ومجدها ، وتثقفوا في مدارسها ، وتتلمذوا على كبار علمائها ، ثم راحوا يترجمون القرآن الكريم والكتب العربية إلى لغاتهم . وكان من أبرزهم وأكثرهم شهرة :
الراهب الفرنسي « جربرت » الذي انتخب بابا لكنيسة روما [عام ٩٩٩ م] ، والراهب بطرس المحترم ، وجيراردي كريمون .

ومازال نشاط الرهبان يزداد حتى تمكّنوا سنة ١٨٧٣ م من عقد أول مؤتمر لهم في باريس ، ثم تتالت المؤتمرات بعد أن كسبوا عطف الحكومات الغربية ،

---

٢ ـــ سورة البقرة ، الآية : ٢١٧ .

ونجحوا في تجنيد أعداد ضخمة من المستشرقين والمبشرين وزرعها في كل بلد من بلدان العالم الإسلامي ، وتطور الإستشراق حتى أخذ شكله الحديث في هذا العصر (٣) .

فالإستشراق إذن اسم فضفاض لدراسات وأبحاث تمتد لتشمل كل شيء عن الشرق [والشرق عند الغربيين يعني بلدان المسلمين] : الديانات ، اللغات ، الآداب ، التقاليد والعادات ، الحضارات القديمة والحديثة ... والمستشرقون : هم العلماء المتخصصون بهذه الدراسات .

وإذا كان الرهبان المتطرفون هم الذين ابتكروا هذه الدراسات وأظهروها إلى حيز الوجود فقد اتضحت لنا أغراضهم ومقاصدهم من دراسة عقائد المسلمين وعاداتهم ... وزيادة على ذلك فقد وفر علينا كبار علمائهم كثيراً من الجهد في البحث عندما أماطوا اللثام عن هذه المقاصد والغايات بكل وضوح وصراحة .

قال « براون » :

« إن الوحدة الإسلامية تجمع آمال الشعوب السود ، وتساعدهم على التملص من السيطرة الأوربية . ولذلك كان التبشير عاملاً مهماً في كسر شوكة هذه الحركات ، ذلك لأن التبشير يعمل على إظهار الأوروبيين في ثوب جديد جذاب ، وعلى سلب الحركة الإسلامية من عنصر القوة والتمركز فيها » (٤) .

وجاء في مجلة العالم الإسلامي :

« إن شيئاً من الخوف يجب أن يسيطر على العالم الغربي ، ولهذا الخوف أسباب منها : إن الإسلام منذ أن ظهر في مكة لم يضعف عددياً بل دائماً في ازدياد واتساع . ثم إن الإسلام ليس ديناً فحسب ، بل إن من أركانه الجهاد . ولم يتفق قط أن شعباً دخل في الإسلام ثم عاد نصرانياً » .

وقال لورانس براون :

« إذا اتحد المسلمون في امبراطورية عربية أمكن أن يصبحوا لعنة على العالم وخطراً ، وأمكن أن يصبحوا نعمة له أيضاً . أما إذا بقوا متفرقين فإنهم يظلون حينئذ بلاقوة ولاتأثير » (٥) .

---

٣ ــ انظر رسالة « الإستشراق والمستشرقون » للدكتور مصطفى السباعي رحمه الله ، ص ١٥ .
٤ ــ التبشير والإستعمار ، للدكتور مصطفى الخالدي ، والدكتور عمر فروخ ص ٣٢ .
٥ ــ الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالإستعمار الغربي ، للدكتور محمد البهي ص ٥١٥ .

وإذن : فأشد مايخشاه المبشرون أن يعود المسلمون كما كانوا دولة واحدة وقيادة واحدة وهدفاً واحداً ، وأقطاب الإستشراق لايريدون عودة هذه الوحدة ، ولو كان في ذلك نفع عميم للإنسانية جمعاء ، ومتى كان هؤلاء الرهبان يسعون لخير الإنسانية ؟!

إن المهم عندهم استمرار سيطرة الأوروبيين على العالم من أدناه إلى أقصاه ، وبقاء السود ـــ على حد زعمهم ـــ عبيداً وخدماً للبيض !!

ولهذا فهم يعملون لبقاء الأمة الإسلامية ممزقة متفرقة ، ومن أجل هذا قام الإستشراق والتبشير ، ومادام حديثي قاصراً على السيرة النبوية فسأذكر فيما يلي أهم ماتركوه من مؤلفات في هذا الفن :

١ ـــ موسوعة دائرة المعارف الإسلامية .
٢ ـــ موسوعة دراسة في التاريخ ، أرنولد توينبي .
٣ ـــ حياة محمد تأليف سير وليام موير .
٤ ـــ الإسلام من تأليف هنري لامنس .
٥ ـــ تاريخ العرب ، فيليب حتي وظهر بالإنجليزية والعربية .
٦ ـــ طريق الإسلام ظهر بالإنجليزية وترجم إلى العربية ، من تأليف جماعة من المستشرقين من بينهم « جب » وهو الذي تولى نشره .
٧ ـــ « محمد ومطلع الإسلام » بالإنجليزية ، تأليف « مرجوليوث » .
٨ ـــ « دراسات في تاريخ الثقافة الإسلامية » من تأليف « ج. فون جروبناوم » .
٩ ـــ « التطورات المبكرة في الإسلام » من تأليف « مرجوليوث » .
١٠ ـــ « مصادر تاريخ القرآن » بالإنجليزية من تأليف آرثر جيفري .

ومن المجلات التبشيرية المشهورة : مجلة العالم الإسلامي التي تصدر بالإنجليزية ، وأخرى بالفرنسية ، ومجلة جمعية الدراسات الشرقية ، ومجلة شؤون الشرق الأوسط التي تصدر بالإنجليزية في أمريكا .

ومن يسمع باسم « مجلة العالم الإسلامي » يظن أنها معنية بأخبار المسلمين في العالم ، وعرض مشكلاتهم ، كما يظن أنها متخصصة بشؤون الدعوة إلى الله والتبشير بدين الإسلام ، ولكنها في الحقيقة متخصصة بحرب الإسلام والمسلمين ، وتلفيق الأكاذيب ضدهم ، وتستخدم في معركتها ضد دين الله أسلوباً ليس فيه خلق ولاموضوعية ، ومن المهازل أنها ترفع شعار التجرد

والموضوعية .

وبعد الذي قلته عن أهداف وغايات المستشرقين ، أنتقل إلىَ عرض نماذج مما كتبوه عن الرسالة والرسول ﷺ ، وسوف أراعي مادرج عليه كتّابنا من تقسيم المستشرقين إلى متطرفين ، ومعتدلين ثم أقول رأيي أخيراً بهم جميعاً .

طائفة من أقوال المستشرقين المتطرفين

كتب المستشرق الفرنسي « كيمون » في كتابه « باثولوجيا الإسلام » يقول :
« إن الديانة المحمدية جذام تفشى بين الناس ، وأخذ يفتك بهم فتكاً ذريعاً ، بل هي مرض مريع ، وشلل عام ، وجنون ذهولي يبعث الإنسان على الخمول والكسل ، ولايوقظه منهما إلا ليسفك الدماء ، ويدمن على معاقرة الخمور ، ويجمع في القبائح !!
وما قبر محمد إلا عمود كهربائي يبعث الجنون في رؤوس المسلمين ، ويلجئهم إلى الإتيان بمظاهر الصرع العامة والذهول العقلي ، وتكرار لفظة [الله] إلى مالا نهاية ، على عادات تنقلب إلى طباع أصيلة : ككراهة لحم الخنزير والنبيذ ، والموسيقى ، وترتيب مايستنبط من أفكار القسوة والفجور في اللذات » .

ويقول « سفوك هير غارنجه » :
« يجب أن نقرر أن قيمة محمد منحصرة في سائر مايميزه عن جميع الهيستيريين » (٦) .

وعن أسباب بعثة المصطفى ﷺ يقول المستشرق « مارجليوث » :
« إن الباعث على رسالة هذا الرسول هي الشعوذة لاأكثر ولاأقل » .

وعن سبب وفاة الرسول ﷺ يقول القس « لامانس » :
« كان محمد ذا شهية قوية جيدة وقد اكتظ جسمه فأصبح مهدداً بداء السكتة القلبية حتى مات » .

---

٦ ــ الفكر الإسلامي الحديث ، محمد البهي : ٥٥٠ .

ويزعم المستشرق « دوزي » أن محمداً ﷺ كان سوداوي المزاج ، يلتزم الصمت ، ويميل إلى العزلة الطويلة » (7) .

ويتحدث « مارجليوث » في كتابه « محمد » عن إسلام عثمان بن عفان — رضي الله عنه — فيقول :
« إن إسلامه كان بسبب حبه رقية بنت رسول الله — ﷺ — وكان يرغب في زواجها ، فلما بلغه أنها خطبت لغيره حزن وأخبر أبا بكر بما بلغه وصادف مرور رسول الله — ﷺ — فأسر أبو بكر كلمات في أذن الرسول ﷺ وبذلك انتهى الأمر ، وأسلم عثمان وتزوج رقية » (8) .

وسخر « دانتي » في الأنشودة [٢٨ من الكوميديا الإلهية] التي أسماها « الجحيم » من عقائد المسلمين ، وذلك حين صور الرسول ﷺ في الدائرة الثامنة من دوائر الجحيم التسع ، وقد خصص له المؤلف أبشع وأفظع صورة من صور العذاب (9) .

أما « بارتلمي دير بيلو » الذي يعد من أعلام المستشرقين في القرن السابع عشر الميلادي فيقول عن الرسول ﷺ :
« هذا هو المنتحل المشهور ماهومبت ، المؤلف والمؤسس لهرطقة اتخذت لها اسم الدين ، ونسميها نحن الماهوميتية ، وقد نسب مفسرو القرآن وفقهاء الشريعة الإسلامية ، أو الماهومتية ، إلى هذا النبي المزيف كل المدائح التي نسبها ، البوالسة ، والهراطقة الآخرون إلى يسوع المسيح ، مجردين إياه في الوقت نفسه ، من ألوهيته » (10) .

ونحن هنا نكتفي بنقل هذه الشتائم الهابطة ، والأقوال المتناقضة ليعلم القراء أخلاق المستشرقين ، ومنهجهم فيما أسموه « حرية النقد ، وموضوعية البحث والتحقيق العلمي » .

---

٧ — سيرة سيد المرسلين ، محمد الحسيني : ١ / ٢٥ .
٨ — الوحي المحمدي ، لمحمد رشيد رضا : ص ٧٠ ، ومحمد رسول الله ﷺ ، لمحمد رضا ص ٧٩ .
٩ — القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٥٥ [عن مقال للدكتور حسن عبد الحميد نشرته الوطن في ١٧ — ١٢ — ١٩٨٤] .
١٠ — الإستشراق ،ادوارد سعيد ص ٩٤٢ [عن المصدر السابق] .

ترى كم يحتقر هؤلاء المستشرقين قراءهم في ديار الغرب عندما يتحدثون معهم بهذه اللغة :
الديانة المحمدية جذام ، المسلمون مدمنون على شرب الخمور ، الرسول ـــ اللهم إن ناقل الكفر ليس بكافر ـــ مشعوذ !!

ولاندري كيف يجمعون بين وصف المسلمين بالخمول والكسل ، ثم يصفونهم بالإدمان على سفك الدماء ؟!

لم يذكر لنا أدعياء البحث العلمي أدلة أو حتى شبهات لنرد عليها ، ومما يجدر ذكره أن عامة الناس في بلاد المسلمين ـــ وحتى الذين حرموا من العلم والمعرفة ـــ يعرفون بطلان هذه الإدعاءات وتهافتها .



الفصل الثاني

دراسة لكتاب تاريخ الشعوب الإسلامية

كتاب [تاريخ الشعوب الإسلامية] واسع الإنتشار ، ويعد من المراجع المهمة عند كثير من المتخصصين بعلم التاريخ ، ويزكيه حتى بعض الكتاب الطيبين الذين يتتبعون مخططات الصليبيين في العالم الإسلامي ، ولايرون بأساً من انتشاره مع التنبيه إلى مافيه من أخطاء ، وحجتهم في ذلك أن الكتاب شامل لجميع العهود وحقب التاريخ الإسلامي في حين نجد كثيراً من المؤلفين يقفزون عن تاريخ الدولة العثمانية ، لوعورة البحث في تلك الحقبة التاريخية ، وقلة المصادر .

والذي أراه أننا أقدر من [بروكلمان] على دراسة تاريخنا وفهمه ، والقضية ليست في التأليف وعدمه بل بسلامة المنهج وبعده عن كل انحراف .

ولم أقف — في حدود ماأطلعت عليه (١١) — على أبحاث في نقد الكتاب [رغم مافيه من جحود برسالة المصطفى ﷺ] اللهم إلا ماقاله الدكتور محمد البهي رحمه الله في كتابه « الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالإستعمار الغربي » :
انظر إلى بعض أخطائه التاريخية والعلمية في مجلة الإسلام التي تصدر بالإنجليزية في كراتشي — باكستان ص ١٤١ من عدد أول مايو سنة ١٩٥٨ » .

وإشارة عابرة في نقد الكتاب ذكرها الدكتور مصطفى السباعي رحمه الله في كتابه « الإستشراق والمستشرقون » .

مؤلف الكتاب :

« كارل بروكلمان » شيخ المستشرقين الألمان ، ولد سنة ١٨٦٨ . ودَرَّس

١١ — كتب هذا الفصل في سنة ١٣٩٥ هـ .

اللغة في عدد من الجامعات الألمانية ، وهو من محرري « دائرة المعارف الإسلامية » ، وكان عضواً بالمجمع العلمي العربي في دمشق الشام .

ومن أهم كتبه « تاريخ الأدب العربي » ويقع في خمسة مجلدات ، و « تاريخ الشعوب الإسلامية » وقد أرَّخ فيه حتى سنة ١٩٣٩ .

من ملاحظاتنا على الكتاب :

استهل بروكلمان كتابه بالحديث عن الشخصية العربية فقال :
« والبدوي كائن فردي النزعة مفرط الأنانية ، قبل كل شيء ، ولاتزال بعض الأحاديث تسمح للعربي الداخل في الإسلام أن يقول في دعائه :
اللهم ارحمني ومحمداً ولاترحم معنا أحداً » اهـ / ص : ١٨ .

إن العرب قبل الإسلام ــ رغم ماكانوا عليه من انحرافات عقائدية وأخلاقية ــ كانوا يتمتعون بصفات طيبة لم يعرفها الغربيون في القديم أو الحديث ، ومن معجزات الإسلام الخالدة أنه صنع منهم أمة انضباطية لاتتحكم فيها الشهوات ولا النزعات الفردية .

صنع الإسلام من العرب أمة كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر .

ولكن المؤلف ألماني النزعة ، والألمان يستخفون بغيرهم من الأمم ، ولقد اجتمع في شخصه : تعصب صليبي واستعلاء عنصري .

وفي نقده للحياة الدينية عند العرب قبل الإسلام يقول :
« والواقع أن الساميين اعتبروا الأشجار ، والكهوف ، والينابيع والحجارة العراض ، على الخصوص مأهولة بالأرواح . ومن هنا قدس العرب القدماء ضروباً من الحجارة في سلع وغيرها من بلاد العرب ، كما يقدس المسلمون الحجر الأسود ، القائم في زاوية من الكعبة في مكة » (ص : ٢٤ و ٢٥) .

لاشك أن هذا المستشرق الظالم يعلم قبل غيره أن قياسه فاسد ، وليس الحجر الأسود عند المسلمين كاللات والعزة عند العرب الجاهليين .

ولاشك أيضاً أن هذا المستشرق الظالم يعرف قول عمر بن الخطاب عن الحجر الأسود :

« إني أعلم أنك حجر لاتضر ولاتنفع . ولولا أنني رأيت رسول الله يقبلك ماقبلتك » .

هذه هي حقيقة اعتقاد المسلمين بالحجر الأسود ، وتقبيله ليس ركناً من أركان الحج أو واجباً من واجباته ، وكثير من المسلمين يحجون ولايقبلون الحجر الأسود ، ويكون حجهم أو عمرتهم صحيحة لاعيب فيها .

إلى هنا والحديث مايزال عن حياة العرب قبل الإسلام ، أما عندما انتقل إلى الحديث عن بعثة المصطفى ﷺ ، فقد شكك بأصول الإسلام كلها وابتدأ بشخص رسول الله ﷺ :

نبوة محمد ﷺ كما يراها بروكلمان :

يتحدث بروكلمان عن حياة الرسول ﷺ قبل النبوة فيقول :
« وكان مولعاً في حديثه المجازي بالصور والإستعارات الجارية » .

ثم يردد أكاذيب وأباطيل سلفه من اليهود والنصارى فيقول :
« وتذهب الروايات إلى أنه اتصل في رحلاته ببعض اليهود والنصارى ، أما في مكة نفسها فلعله اتصل بجماعات من النصارى كانت معرفتهم بالتوراة والإنجيل هزيلة إلى حد بعيد » (ص : ٣٤) .

وعن الوحي يقول :
« لقد تحقق عنده ــ أي عند الرسول ﷺ ــ أن عقيدة مواطنيه الوثنية فاسدة فارغة ، فكان يضج في أعماق نفسه هذا السؤال :
إلى متى يمدهم الله في ضلالهم ، مادام هو عز وجل قد تجلّى ، آخر الأمر ، للشعوب الأخرى بواسطة أنبيائه ؟!

وهكذا نضجت في نفسه الفكرة أنه مدعو إلى أداء هذه الرسالة ، رسالة النبوة ، ولكن حياءه حال بينه وبين إعلان نبوته فترة غير قصيرة ، ولم تتبدد شكوكه إلا بعد أن خضع لأحدى الخبرات الخارقة في غار حراء . وذلك بأن طائفاً تجلّى له هناك يوماً هو الملك جبرائيل على ماتمثله محمد فيما بعد ... ولم تكد هذه الحالات تنقضي حتى أعلن ماظن أنه قد سمعه كوحي من عند الله » (ص : ٣٦) .

وعما بين الأوس والخزرج من خلافات وعن المخرج يقول لابد أن يكون الحل من خارج المدينة على عاتق كاهن وثني ما ، ولكن شيئاً مثل ذلك لم يحدث ، فإذا الخلاف بين أبناء العمومة يمهد السبيل أمام النبي . (ص : ٤٣) .

ويقول عن الإسراء :
« ومن الجائز أن تكون هذه الرحلة السماوية التي كثيراً ماأشير إليها بعد في الأساطير الشعرية التي خلفتها لنا الكتب الإسلامية جميعها أقدم من ذلك عهداً ولعلها ترجع إلى الأيام الأولى للبعثة النبوية . وأمثال هذه الرؤى في أثناء تهجد العراف معروفة ثابتة لدى بعض الشعوب البدائية » (ص : ٤٤) .

وإذا كان [بروكلمان] توقف عند هذا الحد من الإفتراءات ، فغيره من المستشرقين كان أشد وقاحة وأوسع خيالاً منه .

ومن الأمثلة على ذلك قول المستشرق [موير] عن حادث شق الصدر ــ الذي رواه البخاري في صحيحه ــ بأنه نوبة صرعية ، وردد هذا الإفتراء المستشرق [نيكولسون] في كتابه [تاريخ أدب العرب من صفحة ١٤٧ إلى صفحة ١٤٨] .

وأجهد المستشرق [مرجليوث] نفسه في كتابه [محمد] في البحث عمن أسماهم الأساتذة الذين كانوا يعلمون رسول الله ــ ﷺ ــ الكتب المقدسة فذكر الصحابي جابر بن عبد الله ــ مولى بني عبد الدار ــ كما ذكر الصحابي ياسر ، وزعم بأن الرسول ﷺ كان يمر بهما وهما يقرآن التوراة ... وأضاف [مرجليوث] قائلاً :
« ويظن أن الجزء الخاص بالمسيحية في القرآن قد تعلمه النبي من صهيب » .

أما المستشرق « كانون سل » فقد زعم في كتابه « حياة محمد » بأن الرسول ﷺ أخذ أفكاره عن زيد بن عمر بن نفيل وغيره من الصحابة .

وعلى كل حال لم يأتنا « بروكلمان » بجديد في كل ماقاله عن بعثة خاتم الأنبياء والمرسلين عليه أفضل الصلاة والتسليم ، وإنما ردد أقوال من سبقه من الكهان ، وجاء عرضه بأسلوب مناف للتجرد ، بعيد عن الموضوعية ، خال من كل أمانة علمية . انظر إلى قوله عن الرسول ﷺ :
ــ ولعله اتصل بجماعات من النصارى في مكة !!

ـــ حتى أعلن ماظن أنه قد سمعه كوحي من عند الله !!

وأكثر في كتاباته عن الرسالة من قوله : أظن ... ولعل ... وربما ... وهذه الكلمات لاتفيد الجزم ولا اليقين فكيف تكون أخطر قضايا العقيدة الإسلامية مبنية عند هذا الضال المضل على : أظن ، ولعل وربما ؟!

وكيف يزعم ـــ قاتله الله ـــ أن المسلمين اعتمدوا في حادث الإسراء على الأساطير الشعرية ؟! إنه يكذب في كل ماادعاه ويعلم أنه يكذب .

وأحياناً يقول : وتذهب الروايات ... ثم يسرد مايمليه عليه خياله الخصب ... فمن الذين ذكروا هذه الروايات وهل هم ثقات ، وماهو درجتها من الصحة ؟!

إنني أشفق على العلم أن تلوثه ـــ أو تحاول تلويثه ـــ أقلام هؤلاء المستشرقين ، ولي عودة إلى هذا الموضوع في نهاية هذا الفصل إن شاء الله تعالى .

موقف بروكلمان من القرآن والإسلام :

لقد كان إنكار « بروكلمان » للوحي والإسراء والبعثة مقدمة لموقفه من القرآن الكريم ، وهل هو كلام الله سبحانه وتعالى أم كلام قاله محمد بن عبد الله ونسبه إلى الله ؟!

قال بروكلمان :

« وفي غمرة هذا النضال الناصب المخفق ضد جحود مواطنيه من الأرستقراطيين وانكارهم ، كان محمد يعزي نفسه بالأنبياء السابقين الذين لم تكن مهمتهم مع أقوامهم أسهل من مهمته . وهكذا نجده ، في عهده الأول ، يكثر من الإشارة إلى قصص هؤلاء الأنبياء ، وإلى قصة موسى بخاصة . وليس من شك في أن معرفته بمادة الكتاب المقدس كانت سطحية إلى أبعد الحدود ، وحافلة بالأخطاء ، وقد يكون مديناً ببعض الأخطاء للأساطير اليهودية التي يحفل بها القصص التلمودي ، ولكنه مدين بذلك ، ديناً أكبر للمعلمين المسيحيين الذين عرفوه بإنجيل الطفولة ، وبحديث أهل الكهف السبعة وحديث الإسكندر ، وغيرها من الموضوعات التي تتواتر في كتب العصر الوسيط ، وكان إلى جانب ذلك قصص عربية كتلك التي تتحدث عن هلاك قبيلة ثمود، التي قد يكون وضع

لها قصة النبي صالح الثانوية كملحق ضروري . وهنا في هذه القصص نجد أن أسلوبه ينزع إلى أن يكون أكثر إسهاباً وأقل توقداً ، كما نجد أنه كان يوشح هذه القصص بمناقشات خطابية تدور على محور إثبات وجود الله بمختلف الدلائل التي تقدمها الطبيعة » .

وإذن يعتقد بروكلمان بأن القرآن ليس كلام الله سبحانه وتعالى ، وإنما كلام محمد ﷺ ، وتراه يردد هذه المقولة كثيراً في كتابه .

انظر إليه كيف يقول وهو يتحدث عن أبي لهب :

« وعلى الرغم من أن النبي لعنه في إحدى السور » . (ص : ٤١)

وإذا تحدث عن اليوم الآخر قال :

« ويساق الذين اتقوا ربهم إلى جنة عدن التي تمثلها محمد » . (ص : ٧٢)

انظر إلى قوله :

« وليس من شك في أن معرفته بمادة الكتاب المقدس كانت سطحية إلى أبعد الحدود وحافلة بالأخطاء » .

لم يذكر هذه الأخطاء المزعومة ، كما أنه لم يذكر كيف كانت معرفة الله بكتبه سطحية ، أما المعلمون المسيحيون فدليله عنهم : لعل ، وأظن وربما .

ويقول عن الصلاة :

« لم يكن عالمه الفكري من إبداعه الخاص إلا إلى حد صغير ، فقد انبثق في الدرجة الأولى عن اليهودية والنصرانية ، فكيّفه محمد تكييفاً بارعاً وفقاً لحاجات شعبه الدينية . وبذلك ارتفع بهم إلى مستوى أعلى من الإيمان الفطري والحاسية الخلقية » . (ص : ٦٩)

ويمضي قائلاً :

« فالصلاة أول الأمر اقتبسها عن اليهود ، وبعد صدامه مع اليهود تأثر بطقوس الفرس في الصلاة والمآذن أخذها المسلمون عن أبراج الكنائس ... وصلاة الجمعة اقتبسها عن اليهود » . (ص : ٧٤)

ومن الجدير بالذكر أن الصلاة فُرضت بمكة ، ولم يكن للرسول ﷺ أدنى صلة باليهود .

ويتساءل « بروكلمان » عن الصوم من أين اقتبسه الرسول ﷺ ، ويُلح في التساؤل ، لأنه لابد عنده من القول : كل شيء أخذه الرسول واقتبسه عن الأمم الأخرى . انظر إليه وهو يقول :
« هل اقتبس محمد هذه الفريضة عن إحدى الفرق الغنوستية أم عن المانيي الذين نفذ مبشروهم إلى بلاد العرب أيضاً فقد كان لايعرف شيئاً أو يكاد ، عن الحرانيين في العراق ، الذين كانوا يصومون كذلك في شهر آذار ، تمجيداً للقمر » . (ص : ٤٨)

فأين الرواية التي اعتمد عليها هذا المستشرق الضال المضل ، وأين تحقيقه لسندها ومتنها ، وأين أدلته في ترجيح قوله ؟!

أرأيت أخي القارىء أخلاقيات المستشرقين ومناهجهم في البحث وما زعموه من تجرد وحياد ؟! أرأيت إلى أي حد بلغ عندهم الإستهتار والتجني ؟! أرأيت كيف يضعون النتائج والغايات قبل أن يشرعوا في البحث والكتابة ؟!

أما الحج فيزعم « بروكلمان » أن الرسول ﷺ أخذه عن العرب الجاهليين ثم يربط بين ملامسة الحجر الأسود وبين الطقوس الوثنية العربية في الحج . (ص : ٦١) .

والزكاة — يراها — ضريبة للدولة . (ص : ٧٨) ، وهو القول نفسه الذي قاله بعض المرتدين بعد وفاة الرسول ﷺ .

ويعتقد « بروكلمان » أن تحريم الإسلام للتماثيل اعتقاد خرافي مشترك بين عدد من شعوب الأرض ... ويزعم أن محمداً ﷺ لم يتعرض للرق أكثر مما تعرضت له الكنيسة المسيحية ، ولكنه لطّف من حدة هذا النظام .
« أما القانون الجزائي في الإسلام فقد ظل على مستوى يقرب من السذاجة ، وهو لايمثل إلا تقدماً ضئيلاً بالنسبة إلى مفاهيم القوانين الوثنية القديمة » . (ص : ٨٢)

وقصارى القول : يرى « بروكلمان » أن كل شيء في دين الإسلام اقتبسه محمد ﷺ من الأمم الأخرى ، وينكر أشد الإنكار أن يكون الله سبحانه وتعالى قد أنزل كتاباً ، وشرع أحكاماً ، وبعث رسولاً من العرب .

افتراؤه على الصحابة :

كتب «بروكلمان» عن حركة الردة يقول :
« ولكن موجة من الإرتداد مالبثت أن طغت على الحياة في بلاد العرب . والواقع أن الدوافع الدينية لم تكن مسؤولة عن هذه الموجة إلا نادراً ، كل ما في الأمر أن بعض العرب رغبوا في أن يتخلصوا من سلطة المسلمين المتعبة في المدينة .
ومما تجدر ملاحظته أن الأنبياء الذين تزعموا حركات الثورة عملوا ، كما عمل محمد باسم الله ، لاباسم أي من الآلهة القديمة ... وإنما استاؤوا بخاصة من الرسل الدينيين الذين كان محمد يبعث بهم في السنوات السالفة إلى كثير من القبائل ليعلموها الدين الجديد ، ويجمعوا من أفرادها الزكاة .

فقد كان هؤلاء الرسل العاملون في خدمة الحكومة المدنية مصدر إزعاج وإعنات في نظر القبائل البدوية التي كانت تتمتع من قبل بكامل حريتها واستقلالها في مراعيها الخاصة » . (ص : ٨٤)

ويقول عن مسيلمة الكذاب :
« ظهر في اليمامة رجل اسمه مسلمة ـــ وقد دعاه المسلمون مسيلمة من باب التصغير الذي يقصد به التحقير ـــ وادعى النبوة ، مطالباً حكومة المدينة بأن تعترف له بحقوق متكافئة مع حقوقها .
وطبيعي أن لاتحمل إلينا الروايات الإسلامية غير نتف صغيرة من تفكيره الديني .
والذي يبدو [لاحظ أخي القارىء قوله : والذي يبدو !! ، فليس عند المؤلف الظالم إلا الظنون التي لايسندها دليل] أن مسلمة قد شدد على ناحية الزهد والتقشف تشديداً خاصاً ، فأوصى بالصيام ، وحرم الخمرة ، وحض أتباعه على الطهارة والفقه سامحاً لكل منهم بالإتصال الجنسي إلى أن يرزق ابناً ذكراً ، فحسب .
وفي الواقع أننا نقع في خطبه على أصداء من الأفكار المسيحية بأكثر مما نجد في أحاديث محمد » . (ص : ٨٥)

وهناك ملاحظات كثيرة على موقف « بروكلمان » من المرتدين ، من أهمها مايلي :

١ ـــ إذا كان مسيلمة قد دعا إلى الزهد والتقشف والطهارة والعفة ، فيكون بهذا قد دعا إلى أهم مبادىء الإسلام ، فكيف نجمع بين ردته وهذه المبادىء ؟!

٢ ـــ أطلق علي زعماء حركة الردة لقب الأنبياء في حين كان يسمي خاتم رسل الله وأنبيائه ﷺ كاهناً .

٣ ـــ من حق « بروكلمان » الوقوف إلى جانب المرتدين ، والدفاع عنهم ، والتنديد بخصومهم لأن هناك قواسم مشتركة تجمع بينهم ، من أهمها : الشرك بالله سبحانه وتعالى ، والصد عن سبيله ، وعداوة أوليائه . ولكن من حقنا أن نطالبه بالتخلي عن ادعاء الموضوعية في البحث .

وبعد أن كان « بروكلمان » صوتاً ناطقاً باسم المرتدين ، شديد التعصب لهم ، شغوفاً بأخبارهم نلاحظ أن أسلوبه يتغير عندما ينتقل إلى الحديث عن أصحاب رسول الله ﷺ ، فتراه يسيء الظن بهم ، ويتجاوز عن مناقبهم الطيبة ، ويكثر من التجني عليهم بغير حق ولادليل .

وعن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها يقول :
« وماهي إلا فترة قصيرة حتى وجد عثمان نفسه في المدينة وليس حوله إلا نفر من الأصدقاء ، وخاصة بعد أن وقفت عائشة أرملة النبي الشابة ، المحبة للفتنة ، في جانب خصومه » . (ص : ١١١)

ويمضي في الحديث عن عائشة رضي الله عنها بأسلوب خبيث فيقول :
« أما عائشة الداهية ، فتركت المدينة تحت ستار الحج إلى مكة ، لكي لاتشهد الوقائع فيما بعد » . (ص : ١١٤)

ويقول أيضاً :
« وكانت أم المؤمنين لاتزال تضمر لعلي عداءها القديم ، فما كادت تعلم أنه قبل البيعة حتى دعت المؤمنين إلى الثأر للرجل القتيل . فاستجاب لدعوتها الأمويون وأناس آخرون شاركوها في كره علي ليس غير » . (ص : ١١٥)

وعن حادث الإفك يقول :
« فاتفق مرة أن أضاعت زوجه [أي زوج الرسول ﷺ] المفضلة ، عائشة بنت أبي بكر ـــ وكانت آنذاك في الرابعة عشرة من عمرها ـــ قلادتها فخرجت تبحث عنها مساءً ففاتتها قوافل الغزاة ، ولم تعد إلى المعسكر إلا في اليوم التالي ،

وبرفقتها شاب كانت قد عرفته من قبل » . (ص : ٥٤)

ثم يقول : وكان علي ، صهر النبي ، أحد خصوم عائشة الذين ألحوا في طلاقها .

انظر إلى أقواله في وصف أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها : [المحبة للفتنة ، الداهية ، عدوة علي ... ثم يختم حديثه بحديث الإفك] .

لقد ردد « بروكلمان » في كل ماكتبه عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أقوال وأراجيف المنافقين واليهود في القديم ، وأقوال الرافضة ــ في القديم والحديث ــ ، وأقوال من سبقه من المستشرقين والرهبان الحاقدين .

بل وكان الرافضة ــ عليهم من الله مايستحقون ــ أقدر من بروكلمان على تلفيق الروايات ، وأطول باعاً في الكذب والمراوغة . والذي يقتضي التأكيد أن شيئاً من هذه الأقاويل التي زعموها عن عائشة رضي الله عنها لم يثبت أمام التحقيق العلمي ، وقد قال علماء أهل السنة والجماعة مافيه الكفاية في أمهات كتب التفسير والحديث ، وفي أبحاث خاصة بهذه المسألة (١٢) .

وعن الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يقول في معرض حديثه عن مقتل ثالث الخلفاء الراشدين عثمان بن عفان رضي الله عنهم أجمعين :
« وكان في جملة الناقمين عبد الله بن مسعود ، وهو من أقدم أصحاب الرسول [ﷺ] وكان يعتبر نفسه أحد الثقات الكبار في القرآن .
ولقد ذهب إلى أن النسخة التي أقرها عثمان محرفة ، غير كاملة ، متهماً زيداً وأصحابه باستبعاد الآيات التي تلعن الأمويين وتذكرهم مع أعداء الرسول [ﷺ] » (١٣) . [ص ١١٢]

---

١٢ ــ إن مهمتي في هذا البحث فضح مناهج المستشرقين ، من خلال عرض أقوالهم ، وليست مهمتي الرد على كل مايقولون ، فكثير من آرائهم معروف بطلانها عند المسلمين وتحدثت عن شيء منها في نهاية هذا الباب ، وبعضها سأتحدث عنه من خلال عرضي لوقائع السيرة ... وسبق أن أشرت في المقدمة بأن المعنيين والمخاطبين بهذا الكتاب أهل السنة والجماعة الذين لاتنطلي عليهم مثل هذه الإفتراءات .

١٣ ــ قوله : إن عبد الله بن مسعود كان يعتقد بأن النسخة التي أقرها عثمان ــ رضي الله عنه ــ محرفة ، غير كاملة ... غير صحيح على الإطلاق ، بل الصحيح بأن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعوا على مصحف عثمان ... وهذا الإجماع يأخذه المسلمون جيلاً بعد جيل ، ومازال القرآن مكتوباً بلغة قريش ، ومن يعتقد بأن في القرآن زيادة أو نقصاناً فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ .

ويستطرد في شتم السابقين الأولين من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ، فيزعم أن علياً وطلحة والزبير هم المحرضون الفعليون على الثورة ضد عثمان ، ويتجاهل الروايات الصحيحة التي تؤكد أن علياً جنّد أولاده في الدفاع عن عثمان حين حوصر في بيته ، وكذلك كان طلحة والزبير ، وحاشا لله أن يقف صحابي من السابقين الأولين مع أوباش الناس وسفهائهم ضد ذي النورين الذي كان الملائكة يستحون منه .

وعن حادث التحكيم يقول : إنها قد تكون وهمية ، ومن جهة أخرى يتبنى الروايات المختلقة التي تصور الصحابي الجليل عمرو بن العاص وهو يغدر بأبي موسى الأشعري من غير ورع ولاخوف من الله سبحانه وتعالى (ص : ١١٩) ، ولاتسل هذا المستشرق الظالم : كيف يقع بمثل هذا التناقض ؟! لاتسله عن هذا وغيره لأن أهواءه هي المقياس الأول والأخير في كل مايكتب عن الإسلام وعن خاتم الأنبياء ﷺ .

وعن سيف الله المسلول خالد بن الوليد رضي الله عنه يقول : « ويقتل جميع أتباعه طمعاً في زوجة مالك بن نويرة الجميلة » . (ص : ٨٦)

وهكذا لم يترك صحابياً جليلاً مر ذكره في كتابه إلا طعن به ، ولاغرابة في ذلك فلقد أنكر أن يكون القرآن الكريم كلام الله ، وأنكر نبوة محمد ﷺ فكيف ننتظر أن يسلم الصحابة رضوان الله عليهم من شتائمه وظلمه ؟!

الخلاصة :

لقد اكتفينا بهذه الأمثلة من كتاب « تاريخ الشعوب الإسلامية » لبروكلمان ، ، ولم نتعرض لما كتبه عن الخلفاء الراشدين ، ومن جاء بعدهم لأن دراستنا قاصرة على السيرة النبوية ... وتبين لنا أن المؤلف صليبي حاقد على الإسلام والمسلمين ، وقد تجاوز كل حد في شططه عن الحق ، وإعراضه عن الصواب ، وبعده عن الموضوعية والتجرد ، ولم يترك مركباً للدس والتضليل

← والذين يروجون مثل هذه الأخبار الملفقة غلاة الشيعة ، فيزعمون بأن أبناء علي يتناقلون مصحفه ، كما يزعمون بأن هناك مصحفاً يسمى مصحف فاطمة وليس فيه من مصحفنا كلمة واحدة .

ويكفي في دحض هذه الأخبار أنها لاتصح سنداً ، وليس بين أيدي المسلمين إلا مصحف واحد ، والشيعة أنفسهم يزعمون بأن الأقوال المنسوبة إليهم عن تعدد المصاحف ليست صحيحة ، ويقولون : ليس في بلادنا مصحف غير المصحف المعروف عند جميع المسلمين ... ويبدو أن [بروكلمان] تلقف هذه الرواية الكاذبة ليرد بها على الذين يقولون بتعدد الأناجيل عند النصارى فيقول لهم : وكذلك المسلمون عندهم أكثر من مصحف .

إلا امتطاه .

ولاأدري كيف تم اختياره عضواً في المجمع العلمي العربي بدمشق ، وماذا كان موقف الدعاة الطيبين في هذا المجمع من وجود عدو لدود للعربية والإسلام بينهم ؟!

كما أنني لاأدري كيف يشرق كتابه ويغرب في بلدان العالم الإسلامي ، ولانجد من يمنعه احتراماً لمشاعر المسلمين ، ولو كان يهاجم طاغوتاً من الطواغيت المعاصرين لتغير الحال ؟! وبعد ذلك كله نجد بعض الكتاب المهتمين بالقضايا الإسلامية يزكون كتابات بروكلمان !!



الفصل الثالث

دراسة لكتاب الدعوة إلى الإسلام

المؤلف :

المستشرق سير توماس . و . أرنولد ، نصراني إنجليزي ، اشترك في تحرير « دائرة المعارف الإسلامية » ، التي تعد من أخطر ماأنتجه المستشرقون ضد الإسلام والمسلمين . ولد « أرنولد » سنة ١٨٦٦ م وتوفي سنة ١٩٣٠ م .

الكتاب :

حفظت اسم « أرنولد » وكتابه « الدعوة إلى الإسلام » منذ أوائل شبابي ، وذلك لأن كبار الدعاة إلى الله من الكتّاب المشهورين ، وأساتذة الجامعات المعدودين كانوا يكثرون في محاضراتهم وكتبهم التي يتحدثون فيها عن سماحة الإسلام وعدله من الإستدلال بأقوال « أرنولد »

وكنت أحسب أنه عالم نصراني هداه الله إلى الإسلام ، وأنه يتحدث في كتابه « الدعوة إلى الإسلام » عن أصول الدعوة ، والسبل المثلى في تبليغها للناس ، وكم كانت فرحتي عظيمة عندما وجدت الكتاب في إحدى المكتبات ، وسارعت إلى شرائه ، وحفظته في مكتبتي طوال هذه المدة دون أن أطلع عليه .

وعندما بدأت أكتب في السيرة عدت إلى الكتاب وقرأته لأول مرة ، وذهلت حقاً ، عندما وجدت مافيه يتعارض مع ماكنت أسمعه عنه ، وأعدت قراءته بعناية فازددت يقيناً بسوئه وسوف أعرض فيما يلي أهم ماوجدته في الكتاب .

لاأنكر في البداية أن المؤلف تكلم كثيراً في كتابه عن عدل المسلمين في معاملة الناس ، وسماحة الإسلام ، وصدق حملته ، ونبل أهدافهم ... وأقواله هذه شهادة من مستشرق صليبي ، والخير ماشهدت به الأعداء .

والسؤال الذي يفرض نفسه :

هل جاءت هذه الشهادة من « أرنولد » خالصة لوجه الله تعالى ، أم أراد من وراءها تحقيق أهداف أخرى ؟!

يجيبنا المؤلف على هذا السؤال في مقدمة كتابه :
« إننا لم نضع هذا الكتاب لدراسة تاريخ الإضطهادات الإسلامية ، وإنما وضعناه لدراسة الدعوة الإسلامية في أنحاء العالم » . (ص : ٣٠)

إذن : هناك اضطهادات إسلامية [هكذا يسميها أرنولد] ، وهناك مساواة وعدل وسماحة إسلامية ، وقد اختار الكتابة في الموضوع الثاني ، وربما يكتب مستشرق آخر من أصدقائه عن الموضوع الأول ... وسوف نشير فيما بعد إلى سياسة توزيع الأدوار بين المستشرقين .

ومن جهة أخرى فالمؤلف وهو يتحدث عن عدل الإسلام تراه يستخدم ألفاظاً صليبية ثم يلصقها بالإسلام ، فتارة يحشر الإسلام مع البوذية والمسيحية ، وتارة أخرى يشبه سماحة المسلمين « برهبان ماينهارد وتيودوريك » . (ص : ٢٥ و ٣١)

وتحت عنوان « أسباب تحول المسيحيين إلى الإسلام » ، يتناسى المؤلف أنه يمثل دور الإعتدال في مسرحية المستشرقين ، ويعرض عن صداقته المزعومة للعرب والمسلمين ... ولهذا تراه يتحدث بأسلوب مجحف ليس فيه تجرد ولاموضوعية ، ثم يذكر لنا أسباباً ثلاثة يناقض بعضُها بعضَها الآخر :
السبب الأول :

يزعم أن حالة الكنيسة الشرقية قد تدهورت في ذلك الوقت ، وصار رجال الكنيسة يتنازعون فيما بينهم على أشد مسائل الدين إبهاماً وأكثرها غموضاً ... كما صار الأرثوذوكس والنساطرة وأتباع أوطيخوس واليعاقبة يضطهد بعضهم بعضاً . (ص : ٨٩)

وقد اعتدنا سماع هذه الأقوال المتهافتة من المستشرقين وتلامذتهم العرب الذين يحاولون الحط من شأن الفتوحات الإسلامية ، فيزعمون أن حالة الكنيسة الشرقية قد تدهورت ، كما يزعمون تفرق كلمة الفرس وكثرة الحروب الداخلية بين الطامعين في الحكم من كبار زعمائهم .

ويعرف بطلان هذه الأقاويل كل من يطلع على كتب التاريخ ، ويعلم من خلال الأرقام حجم الخسائر ، وتفاوت الإعداد ، وصعوبة المواصلات ، ووقوف معظم العرب الغساسنة إلى جانب الرومان ـــ إخوانهم في الإعتقاد ـــ ، كما وقف معظم المناذرة إلى جانب الفرس ، وفوق ذلك كله كان الفرس والرومان في حالة قوة وفتوة لايستهان بها ، وماكان يدور بخلد قادة كل من هاتين الدولتين أنهم سيهزمون أمام عدد ضئيل من العرب الحفاة العراة الجياع ـــ على حد زعمهم ـــ (١٤) .

السبب الثاني :

ظن المسيحيون بأن الإسلام حركة إصلاحية مسيحية ضد النظام الكنسي البيزنطي ... ومما عزز عندهم هذا الظن شدة التشابه بين أحكام الدين الإسلامي ورسائل القديس يوحنا الدمشقي ، وتأثر آراء المعتزلة بعلماء اللاهوت البيزنطيين . انظر إليه يقول بالحرف الواحد :

« ... أضف إلى ذلك أن الإسلام قد نظر إليه بعض الباحثين على أنه رد فعل ضد النظام الكنسي البيزنطي الذي كان يمثل الإمبراطور ورجال بلاطه صورة من الجلالة الإلهية في الأعالي . وقال :

إن الذين تحولوا إلى الإسلام وجدوا في الآراء الدينية عند المعتزلة كثيراً من المبادىء التي كانت مشتركة بين العقيدتين إذ ثبت أن هناك شواهداً بيّنة تدل على ماكان لعلماء اللاهوت البيزنطيين من أثر في تقدم البحث في المذاهب الإسلامية بصورة منظمة .

وإن أقدم أحكام الدين التي وضعت باللغة العربية لتوحي إلينا صيغتها وترتيبها بالنسبة بينها وبين الرسائل المماثلة لها ، التي كتبها القديس يوحنا الدمشقي وغيره من الآباء المسيحيين » . (ص : ٩٢)

بدأ الناس يدخلون في دين الله أفواجاً منذ سقوط امبراطورية الرومان في عهد أمير المؤمنين وثاني الخلفاء الراشدين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وكان سبب اعتناق معظم المسيحيين للإسلام مالمسوه من سماحة المسلمين وعدل أمرائهم بين الناس ، وقد أفاض أرنولد في الحديث عن هذه المسألة ... وفي ذلك الوقت لم يكن للمعتزلة ولا لغيرهم من أصحاب الفرق الضالة وجود والحمد لله ، ومما يجدر ذكره أن هذه الفرق ماقويت شوكتها ولا استفحل شرها إلا في بداية القرن الثالث الهجري .

---

١٤ ـــ للدكتور شكري فيصل كلام طيب حول هذه المسألة في كتابه تاريخ الفتوحات الإسلامية .

أما ماأشار إليه « أرنولد » من التشابه بين أحكام الدين الإسلامي ورسائل القديس يوحنا الدمشقي وغيره من الآباء المسيحيين فأمر مثير للسخرية والإشمئزاز حقاً !!

فأين هذا التشابه ؟! أفي الألوهية وقولهم : إن المسيح ابن الله ، وأنه قد صُلب ؟! أم في إنكار النصارى لنبوة محمد ﷺ ، وقولهم : القرآن ليس كلام الله ؟!

والأنكى من ذلك كله ادعاء أرنولد [بأسلوب خبيث ينقصه الوضوح والصراحة] بأن الذين تحولوا من المسيحية إلى الإسلام كانوا يرون بأن الإسلام حركة إصلاحية مسيحية ضد النظام الكنسي البيزنطي !!

ترى هل كان الذين تحولوا من المسيحية إلى الإسلام قوماً لاعقول لهم يفقهون بها ؟! وبمثل هذه السذاجة يكفر الإنسان بدينه ويعتنق ديناً آخر ؟! أما التشابه المزعوم بين المسيحية [التي ابتعدت عن تعاليم المسيح عليه السلام] والإسلام فلادليل عليه البتة .

السبب الثالث :

وفي غير هذه وتلك زعم « أرنولد » أن سيوف المسلمين هي التي زعزعت عقيدة المسيحييىن وأرغمتهم على التحول من المسيحية إلى الإسلام . (ص : ٩٤ و ٩٥)

وقد كذب « أرنولد » مرتين بهذا الزعم :

ـــ كذب أولاً لأنه ليس في كتاب الله جلّ وعلا ولافي سنة المصطفى ﷺ دليل على وجوب فرض الإسلام بالقوة على من كان يدين باليهودية أو النصرانية ، ونتحدى المستشرقين كافة أن يأتونا بدليل أو شبهة دليل يعزوون به قولهم : إن سيوف المسلمين هي التي زعزعت عقيدة المسيحيين وأرغمتهم على التحول من المسيحية إلى الإسلام .

وقد ضمن الإسلام حقوقاً للذميين لم يحصلوا عليها في ظل الأنظمة والحكومات المسيحية .

ـــ وكذب « أرنولد » ثانياً لأن مازعمه عن سيوف المسلمين التي زعزعت عقيدة النصارى يتعارض مع ماذكره عن عدل الإسلام وسماحة المسلمين مع النصارى واليهود .

أما سيوف المسلمين فكان لها دور في تطهير بلاد الشام ومصر وهزيمة أعداء الله ، ومع ذلك لم يرغم المسلمون أحداً من النصارى على الدخول بالإسلام .

وبعد هذا كله لم يبيّن لنا « أرنولد » لماذا أعرض عن رأي ساقه قبل صفحتين وجاء برأي آخر يتعارض معه ؟!

ولماذا أورد أسباباً ثلاثة متناقضة في جوابه لمسألة واحدة وبأي الأسباب نأخذ ، وأين الموضوعية والمنطق العلمي في مؤلفات هذا المستشرق الذي يمثل دور الإعتدال والحياد ؟!

وهل يستحق « أرنولد » من كبار الدعاة إلى الله مثل هذه النعوت الطيبة التي نعتوه بها ؟!

موقف أرنولد من الغيبيات :

عند حديث « أرنولد » عن سيرة المصطفى ﷺ في كتابه الدعوة إلى الإسلام ، تجاهل ذكر المعجزات التي أكرم الله بها نبيه محمد بن عبد الله ﷺ ، وسلك في ذلك أسلوباً مزج فيه بين الليونة وحلاوة العبارة ، وعدم الإصطدام مع مشاعر وأحاسيس القارىء المسلم ، وبين تحقيق الأهداف الخبيثة التي من أجلها قام بتأليف هذا الكتاب :

فهو من جهة قفز عن حادث نزول الوحي على رسول الله ﷺ ، ولم يتحدث عن كيفية نزوله ، وماحدث لرسول الله ﷺ بعد أن رأى جبريل عليه السلام .

ومن جهة أخرى عاد يقول عن الوحي في موضع آخر من كتابه :
« ... بمعنى أن الله تعالى ، في فترات من تاريخ العالم ، قد وهب بعض تجليه على الخلق ، على لسان أنبياء ملهمين » .

وفي موضع ثالث يعرب عن إعجابه بما قاله « البروفسور مونتيه » عن الإسلام والوحي :
« الإسلام في جوهره دين عقلي ، بأوسع معاني هذه الكلمة من الوجهتين الإشتقاقية والتاريخية .
فإن تعريف الأسلوب العقلي بأنه طريقة تقيم العقائد الدينية على أسس من

المبادىء المستمدة من العقل والمنطق ، ينطبق عليها تمام الإنطباق .
والحق أن محمداً الذي كان متحمساً لدينه ، كما كان كذلك يمتلك غيرة الإيمان ، ونار الإقتناع ، تلك الصفة القيمة التي بثها كثير جداً من أتباعه قد عرض حركته الإصلاحية على أنها وحي وإلهام . على أن هذا النوع من الوحي ليس إلا صورة من العرض والتفسير ... وتتلخص العقيدة الإسلامية من وجهة نظر المؤمنين في الإعتقاد بوحدانية الله ورسالة نبيه ، أما من وجهة نظرنا نحن الذين نحلل عقائده تحليلاً لاروح فيه ، فنعتقد في الله وفي الحياة الآخرة . » .

وإذن : فالوحي إلهام وتجلي الله على بعض خلقه ، وكلمة « إلهام » ليست غريبة عند جميع المسلمين ، فالصوفيون يكثرون من استعمالها في أحاديثهم ، كما يستعملون عبارة « تجلي الله » .

وعاد مرة أخرى يستعمل كلمات في حديثه عن الوحي يكثر أهل الإعتزال — ومن سار على نهجهم من أصحاب المدرسة الإصلاحية — من استخدامها ، بل هم الذين يتبجحون بتقديم العقل على النقل ... وهذا السر في قولنا :

لقد سلك « أرنولد » أسلوباً مزج فيه بين الليونة وحلاوة العبارة ، وعدم الإصطدام مع مشاعر وأحاسيس القارىء المسلم ، وبين تحقيق الأهداف الخبيثة التي من أجلها قام بتأليف هذا الكتاب .

وأخيراً وقع « أرنولد » فيما حاول الهروب منه ، أو فيما حاول عرضه بأسلوب رقيق ليس فيه شدة ولاقسوة ... قالها صراحة : إنه لايؤمن برسالة المصطفى ﷺ ، ولا بالقرآن الكريم ، وإنما يؤمن بالله سبحانه وتعالى واليوم الآخر ... وزعم « أرنولد » أنه يحلل الدعوة الإسلامية تحليلاً لاروح فيه . وقد كذب فيما زعمه وادعاه لأنه يقول بأنه يؤمن بالله واليوم الآخر ورسالة المسيح وعقيدة التثليث ، ولو كان صادقاً في ذلك لآمن بالجميع أو أنكر الجميع .

تحويل القبلة :

وفي حديث « أرنولد » عن تحويل القبلة يتخلى عن بقية مازعمه من حياد وتجرد ، ويقتفي أثر من سبقه من المستشرقين الحاقدين . انظر إلى قوله :

« وكان المصلون قد تعودوا في العهد الأول أن يولوا وجوههم شطر بيت المقدس ، وربما كان المقصود استمالة اليهود » .

ويتابع حديثه عما أسماه : جهود الرسول [ﷺ] من أجل استمالة اليهود فيقول :

« وقد حاول محمد استرضاءهم بوسائل أخرى كثيرة ، فدأب على الإستشهاد بكتبهم المقدسة ، ومنحهم الحرية التامة في إقامة شعائرهم الدينية ، وساوى بينهم وبين المسلمين في الحقوق السياسية . ولكنهم قابلوا صنيعه باستهزاء وسخرية . فلما أن أخفقت آماله في استمالتهم إليه وأصبح من الواضح أن اليهود لايقبلون محمداً نبياً لهم ، أمر صحابته بأن يولوا وجوههم شطر الكعبة بمكة » .

وفي موضع ثالث يرى « أرنولد » أن تحويل القبلة بداية للحياة القومية في الإسلام .

وفي أقوال « أرنولد » مغالطات كثيرة من أهمها مايلي :

١ ـــ نسبة أمر تحويل القبلة إلى محمد ﷺ ، حيدة عن الحق ظاهرة لكل ذي عينين ، فالله سبحانه وتعالى هو الذي أمر رسوله ﷺ أن يتجه إلى بيت المقدس حيناً من الزمن ، ثم أمره أن يولي وجهه شطر مكة المكرمة ، وليس لمحمد ﷺ من الأمر شيء ، إن هو إلا عبد الله ورسوله ، ولاينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى ، ولكن « أرنولد » ينكر الوحي كما ينكر بعثة المصطفى ﷺ .

٢ ـــ أمرنا الله سبحانه وتعالى أن نعامل أهل الكتاب بالحسنى ، فلايجوز الإعتداء عليهم ، ولامنعهم من إقامة شعائرهم الدينية ونسكهم ، وليس الأمر استرضاء [كما زعم أرنولد] لليهود أو النصارى .

٣ ـــ كلام أرنولد عن تحويل القبلة مرفوض نقلاً وعقلاً : مرفوض نقلاً لأنه ليس هناك أي دليل يعتمد عليه المؤلف سوى قوله :

[وربما كان المقصود من ذلك استمالة اليهود] وهو الأسلوب نفسه الذي سلكه بروكلمان عندما بنى معظم أحكامه ونتائجه الخطيرة على : ربما ، ولعلّ ، وأظن ...

ومرفوض عقلاً لأن الصلاة إلى بيت المقدس شرعها الله سبحانه وتعالى في مكة المكرمة ، وليس في مكة في ذلك الوقت يهود حتى يحاول ﷺ

استمالتهم واسترضاءهم .
٤ ـــ قلنا : إن تحويل القبلة تم بأمر من الله سبحانه وتعالى ، ولله جل وعلا حكم كثيرة من وراء ذلك ، أما الحديث عن القومية ، فهو من أساليب « أرنولد » الخبيثة في الدس والإفتراء ، والإسلام دين عالمي أراده الله أن يكون رحمة للعالمين ، فليس فيه سيطرة قومية ، ولامصالح إقليمية أو طائفية ، ونحن لم نعرف مثل هذه الآفات إلا في ظل الإستعمار الصليبي الغربي لبلادنا .

النتائج التي انتهى إليها أرنولد

انتهى أرنولد في كتابه الدعوة إلى الإسلام إلى الأحكام والنتائج التالية :
ـــ لم يضع كتابه لدراسة تاريخ الإضطهادات الإسلامية وإنما وضعه لدراسة الدعوة الإسلامية في أنحاء العالم .
ـــ ظن المسيحيون بأن الإسلام حركة إصلاحية مسيحية ضد النظام الكنسي البيزنطي ولهذا أعلنوا إسلامهم .
ـــ هناك تشابه كبير بين أحكام الدين الإسلامي ورسائل القديس يوحنا الدمشقي وغيره من الآباء المسيحيين ، وهذا يعني أن محمداً [ﷺ] أخذ عن النصارى معظم أصول دينه .
ـــ سيوف المسلمين هي التي زعزعت عقيدة المسيحيين وأرغمتهم على التحول من المسيحية إلى الإسلام .
ـــ أنكر بعثة المصطفى ﷺ ، كما أنكر أن يكون القرآن الكريم كلام الله سبحانه وتعالى نزل به الروح الأمين .
ـــ زعم أن محمداً ﷺ هو الذي أمر المسلمين أن يولوا وجوههم شطر بيت المقدس في الصلاة من أجل استمالة اليهود وكسب ودهم ... وعندما قابلوا صنيعه باستهزاء وسخرية أمر أصحابه بأن يولوا وجوههم شطر الكعبة بمكة .

وإذن فالنتائج والأحكام التي انتهى إليها أرنولد لاتختلف عن النتائج التي انتهى إليها الحاقدون على الإسلام والمسلمين من المستشرقين .

والخلاف بين أرنولد وغيره من المستشرقين كان في أسلوبه الذي يمتاز بحسن العبارة ، وتجنب الشتم والتجريح ، وعدم الإصطدام مع مشاعر وأحاسيس القراء المسلمين ، والإشادة بالإسلام والمسلمين في أمور لاعلاقة لها بالنتائج

التي قد انتهى إليها . ومما لاشك فيه أن المؤلف كان ذكياً بارعاً في الأسلوب الذي اختاره . ودليلنا على ذلك :
إعجاب كبارالدعاة إلى الله بكتابه ، ودعوتهم الشباب إلى الإطلاع عليه واقتنائه ، وفي الوقت نفسه كانوا يحذرون الشباب من مؤلفات المستشرقين الحاقدين أمثال : جولد تسهير ، ودرمنغام ، وبراون ، ودنلوب ... وغيرهم .

وإني إذ ألتمس الأعذار لأساتذتنا الدعاة ، وأعلم إنهم — إن شاء الله — ماأرادوا إلا الخير ... ومع ذلك أقول : كان من الواجب عليهم تنبيه وتحذير الشباب مما ورد في كتاب « الدعوة إلى الإسلام » من دسائس وأباطيل لن ينتبه إليها القراء من الشباب الذين لايعرفون أسلوب المستشرقين ، ويثقون بمن نصحوهم بقراءة الكتاب ، ويظنون أن الخير فيه كله .

وفي ختام حديثي عن « أرنولد » أتساءل : مااللذي يمنع أن يكون أسلوب هذا المستشرق من قبيل توزيع الأدوار بين المستشرقين : فهذا عدو لدود يكتب لبني قومه ليصدهم عن سبيل الله ، وبنو قومه لايعرفون الحق من الباطل . وذاك معتدل متجرد [!!] يكتب لطلابه من دعاة التغريب . والثالث — كأرنولد — يزعم أنه صديق للعرب والمسلمين .

الفصل الرابع

من تناقضات المستشرقين

إن النماذج الثلاثة التي اخترناها من كتب المستشرقين تمثل مختلف اتجاهاتهم : المعتدلة منها والمتطرفة . ونتحدى تلامذتهم وأبناء دينهم من العرب ، وسائر المعجبين بهم والسائرين على نهجهم أن يأتونا بكتاب واحد من كتب أساتذتهم المستشرقين ليس فيه دس ولا افتراء ضد الإسلام والمسلمين .

ومن خلال ماعرضناه في هذا الفصل نستطيع أن نلخص منهج المستشرقين بمايلي :

١ ــ ليس في منهجهم فيما كتبوه عن سيرة المصطفى ﷺ شيء اسمه « نقد الرواية » : سنداً ومتناً ، وبيان ضعفها من صحتها ، والترجيح عند تعدد الروايات ، وليس في منهجهم كذلك شيء اسمه علم الرجال وبيان الثقات من مجروحي العدالة .

٢ ــ معظم المستشرقين من الرهبان المتزمتين الذين امتلأت قلوبهم حقداً ضد محمد ﷺ ، وأعلنوا عن عداوتهم للمسلمين ... ولهذا فهم يلوون أعناق الروايات حتى تأتي مطابقة لنتائج وغايات وضعوها قبل الشروع في البحث ، ولايخجلون من الكذب وتلفيق القصص ، ومزج الخبر بتعليقهم عليه ، كما أنهم لايخجلون من الإعراض عن روايات هي في صحتها كالشمس في رابعة النهار .

٣ ــ لايؤمن المستشرقون بالروايات والأخبار الغيبية : كنزول الوحي ، والقرآن الكريم ، والإسراء والمعراج ، وشق الصدر ... ولاتثبت الرواية عندهم إلا إذا قبلتها عقولهم ، ومأأدراك ماعقولهم !!

وللقارىء الكريم أن يسأل : هل هذا منهجهم في جميع أبحاثهم ودراساتهم

التي يقومون بنشرها ؟!

وجوابنا على ذلك : هذا هو منهجهم في دراسة سيرة المصطفى ﷺ خاصة والعلوم الإسلامية بشكل عام ... ينطلقون من الحقد وسوء الظن ، وإنكار الغيب ، ويعتمدون على : ربما ، ولعل ، وأظن ومالى ذلك من أوهام وهواجس لاتغني عن الحق شيئاً .

أما إذا كانوا يكتبون عن تاريخ النصارى وعقائدهم وكتبهم المقدسة فتراهم أكثر دقة في بعض الأمور التي يطرحونها ، بل ويحققون في بعض الأخبار التي يستدلون بها ولايخلطون بين الخبر وتعليقهم عليه .

والغريب أن معظمهم مؤمنون بالغيبيات وخوارق العادات التي وردت في سيرة المسيح عليه السلام ، ومؤمنون بالخرافات والأساطير التي ألصقها رجال الدين النصارى بحياة المسيح وسيرته والتي لم تثبت عن طريق النقل الصحيح أو عن طريق العقل السليم !!

وعجيب أمر المستشرقين ، وأعجب منهم تلامذتهم الذين يرددون أقوالهم كالببغوات .

ولما كانت القضايا التي يثيرها المستشرقون ضد الإسلام والمسلمين متشابهة ، فسوف نناقش فيما يلي التناقض الصريح في موقفهم من المسيحية والإسلام .

منهجهم وخرافات النصارى

يكثر المستشرقون من القول : إن التحقيق والموضوعية والتجرد ديدنهم في كل مايبحثون ويكتبون لافرق في ذلك عندهم بين عدو وصديق أو بين قريب وبعيد .

ويكثر المستشرقون من القول أيضاً : إنهم يدرسون العقائد الدينية على أسس من المبادىء المستمدة من العقل والمنطق ... ولما كان معظم المستشرقين يدينون بعقيدة النصارى الذين أضلهم الله سبحانه وتعالى ، وأحبط أعمالهم لأنهم

غيروا أصول وأحكام الدين الذي ابتعث الله به المسيح عيسى بن مريم عليه السلام فمن الواجب علينا أن نسألهم السؤال التالي :
هل التزمتم بهذا المنهج عندما آمنتم بعقيدة النصارى ؟! (١٥) .

وجوابنا على ذلك : إنهم لم يلتزموا بهذا المنهج ، وإنما ورثوا هذه الديانة عن آبائهم وأجدادهم ، كما ورثوا عنهم عداوة الإسلام والمسلمين ... فهم مقلدون متزمتون ، ومن ثم فعقيدتهم التي يدينون بها تتعارض مع التحقيق والموضوعية والتجرد تعارضاً لايقبل أي تقارب أو لقاء .

ونحن نتحدى المستشرقين المعاصرين ... كما نتحدى تلامذتهم من العرب النصارى أن يقدموا لنا أجوبة علمية للمسائل التالية :
١ ـ أنزل الله على عبده ورسوله المسيح عيسى بن مريم كتاباً واحداً ، والمسيح عليه السلام بلّغ ماأنزل إليه من ربه . فأين ذهبوا بهذا الكتاب ؟!

تقول مصادرهم : بلغ عدد الأناجيل السبعين ... ثم اتفق مجمع [قينية] على أربعة منها هي : إنجيل مرقس ، وإنجيل يوحنا ، وإنجيل لوقا ، وإنجيل متّى . . وأصبحت هذه الأناجيل متداولة منذ القرن الرابع الميلادي ...

ولم يتفق النقاد الغربيون على معرفة كتّاب هذه الأناجيل ، وإن كانوا يتفقون على أنها كتبت بعد المسيح عليه السلام ببضعة قرون .

ومن ثم فهذه الأناجيل متناقضة متعارضة ، وقد كُتِبَتْ بأسلوب ركيك مفكك ، ليس فيه إعجاز ، ولاجودة في الصياغة والبيان ... أهكذا تكون المعجزة التي أنزلها الله على عبده ورسوله عيسى بن مريم عليه السلام ؟!

ولم يذكر لنا القائمون على هذه الكنائس ماهي الأدلة التي اعتمدوا عليها في قبول أربعة من هذه الأناجيل واستبعاد الباقي ؟!

كل الذي نعرفه أن إنجيل [برنابة] ورد فيه إنكار صريح لألوهية المسيح عليه السلام ، ونص أيضاً على أن المسيح لم يصلب ... أفيكون هذا هو السبب في عدم اعتراف الكنائس بإنجيل برنابا ؟!

وفي سنة ١٩٦٦ اكتشف الدكتور [ساموبل ستيرن] في بعثته الجامعية في [مدينة إستمبول] وثيقة تاريخية مهمة تؤكد عدم صلب المسيح وأنه نبي

١٥ ـ وكذلك شأن المستشرقين اليهود .

مرسل وليس إلها يعبد ، وقد نشرت هذه الوثيقة عدد من الصحف الغربية من بينها صحيفة التايمز البريطانية [16] .

فأين هذه الأباطيل والتناقضات من القرآن الكريم الذي لايأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه ... ومايزال كما أنزله الله على عبده ورسوله محمد ﷺ ؟!

وأين المستشرقون من تعدد هذه الأناجيل وتناقضها وأين دراساتهم والحلول التي وضعوها لأخطر مشكلة تتحدى عقيدتهم ؟!

٢ ـــ يؤمن النصارى بخوارق العادات ، ويسمونها العجائب . جاء في **قاموس** الكتاب المقدس ماملخصه :

« العجيبة : حادثة تحدث بقوة إلهية خارقة ... والعجيبة الحقيقية هي فوق الطبيعة لاضدها تحدث بتوقيف نواميس الطبيعية ، لابمعاكستها ، وهي إظهار نظام أعلى من الطبيعة يخضع له النظام الطبيعي .

أما المسيح فأقنومة [17] عجيبة أدبية عظيمة ، وعجائبه لم تكن إلا إظهار هذا الأقنوم وأعماله ، وإذا آمنا بالمسيح ابن الله العديم الخطيئة لم يعسر علينا تصديق عجائبه . ولابد من العجائب لتعزيز الديانة ، فكثيراً مايستشهد المسيح بعجائبه لإثبات لاهوته وكونه المسيح ، وكان يفعلها لتمجيد الله ولمنفعة نفوس الناس وأبدانهم ، وكان يفعلها أمام جماهير أصحابه وأعدائه ولم ينكرها أعداؤه غير أنهم نسبوها [ليعلزبول] [18] .

وسواء امتحناها بالشهادة من الخارج ، وبمناسبتها إلى إرساليته الإلهية ظهرت لكل من كان خالياً من الغرض صحيحة ، فإذا لم نسلم بصحتها ، التزمنا أن نقول بأن مقرريها كذابون ، الأمر الذي لايسوغ ظنه بالمسيح والرسل » اهـ [19] .

---

١٦ ـــ مجلة الإعتصام المصرية ، وقد فاتني ذكر تاريخ العدد .

١٧ ـــ الأقانيم : الأصول واحدها [أقنوم] وأحسبها روحية [عن مختار الصحاح للرازي] . ومما يجدر ذكره أن الإله عند النصارى يتألف من : الآب ، والإبن ، والكلمة يجمعهم أقنوم واحد ، وجسد واحد .

١٨ ـــ ليعلزبول : أي الشيطان ، والأناجيل تثبت العجائب للشيطان ، ومن أسمائه عندهم : إله هذا الدهر . قاموس الكتاب المقدس : ١ / ٦٥٠ [عن الوحي المحمدي ص ٧٣] .

١٩ ـــ قاموس الكتاب المقدس عن كتاب [الوحي المحمدي ، ص : ٧٤ ، للشيخ محمد رشيد رضا] . وهذا الإستدلال غير صحيح ، فكذب الرواة لايعني بالتأكيد تكذيب المسيح والرسل عليهم السلام.

وعجائب المسيح التي يؤمن بها النصارى كثيرة جداً ... وإننا نلخص رواية الأناجيل لأهمها وهو إحياء الموتى :
[الميت الأول] — شاب من مدينة نايين كان محمولاً في جنازة وأمه تبكي ، فاستوقف النعش ، وقال له : أيها الشاب لك أقول قم ، فجلس وابتدأ يتكلم فرفعه إلى أمه ، فأخذ الجميع خوف ، ومجدوا الله قائلين : قد قام فينا نبي عظيم ، وافتقد الله شعبه . (لوقا ٧ : ١١ — ١٦)
[الميت الثاني] — صبية ماتت ، فقال لها أبوها وكان رئيساً : ابنتي الآن ماتت ولكن تعالَ ، فضع يدك عليها فتحيا ، فجاء بيت الرئيس ووجد المزمرين والجميع يضجون ، فقال لهم :
« تنحوا ، فإن الصبية لم تمت ، لكنها نائمة » فضحكوا عليه ، فلما أخرج الجمع دخل وأمسك بيدها فقامت الصبية . (متّى : ١٨ — ٢٤)
[الميت الثالث] — فهو ليعازر حبيبه وأخوه مرثا ومريم حبيبتيه ، مرض في قريتهم — بيت عنيا — فأرسلتا إلى المسيح قائلتين :
هو ذا الذي تحبه مريض ، فمكث يومين وحضر ، فوجد أنه مات منذ أربعة أيام ، فلاقته مرثا وقالت : ياسيد لو كنت هنا لم يمت أخي ، ثم دعت أختها مريم ، فلما رأته خرّت عند رجليه قائلة كما قالت مرثا ، وكانوا قد ذهبوا إلى عند القبر للبكاء فلما رآها تبكي واليهود الذين جاؤوا معها يبكون انزعج بالروح واضطرب وقال : أين وضعتموه ؟ فدلوه عليه ، فبكى وانزعج في نفسه وجاء إلى القبر وكان مغارة وقد وضع عليه حجر ، فأمر برفع الحجر فرفعوه ورفع يسوع عينيه إلى فوق وقال :
أيها الآب أشكرك لأنك سمعت لي وأنا علمت أنك في كل حين تسمع لي ، ولكن لأجل هذا الجمع الواقف قلت ليؤمنوا أنك أرسلتني .
ولما قال هذا صرخ بصوت عظيم [ليعازر ، هلم خارجاً] فخرج الميت ويداه مربوطتان بأقمطة ، ووجهه ملفوف بمنديل ، فقال لهم يسوع :
« حلوه ، ودعوه يذهب » اهـ . ملخصاً من الفصل [١١] من إنجيل يوحنا (٢٠) .

ولاأدري كيف يقبل المستشرقون مثل هذه الأقوال ويسلمون بصحتها ، في حين ينكرون الروايات المتواترة ؟!
٢٠ — الوحي المحمدي ، رشيد رضا ص : ٧٥ و ٧٦ .

٣ ـــ يؤمن النصارى بخرافات وأساطير ماأنزل الله بها من سلطان . منها « خرافة العشاء الرباني » حيث يأكلون خبزاً ، ويشربون خمراً ، ويزعمون أن الخبز يستحيل إلى جسد المسيح ، وذلك الخمر يستحيل إلى دم المسيح المسفوك ، فمن أكلهما وقد استحالا هذه الإستحالة فقد أدخل المسيح في جسده ، بلحمه ودمه (٢١) .

ومنها [صكوك الغفران] : وهي وثائق يمنحها رجال الدين لأشخاص معينين مقابل خدمات ومنافع يقدمونها لهم ... ويتم بموجب هذه الصكوك والوثائق حل المحرمات والمحظورات في الدين ، كما يتم تأجير أرض في الجنة ... وغير ذلك من الخرافات والأساطير التي تؤكد لنا بأن رجال الدين النصارى لايبالون بكل مايصدر عنهم من أقوال وأفعال ولايحترمون عقول الذين يخاطبونهم من أتباعهم .

والسؤال المطروح : أين المستشرقون عن هذا كله ؟!

فإن قالوا : إنه لاصلة لصكوك الغفران بعقيدة النصارى وأصول دينهم ، وإنما هي صورة من صور استغلال الدين المعروفة عند النصارى والمسلمين واليهود قلنا : دعونا من صكوك الغفران وغيرها من الخرافات وتعالوا إلى « عجائب المسيح » :

كيف آمنتم بها وقد وردت في أناجيل متناقضة ، لاتختلفون معنا بأن المسيح لم يكتبها ، ولاتعرفون من كتبها ، ولم تنقل عن طريق التواتر ؟!

وإذا سلمنا معكم جدلاً بأن هذه العجائب صحيحة من حيث النقل فإننا نواجه مشكلة أخرى في منهجكم الذي تشترطون فيه مطابقة العقائد الدينية للعقل والمنطق ، وعلى هذا الأساس رفضتم نبوة المصطفى ﷺ ، وجحدتم نزول الوحي عليه ، وزعمتم أن القرآن ليس كلام الله ؟!

إننا نتحدى المستشرقين أن يقدموا حلاً لهذه الورطة التي وقعوا فيها .

وإذا كانت هذه هي حال المستشرقين ، فنحن المسلمين نؤمن والحمد لله بنبوة عيسى عليه السلام ومعجزاته لقوله سبحانه وتعالى :

﴿ إذ قالت الملائكة يامريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن

---

٢١ ـــ المستقبل لهذا الدين ، سيد قطب ص : ٤٨ .

مريم وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين . ويكلم الناس في المهد وكهلا ومن الصالحين . قالت رب أنى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر قال كذلك الله يخلق مايشاء إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون . ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل . ورسولاً إلى بني إسرائيل أني قد جئتكم بآية من ربكم أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله وأبرىء الأكمه والأبرص وأحي الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تأكلون وماتدخرون في بيوتكم إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين ﴾ (٢٢).

ولو تجرد المستشرقون حقاً في دراساتهم وأبحاثهم من الهوى لعلموا بأنه لايمكن إثبات نبوة عيسى عليه السلام ومعجزاته إلا بثبوت نبوة محمد ﷺ ، وهذا القرآن الذي جاء به ، لأن القرآن الكريم لم يتغير أو يتعدد ، ومايزال يتلى كما أنزله الله سبحانه وتعالى ، وآياته متواترة تواتراً متصلاً في كل عصر من عصر الرسول الذي نزل به إلى الآن ، والتواتر هو نقل الجمع الكثير من العدول الثقات الذين يستحيل في العادة تواطؤهم على الكذب لخبر أدركوه ، وحمله عنهم مثلهم قرناً بعد قرن وجيلاً بعد جيل بدون انقطاع ، وهذا التواتر يفيد العلم القطعي .

وإذن : فنبوة المسيح عليه السلام ومعجزاته صحيحة ثابتة بثبوت نبوة محمد ﷺ والقرآن الكريم الذي جاء به .

أما قول المستشرقين : إنهم يدرسون العقائد الدينية على أسس من المبادىء المستمدة من العقل والمنطق ... فإن كان المقصود : المنطق العلماني الذي دعا له فلاسفة أوربا بعد نجاح الثورة الفرنسية ، فهم يناقضون أنفسهم لأنهم نصارى ويؤمنون بالغيبيات بل وبالخرافات التي وضعها رجال الكنيسة وصارت ديناً لهم .

والذين ينادون بالمنطق العلماني ملاحدة لايؤمنون بدين من الأديان السماوية ، ولو كان المستشرقون النصارى ملاحدة لكان لنا معهم موقف آخر .

أما تلاعبهم وحيدتهم عن الحق في تطبيق منهجهم المزعوم فإن دل على شيء فإنما يدل على أنهم لايلتزمون منهجاً ولايتخلون عن أهوائهم وحقدهم الدفين ضد محمد ﷺ وأمته التي جعلها الله خير أمة أخرجت للناس .

٢٢ ــ سورة آل عمران ، الآيات من ٤٥ إلى ٤٩ .

المستشرقون وأجهزة المخابرات الغربية

قلت فيما مضى من هذا الحديث : لقد جندت الدول الإستعمارية المستشرقين والمبشرين كخبراء وجواسيس في جيوشها وبعثاتها الدبلوماسية المنتشرة في جميع بلدان العالم الإسلامي .

وحدثنا الأستاذ السباعي رحمه الله عن نماذج من هؤلاء المستشرقين الذين اجتمع بهم خلال زيارته لجامعات أوروبا عام ١٩٥٦ م ومن أشهرهم :
ـــ البروفسور [أندرسون] رئيس قسم قوانين الأحوال الشخصية المعمول بها في العالم الإسلامي في معهد الدراسات الشرقية في جامعة لندن ، وهو متخرج من كلية اللاهوت في جامعة كمبردج ، وكان من أركان حرب الجيش البريطاني في مصر خلال الحرب العالمية الثانية .
ـــ رئيس قسم الدراسات الإسلامية والعربية في جامعة أوكسفورد ، وهو يهودي يتكلم العربية ببطء وصعوبة وكان يعمل في دائرة الإستخبارات البريطانية في ليبيا خلال الحرب العالمية الثانية .
ـــ من شيوخ المستشرقين في فرنسا « بلاشير » و « ماسينيون » وكانا يعملان في وزارة الخارجية الفرنسية كخبيرين في شؤون العرب والمسلمين .

وذكر الأستاذ السباعي أن هؤلاء المستشرقين لايفهمون العربية ولايحسنون النطق بها ، ومراجعهم الوحيدة التي يعتمدون عليها كتب : جولد تسهير ، ومرجليوث ، وشاخت ، وحسبك بهؤلاء عنواناً على الدراسات المدخولة المدسوسة الموجهة ضد الإسلام والمسلمين (٢٣) .

وبعد جلاء جيوش المستعمرين عن بلدان العالم الإسلامي أسندت الولايات المتحدة الأمريكية ـــ وحليفاتها من الدول الغربية ـــ إلى المستشرقين المهمات التالية :

١ ـــ العمل كأساتذة وإداريين في جامعات مشهورة ، يقصدها الطلبة من جميع بلدان العالم ، بل وقد أصبحت بعض هذه الجامعات وكأنها وقف على أبناء كبار الأغنياء ورجال الأعمال ، وأبناء علية القوم في دول العالم الثالث . أما

---

٢٣ ـــ السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي ١٢ ـــ ١٧ ..

الأبحاث التي يكلف بها هؤلاء الطلبة فتكاد لاتتجاوز الموضوعات التالية : المشكلات الطائفية والقومية ، الصحوة الإسلامية ، الثروات الإقتصادية ، العادات والتقاليد ، الصراع بين القديم والحديث ، تحرير المرأة ، المخزون الغذائي ، الحركات الدينية المتطرفة .

ولو حاول طالب أن يقدم دراسة عن دور اليهود في اقتصاد الولايات المتحدة الأمريكية أو حاول نقد مناهج المستشرقين لرفض طلبه أو عاد إلى بلده بدون شهادة ، ويُعد في هذه الحالة من الطلبة الفاشلين عند بني قومه الذين يقومون الناس من خلال هذه الشهادات .

ومن المفيد بهذه المناسبة ذكر القصة التالية :
زارني في شهر رمضان المبارك من عام ١٤٠٤ هـ طالب وأخبرني أنه يدرس في جامعة من جامعات الولايات المتحدة التي كثر فيها المستشرقون من اليهود وغيرهم ، واتفق مع استاذه أن يكون موضوع رسالته لأخذ شهادة الدكتوراة « الصحوة الإسلامية في بلد هذا الطالب العربي » مع أن عدد المواطنين الذين يحملون جنسية بلد هذا الطالب لايعادل ١/٢٠ من سكان مدينة لندن أو نيويورك ، وقال صاحبنا أنه زارني ليسألني بعض الأسئلة ويسمع ماعندي من ملحوظات حول موضوع رسالته .
قلت له اقرأ علي مالديك من أسئلة ففعل ، فوجدت نفسي أمام رجل يريد أن يقدم معلومات لجهاز من أجهزة المخابرات ، وليس لجامعة من الجامعات .
قلت : هل تسمح لي أن أسألك بعض الأسئلة ، ومن حقي هذا لأني لاأعرفك ، فوافق وأجابني وفهمت من أجوبته أنه باطني ، ويكره سياسة الولايات المتحدة ، وفهمت من عباراته أنه يكره الجماعات الإسلامية ، وإن كان لم يقل ذلك صراحة ... ثم فهمت فيما بعد أنه يساري .
قلت له : ألا تعلم أن كبار أساتذة الجامعات على علاقة بالمخابرات الأمريكية ، وفي طليعتهم [هنري كيسنجر] وزير خارجية الولايات المتحدة السابق وغيره من اليهود ، وأن المخابرات وراء هذه الموضوعات ؟!
قال : على كل حال موضوع رسالتي ليس سراً من الأسرار ، والمخابرات الأمريكية تعرف ما لاأعرفه عن بلدي .
قلت : لكنك تسأل عن قادة الجماعات الإسلامية ومابينهم من خلافات ، فماذا تريد جامعة كبرى من جامعات الولايات المتحدة بمثل هذه الأسماء

المتواضعة ؟!
قال : وهذا ليس سراً من الأسرار .
قلت : لماذا اخترت أهل السنة وحدهم ، وتجاهلت غيرهم ؟!

فلف ودار وراوغ في رده . وهنا أجبته بما لايسره ، وأخبرني ــ إن كان صادقاً ــ أنه وجد بغيته عند غيري ، وأحسب أن صاحبنا نال شهادة الدكتوراة في تقرير قدمه للأمريكان عن الجماعات الإسلامية . وهذا مثال واحد من أمثلة كثيرة تبين لنا نشاط الجامعات الغربية ودور المستشرقين المشبوه في هذه الأوكار .

٢ ــ العمل كخبراء ومستشارين وباحثين في الشركات التجارية ، والبعثات العسكرية والعلمية والأمنية والدبلوماسية في العالم الإسلامي .

وتتيح لهم هذه الوظائف المرموقة إقامة علاقات وطيدة مع زعماء الطوائف والأقليات ، وقادة الأحزاب الجاهلية ، وكبار أصحاب رؤوس الأموال كما تتيح لهم جمع أدق المعلومات عن بلادنا وإرسالها إلى [الكمبيوتر] المركزي في وكالة الإستخبارات الأمريكية والبريطانية والسوفياتية والفرنسية والإسرائيلية ، ولاتزال وكالة الإستخبارات الأمريكية من أنشط وأخطر وكالات الإستخبارات في العالم .

ولم يعد سراً معرفة أعدائنا وإحاطتهم بأدق أسرارنا العسكرية والأمنية والإقتصادية ، كما أنه لم يعد سراً علاقاتهم المشبوهة مع زعماء الطوائف وقدرتهم على تحريك هذه الطوائف في أي وقت يريدون .

وبعد :
فهذه هي اهتمامات المستشرقين وأدوارهم في الربع الأخير من هذا القرن الميلادي ، ومن المؤسف أن تلامذتهم يسوسون الأمور في كثير من الجامعات وغيرها في دول العالم الثالث بعقلية أساتذتهم وإن كانوا يقولون شيئاً آخر ، يقولون : إنهم وطنيون لاسلطان لأحد عليهم ، ويفعلون مايأمرهم به كيسينجر وغيره من زعماء البيت الأبيض والكرملين ، ولايزال في أمتنا من يصدّق هؤلاء الطلبة القادة ويثق بهم ، وإنها مأساة والله !!

الفصل الخامس

ردود حاسمة

نوجز ردنا على ماأثاره المستشرقون من شبهات حول الرسالة والرسول ﷺ في النقاط التالية :

أولاً : جوانب مهمة من حياة الرسول قبل البعثة :

١ ــ أمانة الرسول وصدقه :

كان ﷺ في حياته قبل البعثة صادقاً ، أميناً ، يصل الرحم ، ويحمل الكل ــ العاجز ــ ، ويكسب المعدوم ، ويقري الضيف ، ويعين على نوائب الحق .

شهد له بهذه الصفات الطيبة أهل مكة كلهم عندما قاموا بتجديد بناء الكعبة قبل البعثة بسنوات قلائل . وشهدوا له مرة أخرى عند الصفا عندما قال لهم : « أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي ؟ » قالوا : نعم ماجربنا عليك إلا صدقاً .

وشهد له ألد أعدائه كأبي سفيان ، وعتبة بن ربيعة ، والوليد بن المغيرة .

قال هرقل لأبي سفيان : فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ماقال ؟
قلت ــ أي أبو سفيان ــ : لا .
قال : فهل يغدر ؟
قلت : لا ، ونحن معه في مدة لاندري ماهو فاعل فيها .

وأعداء الإسلام ــ في القديم والحديث ــ لايجرؤون على اتهام محمد ﷺ بالكذب أو بالغدر والخيانة ، اللهم إلا نفر قليل من المتأخرين الذين لايعتد بقولهم .

٢ ـــ أمية الرسول :

كان ﷺ أمياً لايعرف القراءة ولاالكتابة ، وقد تحدى الله سبحانه وتعالى المشركين بذلك فقال جلّ من قائل :

﴿ وماكنت تتلوا من قبله من كتاب ولاتخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون ﴾ (٢٤) .

وقال :

﴿ قل يأيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً الذي له ملك السماوات والأرض لاإلاه إلا هو يحي ويميت فأمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون ﴾ (٢٥) .

ولم يقف مشرك بعد هذا التحدي ليقول : إن محمداً [ﷺ] يقرأ ويكتب وليس أمياً ، ومعظم أعداء الإسلام اليوم لاينكرون أمية الرسول ﷺ .

٣ ـــ متى كانت البعثة :

ابتعث الله نبيه محمداً ﷺ بعد أن أتم الأربعين من عمره ، وخلال هذه الفترة الزمنية ، لم ينافس الزعماء في زعامتهم ولا التجار في تجارتهم ، ولم يكن من خطبائهم أو شعرائهم ، وإنما كان يعيش حياة هادئة بعيدة عن الصخب والمغامرات .

هذا الرجل الصادق الأمين الأمي أخبر قومه بعد أربعين من سني عمره بأن الله سبحانه وتعالى أنزل عليه قرآناً ، وأخذ يتلو عليهم آيات من هذا القرآن فزلزلت الأرض بهم زلزالها ، وخشيوا أن يفتنهم إعجازه ، ويسلبهم هذا الدين الانفراد بسدانتهم لبيت الله الحرام ، فأعلنوا حرباً على محمد ﷺ ومن آمن معه .

وتحداهم الله سبحانه وتعالى أن يأتوا بمثل هذا القرآن العظيم ، أو بسورة من مثله ، وقد نزل بلغتهم ، وفيهم أهل البلاغة والفصاحة .

قال تعالى :

﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لايأتون بمثله

---

٢٤ ـــ سورة العنكبوت ، الآية : ٤٨ .

٢٥ ـــ سورة الأعراف ، الآية : ١٥٨ .

ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾ (٢٦) .

وقال :

﴿ وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ﴾ (٢٧) .

وعجز فصحاء الجزيرة وخطبائها أن يأتوا بسورة من مثل كتاب الله تعالى ، ولايزال هذا التحدي قائماً ، وسيبقى مابقيت الحياة .

بل لو اجتمع أدباء العربية وعلماء اللغة على صعيد واحد وأخذوا نصاً من القرآن الكريم ماكان لهم أن يحذفوا كلمة أو حرفاً من هذا النص ثم يستقيم المعنى ، « فالقرآن معجزة للخلق بلفظه ونظمه وأسلوبه وتأثيره وعلومه » (٢٨) .

ثانياً ــ قولهم : إن القرآن من وضع محمد :

١ ــ الفرق بين القرآن والحديث :

زعم المستشرقون بأن القرآن الكريم من وضع محمد ﷺ ، ولايملكون دليلاً على ذلك لا بل الأدلة تصفعهم ، فرسول الله ﷺ لبث ثلاثاً وعشرين عاماً يتلو القرآن الكريم ، ويحدث قومه بالحديث النبوي ، ولم نجد تقارباً أو تشابهاً بين القرآن والحديث ، ومع أن الرسول ﷺ آوتي جوامع الكلم فهو لايستطيع أن يأتي بسورة بل بآية تشبه آيات القرآن .

ويستحيل أن يكون القرآن من وضعه ، والحديث من وضعه ولايكون تشابه ولو في بعض الآيات والأحاديث على الأقل .

٢ ــ عتاب الله لنبيه :

كان ﷺ يأتيه القرآن على غير ما عمل فيعاتبه ، ومن ذلك قوله تعالى :

---

٢٦ ــ سورة الإسراء ، الآية : ٨٨ .

٢٧ ــ سورة البقرة ، الآية : ٢٣ .

٢٨ ــ الوحي المحمدي ، رشيد رضا ص : ١٣٧ .

﴿ يأأيها النبي لم تحرم ماأحل الله لك تبتغي مرضاة أزواجك ﴾ (٢٩) .

وفي قصة زيد بن حارثة وزينب بنت جحش رضي الله عنهما قال تعالى معاتباً نبيه :

﴿ وتخفي في نفسك ماالله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه ﴾ (٣٠) .

وعن ابن أم مكتوم قال تعالى :

﴿ عبس وتولى أن جاءه الأعمى ، ومايدريك لعله يزكى أو يذكر فتنفعه الذكرى ، أما من استغنى فأنت له تصدى وماعليك ألا يزكى،وأما من جاءك يسعى وهو يخشى فأنت عنه تلهى ﴾ (٣١) .

وجاءه قول الله تعالى بعد أن صلى على المنافق عبد الله بن أبي :

﴿ ولاتصل على أحد منهم مات أبداً ولاتقم على قبره ﴾ (٣٢) .

ولو كان القرآن من وضعه لما ذكر فيه مثل هذه الأخطاء ، بل لو كان ﷺ يملك أن يخفي خبراً واحداً لما أصبحت هذه الأخبار قرآناً يتلوه المسلمون على مر الأزمان والعصور ، وجلَّ من قائل :

﴿ وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لاريب فيه من رب العالمين ﴾ (٣٣) .

وقال :

﴿ ولو تقول علينا بعض الأقاويل ، لأخذنا منه باليمين ، ثم لقطعنا منه الوتين ، فما منكم من أحد عنه حاجزين ﴾ (٣٤) .

ثالثاً ــ أخبر القرآن عن أمور غيبية مالبثت أن حدثت :

وعد الله سبحانه وتعالى نبيه بالنصر والتمكين في الأرض فقال جل من قائل :

---

٢٩ ــ سورة التحريم ، الآية : ٦٦ .
٣٠ ــ سورة الأحزاب ، الآية : ٣٧ .
٣١ ــ سورة عبس ، الآيات : من ١ إلى ٥ .
٣٢ ــ سورة التوبة ، الآية : ٨٤ .
٣٣ ــ سورة يونس ، الآية : ٣٧ .
٣٤ ــ سورة الحاقة ، الآية : ٤٤ ــ ٤٧ .

﴿ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾ (٣٥) .

وقال :
﴿ يأيها الرسول بلغ ماأنزل إليك من ربك ، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ، والله يعصمك من الناس إن الله لايهدي القوم الكافرين ﴾ (٣٦) .

وقال :
﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز ﴾ (٣٧) .

ولقد أظهر الله دينه على الدين كله ، وعصم نبيه من الناس ، ونصره على المشركين والمنافقين ، وفتح الله على خاتم أنبيائه ورسله : مكة والبحرين وسائر جزيرة العرب وأرض اليمن ، وبعد وفاة رسول الله ﷺ بقليل تم فتح بلاد فارس والعراق والشام ومصر ، ومعظم بلاد الدنيا ، وأصبح الدين كله لله .

وتحقق وعد الله سبحانه وتعالى بظهور الروم على الفرس في بضع سنين . قال تعالى :
﴿ ألم . غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون . في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم . وعد الله لايخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لايعلمون ﴾ (٣٨) .

تحقق وعد الله مع أن دولة الروم كانت في منتهى الضعف ، وكانت دولة فارس في أوج قوتها ، والله جلَّ وعلا لايخلف وعده ولكن المستشرقين والمشركين والمنافقين لايعلمون .

وتحقق وعد الله لنبيه ﷺ بفتح مكة المكرمة ، ودخول المسجد الحرام آمنين مقصرين . قال تعالى :
﴿ لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين . محلقين رؤوسكم ومقصرين لاتخافون فعلم مالم تعلموا فجعل من دون ذلك

---

٣٥ ـــ سورة الصف ، الآية : ٩ .
٣٦ ـــ سورة المائدة ، الآية : ٦٧ .
٣٧ ـــ سورة المجادلة ، الآية : ٢١ .
٣٨ ـــ سورة الروم ، الآيات : من ١ إلى ٥ .

فتحاً قريباً ﴾ (٣٩) .

وتحقق وعد الله بموت أبي لهب وامرأته على الكفر ، كما تحقق وعده تعالى بهزيمة المشركين في بدر .

إن المشركين في مكة واليهود في المدينة كانوا أشد حقداً وأكثر عداوة لمحمد ﷺ من المستشرقين ، وقد طرقت مسامعهم هذه الآيات عند نزولها ، وكانوا يتمنون أن لاتتحقق ، ولكنها تحققت في وقتها المحدد ، وفي الكيفية التي وعد الله بها عباده المؤمنين .

وإذا كان القرآن من عند محمد — كما يزعم المستشرقون — فما الذي يجعله يغامر مثل هذه المغامرة التي تكتنفها المخاطر ؟!

وأي إنسان يعرف ماذا سيحدث له بعد لحظات ؟! ومايزال القرآن يتحدى المستشرقين اليوم كما كان يتحدى المشركين بالأمس ، وفي هذا دليل على أنه تنزيل العزيز الحميد .

رابعاً — فرية أخذ القرآن عن اليهود والنصارى :

قال المستشرقون : إن محمداً [ﷺ] أخذ القرآن ، وأصول دينه ، وأخبار الأنبياء والمرسلين عن الراهب بحيرا عندما لقيه في الشام ، وعن ورقة بن نوفل الذي كان من متنصرة العرب العلماء بالنصرانية وأحد أقرباء خديجة ، وعن الغلام الرومي الأعجمي الذي كان يعمل حداداً في مكة المكرمة .

وهذه الإدعاءات ليست جديدة ، والمستشرقون يرددون أقوال المشركين في مكة واليهود في المدينة . قال تعالى :
﴿ وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا ﴾ (٤٠) .

وقال :
﴿ ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر ، لسان الذي يلحدون إليه أعجمي .

---

٣٩ — سورة الفتح ، الآية : ٢٧ .

٤٠ — سورة الفرقان ، الآية : ٥ .

وهذا لسان عربي مبين ﴾ (٤١) .

وقد كفانا العلامة الزرقاني رحمه الله في رده على هؤلاء الكافرين ودحض شبهاتهم . قال رحمه الله :

« ١ ــ إن هذه الدعوة مجردة من الدليل ، خالية من التحديد والتعيين ، ومثل هذه الدعاوي لاتقبل مادامت غير مدللة ، وإلا فليخبرونا ماالذي سمعه محمد [ﷺ] من بحيرا الراهب ؟ ومتى كان ذلك ؟ وأين كان ذلك ؟

٢ ــ إن التاريخ لايعرف أكثر من أنه ﷺ سافر إلى الشام في تجارة مرتين ، مرة في طفولته ومرة في شبابه ، ولم يسافر غير هاتين المرتين ، ولم يجاوز سوق بصرى فيهما ، ولم يسمع من بحيرا ولامن غيره شيئاً من الدين ، ولم يكن أمره سراً هناك بل كان معه شاهد في المرة الأولى وهو عمه أبو طالب ، وشاهد في المرة الثانية وهو ميسرة غلام خديجة التي خرج الرسول بتجارتها أيامئذ ، وكل ماهنالك أن بحيرا رأى سحابة تظلله ﷺ من الشمس ، فذكر لعمه أن سيكون لهذا الغلام شأن ، ثم حذره عليه من اليهود ، وقد رجع به عمه خوفاً عليه ولم يتم رحلته .

كذلك روي هذا الحديث من طرق في بعض أسانيدها ضعف ، ورواية الترمذي ليس فيها اسم بحيرا ، وليس في شيء من الروايات أنه ﷺ سمع من بحيرا الراهب أو تلقى منه درساً واحداً أو كلمة واحدة لافي العقائد ولا في العبادات ولا في المعاملات ولا في الأخلاق ، فأنى يؤفكون ؟

٣ ــ إن تلك الروايات التاريخية نفسها تحيل أن يقف هذا الراهب موقف المعلم لمحمد ﷺ لأنه بشره أو بشر عمه بنبوته ، وليس بمعقول أن يؤمن رجل بهذه البشارة التي يزفها ثم ينصب نفسه أستاذاً لصاحبها الذي سيأخذ عن الله ويتلقى من جبريل ويكون هو أستاذ الأستاذين وهادي الهداة والمرشدين وإلا كان هذا الراهب متناقضاً مع نفسه .

٤ ــ إن بحيرا الراهب لوكان مصدر هذا الفيض الإسلامي المعجز لكان هو الأحرى بالنبوة والرسالة والإنتداب لهذا الأمر العظيم .

٥ ــ إنه يستحيل في مجرى العادة أن يتم إنسان على وجه الأرض تعليمه وثقافته ثم ينضج النضج الخارق للمعهود فيما تعلم وتثقف ، بحيث يصبح أستاذ العلم

---

٤١ ــ سورة النحل ، الآية : ١٠٣ .

كله لمجرد أنه لقي مصادفة واتفاقاً راهباً من الرهبان مرتين ، على حين أن هذا التلميذ كان في كلتا المرتين مشتغلا عن التعليم بالتجارة ، وكان أمياً لايعرف القراءة ولا الكتابة ، وكان صغيراً تابعاً لعمه في المرة الأولى ، وكان حاملاً لأمانة ثقيلة في عنقه لابد أن يؤديها في المرة الثانية ، وهي أمانة العهد والإخلاص في مال خديجة وتجارتها .

٦ ـــ إن طبيعة الدين الذي ينتمي إليه الراهب بحيرا ، تأبى أن تكون مصدراً للقرآن وهدايته ، خصوصاً بعدما أصاب ذلك الدين ماأصابه من تغيير وتحريف . وحسبك أدلة على ذلك أن القرآن قد صور علوم أهل الكتاب في زمانه بأنها الجهالات ثم تصدى لتصحيحها ، وصور عقائدهم بأنها الضلالات ثم عمل على تقويمها ، وصور أعمالهم بأنها المخازي والمنكرات ثم حض على تركها ، ثم تذكر أن فاقد الشيء لايمكن أن يعطيه ، وأن الخطأ لايمكن أن يكون مصدراً للصواب ، وأن الظلام لايمكن أن يكون مشرقاً للنور .

٧ ـــ إن أصحاب هذه الشبهة من الملاحدة يقولون : إن القرآن هو الأثر التاريخي الوحيد الذي يمثل روح عصره أصدق تمثيل . فإذا كانوا صادقين في هذه الكلمة فإننا نحاكمهم في هذه الشبهة إلى القرآن نفسه ، وندعوهم ليقرأوا ولو مرة واحدة بتعقل ونَصَفَةٍ ، ليعرفوا منه كيف كانت الأديان وعلماؤها وكتابها في عصره ؟ وليعلموا أنها ماكانت لتصلح لأستاذية رشيدة ، بل كانت هي في أشد الحاجة إلى أستاذية رشيدة . إنهم إن فعلوا ذلك فسيستريحون ويريحون الناس من هذا الضلال والزيغ ومن ذلك الخبط والخلط ، هدانا وهداهم الله فإن الهدى هداه [ومن لم يجعل الله له نوراً فماله من نور] .

٨ ـــ إن هذه التهمة لو كان لها نصيب من الصحة ، لفرح بها قومه وقاموا لها وقعدوا لأنهم كانوا أعرف الناس برسول الله ﷺ ، وكانوا أحرص الناس على تبهيته وتكذيبه وإحباط دعوته بأية وسيلة ، ولكنهم كانوا أكرم على أنفسهم من هؤلاء الملاحدة فحين أرادوا طعنه بأنه تعلم القران من غيره لم يفكروا أن يقولوا أنه تعلم من بحيرا الراهب كما قال هؤلاء ، لأن العقل لايصدق ذلك والهزل لايسعه ، بل لجأوا إلى رجل في نسبة الأستاذية إليه شيء من الطرافة والهزل ، حتى إذا مجت العقول نسبة الأستاذية إليه لاستحالتها ، قبلتها النفوس لهزلها وطرافتها ، فقالوا : إنما يعلمه بشر ، وأرادوا بالبشر حداداً رومياً منهمكاً بين مطرقته وسندانه ، ظالاً طول يومه في خبث الحديد وناره ودخانه ، غير أنه اجتمع فيه أمران حسبوهما مناط ترويج تهمتهم أحدهما : أنه مقيم بمكة

إقامة تيسر لمحمد [ﷺ] الإتصال الدائم الوثيق به ، والتلقي عنه ، والآخر : غريب عنهم وليس منهم ، ليخيلوا إلى قومهم أن عند هذا الرجل علم مالم يعلموا هم ولاآباؤهم فيكون ذلك أدنى إلى التصديق بأستاذيته لمحمد ﷺ ، وغاب عنهم أن الحق لايزال نوره ساطعاً يدل عليه ، لأن هذا الحداد الرومي أعجمي لايحسن العربية ، فليس بمعقول أن يكون مصدراً لهذا القرآن الذي هو أبلغ نصوص العربية بل هو معجزة المعجزات ومفخرة العرب واللغة العربية ﴿ لسان الذين يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين ﴾ اه (٤٢) .

خامساً ــ كتبهم المحرفة تكذبهم :

قلنا فيما مضى : إن معظم المستشرقين من اليهود والنصارى ، ويؤمنون بالكتب التي يتداولها بنو قومهم ، وقد جاء ذكر النبي محمد ﷺ في هذه الكتب رغم ماوقع بها من تحريف .

حدثنا العهد القديم عن أمة راكب الجمل ، وكيف تساق الهدايا من الأغنام للفقراء كل مدة حتى تملأ البقاع ، وكيف يظهرون في البادية بين الجبال .

وجاء في التوراة عن النبي موسى عليه السلام :
« قال لي الرب : سأقيم لبني إسرائيل نبياً من إخوتهم مثلك أجعل كلامي في فيه ويقول لهم ماآمره به ، والذي لايقبل قول ذلك النبي الذي يتكلم باسمي أنا أنتقم منه ومن سبطه » .

وجاء في العهد الجديد أن علماء الكتاب ، كما في بشارة يوحنا [١ ــ ١٩] كانوا ينتظرون ثلاثة وعد الله بمجيئهم وهم : المسيح ، وإيليا ، والنبي » .

وجاء في السفر الخامس من التوراة أن النبي سيظهر في جبال فاران ، لكنهم يزعمون أن جبال فاران من أرض الشام ، وليست أرض الحجاز وليس هذا ببدع من بَهَتِهِمْ وتحريفهم وعندهم في التوراة أن إسماعيل لما فارق أباه سكن في برية فاران . هكذا نطقت التوراة ، ولفظها :

---

٤٢ ــ مناهل العرفان : ٢ / ٣١٧ ــ ٣١٩ .

« وأقام إسماعيل في برية فاران ، وأنكحته أمه امرأة من [جرهم] » .

ولايشك علماء أهل الكتاب أن فاران مسكن لآل إسماعيل ، فقد تضمنت التوراة نبوة تنزل بأرض فاران ، وتضمنت نبوة تنزل على عظيم من ولد إسماعيل ، وتضمنت انتشار أمته وأتباعه حتى يملأوا السهل والجبل .

جاء في مزمور من مزامير الزبور :
« لترتاح البوادي وقراها ولتصير أرض قيذار مروجاً ، ولتسبح سكان الكهوف ويهتفوا من قلل الجبال بحمد الرب ويذيعوا تسابيحه في الجو » .

وقيذار أحد جدود الرسول ﷺ بالإجماع — كما نقل ابن القيم في هداية الحيارى .

وجاء في مزمور آخر « إن ربنا عظم محموداً » ، وفي مزمور ثالث « الهنا قدوس ومحمد قد عم الأرض كلها فرحاً » . فقد نص داود على اسم محمد وبلده ، وأن كلمته قد عمت الأرض .

وقال أشعيا عن الحرم : « إن الذئب والجمل فيه يرتعان معاً » . وقال أيضاً :
« إني جعلت أمرك يامحمد بالحمد ياقدوس الرب اسمك موجود من الأبد » .

وقال أشعيا في كتابه : « أشكر حبيبي وابني أحمد » ، وقال في موضع آخر :
« إنا سمعنا من أطراف الأرض صوت محمد » ، وهذا إفصاح باسمه .

وجاء ذكر النبي ﷺ في إنجيل برنابا في قرابة سبعة وأربعين موضعاً منها ماهو بصريح الإسم ، ومنها أنه [مسيا] رسول الله أمل بني إسرائيل ومنها أنه رسول الله الذي يأتي بعد عيسى ابن مريم عليه السلام .

فمن ذلك ماجاء في الفصل السابع والتسعين من هذا الإنجيل :
« ... فقال حينئذ الكاهن : ماذا يسمى مسيا وما هي علامة مجيئه ؟ أجاب يسوع :
إن اسم مسيا عجيب لأن الله نفسه سماه لما خلق نفسه ووضعها في بهاء سماوي ، قال الله :
[اصبر يامحمد لأني لأجلك أريد أن أخلق الجنة والعالم وجماً غفيراً من الخلائق

التي أهبها لك حتى أن من يباركك يكون مباركاً ، ومن يلعنك يكون ملعوناً ومتى أرسلتك إلى العالم أجعلك رسولي للخلاص وتكون كلمتك صادقة حتى أن السماء والأرض تهنان ولكن إيمانك لايهن أبداً] إن اسمه المبارك محمد ، حينئذ رفع الجمهور أصواتهم قائلين :
ياالله أرسل لنا رسولك ، يامحمد تعال سريعاً لخلاص العالم » .

وجاء في إنجيل يوحنا قول عيسى عليه السلام للحواريين :
« أنا ذاهب وسيأتيكم البار قليط ، روح الحق الذي لايتكلم من قبل نفسه إلا كما يقال له وهو يشهد علي وأنتم تشهدون لأنكم معي من قبل الناس وكل شيء أعده الله لكم يخبركم به » .

وجاء في الأصحاح السادس عشر من إنجيل يوحنا :
« إن البار قليط لايجيئكم مالم أذهب فإذا جاء وبخ العالم على الخطيئة ولايقول من تلقاء نفسه شيئاً ولكن مما يسمع يكلمكم ويسوسكم بالحق ويخبركم بالحوادث والغيوب » .

وفي موضع آخر من الإنجيل نفسه قال عيسى عليه السلام :
« ابن البشر ذاهب والبار قليط من بعده يخبي لكم بالأسرار ويفسر لكم كل شيء ، وهو يشهد لي كما شهدت له ، فإني أجيئكم بالأمثال وهو يأتيكم بالتأويل » .

وقال متَّى قال المسيح :
« ألم تروا أن الحجر الذي أخره البناؤن صار أساً للزاوية من عند الله ، كان هذا وهو عجيب في أعيننا ، ومن أجل ذلك أقول لكم إن ملكوت الله سيأخذ منكم ويدفع إلى أمة أخرى تأكل ثمرتها ، ومن سقط على هذا الحجر ينشدخ ، وكل من سقط هو عليه يمحقه » .

والبار قليط كلمة يونانية وردت في أول إنجيل كتب باللغة اليونانية ، ولاتزال مستعملة في الأناجيل اليونانية المتداولة الآن ومعناها الحمد أو الحامد أو المخلص .

وقد شهد الرسول ﷺ بنبوة عيسى عليه السلام ، وأنه عبد الله ورسوله .

وقصارى القول : إن معظم المستشرقين يؤمنون بالتوراة والأناجيل المتداولة

ولايؤمنون بما ورد فيها من بشائر حول بعثة المصطفى ﷺ ، وهذه واحدة من تناقضاتهم التي لاتحصى (٤٣) .

ومن الجدير بالذكر أن نفراً من اليهود والنصارى وغيرهم أعلنوا إسلامهم بين يدي الرسول ﷺ عندما رأوه وسمعوا منه وتأكد عندهم أنه النبي الذي وردت أوصافه في كتبهم ومن هؤلاء : عبد الله بن سلام ، وكعب الأحبار ، وسلمان الفارسي .

سادساً ــ مَنْ الذي يعاني من أمراض نفسية ؟!

زعم بعض المستشرقين بأن محمداً ﷺ كان يعاني من أمراض نفسية ، وحاول أحد دعاة مدرسة فرويد [ماكسيم رودينسون] أن يحلل شخصية الرسول ﷺ تحليلاً نفسياً !! وإبطال هذا الزعم من وجوه :

الوجه الأول : إن الأمراض النفسية المتزايدة من إنتاج الحضارة الغربية ، ولقد كان فرويد نفسه مصاباً بأمراض نفسية بشهادة تلميذه وزميله [يونج] وكل إناء بما فيه ينضح .

الوجه الثاني : ردد مثل هذه الأباطيل بعض المشركين في مكة لكن بعضهم هداه الله إلى الإسلام ، وكفَّر عن أخطائه في الجاهلية وحسن إسلامه ، وبعضهم مات ذليلاً مهاناً ... أما معظم المشركين فكانوا يشهدون باستقامة رسول الله ﷺ وصدقه ، وذكرنا فيما مضى ماقاله أبو سفيان وهو مشرك أمام هرقل .

الوجه الثالث : ابتلى الله سبحانه وتعالى رسوله ﷺ بمصائب كثيرة من أشهرها : موت أحب الناس إليه كوالديه ، وجده عبد المطلب ، وعمه أبي طالب ، وزوجه خديجة ، وابنه إبراهيم ، وابتلاه الله جلَّ وعلا بإعراض الناس عنه وشدة عداوتهم له ... فمازادته هذه المصائب إلا إيماناً بالله تعالى ، وثباتاً على الحق ... وتتجلى هذه المعاني الكريمة بأقواله وأفعاله ، كما تتجلى في سلوكه وأخلاقه وفي دخول الناس في دين الله أفواجاً .

الوجه الرابع : لايملك هؤلاء المستشرقون أدلة تثبت صحة أقوالهم ، وهيهات لهم ذلك ، وليس عندهم إلا الإفتراءات والأكاذيب التي تدل على سوء نواياهم ،

---

٤٣ ــ اعتمدت على المصادر التالية : إنجيل برنابا ، إنجيل يوحنا ، البداية والنهاية ٢ / ٣٢٧ ، هداية الحيارى لابن القيم ٥٣ ــ ٧٤ ، من علامات النبوة ــ عبد الملك كليب .

وخبث مقاصدهم .

أهل مكة أدرى بشعابها

وبعد :

فهؤلاء هم المستشرقون على حقيقتهم لافرق في ذلك بين المعتدلين منهم والمتطرفين .

وهذه هي مناهجهم في البحث والتأليف ... وهذه هي أهدافهم التي يسعون إلى تحقيقها ... وهذه بعض تناقضاتهم الكثيرة ، ومن أهمها إيمانهم بعقيدة المغضوب عليهم والضالين — على مابها من خرافات وأساطير لايقبلها دين أنزله الله ولاعقل سليم من العتة والجنون — وكفرهم بالإسلام !

أليس من المؤسف بعد هذا كله أن يكون مؤسسوا المعاهد والجامعات وكبار أساتذتها في بلاد المسلمين من طلاب هؤلاء المستشرقين ومن أشد الناس إعجاباً بهم ؟!

قال الدكتور الشيخ مصطفى السباعي رحمه الله :
« لما كنا طلاباً في السنة الثانية والثالثة في قسم تخصص المادة في الفقه والأصول وتاريخ التشريع [العالمية من درجة أستاذ] في كلية الشريعة ، وكان ذلك في عام ١٩٣٩ م عينت مشيخة الأزهر في عهد الشيخ المراغي رحمه الله ، الدكتور علي حسن عبد القادر أستاذاً لنا يدرس تاريخ التشريع الإسلامي ، وكان قد أنهى دراسته في ألمانيا حديثاً وهو مجاز من كلية أصول الدين في قسم التاريخ ، ومكث في ألمانيا أربع سنوات حتى أخذ شهادة الدكتوراة في قسم الفلسفة على ماأذكر . كان أول درس تلقيناه عنه أن بدأه بمثل هذا الكلام : [إني سأدرس لكم تاريخ التشريع الإسلامي ، ولكن على طريقة علمية لاعهد للأزهر بها ، وإني أعترف لكم بأني تعلمت في الأزهر قرابة أربعة عشر عاماً فلم أفهم الإسلام ، ولكني فهمت الإسلام حين دراستي في ألمانيا] .

فعجبنا — نحن الطلاب — من مثل هذا القول وقلنا فيما بيننا : لنستمع إلى أستاذنا لعله حقاً قد علم شيئاً جديداً بأن نعلمه عن الإسلام مما لاعهد للأزهر به ، وابتدأ درسه عن تاريخ السنة النبوية ترجمة حرفية عن كتاب ضخم بين

يديه ، علمنا فيما بعد أنه كتاب جولد تسهير [دراسات إسلامية] وكان أستاذنا ينقل عبارته ويتبناها على أنها حقيقة علمية ، واستمر في دروسه نناقشه فيما يبدو لنا ـــ نحن الطلاب ـــ أنه غير صحيح ، فكان يأبى أن يخالف جولد تسهير بشيء مما ورد في هذا الكتاب ، حتى إذا وصل في دروسه إلى الحديث عن الزهري ، واتهامه بوضع الأحاديث للأمويين ، ناقشته في ذلك ـــ بحسب معلوماتي المجملة عن الزهري من أنه إمام في السنة ، وموضع ثقة من العلماء جميعاً ـــ فلم يرجع عن رأيه ، مما حملني على أن أطلب منه ترجمة ماقاله جولد تسهير عن الزهري تماماً ، فترجمه لي في ورقتين بخط يده ، وبدأت أرجع إلى المكتبات العامة للتحقيق في سيرة الزهري وفي حقيقة مااتهمه به هذا المستشرق .

ولم أترك كتاباً مخطوطاً في مكتبة الأزهر وفي دار الكتب المصرية من كتب التراجم إلا رجعت إليها ونقلت منها مايتعلق بالزهري ؛ واستغرق ذلك ثلاثة أشهر كنت أشتغل فيها منذ مغادرتي كلية الشريعة بعد الدروس حتى أواخر الليل ، فلما تجمعت لدي المعلومات الصحيحة ، قلت لأستاذنا الدكتور عبد القادر :

« لقد تبين لي أن جولد تسهير قد حرف نصوص الأقدمين فيما يتعلق بالزهري ، فأجابني بقوله :

لايمكن هذا ، لأن المستشرقين ـــ وخاصة جولد تسهير ـــ قوم علماء منصفون لايحرفون النصوص ولاالحقائق » اهـ (٤٤) .

والشاهد هنا اعتقاد الأستاذ بأن المستشرقين منصفون ولايحرفون النصوص ولاالحقائق ، مع أن المستشرقين عامة وأستاذه جولد تسهير بشكل خاص من أكثر أعداء الإسلام ـــ في القديم والحديث ـــ كذباً وتحريفاً وتضليلاً .

والأستاذ الدكتور علي حسن عبد القادر يعمل في أكبر وأهم المعاقل والحصون العلمية ـــ الأزهر ـــ ، وكان أستاذاً لجيل السباعي رحمه الله ، والسباعي من أعلام الدعوة الإسلامية وروادها في العصر الحديث ...

ومن هنا نعلم خطورة الغزو الصليبي ، وكيف وصلت طلائعه إلى المعاهد والكليات الشرعية في عالمنا الإسلامي .

---

٤٤ ـــ السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي ، للشيخ مصطفى السباعي ص ١٩ .

وإذا كان الدكتور عبد القادر قد اعترف بخطئه في تعليق له على محاضرة للدكتور السباعي في دار جمعية الهداية الإسلامية وقال بصوت سمعه الحاضرون جميعاً :

« إني أعترف بأني لم أكن أعرف من هو الزهري حتى عرفته الآن ، وليس لي اعتراض على كل ماذكرته » (٤٥) .

إذا كان الدكتور عبد القادر قد اعترف بخطئه وجهله فغيره من تلامذة جولد تسهير وغيره من المستشرقين أصروا على تقليد أساتذتهم والسير ورائهم حذو القذة بالقذة ، حتى أنهم لو دخلوا جحر ضب لتبعوهم ، ومن أشهرهم أحمد أمين ، والدكتور طه حسين .

أما طه حسين فسنفرد له فصلاً في كتابنا هذا نتحدث فيه عن أهم ماكتبه في السيرة ، ونميط اللثام عن صلاته بالمستشرقين وشدة تأثره بهم .

أما أحمد أمين فقد جمع في كتبه [فجر الإسلام وضحاه وظهره] خلاصة أقوال وآراء جولد تسهير وغيره من غلاة المستشرقين في السنة النبوية ، وسيرة رجال وأعلام خير القرون ، وتاريخ المسلمين ... ومن أهم افتراءاته مايلي :

ــ زعم أن وضع الحديث بدأ في عهد الرسول ﷺ .

ــ وزعم أن أحاديث التفسير لم يصح منها شيء على الإطلاق .

ــ وقال بأن ماجمعه البخاري في حديثه أربعة آلاف من غير المكرر ، وهو كل ماصح عنده من عدد الأحاديث التي كانت متداولة في عصره وبلغت ستمائة ألف حديث .

ــ طعن بأصحاب رسول الله ﷺ ، وزعم بأن بعض علماء الحديث ضعفوا بعض الصحابة وطعنوا بعدالتهم ، كما زعم بأن بعض الصحابة كذّب بعضهم الآخر .

ــ قال بوجوب تقديم العقل على النقل عند التعارض .

ــ نقل مازعمه شكوك بعض الصحابة بأبي هريرة رضي الله عنه .

ــ هاجم كتب أصول علم الحديث ، كما هاجم كبار علماء الجرح والتعديل .

وسلك أحمد أمين في عرض افتراءاته مسلكاً فيه كثير من الخبث والدهاء . لقد مزج السم بالدسم وخلط الغث بالسمين . قال الأستاذ السباعي رحمه الله :

---

٤٥ ــ المصدر السابق ص ٢٠ .

« لما ثار النقاش في الأزهر حول الإمام الزهري عام ١٣٦٠ هـ قال الأستاذ أحمد أمين للدكتور علي حسن عبد القادر وهو الذي أثيرت الضجة حوله :
إن الأزهر لايقبل الآراء العلمية الحرة ، فخير طريقة لبث ماتراه مناسباً من أقوال المستشرقين ألا تنسبها إليهم بصراحة ، ولكن ادفعها إلى الأزهريين على أنها بحث منك ، وألبسها ثوباً رقيقاً لايزعجهم مسها ، كما فعلت أنا في [فجر الإسلام وضحى الإسلام] هذا ماسمعته ـــ الكلام للسباعي ـــ من الدكتور علي حسن يومئذ نقلاً عن الأستاذ أحمد أمين » اهـ (٤٦) .

ولقد كان هذا هو منهج أحمد أمين في حياته وكتاباته ، أما في حياته فلقد كان صديقاً للشيخ محمد عبده ، وكان له صلات مع عدد من علماء المسلمين ،ولم يكن متهماً عندهم بالزندقة والإلحاد كطه حسين .

أما في مؤلفاته فلقد لبس أقوال المستشرقين ثوباً رقيقاً لايزعج العلماء مسه ، وزعم أنها أقواله وآراؤه ، ولم يتحدَّ مشاعر المسلمين في طريقة عرض هذه الآراء ... ولهذا كان لأحمد أمين مكانة كبيرة في عصره ، وكانت مؤلفاته تلقى رواجاً ، بل كان الكتاب الذي يشارك في تأليفه أو يضع له تقدمة تنفذ نسخة من المكتبات خلال زمن يسير .

وليس مهماً عند أحمد أمين أن يتهم بالسرقة والخيانة ، وإنما الأهم من ذلك كله أن ينشر آراء وأفكار أساتذته بين المسلمين ... وهذه هي أخلاق ومناهج تلامذة المستشرقين وإن اختلفت وسائلهم وأساليبهم .

وإنه لمن المخجل جداً أن نجد عدداً غير قليل من كبار الكتّاب وأساتذة الجامعات في بلادنا إذا ألف أحدهم كتاباً في التفسير أو الحديث أو السيرة ، تراه يكثر من الإعتماد على أقوال المستشرقين ، ويذكر في مراجع بحثه ـــ وباللغة الإنجليزية أو الفرنسية ـــ عدداً من المؤلفين الغربيين وأسماء كتبهم (٤٧) .

وبين هؤلاء الأساتذة والكتاب من يعتز بالمنهج الإسلامي ، وتجد كتبهم رواجاً بين الشباب الدعاة . لهؤلاء المؤلفين نقول :

---

٤٦ ـــ السنة ومكانتها في التشريع ص ٢٣٨ .

٤٧ ـــ لابأس من ذكر اسم المستشرق وكتابه إذا كان الغرض من ذلك تفنيد أباطيله وكشف فضائحه ، أو إذا كان هذا المستشرق قد فضح مناهج زملائه وطريقتهم في البحث .

لايجوز أن يعتمد المسلمون في فهم دينهم على كتب المستشرقين مهما قيل في مدحهم والثناء عليهم ، والإشادة بحيادهم ، وحسبنا دليلاً على ذلك ماذكرناه في هذا البحث عن أرنولد وكتابه الدعوة إلى الإسلام ، وأتحدى أن يكون هناك مستشرق منصف فيما يكتب عن الإسلام والمسلمين . بل لايجوز الإعتماد فيما نكتبه عن الإسلام على أقوال المستشرقين ولو كانوا مسلمين وذلك للأسباب التالية :

١ ــ ثبت أن نفراً منهم أسلم خلال وجوده في بلدان العالم الإسلامي لغاية في نفوسهم ، وارتدوا عن الإسلام عندما عادوا إلى أوطانهم وأدوا الدور الذي كان مطلوباً منهم .

٢ ــ وبعضهم كان متخصصاً بالعلوم الفلسفية ، واطلع خلال بحثه على مؤلفات ابن عربي وغيره من غلاة الصوفية الذين يؤمنون بالحلول ووحدة الوجود ، أو اطلع على مؤلفات أئمة أهل الإعتزال ، ثم راحوا يكتبون عن الإسلام من خلال مناهج الصوفيين أو أهل الإعتزال الذين أشربوا حبها .

٣ ــ وآخرون منهم مزجوا بين الإسلام وعادات وتقاليد الغربيين ، وهذا المزيج المشوه أسموه إسلاماً .

ومن سلم من هذه الإنحرافات من المستشرقين (٤٨) لايستطيع الكتابة بعمق وشمولية عن العقائد الإسلامية أوغيرها من بقية العلوم والمعارف الإسلامية ، لأن لهذه العلوم رجالاً حفظ الله بهم دينه ، وفي طليعتهم الصحابة رضوان الله عليهم والتابعون ورجال خير القرون .

ليكتب اخواننا المستشرقون المسلمون عن فساد الحضارة الأوربية ، وعن انهيار وتفكك الأسرة الغربية ، وليقدموا لنا دراسات وأبحاثاً عن عقائد وتصورات المغضوب عليهم والضالين من اليهود والنصارى ، وعن الخرافات والأساطير التي اتخذوها ديناً ، وليكشفوا فضائح المستشرقين وفساد مناهجهم ، وليترجموا

٤٨ ــ من هؤلاء المستشرقين : المفكر الفرنسي الكاثوليكي رينيه جينو الذي سمى نفسه عبد الواحد يحي ، والمستشرق ناصر الدين دينية ، والمستشرق هدلي الفاروق ، والمستشرق النمساوي محمد أسد الذي كان يسمى ليوبولد فايس .
ومن أشهر الذين ارتدوا عن الإسلام فيلبي الذي كان يسمى عبد الله .

أمهات الكتب الإسلامية إلى الإنجليزية والفرنسية والألمانية وغيرها من اللغات التي يجيدونها ، وليكونوا دعاة إلى الله في أقوامهم ، وليحرصوا على دراسة الإسلام وفهمه فهماً صحيحاً ليس فيه أي غلو أو انحراف ، وليعيدوا النظر بجميع التصورات والمفاهيم المشوهة عن الإسلام التي سبق وأخذوها عن بني قومهم . هذا ماننصحهم به ورحم الله امرءاً عرف قدر نفسه .



الباب الثاني
دعاة التغريب

الفصل الأول : دعاة التغريب النصارى
الفصل الثاني : طه حسين

الفصل الأول

دعاة التغريب النصارى

المبحث الأول : من دعاة التغريب
المبحث الثاني : الدعوة إلي العامية
المبحث الثالث : دروس قرآنية
المبحث الرابع : محمد الرسالة والرسول
المبحث الخامس : جورجي زيدان

المبحث الأول

من دعاة التغريب :

هم الذين درسوا في المعاهد والجامعات الصليبية [1] ، وتتلمذوا على يد المبشرين والمستشرقين ، فأعجبوا بهم أشد الإعجاب ، وأخلصوا لهم غاية الإخلاص .

وعاد الطلبة — بعد إتمام دراستهم — إلى بلادهم ليتقلدوا أرفع المناصب العلمية والسياسية ، وليضعوا خطة التعليم ومناهج الجامعات والمعاهد في العالم العربي .

ونشط دعاة التغريب في ترجمة كتب أساتذتهم المستشرقين والدعوة إلى أفكارهم وتصوراتهم ... والحق يقال أنهم كانوا أكثر غلواً وأشد وقاحة من المستشرقين ... لقد زعموا بأن الدين سبب تخلفنا وجهلنا ، وأكدوا — في كتبهم ومحاضراتهم وندواتهم — أنه لابد من اتباع الغربيين شبراً بشبر وذراعاً بذراع ، وكانوا في عاداتهم وأخلاقهم صورة طبق الأصل عن أساتذتهم .

ودعاة التغريب قسمان :

قسم ولدوا من أسر وعائلات إسلامية ، بل وبعضهم نهل بعض علومه من المدارس والمعاهد الإسلامية ، وسوف نتحدث عن رائد هذه المدرسة [طه حسين] من خلال نقدنا لما كتبه عن سيرة المصطفى ﷺ في فصل قادم .

---

١ — هناك نفر من دعاة التغريب لم يدرسوا في المعاهد والجامعات الصليبية ، وإنما أقاموا علاقات متينة مع المستشرقين والمبشرين الذين وقع اختيار بريطانيا وفرنسا عليهم ليكونوا سفراء لهما في بلادنا .

والقسم الآخر من النصارى العرب [٢] : وليس من فرق كبير بين هؤلاء الطلاب وأساتذتهم من المستشرقين والمبشرين : فدينهم واحد ، وأهدافهم وغاياتهم واحدة ، وعاداتهم واحدة ، وأسماؤهم متشابهة .

ونشط دعاة التغريب من النصارى العرب في بناء المدارس والمعاهد ، وكان معظم طلبتهم من أبناء المسلمين .

وافتتن الطلاب بأساتذتهم الذين كانوا يعرفون من أين تؤكل الكتف ، وطبقوا في مدارسهم مبدأ الإختلاط بين الجنسين ومايتبعه من انحلال وفساد .

وعلّم دعاة التغريب الناشئة وجوب نبذ الرجعية والجمود والتخلف . والرجعية — في قاموسهم — تعني : التمسك بالإسلام ونبوة محمد ﷺ ، كما تعني التقدمية عندهم : محاكاة الغربيين في أخلاقهم وعاداتهم وعلومهم ... ولهذا فنكاد لانجد مفكراً أو كاتباً مسلماً ارتد عن دينه إلا وللصليبيين تأثير عليه .

ومن أهم الأمور التي انصرف لها دعاة التغريب أيضاً التأليف والكتابة في أخطر العلوم الإسلامية : كسيرة خاتم الأنبياء ﷺ ، والتاريخ الإسلامي بشكل عام وتاريخ الفرق الإسلامية بشكل خاص ، وعلوم اللغة العربية ، وقواعدها .

---

٢ — معظم هؤلاء النصارى من أصول صليبية غربية ، وقد سكن أجدادهم بلادنا أثناء الحروب الصليبية وبعدها ... وجاء من يزعم بأنهم عرب وأنهم إخواننا فيما أسموه « القومية » .

المبحث الثاني

الدعوة إلى العامية :

لقد كان القرآن الكريم من أهم المعجزات التي جاء بها سيد ولد آدم ﷺ ، ولولاه لدرست اللغة العربية وانقرضت كغيرها من معظم لغات العالم .

والمشكلة التي تقلق الصليبيين وتقض مضاجعهم :
كيف يصلي المسلمون ويؤذنون خمس مرات في اليوم بلغة واحدة ؟!
كيف يقرأ الهنود ، والأتراك ، وأهل باكستان ، وأندنوسيا ، وماليزيا ... وغيرهم من المسلمين في مختلف بقاع العالم ... كيف يقرأ هؤلاء جميعاً القرآن الكريم بلسان عربي مبين ؟!
بل كيف يحفظ هؤلاء الأعاجم القرآن الكريم عن ظهر قلب ، ويدرسون علومه وتلاوته للعرب ؟!

إذن لن يقر للنصارى قرار في بلادنا ، ولن يحققوا أهدافهم إلا إذا وجهوا ضربة قاصمة للفصحى [لغة القرآن الكريم] .

وكان في طليعة الذين قرعوا ناقوس الخطر لبني دينه وقومه المستشرق « أرنولد توينبي » في كتبه « الإسلام والغرب » . قال أرنولد :

« إن هناك بلادا إسلامية ، عربية اللغة ، وإذا كانت لغة التخاطب تختلف حسب المناطق [يعني اللهجات واللغات العامية] ، فإن اللغة الفصحى واحدة من شواطيء الخليج العربي ، ومن حلب والموصل شمالاً ، حتى الخرطوم وعدن ومسقط وزنجبار جنوباً . جميع الكتب والصحف الصادرة في القاهرة ودمشق وبيروت ، تقرأ في هذه المنطقة الشاسعة كلها وحتى خارجها ، لأن اللغة العربية ، هي اللغة الدينية ، لجميع البلدان الإسلامية » .

وإذا كان أسلوب أرنولد في طرح مشكلة اللغة العربية جاء هادئاً متزناً ، فغيره من المبشرين والمستشرقين كانوا أكثر منه صراحة ووضوحاً .

فالمبشر الإنجليزي « ويلككس » ألقى محاضرة في مصر نشرتها مجلة الأزهر سنة ١٨٩٣ م زعم أن الذي عاق المصريين عن الإختراع هو كتابتهم بالفصحى ودعا إلى الكتابة والتأليف بالعامية ، ثم قال مخاطباً المصريين :
« وما أوقفني هذا الموقف إلا حبي للإنسانية ، ورغبتي في انتشار المعارف ، وماأجده في نفسي من الميل إليكم ، الدال على ميلكم إلي » (٣) .

لأدري ماعلاقة الفصحى بالاختراعات والتقدم ، ولماذا كان أهل هذه اللغة سادة الدنيا في جميع مرافق الحياة ؟!

ومن جهة أخرى : كيف يكون هذا المستعمر المستبد محباً للإنسانية والمعارف ، والمصريين المسلمين ؟ ونعيد للأذهان ماقاله [جيفور دبلجراف] في كلمته المشهورة :
« متى توارى القرآن ومدينة مكة عن بلاد العرب ، يمكننا حينئذ أن نرى العربي يتدرج في سبل الحضارة التي لم يبعده عنها إلا محمد وكتابه » (٤) .

وعن أهداف الصليبيين من وراء دعوتهم إلى تدريس اللغات الأجنبية ، وإشاعة اللهجات المحلية يقول شاتليه سنة ١٩١١ م :
« إن إرساليات التبشير الدينية التي لديها أموال وفيرة ، وتدار أعمالها بتدبير وحكمة ، تأتي بالنفع الكثير في البلاد الإسلامية ، من حيث أنها تثبت الأفكار الأوربية » .

ويقول أيضاً :
« ولاشك في أن إرساليات التبشير من بروتستانتية وكاثوليكية ، تعجز أن تزحزح العقيدة الإسلامية من نفوس معتقديها ، ولايتم لها ذلك إلا ببث الأفكار التي تتسرب مع اللغات الأوربية ، فبنشرها اللغات الإنجليزية والألمانية والهولندية

---

٣ ــ أباطيل وأسمار للأستاذ محمود محمد شاكر .
٤ ــ المصدر السابق .

والفرنسية ، يتحكك الإسلام بصحف آوربا ، وتتمهد السبل لتقدم إسلامي مادي ، وتقضي إرساليات التبشير لبانتها من هدم الفكرة الدينية الإسلامية ، التي لم تحفظ كيانها إلا بعزلتها وانفرادها » .

ومن أجل بث الأفكار التي تتسرب مع اللغات الأوربية ، ومن أجل هدم الفكرة الدينية استولى [القس دنلوب] على زمام التعليم في مصر ، ورسم سياسة التعليم في هذا البلد المسلم ، وفرض تعليم اللغة الإنجليزية ، وعمل على تقليص حصص اللغة العربية يضاف إلى هذا ضعف مناهجها .

وألف المستشرق الألماني [كارل فولرس] الذي عاش بعض سني حياته في مصر كتاباً في [اللهجة العامية الحديثة في مصر] .

وتلقف دعاة التغريب العرب من الصليبيين هذه الأفكار الهدامة عن أساتذتهم وروادهم من المبشرين والمستشرقين فسرت بينهم سريان النار في الهشيم ، ووجهوا جلّ طاقاتهم نحو هدم قواعد النحو ، والخروج على عمود الشعر العربي ، وسموا الفصحى : لغة قريش ، وعملوا على نشر العامية واللهجات المحلية ، وألفوا الكتب وأسسوا الصحف التي تدعو إلى أفكارهم الجديدة .

وسوف نختار ثلاثة نماذج من مؤلفات دعاة التغريب من النصارى العرب في سيرة محمد ﷺ آخذين بعين الإعتبار دعاة التشدد ، والذين يتظاهرون بصداقة المسلمين ، وأهل الإعتدال . وهذه النماذج :

١ ــ دروس قرآنية : للخوري يوسف إلياس حداد .

٢ ــ محمد الرسالة والرسول : نظمي لوقا .

٣ ــ تاريخ التمدن الإسلامي : جورجي زيدان .

المبحث الثالث

دروس قرآنية

مؤلف كتاب [دروس قرآنية] الخوري يوسف الياس حداد ، ويتألف الكتاب من أربعة أجزاء ، صدر عن مطبعة [حريصا البوليسية] في لبنان .

دعا المؤلف في مقدمة كتابه إلى تقارب بين المسلمين والنصارى ، وزعم كغيره من المستشرقين بأنه متجرد في بحثه ، حريص على الحق ، يكره التعصب والهوى ، ويتمسك بالدليل .

ولكن الكتاب بأجزائه الأربعة تكذيب لكل مازعمه في المقدمة ... وسوف نكتفي بعرض فقرات قليلة منه لسببين :
السبب الأول : ليس في كتابه جديد ، وإنما جمع فيه أكاذيب واتهامات أساتذته من المبشرين والمستشرقين الذين تحدثنا عنهم في الباب السابق ، وكشفنا أباطيلهم وبعدهم عن الحق والدليل والموضوعية .
السبب الثاني : للكاتب الإسلامي [محمد عزة دروزة] مؤلف أسماه [القرآن والمبشرون] تتبع فيه الخوري يوسف إلياس حداد ، ورد عليه ردوداً علمية مهمة ومفحمة .

فقرات من الكتاب :

تحدث الخوري عن الدعوة الإسلامية في مكة فقال :
« إن الدعوة المحمدية كانت في العهد المكي كتابية إنجيلية توراتية مسيحية يهودية ، وإن القرآن نسخة عربية من الكتب السماوية السابقة المنزلة على الأنبياء السابقين ومقتبس منها . وإنه كتابي توراتي إنجيلي يهودي نصراني في موضوعه ومصادره وقصصه وجدله ، وإن محمداً كان متأثراً باليهود والنصارى واليهودية

والنصرانية والتوراة والإنجيل والكتاب المقدس منسجماً مع كل ذلك أشد انسجام حتى كأنه واحد منهم مع غلبة المسحة المسيحية ، وإن دعوته كانت قاصرة على مشركي العرب ، ولم تحمل طابع استقلال ذاتي عن الطابع التوراتي الإنجيلي إلا في آخر العهد المكي ... ثم كان عهد التردد والاستطلاع إلى الاستقلال عن أهل الكتاب في آخر العهد ، لأن يهود الطائف ردوه رداً غير جميل إلى أن استقر في المدينة ، فوجد طريقه المستقلة في التنزيل والدين ، وانقلب انقلاباً في الدعوة فقد دخلت السياسة في الدين ، وانقلاباً في الداعية الذي أصبح رجل دولة وحرب ، وانقلاباً في طريقة الدعوة لقتال المشركين إلى أن يؤمنوا والكتابيين حتى يخضعوا للجزية ، وانقلاباً في الأسلوب حيث كان بالحكمة والموعظة الحسنة فصار بالقتال والجهاد .

ولقد جمع الدين الكتابيين ومحمداً في مكة ففرقتهم السياسة في المدينة » .

وعن القرآن الكريم زعم الخوري حداد أن آية النحل [١٢٤] وماسبقها بقليل مقحم على سياق السورة لأنه يشير إلى خلاف بين النبي وبني إسرائيل وليس شيء من ذلك بينه وبينهم في المرحلة المكية ــ كما يزعم حداد ــ ... ثم يمضي في أكاذيبه ويذكر من الآيات المقحمة الأخرى مايلي :

ــ من الآية ٣٤ إلى الآية ٤٠ من سورة مريم .
ــ من الآية ٥٩ إلى الآية ٦٣ من سورة مريم .
ــ الآية ٩٣ من سورة الأنبياء .

ويقول عن هذه الآيات بأنه لاأصل لها ، ويردد أقوال أساتذته المبشرين والمستشرقين الذين ينكرون أن يكون القرآن من كلام الله جلّ وعلا . انظر إلى قوله :

« إن لفظه ــ أي القرآن ــ هو لفظ محمد ونظمه ، وليس لفظ الوحي ... وبالتالي فإن إعجاز نظمه قائم على النبي لاعلى الوحي » .

ويقول أيضاً :

« إن المسلمين يلتمسون اليوم للقرآن الشمول من كل وجه ، ويحاولون أن يجدوا فيه إعجازاً إلهياً في العقيدة ، وإعجازاً إلهياً في العلم الحديث ، وفاتهم جميعاً أن تاريخ الإسلام يجهل مثل هذا التفكير ومثل هذه المحاولات وأن القدماء إنما أجمعوا على أن إعجاز القرآن هو في نظمه » .

ويعود الخوري حداد مرة أخرى إلى قضية ورقة بن نوفل فيقول :
« إن بيئة محمد نصرانية وورقة بن نوفل هو الذي زوجه خديجة ... وقال في شرح قوله تعالى : ﴿ ووجدك ضالاً فهدى ﴾ :
إن محمداً [ﷺ] قبل بعثته كان حنيفياً فاهتدى بالمسيحية ، ثم نحا نحواً كتابياً بصورة عامة ، ثم رجع في العهد المدني إلى الحنيفية مرة أخرى ، وتنصل من اليهودية والنصرانية والكتابية » .

وعندما أدرك أن الآيات القرآنية منذ أوائل العهد المكي تكذب ادعاءه ، وأن الإتجاه الأصيل في الدعوة الإسلامية واضح منذ أيامها الأولى ... عندئذ استدرك وقال :
« إنهم زادوا العبادات التي تذكر ذلك في زمن متأخر بقصد أو بدون قصد ليظهروا أن استقلال محمد الديني عن أهل الكتاب كان منذ عهد مكة في حين أن الأمر ليس كذلك لأن الدعوة إلى التوحيد في مكة كان كتابياً والدعوة إلى ملة إبراهيم الحنيفية شعاراً مدنياً » .

ويزعم الخوري حداد ، أن محمداً ﷺ تخلى في المدينة عن الدعوة الكتابية إلى دعوة قومية عربية بسلطان سياسي وحربي ... وصار يحمل على اليهودية والنصرانية واليهود والنصارى الذين كان منضماً إليهم وكواحد منهم . وكان الدين قد وحده معهم ، ففرقتهم السياسة عن بعضهم .

وعن معجزات محمد ﷺ يقول :
« إن معجزة محمد الحقيقية هي بخاصة في إقامة وحدة عربية تحت سلطان سياسي ديني عربي قومي ، وهي معجزته العظمى » .

ومما اتكأ عليه الخوري في اتهاماته الظالمة : تحويل القبلة شطر المسجد الحرام في مكة ، وهكذا اصطبغت رسالة النبي في العهد المدني بالصبغة القومية ــ على حد قوله ــ .

ويتناسى هذا الخوري الكذاب أن أول آية أنزلها الله جلَّ وعلا كانت تخاطب الإنسان أينما كان ، بل ويتناسى الأدلة التي يزخر بها كتاب الله وسنة رسوله على عالمية الدعوى ، وأنها لم تكن في يوم من الأيام لقوم أو لطائفة .

المبحث الرابع

محمد الرسالة والرسول

مؤلف كتاب [محمد الرسالة والرسول] الدكتور نظمي لوقا ، وهو من أقباط مصر — مدينة السويس — ، وكتابه هذا يذكرنا بأسلوب [توماس أرنولد] في كتابه الدعوة إلى الإسلام ، ومازعمه من تجرد وحياد وموضوعية .

أعرب [لوقا] في كتابه عن إعجابه الشديد بدين الإسلام ونبي الإسلام [ﷺ] ، وندد بأقوال وادعاءات الذين ينكرون أن يكون القرآن الكريم كتاب الله سبحانه وتعالى .

والحق يقال : إن الكتاب حوى بين دفتيه كلاماً أعذب من الماء السلسبيل وأكثر رقة ونعومة من الحرير ... ومن خلال هذا الإعتدال والعواطف الجياشة عمد المؤلف إلى وضع السم في الدسم وإلى الإصطياد في الماء العكر . وهذه أدلتنا على ذلك :

جاء في مقدمة الكتاب :

« إلى روح مهاتما غاندي ، الذي كان يصلي بصفحات من البرهما بوترا ، وآيات من التوراة ، والإنجيل والقرآن » . (ص : ٧)

كما أهدى كتابه إلى روح [محي الدين بن عربي] من متصوفة الإسلام . (ص : ٢١)

وقال عن [أخناتون] :

« وارتفعت في مصر صيحة التوحيد من قلب ذلك الرائد الروحي الفذ أخناتون ، ومن قبل صيحة أخناتون ماتضمنته أشعار الهنود في سبحاتهم الروحية العالية » . (ص : ٣١)

تعليق :

حقاً لانرى فرقاً كبيراً بين محي الدين بن عربي وغاندي أو أخناتون ، ولكن هل أقفر التاريخ الإسلامي من الرجال الأعلام ، ولم يجد لوقا من يهدي إليه كتابه إلا ابن عربي ؟!

ومن ثم كيف يجمع هذا القبطي بين الإسلام وبني قومه ، والهندوس وغيرهم من الكفار والمشركين ؟!

يقول في شرح وجهة نظره :
« إن لباب الدين كله واحد عند من ينفذون إلى الجوهر وينبذون القشور .

وتراه في موضع آخر يدافع بحرارة عن أفكاره فيزعم أن معاني سورة الصمد من القرآن الكريم لاتختلف عن معاني مقالة اللام لأرسطو في تنزيه الله » . (ص : ٤٣)

وعن أسرار عبادة البقر يقول بحذر وتحفظ :
« ... فاتخذ الدهماء البقرة معبوداً . وإنما المراد أصلاً هو إظهار التعاطف بين الإنسان وإخوته في الحياة ممن هم أدنى منه في رتبة الخلق ، وليس في نظرهم أحرى من البقرة بهذا الإخاء لأنها تخدم الإنسان ، وليس له أن يخشى منها أذى » (ص : ٣٢)

وإذا كان الهندوس قد أظهروا التعاطف مع البقر فلاأدري الدكتور لوقا مع من يتعاطف من الحيوانات ؟!
بل لاأدري ماعلاقة مثل هذه السفاسف التي يتحدث عنها بموضوع الكتاب الذي أسماه [محمد الرسالة والرسول] ؟!

وإذا كان الأقباط في صعيد مصر يقبلون منه قوله بأن مقالة اللام لأرسطو في تنزيه الله تعالى لاتختلف عن معاني سورة الصمد في القرآن ... فالمسلمون في مصر وغيرها يعلمون من غير شك ولاريب بأن دينهم الذي ختم الله به الأديان لايشبه أي دين آخر سواء كان دين المغضوب عليهم من اليهود أو دين الضالين من النصارى ، أما أرسطو وسقراط [لوقا إذا ذكر سقراط قال سيدنا سقراط ، انظر صفحة ١٦] ، فقد وفقا في معرفة بعض معاني الربوبية ، وهذه

المعرفة لاتساوي شيئاً إذا كان الإنسان غير منقاد لله في كل أمرٍ من أمور حياته .

وبعد هذا الحديث الممل عن أديان سواد الناس ودهمائهم ينتقل [لوقا] إلى الحديث عن عقيدة النصارى فيزعم أنها للأفراد الأفذاذ ، وليس لسواد الناس ، وأن البشرية لم تنضج لهذا الدور ... ولم يستطع هذا السواد الارتفاع إلى المستوى الروحي العالي . (ص : ٣٨)

وهذه عقلية اليهود في الحديث عن دينهم وليست عقلية النصارى ، فهل يكون الدين عند لوقا ديناً طبقياً أو عنصرياً ؟!

ربما يرد علينا محبو لوقا قائلين :
لقد قال المؤلف كلامه في صدد نقده لعقيدة وتصورات النصارى !!

وجوابنا على ذلك : إنه مدح بمايشبه الذم كقول الشاعر :
ولاعيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

ولوقا يقول :
لم يستطع سواد الناس الارتفاع إلى المستوى الذي يؤهلهم لاعتناق عقيدة النصارى لأنها للأفراد الأفذاذ !!
أما الصعاليك ودهماء الناس وسوادهم فلهم عقائد تتناسب مع ماهم عليه من تخلف وهمجية !!

وهذه هي أساليب الذين يتظاهرون بالاعتدال من المبشرين والمستشرقين ودعاة التغريب .

ويقول عن النصرانية أيضاً :
« إنها تجعل المعشوق الاسمي الذي يتجه إليه وجدان كل إنسان ، فيتلاشى من قلبه حب كل معشوق سواه . ولايبقى للحس وجاهه سلطان على قلب ذلك المحب ، ولاللطقوس قيمة » . (ص : ٣٧)

عند أصحاب الحلول ووحدة الوجود من النصارى وغلاة الباطنيين ليس للطقوس ــ أي العبادة ــ قيمة ... أما نحن المسلمين فأهم مايميزنا عن غيرنا عبودية الله سبحانه وتعالى ، والإستسلام لأوامره ، واجتناب نواهيه .

وفي القسم الأخير من الكتاب يتظاهر [لوقا] بالدفاع عن الإسلام والرد على أعدائه ، فيزعم أن قوامة الرجل على المرأة لها سببان : أولهما النفقة ، وثانيهما العلم ، وإذا كانت المرأة متعلمة ، وهي تنفق على زوجها تصبح القوامة لها . (ص : ٦٥)

ولم يقل لنا [لوقا] من أين جاء بهذه الفتوى ؟!

ويقول عن تعدد الزوجات :

« وبحسبي أن أشير هنا إلى مايذهب إليه المعتزلة من تحريم زواج الرجل بثانية مادامت الأولى في عصمته لما في ذلك من المضارة للزوجة وهي سيئة لايستحسنها العقل ... وهذا في اعتقادي من باب السمو الذي يحض القرآن عليه إذا أشار إلى الاكتفاء بواحدة خيفة الظلم الذي لامناص منه في حالة التعدد » . (ص : ٧٤)

ويزعم لوقا أن العدل مع التعدد مستحيل لأنه ليس قاصراً على النفقة ، وإنما يشمل النفقة والمحبة .

والخلاصة : لم يكن لوقاً صادقاً فيما زعمه من حياد ، بل لم يكن صادقاً فيما ادعاه من محبة للرسول ﷺ والدين الذي ابتعثه الله به .

وليس في كتابه موضوعية ولاعلم ، ولانقول عنه إلا ماقلناه عن أرنولد وغيره من الذين يرفعون شعار الاعتدال .

المبحث الخامس

جورجي زيدان

لاأعرف أحداً من الصليبيين في دنيا العرب عمل على تلويث تاريخنا الإسلامي كما فعل [جورجي زيدان] ... لقد أمضى سني عمره يكتب ، وكان ممخرقاً كذاباً في معظم ماحشده من أخبار وتعليقات في كتبه ، وكأن مهمته في هذه الحياة تلخيص أقوال الباطنيين الحاقدين والمستشرقين الماكرين ، وإخراجها تارة باسم تاريخ التمدن الإسلامي ، وأخرى باسم روايات تاريخ الإسلام .

وقد قام الدكتور [صلاح الدين المنجد] بنشر مذكرات جورجي زيدان ، ولاأدري كيف يكون التوفيق بين هذه المذكرات الهزيلة التي كان يبدو من خلالها عامياً ، ركيك الأسلوب ، وبين كتبه التي جاءت صياغتها بأسلوب ليس فيه ضعف ولاركة .

وماكنت مهتماً بقراءة مؤلفاته ، والكتابة عنها لولا ماشاهدته من انتشارها بين الشباب الذين لايعرفون تاريخ أمتهم وسيرة نبيهم ﷺ (٥) ، ويأخذونها على أنها حقائق ، فتترك في نفوسهم وعقولهم غبشاً في التصور ، وانطباعاً عن أعلام المسلمين غير طيب ... ومن حق هؤلاء الشباب علينا أن ننصحهم ونبيّن لهم حقيقة المؤلف وأهدافه .

نبذة عن حياته : وقبل أن نعرض ألواناً من أباطيله ، وأصنافاً من أراجيفه وسمومه المبثوثة بين طيات كتبه يحسن بنا أن نقدم نبذة عن حياته ، وحياته نفسها تجلو لنا كثيراً من غوامض الأمور ومبهماتها :

---

٥ ـــ من المؤسف أن بعض كتب جورجي زيدان تدرس في بعض المعاهد الإسلامية في البلاد العربية .

ولد جورجي زيدان في بيروت سنة ١٨٦١ م ، من عائلة أرثوذكسية ، ولايُعرف أصل عائلته ، وليس لها خبر في أنساب العرب كما اعترف هو بذلك في مذكراته . وفي سنة ١٨٨٣ م هاجر جورجي من لبنان إلى مصر على باخرة إنجليزية .

ولهذه الهجرة معنى لابد من الانتباه إليه ، ففي سنة ١٨٨٢ م قضى الإنجليز على ثورة عرابي ، وصار لهم الأمر في مصر ، وأخذوا يضربون بيد من حديد واعتمدوا في تصريف الأمور على إخوانهم نصارى بلاد الشام الذين فروا من بلادهم إلى مصر رغم الإمتيازات التي كانوا يتمتعون بها في ظل الدولة العثمانية ، والتي كان المسلمون من أهل البلاد لايتمتعون بها .

وعهد الإنجليز لنصارى بلاد الشام بإدارة شؤون الصحافة والترجمة والثقافة والأدب ، كما استعانوا بهم في غزو السودان وبلاد الشام .

وفي سنة ١٨٨٤ م رافق جورجي زيدان الحملة الإنجليزية للسودان كمترجم ، وفي هذا دلالة على أنه غادر لبنان منذ البداية للعمل في الجيش الإنجليزي .

وفي سنة ١٨٩١ م أنشأ مجلة الهلال التي أصبحت فيما بعد مدرسة لها معالمها الخاصة بها ، وقد تتلمذ على يديه عدد من كبار الصحفيين المصريين الذين ينتمون إلى عائلات مسلمة .

وكان [جورجي زيدان] يجيد الإنجليزية والفرنسية ، كما كان عضواً في الجمعية الآسيوية في بريطانيا ، ثم أصبح عضواً في المجمع الآسيوي الفرنسي ، وقد كان من العناصر القليلة التي يعتمد عليهم اللورد كرومر ، وكانت وفاته سنة ١٩١٤ (٦) .

---

٦ ــ أهم المراجع التي اعتمدت عليها كتابه [مذكرات جورجي زيدان] .

صلاته بالمستشرقين :

تتلمذ جورجي زيدان على يد المستشرقين ، وقد أفاض بمدحهم والإشادة بفضلهم على الإنسانية في كتابه [تاريخ آداب اللغة العربية] .

ومن أهم المراجع التي اعتمد عليها في تأليف كتابه [تاريخ التمدن الإسلامي] مايلي :
ــ تمدن العرب ، للمستشرق جستاف لوبون .
ــ تاريخ الدولة الرومانية البيزنطية ، للمستشرق ليبو .
ــ تاريخ تمدن المشرق ، فون كريمر .

وقال الدكتور حسين مؤنس [وهو أحد المعجبين بجورجي زيدان وأساتذته المستشرقين] :
« كان أشبه بهمزة وصل بين الحركة العلمية العربية الناهظة ، وحركة الاستشراق المتدفقة النشاط في أوربا وأمريكا ، واتصلت العلاقات بينه وبين أعلام مثل : تيودور نولدكه ، ويوليوس ، ومارجوليوث ، وأجناتس جولد تسهير ، وأمدروز ، وأدوارد شخاو ، ووليام رايت ، ودنكان بلاك ماكدونالد » (٧) .

وكان المستشرقون يترجمون مؤلفاته فور صدورها إلى اللغات الفرنجية والفارسية والهندية والتركية [أي في جميع البلدان التي كان ينشط فيها التبشير والاستشراق] .

وكان المستشرق بروكلمان شديد الإعجاب به ، وقد أفرد له فصلاً مطولاً في تاريخ الآداب العربية .

ومن أهم كتبه :
١ ــ تاريخ التمدن الإسلامي : ويقع في خمسة أجزاء .
٢ ــ العرب قبل الإسلام : جزء واحد .
٣ ــ تاريخ آداب اللغة العربية ويقع في أربعة أجزاء .

---

٧ ــ انظر تاريخ التمدن الإسلامي .

ومن سلسلة رواياته التاريخية :

١ ــ عذراء قريش .
٢ ــ ١٧ رمضان .
٣ ــ غادة كربلاء .
٤ ــ الحجاج بن يوسف .
٥ ــ صلاح الدين الأيوبي .
٦ ــ الانقلاب العثماني .
٧ ــ العباسة أخت الرشيد .
٨ ــ الأمين والمأمون .
٩ ــ فتاة القيروان .
١٠ ــ استبداد المماليك .

الخلاصة : وإذن كان جورجي زيدان عميلاً من عملاء الاستعمار الإنجليزي ، كما كان متورطاً في الجمعيات الإنجليزية والفرنسية .

وكان همزة وصل ــ كما وصفه حسين مؤنس ــ بين الحركة العلمية العربية وحركة الاستشراق .

فكيف يؤتمن مثل جورجي على كتابة تاريخنا الإسلامي ؟! والذين سودوا آلاف الصفحات في الحديث عن جرائم المستعمرين الإنجليز ، وعن نضال القوميين التقدميين [على حد زعمهم] ضد الاستعمار وعملائه ... كيف يعد هؤلاء جورجي من أعلام الحركة العلمية العربية الحديثة مع أنه من عملاء الإنجليز !!

أهم انتقاداتنا لما كتبه جورجي زيدان

أولاً ــ موقفه من البعثة :

العلماء المحققون في القديم والحديث مجمعون على أن محمداً ﷺ لبث في قومه أربعين عاماً ... ثم فاجأهم بدعوة لم يكونوا مهيئين لها لأنها كانت تصطدم مع تصوراتهم وطموحاتهم اصطداماً جذرياً .

ويجمع العلماء المحققون على أن محمداً ﷺ كان من أصدق الرجال في مكة ، وأنه ماكان ينتظر هذه الدعوة ، ولهذا فقد أذهلته المفاجأة وهزته هزاً عنيفاً .

يتجاهل جورجي زيدان هذه الحقيقة العلمية ، ويزعم بأن الدعوة التي جاء بها الرسول ﷺ كانت لبنة في بناء بدأ منذ عام الفيل . انظر إليه يقول : « إن عرب الجاهلية حفظوا أخبار عاد وثمود وصالح وهود قبل ذلك بقرون متطاولة . فتكاثر الشعراء والخطباء والحكماء في القرن الأول قبل الإسلام دفعة واحدة هو ماعبرنا عنه بالنهضة العربية أو الأدبية . على أنها لم تكن تقتصر على الأدب والشعر ولكنها شملت الدين أيضاً . فقد كان هناك نهضة دينية اضطربت فيها الأفكار واختلطت الاعتقادات ، وأصبح أهل الجاهلية لايعرفون لمن يصلون ولاإلى من يتوسلون . يذبح أحدهم للصنم ويدعو إلى الله ... وأصبح الناس يتوقعون الفرج من باب النبوة . وكان ذلك حديث الناس في مجالسهم . فادعى النبوة غير واحد من قبائل مختلفة ، وهم بعضهم بادعائها مما يدل على تنبه الأذهان إلى أمر الدين والتفكير في عواقب الأعمال » . (تاريخ التمدن الإسلامي : ١ / ٤٠)

ويقول أيضاً :

« ومهما يكن من السبب فإن بلاد العرب كانت قبل الإسلام في نهضة أدبية تمهيداً لقبول الدعوة الإسلامية والقيام بنصرتها .

ومثل هذه النهضة تتقدم الدعوات الدينية في الغالب استعداداً لقبولها » . (تاريخ التمدن : ١ / ٤١ ــ ٤٢)

ويرى جورجي زيدان أن غزو الأحباش لمكة — أي عام الفيل — أنتج رجالاً نبغوا في السياسة والقيادة والإدارة وكانوا من أهم العوامل تأثيراً في سرعة انتشار الإسلام ، كما أنتجت الثورة الفرنسية بونابرت وأمثاله .

ومرة أخرى يقول :
« إن واقعة الفيل التي سطا بها الأحباش على الكعبة كانت وراء بروز قادة من العرب كخالد وأبي عبيدة وأبي بكر وعمر ... » . (تاريخ التمدن : ١ / ٧٥)

وبعد هذا الهراء ينتقل إلى الحديث عن الدولة ويخشى أن يتأثر قراؤه بما حققه ﷺ خلال ثلاثة عشر عاماً أو يزيد قليلاً ، وكيف نجح في توحيد أمة وإقامة دولة وبناء حضارة . فيزعم جورجي أن العرب كانت لهم حكومات قبل الإسلام ، وأن المناصب تجتمع في شخص شيخ القبيلة ... فالشيخ هو الملك ، والقاضي ، وصاحب بيت المال ، وقائد الجند وكل شيء . (تاريخ التمدن : ١ /٣٦٠)

ولايخفى على القارىء الفطن أن سلطات شيخ القبيلة محدودة ضمن إطار قبيلته ، وفي القرية الواحدة نجد عدداً من القبائل ، والقبيلة الواحدة تنقسم إلى فروع — أفخاذ — ، وقد لايكون لشيخ القبيلة سلطان على غير الفرع الذي ينحدر منه ... فكيف سوغ لنفسه هذا [الجورجي] أن يجعل من شيخ القبيلة ملكاً ، وقاضياً ، وصاحب بيت مال ، وقائد الجند وكل شيء ؟!

ويقول أيضاً :
« ... وفي اليمن كان لعدد من الدول العربية حضارات عريقة كالمعنية والسبأية والحميرية ... ويختم كلامه هذا بقوله :
فالتمدن الإسلامي [أي نبوة محمد ﷺ وحكومة المدينة] ليس هو أول عهد العرب بالحضارة . (تاريخ التمدن : ١ / ٢٣)

من قبل اعترف جورجي زيدان بأنه يجهل أصله ، وهاهو يؤكد لنا بأن حمورابي من أصل عربي ودولته كانت دولة عربية فكيف عرف ذلك ؟!

وهكذا يسهب المؤلف في حديثه عن العصر الجاهلي وكأنه يتحدث عن عصر غزو الفضاء ، وإذا وجد نفسه مضطراً إلى الإعتراف بالتمدن الإسلامي تراه يسارع إلى القول :

« على أننا لاننكر أن التمدن الإسلامي قام على أنقاض التمدن اليوناني والفارسي ، لكن شأن العرب في ذلك مثل شأن اليونان والرومان والفرس وسائر الدول العظمى ... لأن اليونان اقتبسوا أكثر عوامل تمدنهم من المصريين وزادوا فيها ووسعوا على مقتضى مؤثرات الطبيعة حتى صار تمدناً معروفاً بهم .
فأخذ عنهم الرومان وعدلوا فيه تعديلاً طفيفاً جداً . وكذلك الفرس فإن تمدنهم قام على أنقاض تمدن الآشوريين والبابليين والكلدانيين قبلهم وأخذوا أيضاً عن اليونان » .

وفيما قاله جورجي زيدان عن العصر الجاهلي مغالطات كثيرة نشير فيما يلي إلى أهمها :
١ ـــ زعم أن واقعة الفيل كانت وراء بروز قادة من العرب كخالد وأبي عبيدة وأبي بكر وعمر ...

والجدير بالذكر أن بعض هؤلاء القادة ماكانوا قد ولدوا عندما غزا الأحباش مكة ، وبعضهم الآخر كان دون سن التمييز .

ومن جهة أخرى فأهل مكة كانوا في وضع لايحسدون عليه ولاطاقة لهم بأبرهة وجنده ، ولم يحدثنا التاريخ عن معارك دارت رحاها بين الأحباش وقريش .
فكيف كانت واقعة الفيل وراء بروز قادة أمثال خالد وأبي عبيدة مع أن هذه الواقعة استمرت بضعة أيام ... ومن يقرأ ماكتبه جورجي زيدان يظن أنها استمرت بضع سنين ، وكان خالد وأبو عبيدة وعمر وغيرهم من أبرز قادة قريش في هذه المعارك ، وقد استفادوا خبرة عسكرية ، ونبغوا في السياسة والقيادة والإدارة .

أما ربطه بين واقعة الفيل والثورة الفرنسية التي أنتجت بونابرت ورجاله ، فليس مستغرباً على النصارى العرب مثل هذه الأقوال والمفاهيم لأنهم لايبصرون إلا بعيون قادة فرنسا ـــ الأم الحنون ـــ ولايفكرون إلا بعقولهم .
٢ ـــ لم يكن في الجزيرة نهضة دينية ـــ كما قال جورجي ـــ ، والذين يدينون بالحنيفية قلة قليلة ، أما جمهور الناس فمشركون وثنيون .

ولو كان الناس في مكة يتوقعون الفرج من باب النبوة ، لما حاربوا محمداً ﷺ حرباً لاهوادة فيها ، وحاولوا قتله ، واضطروه إلى الهجرة .

٣ ــ ردد مشيل عفلق مؤسس حزب البعث العربي الاشتراكي أقوال جورجي زيدان في محاضرة له في طرابلس الشام بمناسبة مولد الرسول العربي ... تحدث في هذه المحاضرة عن النهضة العربية التي سبقت ولادة الرسول وبعثته ، وعن مقاومة العرب لاحتلال الفرس والرومان ، ثم جاء محمد العبقري ــ على حد قول ميشيل ــ فحرر البلاد العربية ووحدها تحت راية قومية واحدة ... وجعل عفلق العنصر الخلاق في شخصية محمد ﷺ يعود إلى انتمائه العربي ، أما الغيبيات والمعجزات والاستسلام لأوامر الله ونواهيه فلم يذكرها لأنه لايؤمن بها كغيره من المبشرين والمستشرقين . ثم وجد عفلق من أبناء المسلمين من يصفق له طرباً وإعجاباً .

ثانياً ــ موقفه من الفتوحات الإسلامية :

هل ننتظر من جورجي زيدان عند حديثه عن الفتوحات الإسلامية أن يقول : إن الله سبحانه وتعالى نصر عبده ورسوله محمداً ﷺ وأصحابه الغر الميامين لأنهم صدقوا ماعاهدوا الله عليه ، وكانوا ينتظرون إحدى الحسنيين : الموت أو النصر ؟!

لا ، لاننتظر من جورجي وأمثاله أن يقولوا الحقيقة ، وإذن لابد من ذكر أسباب مادية تجعل هذه الفتوحات عادية جداً ، لاتختلف عن الانتصارات التي حققتها أية أمة أخرى منيت بقائد فذ بينما كانت الدول المغلوبة في حالة احتضار .

ولم يتعب ــ الجورجي ــ نفسه في اختلاق الأسباب وبين يديه سجلات لاحصر لها من أكاذيب أساتذته وإخوانه المستشرقين ، وماعليه إلا الاختيار .

تجاهل جورجي قولة القائد المسلم :
جئنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام .

تجاهل هذه الحقيقة البيّنة الواضحة ، وزعم بأن سبب الفتوحات يتلخص في حاجة المسلمين إلى خيرات فارس والشام ومصر لأن الجزيرة قاحلة ولاتفي بمطالب سكانها وحاجاتهم الضرورية . (تاريخ التمدن الإسلامي : ١ / ٧٣)

وعن أسباب انتصار المسلمين :

١ ـ وقف اليهود إلى جانب المسلمين الفاتحين ضد الرومان الذين كانوا يظلمون اليهود ويضطهدونهم . (تاريخ التمدن : ١ / ٥٦)

٢ ـ وقف الغساسنة والمناذرة إلى جانب المسلمين ضد الفرس والرومان . (تاريخ التمدن : ١ / ٧٦)

٣ ـ نقمة الرعايا على حكامهم ، وانحطاط الحالة الاجتماعية في بلادهم ، فضلاً عما كان من الشحناء بين الرعية أهل البلاد الأصليين وحكامهم وخصوصاً في مصر والشام ، وزد على ذلك أن المرء من طبعه يرجو النفع من البعيد أكثر من القريب [٨] . (تاريخ التمدن ١ / ٧٩)

٤ ـ كانت حالة الفرس الاجتماعية قبل الإسلام في غاية الانحطاط بسبب تشعب المذاهب عن ماني ومزدك ... وجاء قباذ فتبع مزدك ... وفيما كان الفرس والروم على ماذكرناه من الانحلال كان العرب في إبان نهضتهم . (تاريخ التمدن : ١ / ٥٦)

وقال أيضاً :

« وأشهر أقوال أهل النقد في هذا الشأن أن العرب لم يستطيعوا فتح تينك المملكتين إلا لما كان في الروم والفرس من التضعضع والضعف ، على أثر ما كان من الحروب بينهما قبل الإسلام » . (تاريخ التمدن : ١ / ٧٠)

والقول بأن من أهم أسباب الانتصارات والفتوح الإسلامية ضعف دولتي الفرس والرومان ليس صحيحاً .

فمن المؤكد أن عدد المسلمين الذين استشهدوا في الحروب مع الرومان يزيد على خمسة وعشرين ألفاً ، وفي حروب المسلمين مع الفرس استشهد أكثر من هذا العدد ... ومن جهة أخرى فقد استمرت المعارك أكثر من عشر سنين .

---

٨ ـ يبدو أن هذه القاعدة هي التي جعلت جورجي زيدان يقف إلى جانب الإنجليز والفرنسيين ضد العرب ، ولاندري كيف ينتظر اليهودي النفع من غير اليهود ، أو الفارسي من غير الفرس ، أو المسلم من غير المسلمين ، ولو صحت هذه القاعدة لكان الناس كلهم خونة .

وكان [يزدجرد] قد جدد فتوة الدولة الفارسية بعد ضعف وتمزق وحروب داخلية ، وأعاد لها عهد القوة والشباب .

وأصعب الحروب التي خاضها المسلمون كانت مع الفرس ، لقد استشهد في هذه المعارك الضارية أكثر من قائد مسلم ، وكان المسلمون يفتحون جزءاً من المنطقة ثم يخرجهم الفرس منه بعد قتال عنيف ، وتتكرر المحاولة ، وفي كل مرة كان المسلمون يحملون أرواحهم على أكفهم ينشدون إحدى الحسنيين .

ومن ثم فهذه الانتصارات جاءت بعد معارك طاحنة من أشهرها : القادسية ، واليرموك ، والمدائن ، وكان المسلمون [على قلة عددهم ، وضعف عدتهم] يقاتلون في وقت واحد الفرس في المشرق ، والرومان في الشمال ، وكان معظم العرب الغساسنة [وكان عددهم يقارب عدد القوات الإسلامية المقاتلة] يحاربون إلى جانب الرومان ، كما كان معظم المناذرة يحاربون إلى جانب الفرس . أما اليهود فما عرف التاريخ قوماً أشد عداوة للإسلام والمسلمين منهم (٩) .

هذا مايقوله التاريخ ، ولايغرنك أراجيف جورجي زيدان وأمثاله من الضالين المضلين .

إنه انتصار فريد في التاريخ لايشبهه انتصار بونابرت ، ولاحروب بريطانيا العدوانية التوسعية ــ كما زعم جورجي ــ .
انتصار تم بعد معارك استمرت عشر سنين قدم المسلمين فيها أكثر من خمسين ألف شهيد .
انتصار الفئة القليلة المؤمنة على دولتين تحكمان العالم في ذلك الوقت .
انتصار الذين يريدون أن يكون الدين كله لله ، وأن لايعبد الناس بعضهم بعضاً من دون الله .

---

٩ ــ وجاء دور المجوس / ٤٥ ، وسبق الحديث عن هذه المسألة باقتضاب في باب [المستشرقون] عند نقدنا لما قاله أرنولد .

ثالثاً ـــ طعنه بأعلام خير القرون :

زعم جورجي زيدان بأن اليهود دفعوا الأوس والخزرج إلى تأييد محمد ﷺ لأنهم يعلمون بأن مكة سوف تسقط إذا حُطمت الأصنام فيها وأقلع الناس عن عبادتها .

ويقول في دفاعه عن وجهة نظره : واليهود أهل نظر في التجارة . ناهيك بما كان بين تينك المدينتين من المنافسة والمسابقة لأن أهل مكة من العدنانية وأهل المدينة قحطانية . (تاريخ التمدن : ١ / ٤٧)

قارئي الكريم : أو تحسب أن جورجي اعتمد في قوله هذا على روايات وأخبار تاريخية ؟!
أبداً لم يعتمد على روايات تاريخية لنرد عليها ونبيّن زيفها ، وإنما اعتمد على خياله الخصب ، وعلى أكاذيب أساتذته المبشرين والمستشرقين .

والروايات التاريخية تؤكد بأن الذين أسلموا من الأوس والخزرج كانوا قلة ، ثم أخذ عددهم يزداد ، واليهود كانوا يتعاونون مع المنافقين ومع مشركي قريش ضد رسول الله ﷺ .

ورواية جورجي مرفوضة عقلاً لأن اليهود يعلمون بأن محمداً ﷺ أشد خطراً عليهم من العرب والفرس والرومان مجتمعين ، وقد ورد في كتبهم شيء من أخباره ، فكيف يقبلون أن تكون المدينة عاصمة دولته الجديدة ، وكيف يجحدون بالرسالة والرسول ثم يدفعون الأوس والخزرج إلى الدخول في الدين الجديد ؟!

وبعد الحديث عن إسلام الأنصار ينتقل إلى الحديث عن المهاجرين من السابقين الأولين وعن الذين أسلموا من أهل مكة بعد الفتح .

يقول عن علي بن أبي طالب وطلحة والزبير بأنهم من أكثر الصحابة تطلعاً إلى الخلافة . (تاريخ التمدن : ١ / ٨٣)

وعن عمرو بن العاص يقول :
« فاحتال عمرو على أبي موسى الأشعري حيلة غلب بها على عقله . أظهر أنه يريد خلع علي ومعاوية معاً ليختار المسلمون واحداً سواهما . فقبل أبو موسى ذلك . لكن عمراً طلب إليه أن يتكلم قبله لأنه أرفع منه منزلة وأكبر سناً ، فانخدع أبو موسى » . (تاريخ التمدن : ١ / ٨٦)

هذه الرواية ليست صحيحة — مع كثرة شيوعها على الألسنة — ، وعمرو بن العاص رضي الله عنه عزل معاوية ، كما جاء في رواية الدارقطني التي تنتهي بحصين بن المنذر وهو من خواص أصحاب علي رضي الله عنهما ، وقد حارب معه (١٠) .

وعمرو بن العاص ليس محتالاً ، وهذه الصفة تنطبق على جورجي وإخوانه المستشرقين ، ولو كان جورجي محباً للعرب لكان مؤدباً مع القائد العظيم الذي أكرمه الله سبحانه وتعالى بفتح فلسطين ومصر ، كان داهية حقاً ولكن في حرب أعداء الله جلّ وعلا. ويصف [زيدان] عثمان بن عفان رضي الله عنه بأنه كان مترفاً ، وكان يملك مائة ألف دينار ، ومليون درهم ، وعقارات قيمتها أكثر من مائة وخمسين ألف دينار ، ويقول مثل هذا القول عن الزبير وطلحة وعبد الرحمن بن عوف ، ويزعم بأن مصعب بن الزبير بذل مليون درهم في زواج سكينة بنت الحسين رضي الله عنهم أجمعين . (تاريخ التمدن : ١ / ٨٦ و ٨٧)

ويرى بأن بني أمية أثاروا العصبية بين القيسية والمضرية أي بين اليمنية والعدنانية ، ويعتقد بأن الخلاف الذي نشب بين علي ومعاوية صورة عن هذه الحرب ، فأهل المدينة من القحطانية ، وأهل مكة من عدنان ، وكان سيدهم في الجاهلية أبا سفيان . (تاريخ التمدن : ٣ / ٣٣٤)

---

١٠ — العواصم من القواصم لابن العربي / ص : ١٧٨ .

وعن معاوية رضي الله عنه يقول :
« واقتبس معاوية من الروم أسباب البذخ ودواعي الترف وقلدهم في أبهة الملك ، فأقام الحرس يحملون الحراب بين يديه إذا مشى أو قام للصلاة ، وبنى لنفسه قصراً نصب فيه السرير وأوقف الحاجب ببابه ... وجعل الخلافة وراثية في نسله بعد أن كانت انتخابية ... وانتحل معاوية حكاية استلحق بها زياد بأبي سفيان وسماه زياد بن أبي سفيان بدلاً من زياد بن أبيه » . (تاريخ التمدن : ١ / ٨٩)

وقال عن معاوية أيضاً :
« وقام معاوية يطلبها وينازع أعمام النبي وأبناء عمه عليها ، والمسلمون يعتقدون حق هؤلاء فيها ، وأن معاوية طليق لاتحل له الخلافة ، ولكنه تمكن بدهائه وسعة صدره من التغلب عليهم جميعاً فأسس الدولة الأموية » (تاريخ آداب اللغة العربية : ١ / ٢٠٣)

ومرة أخرى يقول عن بني أمية :
« ومن الأسباب التي أيدت سلطان بني أمية أنهم كانوا يعولون في تأييدهم على الدهاء والسياسة والحزم ، ولو كان خرقاً لحرمة الدين أو إهانة لأهله ، فإنهم قتلوا ابن بنت النبي ، وضربوا الكعبة بالمنجنيق ، ولعنوا ابن عم النبي وصهره على المنابر ، وقتلوا من لم يلعنه وسنعود إلى تفاصيل ذلك في مكان آخر » .

ويشدد في نقمته على عبد الملك بن مروان ويقول :
إنه خطب بمكة خطبة وصف عثمان فيها بالمستضعف ومعاوية بالمداهن ويزيد بالمأفون ، وقال في نهاية خطبته :
والله لايأمرني أحد بتقوى الله بعد مقامي هذا إلا ضربت عنقه . (تاريخ التمدن : ٣ / ٣٦٢)

ويصف أحوال المدينة المنورة في منتصف القرن الأول من الهجرة فيقول :
« فلما تولى عبد الملك بن مروان سنة ٦٥ من الهجرة كانت المدينة أصبحت مسرحاً للهو والغناء ، ونبغ فيها طائفة من المغنين ، وتكاثر فيها المخنثون وأهل القصف إلا من كان فيها من الحفاظ والقراء فعلم عبد الملك أن أعداءه هناك لايخشى بأسهم لاشتغالهم بأنفسهم وملاذهم » . (تاريخ آداب اللغة العربية : ١ / ٢١٢)

وفي رواياته عن تاريخ الإسلام تراه يصور خلفاء المسلمين وعظماءهم بأبشع الصور وأحطها ، فتارة يتحدث عن استبدادهم وطغيانهم ، وتارة يتخيل قصصاً غرامية يلصقها بهم ، وفي غير هذه وتلك يزعم بأنهم مغامرون ، يعيشون من أجل المرأة ومتاع الدنيا ، وإذا مر ذكر النصارى تراه يشيد بهم ، وينعتهم بأحسن النعوت وأجلها .

ولولا أن بحثي هذا قاصر على سيرة المصطفى ﷺ لمضيت في كشف خبث هذا الصليبي الذي ماترك وسيلة إلا وحارب الإسلام من خلالها .

تعليق :

١ ـــ لم يكن المؤلف حيادياً ولا موضوعياً في حديثه عن الصحابة رضوان الله عليهم :
فالأنصار أسلموا لسبب مادي بحت ـــ كما يزعم ـــ ، وعلي وطلحة والزبير كان همهم الأول الخلافة ، وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وطلحة أصحاب بذخ وترف ، وعمرو بن العاص محتال ، ومعاوية بن أبي سفيان غدار محتال طليق ... وليست هذه صفات ومزايا الجيل الذي بنى دولة كبرى ، ورفع ألوية الحق في معظم بلاد الدنيا .
٢ ـــ كان جورجي زيدان في معظم ماكتب يعتمد على خياله الواسع ، وكان بارعاً في تلفيق القصص والأخبار وفي حبكها .

وفي بعض ماكتب كان يعتمد على كتب ومراجع الباطنيين الرافضة ، أو على مصادر غير موثوقة وليست في مستوى البحث العلمي مثل كتاب الحيوان للدميري ، والأغاني لأبي فرج الأصفهاني ، والكامل للمبرد وغيرها من كتب الأدب والقصص والتندر .

وفيما ألصقه بعثمان بن عفان رضي الله عنه من ترف وبذخ اعتمد على روايات المسعودي وهو من المبتدعين المحتالين .

ومما لاشك فيه أن جورجي زيدان يعرف حقيقة الكتب التي نقل عنها غير أنه صاحب هوى ، وقد وجد فيها مايشبع حقده الدفين ويروي غليله .
٣ ـــ وجد المؤلف في كتب الرافضة ضالته المنشودة ، فنقل عنهم مازعموه عن وجود مصحف غير مصحف عثمان يتوارثه بنو حسن . (تاريخ آداب اللغة

العربية : ١ / ١٩٩)

ونقل عنهم مازعموه أن رسول الله ﷺ قال عن علي رضي الله عنه : « هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم فاسمعوا له وأطيعوا » . (تاريخ التمدن : ١ / ٤٤)

وهذا الحديث لاأصل له في كتب الحديث . قال ابن الجوزي عن حديث آخر عن أنس أن النبي ﷺ قال :
« إن أخي ووزيري وخليلي من أهلي وخير من أترك من بعدي يقضي ديني وينجز موعدي علي بن أبي طالب » .

قال ابن الجوزي : هذا حديث موضوع . وقال ابن حبان : مطر يروي الموضوعات لاتحل الرواية عنه . رواه من طريق ابن عدي بنحوه ومداره على مطر هذا ، مع أنه ليس في لفظه « وخليفتي ووصيي » [١١] .
وقال عن الدولة العبيدية المجوسية :
« وهي تنتسب إلى السيدة فاطمة بنت الرسول [ﷺ] عن طريق جعفر الصادق . وأول من ظهر بالدعوة منهم عبيد الله المهدي في أواخر القرن الثالث للهجرة ... وقد بدأ الفاطميون حكمهم في مصر بدءاً طيباً ، وعرفت في أيام المعز لدين الله والعزيز بالله ، والحاكم بأمر الله رخاء عظيماً واستقراراً لم تعرفه منذ سنوات طويلة » . (تاريخ التمدن : ١ / ١٠٢)

أخي القارىء : إن جورج زيدان وغيره من الباطنيين والمستشرقين لايستطيعون إثبات هذا الادعاء ، وأين عبيد الله المجوسي من فاطمة الزهراء رضي الله عنها .

وغير مستغرب ثناء المؤلف على الحاكم بأمره الذي دعا الناس لعبادته من دون الله ، والذي كان يأمر الناس بالنوم في النهار والعمل في الليل .

غير مستغرب أن يكيل له المدح والثناء لأن شيطانهما واحد ، كما أنه غير مستغرب تفضيله الدولة العبيدية المجوسية على دولة الخلفاء الراشدين وبني أمية .

---

١١ ــ المنتقى من منهاج الاعتدال للذهبي .

الفصل الثاني

طه حسين

المبحث الأول : هل تاب قبل موته
المبحث الثاني : أضواء على نفسية طه حسين
المبحث الثالث : الشعر الجاهلي
المبحث الرابع : على هامش السيرة
المبحث الخامس : الشيخان
المبحث السادس : الفتنة الكبرى

المبحث الأول

هل تاب قبل موته

أفضى طه حسين إلى ربه بعد أن رده الله سبحانه وتعالى إلى أرذل العمر .

أفضى إلى ربه يحمل أوزاره وحده . قال تعالى : ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة ﴾ (١٢) ، ويحمل أوزار الذين أضلهم دون أن ينقص ذلك من أوزارهم شيئاً .

أفضى إلى ربه لاينفعه ثناء المستشرقين ، ولاتكريم الملاحدة العلمانيين ، ولا الأوسمة والألقاب العلمية التي حصل عليها .

وتصدى لطه حسين في أوج عزه أعلام من العلماء الدعاة جاءوا بنصوص من أرائه وأقواله التي زعم بأنه مبتدع لها ، ونصوص من كلام المستشرق [مرجليوث] ، فكان كلام طه ترجمة حرفية لأقوال أستاذه ، وتبين بأنه متبع وليس مبتدعاً ، مقلد وليس مجتهداً .

كما تصدى له رغم علو مكانته واحتضان النظام له كبار علماء الأزهر — عندما كان الأزهر حراً — فأفتوا بردته عن الإسلام وطالبوا بمصادرة كتابه [الشعر الجاهلي] .

ولاأحسب أني سآتي بأكثر مما تفضل به العلماء الذين ردوا على طه حسين عندما كان عميد الأدب العربي وقالوا عنه مافيه الكفاية ... ولهذا فلم أتعرض كثيراً لكتبه القديمة ... وتكاد هذه الدراسة تكون قاصرة على ماكتبه طه حسين في السيرة النبوية لولا ماتقتضيه طبيعة البحث من وجوب الإشارة إلى كتابه [في الشعر الجاهلي] وماقال كبار علماء المسلمين في الرد عليه .

---

١٢ — سورة المدثر ، الآية : ٣٨ .

وتمشياً مع موضوعية البحث لن أتوسع في عرض شذوذاته وانحرافاته ، ولن أطيل في الرد على شبهاته ... وحسبي أن أقدم صورة واضحة عن خطورة منهجه ، وأن يعلم المسلمون مكامن الخبث المبثوثة في كتبه وبخاصة الإسلامية منها .

والسؤال الذي يفرض نفسه :
هل صحيح أن طه حسين رجع عما كان قد قاله في كتابه [الشعر الجاهلي] ، وتاب إلى الله قبل موته ؟!

هكذا زعم بعض الكتاب ، وقال أحدهم :
عدل طه حسين عن رأيه في الشعر الجاهلي بعد أن قرأ كتاب الدكتور أحمد الحوفي [الحياة العربية في الشعر الجاهلي] ، ولم يقل كيف علم بذلك ولامدى صحة هذا الخبر .

وقال آخرون : كان طه حسين قبل موته معتكفاً على سماع القرآن مرتلاً ، وقال طه نفسه مثل هذا القول في مقابلة أجراها معه أحد المذيعين في إذاعة القاهرة .

إن الذي يهمنا في هذا الشأن :
هل كتب طه حسين بحثاً أو مقالاً يعلن فيه رجوعه عن أقواله وآرائه التي أثارت ضجة كبيرة ، وكفره علماء المسلمين بسببها ؟!
هل أعلن في الإذاعة ، أو في صحيفة من الصحف ، أو أمام ملأ من الناس عن تراجعه عن آرائه التي وردت في كتابه [الشعر الجاهلي] ؟!
فليأتنا أنصاره ومحبوه بمقال واحد بل بعبارة واحدة قالها ... فإن قالوا : لقد كتب كلاماً طيباً في مرآة الإسلام ، قلنا :
وفي كتابه [على هامش السيرة] كتب كلاماً طيباً وآخر يقطر خبثاً ... ومثل هذه الأساليب الملتوية معروفة ومبثوثة في كتب المستشرقين وتلامذتهم .

وإذا كان المعجبون بطه أو الذين يحسنون الظن به قبل موته بقليل عاجزين عن إبراز أي دليل ، فنحن نملك دليلاً على أنه لم يتراجع عما قاله من زندقة وإلحاد . قال الدكتور محمد الدسوقي سكرتير طه حسين :
« لقد رافقت العميد في العقد الأخير من عمره ، وقرأت له كثيراً من المؤلفات

العربية القديمة والمعاصرة ، وجاء ذكر الشعر الجاهلي أكثر من مرة فما سمعت منه إلا شكه في هذا الشعر وطعنه في صحته . وقد قال لي يوماً إنه لايعيد النظر في مؤلفاته عند إعادة طبعها ، غير أنه أضاف إلى هذا قائلاً : إن هناك كتاباً واحداً أريد أن أغير فيه بعض الآراء وهو [مستقبل الثقافة في مصر] فقد انتشر التعليم وأصبح مجاناً في جميع مراحله كما قويت الصلات العلمية والأدبية بين البلاد العربية على الرغم من الخلافات بين بعض حكامها وهذا يعني أن كتاب [الأدب الجاهلي] لارجوع عما اشتمل عليه من آراء .

وبعد فإن موقف طه حسين من الشعر الجاهلي لايمكن الجزم بأنه عدل عنه ، اعتماداً على كلمة قالها في مناسبة إهداء بعض المؤلفات إليه ثم يلزم الصمت أكثر من عشرين عاماً دون أن يكتب عن رأيه الجديد ، ولذا أكرر ماأومأت إليه آنفاً من أن العميد لم يرجع عن رأيه في الشعر الجاهلي والله يقول الحق وهو يهدي إلى سواء السبيل » اهـ (١٣) .

لانعتقد بأن الذين زعموا أن طه حسين قد تراجع عن ارآئه يملكون دليلاً واحداً يردون به على سكرتير طه حسين الذي رافقه في العقد الأخير من عمره ...

ومن المؤسف أن بعض هؤلاء الذين راحوا يدافعون عن طه حسين شباب من دعاة الإسلام غلب عليهم حسن الظن وآفة الأخبار رواتها .

ونحن لانعرف عن طه حسين إلا عداوته للإسلام والمسلمين ، وتقليده الفج لأساتذته المستشرقين . لقد كان علماً من أعلام الكفر والإلحاد ، ورمزاً من رموز الشر والضلالة ، وعميلاً من عملاء الغرب ، وداعية من دعاة التبرج والاختلاط والفساد ، وأسأل الله تعالى أن يجزيه بما يستحق فهو وحده الذي يعلم نوايا عباده وماتخفيه صدورهم .

---

١٣ ــ مجلة العربي الكويتية ، العددان : ٢٣٩ ، و ٢٤٣ .

المبحث الثاني

أضواء على نفسية طه حسين

من هذا الرجل الذي تحدى عقائد المسلمين وتصوراتهم ؟! أين ولد ؟ وكيف نشأ وترعرع ؟!
كيف كان ينظر إلى أمه وأبيه وأشقائه وأقربائه والناس أجمعين ؟!
هل كان يحس بالحرمان واحتقار الناس له لأنه أعمى ؟!

لابد لي من الإجابة على هذه الأسئلة قبل الحديث عن أفكار وتصورات طه حسين .

وقد كتب عنه صنفان من الناس :
ـــ أما تلامذته وأصدقاؤه فقد أسرفوا في مدحه والإشادة بعلمه وفضله ، فهو عندهم عميد الأدب العربي ورائد التقدمية وقاهر الرجعية ، ويحتفل هؤلاء في كل عام بذكرى وفاته ، ويكتبون عنه في معظم المجلات والصحف العربية .

أما أعداؤه :فمعظمهم بالغ في الحديث عن جهله وغبائه [والحق يقال : إن طه حسين ليس جاهلاً ولا غبياً] ،ومعظمهم كان مؤدباً في نقده وتقويم أفكاره وتصوراته .

والحديث عن حياة طه حسين ونفسيته لن ننقلها عن أصدقائه أو شانئيه ، ولكن سننقلها عنه نفسه في كتابه « الأيام » .

تحدث طه حسين عن أبيه وأمه فقال :
« ... وأحس أن الحياة مملوءة بالظلم والكذب ، وأن الإنسان يظلمه حتى أبوه ، وأن الأبوة والأمومة لاتعصم الأب والأم من الكذب والعبث والخداع » .

هل كان أبوه كذاباً حقيقة ، وإذا كان كذلك هل من الخلق والمروءة فضحه والتشهير به ؟!

انظر إليه مرة أخرى يتهم أباه بالكذب ولكن في صورة يظهر من خلالها حقده على المجتمع كله :

« وأي فرق بين الشيخ [أبوه] يقسم ويحنث ، وبين سيدنا [أستاذه في مكتب تحفيظ القرآن] يرسل الطلاق والأيمان إرسالاً وهو يعلم أنه كاذب ؟ وهؤلاء الصبيان يتحدثون إليه فيشتمون له الفقيه والعريف ، ويغرونه بشتمهما ، حتى إذا ظفروا منه بذلك ، تقربوا به إلى الرجلين ، وابتغوا به إليهما الوسيلة . وهذه أمه تضحك منه ، وتغري به سيدنا حين أقبل يتحدث إليها بما نقل إليه الصبيان . وهؤلاء أخوته يشتمون به ... » .

في المرة الأولى شتم طه أمه وأباه ، وفي المرة الثانية شتم مع أمه وأبيه أستاذه وأخوته وزملاءه في الدراسة ، ووصف الجميع بالكذب والخداع ، فهل كان صادقاً في وصفه أم أنه ولد شاذ سيء الخلق كان مصيبة في البيت كما كان مصيبة في المدرسة ؟!

ويعود مرة ثالثة فيقول بأن أمه كانت مهملة له ، غليظة عليه ، وأن أباه كان يهمله وينظر إليه بشيء من الإزورار ، وكان يجد في أخوته شيئاً من الإزدراء له ... وكل هذا استحال في نفسه إلى حزن صامت عميق .

ويعود طه من الأزهر إلى قريته فلايستقبله أهله كما كانوا يستقبلون أخاه فيكتم في صدره كثيراً من الغيظ وكثيراً من خيبة الأمل نحو أهله وأقربائه وأهل قريته ، ولكنه لم يكد يقضي أياماً حتى غير رأي الناس فيه ولفتهم إليهم لالفت عطف ومودة ، ولكن لفت إنكار وإعراض وازورار .

وهذا هو السر في شخصية طه حسين المعقدة ، إنه يريد أن يلتفت الناس إليه ، ويتحدثوا عنه ، ويكون شغلهم الشاغل ، ولاسبيل إلى ذلك إلا إذا أنكر مايعتقدون عملاً بالمبدأ القائل [خالف تعرف] ، ولو تحدث الناس عن ميت وشدهم كيفية وفاته لتمنى طه حسين أن يكون ذلك الرجل .

ويمضي طه حسين بشتم أهله وغير أهله ، فيخص أخاه الشيخ الفتى بوابل من قذائفه ويزعم بأنه كان يعامله كالمتاع الذي لاحركة فيه ، وينصرف إلى أترابه معرضاً عنه ، ويؤثر نفسه بنوع من الطعام عليه ... وكان ـــ أخوه الشيخ ـــ كغيره من طلاب الأزهر ، يعيش على الغيبة والنميمة والخداع ، ويذكر عدداً

من القصص عن فساد أخلاق أخيه الشيخ وأقرانه من طلاب الأزهر .
وفي موضع آخر يتحدث عن أكبر إخوته [ذاك المطربش] الذي اعتذر عن تقديم أية مساعدة له وهو في فرنسا ، ورد على خطاب [علوي باشا] رداً بشعاً دون أن ينبيء بأمر هذا التبرع من علوي باشا أباه ولأخاه الشيخ ، وإنما كتم القصة عن الأسرة كلها .

وكان له عذره في هذا الكتمان فقد كان أبوه يرسل إليه بين حين وحين جنيهات تبلغ العشرة مرة وتزيد عليها مرة أخرى ويكلفه أن يرسلها إلى أخويه في أوروبا معونة لهما على الحياة . فكان يتلقى هذه الجنيهات فإذا استقرت في يده لم يسهل عليه إرسالها إلى أوروبا ، وإنما أنفقها في بعض شأنه هو .

وقد أرسل إليه هذا الأخ رسالة يطلب فيها أن يرد عليه غطاء عينيه الذهبي لأنه كان شديد الحاجة إليه .

ويقول عن سيده الشيخ الذي علمه القرآن الكريم أنه أقسم لأبيه بالله ثلاثاً وهو كاذب ... وفي حادثة أخرى أقسم بالله العظيم ثلاثاً ... فقال الشيخ — أي والده — : لاأصدق من هذا شيئاً . قال سيدنا :
امرأتي طالق ثلاثاً ماكذبتك قط ... ونهض سيدنا فانصرف كئيباً محزوناً . وظل صاحبنا — يتكلم عن نفسه — في مكانه لايفكر في القرآن ولافيما كان ، وإنما يفكر في مقدرة سيدنا على الكذب ، وفي هذا الطلاق المثلث الذي ألقاه كما يلقي سيجارته متى فرغ من تدخينها .

هؤلاء أهل طه — كما يراهم — قساة غلاظ مخادعون كذابون ، لايذكر الولد العاق لأهله مكرمة واحدة ، فهاهو يعترف بأن أباه كان يرسل له ولأخيه في أوروبا بين الحين والحين جنيهات تبلغ العشرة ، وكان للجنيه قيمة كبيرة ألا يذكر هذا الفضل لأبيه ، ومن يصدق بأن الأسرة كلها شر وخداع ؟!

وعن علماء بلده يقول :
« ... فأما أحدهم فكان قصيراً ضخماً يمتليء شدقيه بالألفاظ حين يتكلم ، فتخرج إليك هذه الألفاظ ضخمة كصاحبها ، وتصدمك معانيها كما تصدمك مقاطعها .

أما الآخر فيأتي مايأتي من الأمر متأثراً بالحقد والموجدة ، فكان الناس

يعطفون عليه ويضحكون منه .

وثالث كان الناس مجمعين على أنه أكل أموال اليتامى وأثرى على حساب الضعفاء .

وهؤلاء هم علماء وقضاة بلده لاخير فيهم ــ كما يرى ــ ولو شرب طه الماء الزلال لرآه في فمه مراً .

ويهون ماقاله عن أهله وعلماء بلده أمام حديثه عن علماء الأزهر بعد أن نُكِبَ به طالباً .

يقول عن أول شيخ حضر درسه :
كان قاضياً في إقليمنا ، وكانت امرأته فتاة هوجاء جلفة وصوت هذا الشيخ فيه كبر ، وقد احتقرت العلم بعد درسه .

وعن شيخ ثالث يقول :
كان موسوساً ، وعندما ناقشته رد علي رداً مفحماً شديداً جعله يسقط في نفسي .

وعن جمع من أساتذته قال :
« وأقبل الشيوخ على فناجينهم في شره إليها كعادتهم فعبوا فيها أو قل مصوها مصاً طويلاً له صوت طويل ، ولكنهم لم يكادوا يبلغون حلوقهم بما مصوا حتى ردته حلوقهم رداً عنيفاً ، وإذا هم جميعاً يسعلون وينحنحون متحرفين لذلك يريدون أن يبرئوا حلوقهم مما أصابها ، وقد جرت القهوة واللعاب على لحاهم وصدورهم وهم يسعلون ويضطربون اضطراباً شديداً ، ذلك لأنهم لم يشربوا قهوة البن ، وإنما شربوا قهوة النشوق . أخطأ الفتى علبة البن وأخذ مكانها علبة النشوق .

ويمضي طه في شتم أساتذته في الأزهر :
فهذا يكرهه لصوته الذي لايكاد يسمعه المتحدث حتى يضحك ، وآخر يمتحنه فلايجد كلمة يخاطبه بها إلا قوله :
أقبل ياأعمى ... انصرف ياأعمى فتح الله عليك ، فيخرج ساخطاً على ممتحنيه .

وشيخ ثالث سمع الطلاب يتحدثون عنه أنه إذاكان الليل خرج مع لداته

فذهب إلى حيث لاينبغي أن يذهب العلماء ، وسمع من الغناء مالاينبغي أن يسمع العلماء .

ولم يترك طالباً ولاشيخاً ولاجاراً أو قريباً يفلت من لسانه وشتائمه ، وختم حديثه عن الأزهر قائلاً :
« من أجل هذا كان صاحبنا سيء الرأي في العلماء والطلاب جميعاً » .

قد نصدق أن شيخاً من شيوخ الأزهر زلت قدمه وانحرف عن الطريق السوي وسقط في الأوحال .

وقد نصدق أن قاضياً من قضاة الإسلام غلبه هواه ، وخان مأأوتمن عليه ... أما أن يكون الأهل والأقرباء والطلاب والقضاة والعلماء وجميع الناس منحرفين مخادعين فهذا لايقبله صاحب عقل سوي ولايرضاه رجل منصف .

لكن طه خلع عن نفسه ثوب الحقد والكراهية وألبسه للناس ورحم الله من قال :

ومن يك ذا فم مر مريض   يجد مراً به الماء الزلالا

وكان سفيهاً في نقده ، متحاملاً في حديثه عن العلماء :
فشيخ يكرهه لصوته ، ومن قبل وصف بعض علماء بلده بمثل هذا الوصف فقال : فتخرج إليك هذه الألفاظ ضخمة كصاحبها ، غليظة كصاحبها !!

عليه من الله مايستحق أليس الصوت واللون والسمع والبصر من الله سبحانه وتعالى ؟! وهل يجوز أن نسيء الظن بطه لأنه أعمى ؟!
وماذا يصنع الشيخ إذا كانت امرأته هوجاء جلفة ، وهل رأى طه الشيوخ ، وقد جرت القهوة واللعاب على لحاهم وصدورهم أم هو خيال كذاب أشر ؟!

ماذا يقول طه عن نفسه ؟

حين انتهى طه حسين من شتم أهله وأساتذته وأترابه جميعاً أخذ يشتم نفسه وينقدها :
« وكان صبينا ــ يعني نفسه ــ يختلف بين هؤلاء العلماء جميعاً ، ويأخذ عنهم

جميعاً ، حتى اجتمع له من ذلك مقدار من العلم ضخم مختلف مضطرب متناقض ، ماأحسب إلا أنه عمِلَ عَمَلاً غير قليل في تكوين عقله الذي لم يخل من اضطراب واختلاف وتناقض » .

ويصف نفسه في موضع آخر بأنه كان ثقيلاً سمجاً ، ويخاطب ابنته قاصاً عليها مايفعله مع أهله عندما يعود من الأزهر :
أخذ ينظم لهم الأكاذيب كما تعود أن ينظم لك القصص . ويعترف بأنه كان سيء الرأي في الطلاب والعلماء جميعاً .

وفي موضع ثالث يقول :
إنه كان يرى أن نسخة من ألفية ابن مالك تعدل عنده خمسين نسخة من القرآن الكريم ، ويكشف عن ضيق نفسه من دروس التوحيد والفقه والحديث .

إذن : فعميد الأدب العربي ، الذي كان مرشحاً لجائزة [نوبل] ، والمؤلف الكبير ، والمؤرخ القدير الأستاذ الدكتور طه حسين يصف نفسه ، ونذكر ماقاله مع تعليق موجز :
ــ صاحب عقل مضطرب متناقض : أي مصاب بشيء من الجنون ، والجنون أنواع وليس نوعاً واحداً .
ــ كان يكذب على أهله كما يكذب على ابنته فهو كذاب في القديم والحديث .
ــ سيء الرأي وخاصة في أهله والطلبة وشيوخه في الأزهر .
ــ ثقيل سمج : لايقدر أحد على احتماله .

ومن كان هذا شأنه ، فليس غريباً عليه أن يشتم الناس جميعاً ، وطبيعي أن ينفر الناس منه لأنه ثقيل سمج .

وطبيعي أيضاً أن رواية الكذاب المضطرب المتناقض غير مقبولة عند المسلمين وعند غيرهم .

وهذا حكم طه حسين على نفسه أخذناه من كتابه [الأيام] ، ولم نأخذه عن أعدائه أو أصدقائه ، والكتاب متوفر في المكتبات الخاصة والعامة والحمد لله .

ونخطو مع طه خطوة أخرى بعد أن أصبح طالباً في فرنسا :

يقول عن زوجته الفرنسية :

« لقد حنا ياابنتي هذا الملك ـــ يعني زوجه ـــ على أبيك ، فبدله من البؤس نعيماً ، ومن اليأس أملاً ، ومن الفقر غنى ، ومن الشقاء سعادة وصفواً » .

وماقاله طه حسين في وصف زوجه الفرنسية يخالف الدراسات والإحصائيات التي تتحدث عن واقع وحقيقة المرأة في أوروبا ، وكثير من العلماء الغربيين الذين أعلنوا إسلامهم قالوا بكل صراحة ووضوح : لقد أعجبنا أشد الإعجاب بتماسك الأسرة عند المسلمين وتضامن أفرادها ، ولو كان طه حسين صادقاً لقلنا : لكل قاعدة شواذ ، وامرأته من شواذ نساء فرنسا ، ولكنه كذاب كما وصف نفسه . وقد كتب بعض الأدباء الذين كانوا على صلة مع طه حسين مايؤكد كذبه فيما وصف به زوجه ، ولانرى مصلحة من الخوض في قضايا الناس العائلية .

ومن جهة أخرى فإن امرأه من جيل أمه في ريف مصر لهي في حنانها وحبها لأبنائها خير من نساء باريس كلها ولكنه ولد عاق كذاب .

وأما عن أساتذته المستشرقين الحاقدين على الإسلام والمسلمين فيقول :

« هذا العلم الكثير الذي كان يأتي به المستشرقون ، كان جديراً بأن يحول هذا الفتى تحويلاً خطيراً يفنيه في العلم الأوروبي افناءً » .

فهذا الأستاذ [ميلوني] يدرّس باللغة العربية تاريخ الشرق القديم ، ويتحدث إلى الطلاب عن أشياء لم يتحدث عنها أستاذ قبله في مصر .

وهذا أستاذ ألماني اسمه [ليتمان] يتحدث عن اللغة السامية والمقارنة بينها وبين اللغة العربية ... والفتى يفهم كل مايقولون ، لايجد في فهمه التواءً أو عسراً . وهو لايكره شيئاً كما يكره انتهاء الدروس ، ولايتشوق إلى شيء كما يتشوق إلى ماسيستقبل منها .

وكم كان حزنه عميقاً بوفاة أستاذه [دوركيم] المشرف الفلسفي على رسالته . وكان الفتى [يعني نفسه] لأستاذه محباً وبه معجباً إعجاباً يوشك أن يبلغ الفتون .

أخي القارىء الحذق :
أرأيت وصف طه لنساء أوروبا ولأساتذته المستشرقين : كلهم جيدون ، علمهم غزير ، وأدبهم جم ... وليس لهم نظير في مصر كلها .

أما منهج المستشرقين فلقد تحدثنا عنه مافيه الكفاية ، ومالم نقله عن جهلهم وسوء أمانتهم أكثر ... ولو قال طه وجدت فيهم علماء متمكنين لما استغربنا قوله ، ولو قال : في الأزهر أساتذة ليسوا متمكنين من مادتهم العلمية لما وجدنا غرابة في قوله أيضاً . أما أن يكون شيوخ الأزهر كلهم قساة جهلة ، وأساتذته المستشرقون كلهم علماء رحماء ... فهذا مالايقبله منصف .
ولكنه رجل كذاب جمع الشرك بينه وبين أساتذته الجدد ، ووحد كره الإسلام بين قلوبهم ، وماذا ننتظر من رجل يفضل نسخة من ألفية ابن مالك على خمسين نسخة من القرآن الكريم .

وماسنقوله عن كفره في الصفحات القادمة أكثر من هذا بكثير . وهذا سر قوله عن أستاذه [دوركيم] :
« وكان الفتى لأستاذه محباً وبه معجباً إعجاباً يوشك أن يبلغ الفتون » اهـ وقد بلغه فعلاً .

المبحث الثالث

الشعر الجاهلي

كان أول كتاب ألفه طه حسين بعد عودته من أوروبا [الشعر الجاهلي] ، ثم عاد ونشره بعد أن أسماه [في الأدب الجاهلي] ، ويبدو أنه كان وراء تأليفه لهذا الكتاب سببان :

١ ــ عاد طه من أوروبا كلفاً بحب أساتذته المستشرقين ، معجباً بهم أشد الإعجاب ، شغوفاً في عرض آرائهم التي آمن بها إيماناً أعمى أبعده عن الحكمه والاعتدال ، كما أبعده عن اتباع أساليب أساتذته المستشرقين الذين يضعون السم في الدسم ، ويخلطون الحق بالباطل ، أما طه فكان فيما كتبه في المرحلة الأولى لايستعمل إلا السم ولايقترب من الحق وأهله ، واستدرك فيما بعد هذا الخطأ عندما ألف كتبه التي لها طابع إسلامي ، ولجأ إلى خلط الحق مع الباطل كما يفعل أساتذته .

٢ ــ سبق أن قلنا أن طه حريص على شد انتباه الناس إليه ، وكان إذا رأى أهل قريته لايهتمون به بعد عودته من الأزهر أشاع آراء تخالف عقائدهم الإسلامية فيضطرون إلى الوقوف في وجهه وينتشر الأمر بين الناس فترتاح نفس الفتى ، ويشعر بالسعادة والحبور ، انظر إليه يقول :

« وعلى كل حال فقد انتقم الصبي لنفسه ، وخرج من عزلته ، وشغل الناس في القرية والمدينة بالحديث عنه ، والتفكير فيه ، وتغير مكانه في الأسرة ــ مكانه المعنوي ــ إن صح هذا التعبير فلم يهمله أبوه وأخوته ، ولم تقم الصلة بينهم وبينه على الرحمة والشفقة ، بل على شيء أكثر وآثر عند الصبي من الرحمة والإشفاق » . (الأيام : ٢ / ١٢٨)

والشاهد هنا قوله : انتقم الصبي لنفسه ... شغل الناس في القرية والمدينة بالحديث عنه ... صحيح أن هذا منه كان وهو مايزال صغيراً ، ولكن هذه العقد ازدادت مع تقدمه في السن . وبعد أن أصبح أستاذاً في الجامعة كان يريد أن

تتحدث الدنيا عنه ، ويعلم المستشرقون بأن تلميذهم وفيّ لهم مخلصٌ أشد الإخلاص لأفكارهم .

مقتطفات من كتابه الشعر الجاهلي :

تحدث في الفصل الأول من الكتاب شارحاً منهجه في دراسة الأدب العربي فكان مما قاله :
[يجب حين نستقبل البحث عن الأدب العربي وتاريخه أن ننسى قوميتنا وكل مشخصاتها ، وأن ننسى ديننا وكل مايتصل به] .

وفي معرض رده على [كليمان هوار] المستشرق الفرنسي الذي زعم أنه اهتدى لمصدر عربي من مصادر القرآن الكريم هو شعر [أمية بن أبي الصلت] كان مما قاله طه حسين :
[ليس يعنيني هنا أن يكون القرآن الكريم قد تأثر بشعر أمية أو لايكون] .

ليته التزم بقوله [ليس يعنيني] ... لالم يلتزم وإنما قادته عنايته إلى القول :
« لم لايكون أمية بن أبي الصلت قد أخذ من النبي طالما أن مصادر أمية ومحمد واحدة هي قصص اليهود والنصارى » .

يزعم طه أن مصادر محمد [ﷺ] قصص اليهود والنصارى ، وليس الروح الأمين . وعن إبراهيم وولده إسماعيل عليهما السلام قال :
« للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل ، وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضاً ، ولكن ورود هذين الإسمين في التوراة والقرآن لايكفي لإثبات وجودهما التاريخي ، فضلاً عن إثبات هذه القصة التي تحدثنا بهجرة إسماعيل وإبراهيم إلى مكة .

وقال أيضاً :
ونحن مضطرون إلى أن نرى في هذه القصة نوعاً من الحيلة في إثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة ، وبين الإسلام واليهودية والتوراة والقرآن من جهة أخرى » . (الشعر الجاهلي : ٢٦)

وزعم صاحب مبدأ [خالف تعرف] بأن هجرة إبراهيم وولده إسماعيل

إلى مكة أسطورة من الأساطير التي لاأصل لها ، ومما قاله في هذا الشأن :
« فقريش إذن كانت في هذا العصر ناهضة نهضة مادية تجارية ، ونهضة دينية وثنية ، وهي بحكم هاتين النهضتين كانت تحاول أن توجد في البلاد العربية وحدة سياسية وثنية مستقلة ، وقال أيضاً :
وإذا كان هذا حقاً ، ونحن نعتقد أنه حق ، فمن المعقول أن تبحث هذه النهضة الجديدة لنفسها عن أصل تاريخي قديم يتصل بالأصول التاريخية الماجدة تحدث عنها الأساطير .

وقال :
وإذن فليس مايمنع قريشاً من أن تتقبل هذه الأسطورة التي تفيد أن الكعبة من تأسيس إسماعيل وإبراهيم ... كما قبلت روما ولأسباب مشابهة [أسطورة] أخرى صنعها اليونان تثبت أن روما متصلة باينياس بن بريام صاحب طروادة » .

وهكذا يتحدى طه حسين [بما قال عن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام] القرآن الكريم في قوله جلَّ من قائل :
﴿ وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمناً واجنبني وبني أن نعبد الأصنام ، رب إنهن أضللن كثيراً من الناس فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم ، ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون » (١٤) .

وقوله :
﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ﴾ (١٥) .

وقوله :
﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود ﴾ (١٦) .

---

١٤ ـــ سورة إبراهيم ، الآية : ٣٥ .
١٥ ـــ سورة البقرة ، الآية : ١٢٧ .
١٦ ـــ سورة البقرة ، الآية : ١٢٥ .

وليس عند طه في هذا المسألة إلا الظن وماتهوى الأنفس ، والحرص على مخالفة الناس لشد انتباههم إليه .

وكفر طه حسين مرة أخرى عندما قال بأن القرآن يمثل العصر الجاهلي ويشخصه ، وأنه أصدق مرآة للحياة الجاهلية ، وإننا نستطيع أن نتصور العصر الجاهلي القريب من الإسلام بشرط ألا نعتمد على الشعر ، وإنما على القرآن من ناحية والتاريخ والأساطير من ناحية أخرى .

ويرى طه حسين أن القراءات السبعة ناتجة عن اختلاف لهجات القبائل إلى أن قال :
إنما نشير إلى اختلاف آخر في القراءات يقبله العقل ويسيغه النقل وتقتضيه ضرورة اختلاف اللهجات بين قبائل العرب .

وهذا كفر آخر فالقراءات السبع منقولة بالتواتر عن رسول الله ﷺ ، وأن طريقها الوحي .

ولم يكن طه حسين أول القائلين بهذه الآراء فلقد سبقه إليها المستشرق الإنجليزي [مرجليوث] الذي أنكر صحة الشعر الجاهلي في بحث نشره في مجلة الجمعية الآسيوية عام ١٩٢٤ م أي قبل عام من بدء طه بمحاضراته على طلاب الجامعة .

ونشر المستشرقون الألمان عام ١٨٨٠ م كتاباً اسمه [الشعر العربي قبل الإسلام] وطبع الكتاب في باريس حيث كان يدرس الدكتور طه .

وعقد الدكتور محمد البهي رحمه الله بحثاً قيماً في كتابه [الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالإستعمار الغربي] قارن فيه بين كتاب [الشعر الجاهلي] لطه حسين ، وكتاب [المذهب المحمدي] للمستشرق [جب] ... وانتهى من مقارنته العلمية إلى أن الأهداف والنتائج واحدة عند الكاتبين ، و [جب] سبق طه بنشر هذه الآراء .

وإذن فطه ردد في كتابه أقوال أساتذته ، ولاغرابة في ذلك فهو الذي يكثر من القول :
« إن الشرق لاينهض إلا إذا قلد الغرب في أدبه وتاريخه ولغاته » .

وكان منتظراً من الشعب المسلم في مصر أن يرفع صوته مطالباً بمحاكمة المؤلف المرتد ، وإتلاف كتابه ، رغم تأييد الجامعة له وعطف كبار المسؤولين عليه .

وبعد المماطلات والوعود اضطرت السلطة إلى إتلاف الكتاب ومنع نشره مرة أخرى .

وكلف الأزهر لجنة من كبار علمائه أمثال :
محمود الديناري ، وعبد المعطي الشرشيمي ، ومحمد عبد السلام القباني ، وعبد ربه مفتاح ، وعبد الحكيم عطا ، ومحمد هلالي الأبياري ، وعبد الرحمن المحلاوي ، ومحمد علي سلامة .

وقامت هذه اللجنة بدراسة كتاب [الشعر الجاهلي] ، ورفعت تقريراً لشيخ الأزهر قالت فيه :
« إن الكتاب مملوء بروح الإلحاد والزندقة ، وهو دعامة من دعائم الكفر ومعول لهدم الأديان وفندت اللجنة شبهات وأوهام المؤلف ، ووضعت النقاط على الحروف بأسلوب علمي رزين . وكتب الشيخ عبد ربه مفتاح ــ أحد أعضاء اللجنة ــ مقالاً نشرته صحيفة [الكوكب] جاء فيه :
« وكيف تزعم أيها الدكتور أن بعض العلماء أثار هذا الأمر ــ أمر كفرك ــ وهاأنذا أصرح لك ــ والتبعة في ذلك علي وحدي ــ بأن العلماء أجمعين وعلى بكرة أبيهم يحكمون عليك بالكفر ، وبالكفر الصريح الذي لاتأويل فيه ولاتجوز ، وأتحداك وأطلب منك بإلحاح أو رجاء أن تدلني على واحد منهم [وواحد فقط] يحكم عليك بالفسوق والعصيان دون الكفر ، أجل إني وأنا من بينهم أتهمك بالكفر وأتحمل تبعة هذا الاتهام ، وعليك تبرئة نفسك من هذا الاتهام الشائن والمطالبة بما لك من حقوق نحوي » .

وبعد هذا الموقف الجريء من علماء مصر وقضاتها وأزهرها وشعبها المسلم ، لجأت الحكومة إلى إتلاف الكتاب وذلك منها أضعف الإيمان ... فقام طه حسين بتأليف كتاب جديد سماه [في الأدب الجاهلي] ، وهو الكتاب القديم نفسه [الشعر الجاهلي] مع بعض التعديلات .

حذف من الكتاب القديم الفصل الأول ـــ وهو أكثر الأبواب إثارة ـــ والفصل الثاني [أسباب انتحال الشعر] أبقاه كما هو عندما أعاد طبع الكتاب ، والفصل الثالث [تطبيق دراسته على بعض الشعراء الجاهليين] ، أبقاه في الطبعة الثانية المتداولة بين الناس بعد أن أضاف فقرات قليلة في أوله وآخره . ثم استحدث فصلين في آخر كتابه تكلم في أحدهما عن الشعر الجاهلي وطبيعته وفنونه ، وتكلم في الثاني عن النثر الجاهلي مشككاً فيه ، ووزع على هذين الفصلين أكثر الذي حذفه في الفصل الأول .

لهذا نقول : إن كتاب طه في الأدب الجاهلي لايختلف في مضمونه ومحتواه عن كتابه السابق الشعر الجاهلي إلا في الأسلوب والصياغة .

وما كنا ننتظر من المندوب السامي البريطاني وزبانيته أن يحكموا على طه حسين بالردة أو على الأقل بالسجن والتعزير ، ولو شتم الإنجليز أو طالب بإخراجهم من مصر لكان لهم منه موقف آخر ... ولكن طه كان لسان حال الإنجليز وغيرهم من أعداء الإسلام ... وقد ثبت أن كتبه وكتب غيره أمثال علي عبد الرزاق كانت جزءاً من المؤامرة التي دبرها اليهود والصليبيون في عالمنا الإسلامي في الثلث الأول من القرن العشرين .

المبحث الرابع

على هامش السيرة

قام طه حسين بنشر كتابه [على هامش السيرة] سنة ١٩٢٣ م ، أي بعد المعركة التي احتدمت بينه وبين أنصاره من جهة ، وبين علماء المسلمين والدعاة إلى الله من جهة أخرى .

وفي عام ١٩٢٥ م نشر كتابه [من بعيد] ، وفي فصل منه أسماه [بين العلم والدين] قال:
« إن الخصومة بين العلم والدين جوهرية لابد منها لافرق في ذلك بين دين ودين آخر » .

وفي عام ١٩٣٦ م ألف كتابه [مستقبل الثقافة في مصر] ، وقد أكد فيه أنه لابد من اعتناق الحضارة الغربية ، واعتبار مصر جزءاً من البلاد الغربية لأنها من دول البحر المتوسط ، وزعم أنه لارابط يربط مصر مع العالم العربي ، وقد رد عليه الأستاذ سيد قطب رحمه الله وبيّن انحرافات الكاتب وبعده عن الحق ، وتنكره لتاريخ أمته وحضارتها ، كما رد عليه كتاب آخرون .

لماذا على هامش السيرة :

ساء طه حسين أن يكون لليونان أساطيرهم ، وللرومان أساطيرهم ، وأن الناس يقبلون برغبة ملحة على دراسة هذه الأساطير ، ثم لايجد الراغبون في القراءة والمتعة أساطير للعرب يتناقلها الناس ... ومن أجل هذا الغرض ألف كتابه [على هامش السيرة] . وهاهو يقول :
« ... وليس خلود الإلياذة يأتيها من أنها تقرأ فتحدث اللذة وتثير الإعجاب في كل وقت وفي كل قطر ، بل هو من هذا ، ومن أنها قد ألهمت ومازالت تلهم الكتاب والشعراء ، وتوحي إليهم أروع ماأنشأ الناس من آيات البيان .

ولقد كان [أيسكولوس] أبو التراجيديا اليونانية يقول أنه إنما يلتقط مايسقط من مائدة هوميروس .

ومازال القصاص وشعراء التمثيل والغناء في الغرب خليقين أن يقولوا الآن ماكان يقوله [أيسكولوس] منذ خمسة وعشرين قرناً ، ولم تكن قصص [أيسكولوجي] وغيره من شعراء التمثيل اليوناني أقل خصباً من الإلياذة ، بل هي قد ألهمت من الكتاب والشعراء قديماً وحديثاً ، ومازالت قادرة على أن تلهمهم إلى اليوم وإلى الغد » .

ويذكر أنه قرأ قصة تمثيلية صاحبها [جيرودو] ، وكانت أسطورة تتصل بمولد هرقل فصورها [سوفوكل] قصة تمثيلية في القرن الخامس قبل المسيح . ومازال الكتاب والشعراء من اليونان والرومان والأوروبيين المحدثين يتأثرون ويذهبون مذهبه أو غير مذهبه في تصوير هذا الموضوع ، حتى انتهت القصص التي كتبت فيه شعراً ونثراً إلى هذا العدد الضخم ولم يحجم فحول التمثيل عن طرق هذا الموضوع لأنهم سبقوا إليه ، بل زادهم ذلك حرصاً عليه ورغبة فيه ، وكان بين الذين طرقوه الشاعر اللاتيني [بلوت] ، والشاعر الفرنسي [موليير] ، ثم جاءت قصة [جيرودو] في باريس عام ١٩٢٩ .

وعلى غرار الأساطير اليونانية والرومانية يمكن أن نأخذ من أدبنا العربي ، ففي الأدب العربي قوته الخاصة ، ومايكفل للناس من لذة ومتاع ، فأحاديث العرب الجاهليين وأخبارهم لم تكتب مرة واحدة ... وقل مثل ذلك في السيرة نفسها .

وينتهي طه حسين إلى القول :

إلى هذا النحو من احياء الأدب القديم ، ومن احياء ذكر العرب الأولين ... قصدت حين أمليت فصول هذا الكتاب . ولست أريد أن أخدع القراء عن نفسي ولاعن هذا الكتاب ، فإني لم أفكر فيه تفكيراً ولاقدرته تقديراً ، ولاتعمدت تأليفه وتصنيفه كما يتعمد المؤلفون ، إنما دفعت إلى ذلك دفعاً ، وأكرهت إليه إكراهاً ، ورأيتني أقرأ السيرة فتمتلىء بها نفسي ، ويفيض بها قلبي ، وينطلق بها لساني ، وإذا أنا أملي هذه الفصول » .

وأحسب أن نفسه امتلأت حقداً ، وقلبه فاض كرهاً ضد السيرة وصاحبها ﷺ ، وانطلق بها لسانه وإذا هو يهذر بهذه الفصول من الدس والتشويش .

وهو فيما كتب لم يستفد من كتب ومؤلفات ابن هشام ، والسهيلي ، وابن سعد ، والذهبي ، وابن القيم رحمهم الله وأسكنهم فسيح جناته ، ولم يتأثر بمنهج علماء الأمة الإسلامية في التحقيق ونقد سند الرواية ومتنها ، ثم يصوغ مايتوصل إليه من أخبار صحيحة بأسلوب عصري مشوق ... لم يفعل ذلك لأن الله سبحانه وتعالى لم يأذن لذرة من الاستقامة والأمانة أن تدخل عقله وتستقر في قلبه .

لقد كتب في السيرة متأثراً ب [جيرودو ، وبلوت ، وموليير ، وايسكولوس] ومقلداً لهم ، وإذا كان جسد طه حسين في القاهرة ، فعقله وقلبه وهواه في أوروبا ...

وليت طه حسين توقف عند اعتبار كتابته في السيرة صورة لاحياءالأدب القديم ، ووسيلة إلى اللذة والمتاع ، واستراحة من متاعب الحياة وصعوبات البحث والتحقيق .

كلا ... لم يتوقف طه عند هذا الحد وإنما أضاف قائلاً :

« هذه صحف لم تكتب للعلماء ولاللمؤرخين ، لأني لم أرد بها إلى العلم ولم أقصد بها إلى التاريخ . وأنا أعلم أن قوماً سيضيقون بهذا الكتاب ، لأنهم محدثون يكبرون العقل ، ولايثقون إلا به ، ولايطمئنون إلا إليه . وهم لذلك يضيقون بكثير من الأخبار والأحاديث التي لايسيغها العقل ولايرضاها . وهم يشكون ويلحون في الشكوى حين يرون كلف الشعب بهذه الأخبار ، وجدّه في طلبها ، وحرصه على قرائتها والاستماع لها .

وهم يجاهدون في صرف الشعب عن هذه الأخبار والأحاديث ، واستنقاذه من سلطانها الخطر المفسد للعقول . هؤلاء سيضيقون بهذا الكتاب بعض الشيء لأنهم سيقرأون فيه طائفة من هذه الأخبار والأحاديث التي نصبوا أنفسهم لحربها ومحوها من نفوس الناس .

وأحب أن يعلم هؤلاء أن العقل ليس كل شيء ، وأن للناس ملكات أخرى ليست أقل حاجة إلى الغذاء والرضا من العقل ، وأن هذه الأخبار والأحاديث إذا لم يطمئن إليها العقل ولم يرضها المنطق ، ولم تستقم لها أساليب التفكير العلمي ،

فإن في قلوب الناس وشعورهم وعواطفهم وخيالهم وميلهم إلى السذاجة ، واستراحتهم إليها من جهد الحياة وعنائها ، مايحبب إليهم هذه الأخبار ويرغبهم فيها ويدفعهم إلى أن يلتمسوا عندها الترفيه على النفس حين تشق عليهم الحياة ، وفرق عظيم بين من يتحدث بهذه الأخبار إلى العقل على أنها حقائق يقرها العلم وتستقيم لها مناهج البحث ، ومن يقدمها إلى القلب والشعور على أنها مثيرة لعواطف الخير ، صارفة عن بواعث الشر ، معينة على إنفاق الوقت واحتمال الحياة وتكالف العيش » اهـ .

فالسيرة النبوية ـــ كما يراها طه حسين ـــ للتسلية وإنفاق الوقت ، ولهذا فهو لايقدمها للعلماء ولا للمؤرخين ، ولم يخاطب بها العقل ولاالمنطق ، لأن أخبارها غير ثابتة ولايقبلها المنهج العلمي .

ومن المقدمة وحدها نعلم أن طه حسين [صاحب الشعر الجاهلي] لم يتغير ... لقد شهد على نفسه بالكفر والزندقة عندما زعم أن السيرة النبوية أسطورة لايقبلها عقل ولامنطق ، والأساطير تعني الأباطيل ... ومن الأمور التي يعلمها طه نفسه أن القرآن الكريم أهم مصدر من مصادر السيرة النبوية ، وقد وصلتنا بأدلة علمية لايرقى إليها شك ... وشهد بذلك الصديق والعدو .

نعم شهد بصحة السيرة المستشرقون من أمثال :[جون ديون بورت ، وريوروند باسورث سميث ، وتولستوي ، وكارليل ، ودينسون ، وجيمس متشنر ، وتوماس ، وكارادي ، وجارسون دي تاسي ... وغيرهم كثير جداً] .

والمسلمون يدرسون السيرة ليتأسوا برسول الله ﷺ في كل عمل من أعماله : في سلوكه وفي جهاده ، وفي دعوته ، وفي عبادته ... ولايدرسونها للمتعة والتسلية كما يفعل الملاحدة من أمثال طه حسين .

ولو اكتفيت بما قاله طه حسين في مقدمته لكان في ذلك أكبر دليل على كفره ، وحرصه على الكذب والافتراء والدس ... ولكن لابأس من المضي في عرض نماذج مما كتبه في كتابه [على هامش السيرة] .

الأساطير والخرافات :

قال طه :

« وأحب أن يعلم الناس أيضاً أني وسعت على نفسي في القصص ، ومنحتها من الحرية في رواية الأخبار واختراع الحديث » .

منح طه نفسه حرية الكذب ! ومن قبل قال لابنته كنت أكذب على أهلي وأخترع لهم القصص كما أكذب عليك الآن .

والطبع يغالب التطبع ، والكذب آفة الآفات ومن تمكنت منه هذه الخصلة الذميمة وصارت جزءاً من أخلاقه يصعب عليه أن يتخلى عنها .

وتظهر لنا شطحاته وأكاذيبه في كل صفحة من صفحات كتابه دون حياء ولاخجل . ونعرض فيما يلي طائفة منها زعم بأنها وقعت قبل بعثة المصطفى ﷺ :

ــ اخترع شخصية خيالية أسماها [كيمون] وأخذ ينسب إليه المعجزات وخوارق العادات .

قال بأن كيمون دعا على حية عظيمة ذات رؤوس سبعة فماتت في مكانها ، ورأى صبياً ضريراً سيء الحال فيدعو له وينهض الصبي مبصراً وليس به بأس ، ويشاهده الناس في حجرة مضيئة في الليل من غير مصباح ... وتحدث هذه الخوارق في قرى متعددة فيؤمن الناس به وعندما يكشف أمره يفر من القرية ... وأخيراً جاء إلى أهل بلد يعبدون نخلة فيسأل الله هلاكها فتأتي ريح عاصفة فتقتلع النخلة : (على هامش السيرة / ص : ٩٣ ــ ١٠١)

ــ يتحدث عن الفتى الفيلسوف [كلكراتيس] وأنه رأى أشعة ضئيلة تضطرب في هذه الظلمة فلاتستطيع أن تجلوها ولا أن ترقق من كثافتها ، ثم يسمع صوتاً غليظاً خشناً يقول له :

« عجبت للذين يريدون ولايفعلون ويعزمون ولايتممون ، ويقصدون إلى العراق وهمهم في الحجاز ، ويرحلون إلى [نسطور] وشفاؤهم عند الصبي العربي اليتيم » . (على هامش السيرة / ص : ٢٤٧)

ويبالغ طه حسين في الحديث عن الأساطير التي وقعت عند ولادة الرسول ﷺ ، وأثناء وجوده ﷺ عند مرضعته حليمة السعدية ، وخلال سفره في تجارة لخديجة ، وأن ميسرة [غلام خديجة] كان يرى شخصين يظلانه ﷺ يسعيان في الهواء سعياً رفيقاً ولايمشيان على الأرض ، تحسهما العين ولاتحققهما .

طه والشياطين :

لطه حسين أحاديث ومواقف كثيرة مع الشياطين . لقد حاول وهو في حداثة سنه أن يستحضر الجن ويطوعهم لمشيئته ، وأعد لهذه المحاولة عدتها من الطلاسم والأسباب لكنه فشل ، ويبدو أن بأس الشيطان كان أشد من بأسه .

وحدثنا في كتابه الأيام أنه كان إذا جن الليل وساد الظلام دب الخوف إلى قلبه ، وكثيراً ماكان يطمر وجهه بالغطاء الذي يتدثر به خوفاً من الشياطين .

ويبدو أنه فيما بعد أَلِفَ الشياطين وأَلِفُوه ، فأصبح بهم خبيراً ، ولهذا توسع في الحديث عنهم في كتابه [على هامش السيرة] فمنحهم سمات الأبطال الذين يؤدون دوراً بارزاً في أمور الكون ومجرياته .

حدثنا عن الشيطان الذي حضر خلاف قريش على الحجر الأسود ، وكان على شكل شيخ نجدي ، وعندما قبل الجميع حكم الأمين ﷺ ، وتناول الحجر الأسود بيديه الشريفتين ليضعه في مكانه ... تقدم الشيخ النجدي ليناول الأمين حجراً صغيراً يثبت به الركن الأسود ، فيأبى النبي ﷺ أخذه منه ويغضب الشيخ ، ويحاول أن يوقع بين الأمين وقومه ... لكنهم سخطوا منه وهموا أن يلحقوا به أذى ونظروا إليه فلم يجدوه . (على هامش السيرة / ص : ٣٣٧)

ولم يكتف طه برواية هذه القصة ، وإنما أخذ يصف لنا هذا الشيطان فقال : كان رجلاً شيخاً [ولماذا لايكون مستشرقاً أو من تلامذتهم] حسن الطلعة ، جميل المنظر ، وله سمة [هكذا يتخيله طه والحب يعمي قلب صاحبه] .

وفي موقف آخر يتصدر إبليس مؤتمراً للشياطين ، فينقل لنا الدكتور طه وقائع هذا المؤتمر لاتفوته منه كلمة واحدة :
ينقل لنا عميد مايسمى بالأدب العربي الكلمة التي افتتح بها إبليس المؤتمر ،

وتفاصيل الحوار الذي دار بينه وبين الأعضاء ، وكيف كان لأناثي الشياطين دور بارز ومشاركة فعالة في هذا المؤتمر ... وتحسب وطه يحدثك ويسهب في وصفه أنه كان أحد أعضاء المؤتمر ، بل وتحسب أنه كان المقرر فيه ، أو أن شيطانه قد عُمِرَ منذ ذلك العهد ووضع بين يدي صديقه الحميم محاضر الجلسة .

وفي موضع ثالث يحدثنا طه عن الشيطان الذي صادف عمرو بن هشام على هيئة شيخ أعرابي ، فما أن سمع عمرو صوته حتى توقف لاتقوى رجلاه على المشي ولاتطاوعانه على الحركة ... وتكررت اللقاءات بينهما ، فعمرو يرى الشيطان والناس حوله لايرونه ، يسمع كلامه ويتحدث إليه والناس لايسمعونه ولا يبصرونه ... وطه يسمع كلامهما ويتتبعهما ، ويدلف وراءهما إلى حجرة من بيت أبي جهل ، ومن داخل هذه الحجرة يكتب كل مادار بينهما من حوار ويحلق في هذه الأجواء وحول هذا اللقاء وحده في أكثر من أربعين صفحة من كتابه . (على هامش السيرة / ص : ٤١٢ ــ ٤٤٩)

ماأتفه الوقت عند طه ، وماأكثر العبث عنده !! وأحاديث طه عن مؤتمرات الشياطين التي عرضها بحماسة واندفاع تذكرنا بقوله جلّ من قائل :
﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ، ولو شاء ربك مافعلوه فذرهم ومايفترون ﴾ (١٧) .

لماذا هذه الأساطير ؟

أراد طه حسين أن يثبت في أذهان الناس القول بأن النبوة اعتقاد كان معروفاً في مكة ... وكان كل فتى في قريش يتطلع ويسعى ليكون صاحب هذا الفضل .

ومن فصول كتابه التي تحدث فيها عن نبي منتظر العناوين التالية :
كتب القساوسة والرهبان ، اليهود في المدينة ، بحيرى الراهب ، باخوم ، صاحب الحان ــ راهب الاسكندرية ، الفيلسوف الحائر ، نادي الشياطين .

---

١٧ ــ سورة الأنعام ، الآية : ١١٢ .

ومازال طه حسين يخترع القصص ، ويضخم الروايات حتى يظن القارىء ـــ الذي لاعلم عنده ـــ بأن كل من كان يعيش في مكة وماحولها كان يعلم بأن محمداً ﷺ سيكون نبياً رسولاً في هذه الأمة ، ويخلط هذه الأساطير بقوله : هناك أكثر من قرشي ادعى النبوة ، وكأن لسان حاله يقول : ولماذا لاتكون دعوة محمد [ﷺ] كغيرها من الدعوات التي ثبت عدم صحتها ؟!

ومزاعم طه غير صحيحة على الإطلاق ، فعبد المطلب عندما كان يتوقع أن يكون هذا الطفل ذا شأن ، ليس ضرورياً أن يكون هذا الشأن هو النبوة ، ولو كان ﷺ يستشرف النبوة لما ارتعدت فرائصه واشتد خوفه عند نزول الوحي عليه .

وطه حسين لم يأتنا بجديد ، وإنما ردد أقوال أساتذته المستشرقين ، وقد أشرنا لأقوالهم عند نقدنا لكتاب تاريخ التمدن الإسلامي لجورجي زيدان .

ومن جهة أخرى فلم يكن حديث طه حسين عن الأساطير التي اخترعها عفوياً كما زعم . لقد خلط ماصح من الروايات عن معجزات الرسول ﷺ ـــ وماذكره قليل جداً ـــ بما لم يصح ـــ وهو كثير جداً ـــ ثم قدمها للقراء على أنها أساطير لايقبلها عقل ولامنطق .

تحريف وتضليل :

على ندرة الصفحات التي خصصها طه حسين للحديث عن الرسول ﷺ وسيرته [١٨] العطرة ، فقد جاءت هذه الصفحات محشوة بالمغالطات والتناقضات ، والصفحات التي سلمت من التحريف كانت للمتعة والتسلية كما قال في مقدمته .

مثال : فعن زواج الرسول ﷺ من زينب بنت جحش يقول طه :

« ولكن الله يريد أن يلغي نظام التبني هذا ، وأن يرد الناس إلى أنسابهم ، وأن يدعوا الأبناء لآبائهم ، وإذا هو يمتحن في ذلك نبيه ، ويمتحن في ذلك زيداً ،

١٨ ـــ الحديث عن سيرة المصطفى ﷺ لايتجاوز خُمْسُ صفحات الكتاب ، وأسهب في بقية الكتاب في الحديث عن قريش قبل الإسلام ، وقساوسة مصر والشام وحمير ، ونصارى اليمن .

ويمتحن في ذلك المؤمنين الصادقين جميعاً . يلقي في قلب النبي حب زينب زوج زيد ، ويلقي في قلب زيد الانصراف عن زينب والنفور منها .

وهذه نفس محمد مضطربة أشد الاضطراب ، ممتنعة أشد الامتناع ، واجمة أشد الوجوم ، ترفض هذا الحب رفضاً وتزور عنه ازوراراً ، وإذا هي تنكره حتى على نفسها . ولكن الله يبدي ماتخفي ، ويعرف الناس ماتنكره ، وإذا زيد يريد أن يطلق امرأته والنبي ينهاه ويزجره ويحذره ..
ولكن الله بالغ أمره وممض إرادته ومتم حكمته ، وإذا النبي يتزوج زينب ، ويقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض في ذلك مايقولون . ولكن الحب الخاص بين زيد ومحمد يخرج من هذه المحنة ظافراً منتصراً كأنقى وأصفى مايكون ، وإذا الله ينزل في هذه المحنة قرآناً ويسمي فيه زيداً فيقول :
﴿ وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله ، وتخفي في نفسك ماالله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه ﴾ »(٥) .

وطه في عرضه لقصة زواج الرسول ﷺ من زينب يردد مزاعم المستشرقين الذين عجزوا عن ذكر رواية صحيحة في هذه المسألة .

لقد ذكر البخاري رضي الله عنه القصة مرتين في صحيحه ، وليس فيهما من أن زينب رضي الله عنها وقعت في قلب رسول الله ﷺ .

وأخرج ابن أبي حاتم هذه القصة من طريق السدي : أن الله أعلم نبيه أن زينب من أزواجه فكان يستحي أن يأمر بطلاقها (*) .

وقال الألوسي :
وللقصاص في هذه القصة كلام لاينبغي أن يجعل في حيز القبول ، ويجب صيانة النبي ﷺ عن مثله .

وقال الحافظ ابن كثير في تفسير قوله تعالى :
﴿ وتخفي في نفسك ماالله مبديه ، وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه ﴾ ذكر ابن أبي حاتم والطبري هاهنا آثاراً عن بعض السلف رضى الله عنهم أحببنا

---

٥ ــ سورة الأحزاب ، الآية : ٣٧ .
* ــ تفسير ابن كثير ٦ / ٤٠٩ طبعة الشعب .

أن نضرب عنها صفحاً لعدم صحتها فلا نوردها . ويعني ابن كثير زعمهم أن زينب وقعت في قلب الرسول ﷺ .

وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني :
« وردت آثار أخرى نقلها كثير من المفسرين لاينبغي التشاغل بها ... والذي كان يخفيه النبي ﷺ هو اخبار الله إياه أنها ستصير زوجته والذي كان يحمله على إخفاء ذلك خشية قول الناس : تزوج امرأة ابنه » (ه) .

ولو كنا نعلم أن لأقوال طه في هذه المسألة أهمية لسقنا أضعاف هذه الأدلة ، ولتتبعنا شبهات المستشرقين وطلابهم شبهة شبهة ... ولكنه أخبرنا في مقدمة كتابه بأنه منح نفسه حرية الكذب واختلاق القصص ، ولم يخاطب به العقول وإنما العواطف ، ولانريد إعطاءه أكثر مما وصف به نفسه ... ومع ذلك لابد لنا من ذكر الملاحظات التالية :

١ ــ في كتاب طه [الشعر الجاهلي] بالغ في المنهج العقلي المادي ، فاعتبر قصة إبراهيم وابنه إسماعيل أسطورة من الأساطير ، وزعم أن القرآن الكريم من وضع محمد ﷺ .

وفي كتابه [على هامش السيرة] بالغ في المذهب العاطفي الخيالي ... وفي هذا دليل على تناقض طه حسين واضطراب عقله .

٢ ــ قد يقول تلامذة طه حسين :
إن صياغة الأسطورة لاتعني أن الكاتب أصبح كذاباً ، فنقول لهم :

لماذا لم يكتب طه أسطورة عن المستشرقين وجامعاتهم ومناهجهم ، أو عن الفرعونية وآثارها ... ألم يجد مايسخر به غير سيرة المصطفى ﷺ . قال تعالى :
﴿ ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزءون ﴾ (١٩) .

ه ــ فتح الباري : ٨ / ٥٢٤ الطبعة السلفية .

١٩ ــ سورة التوبة ، الآية : ٦٥ .

٣ ـــ حشر طه حسين قصص الفراعنة المصريين بسيرة المصطفى ﷺ . ذكر قصة قيصر وحاكمه أندرو كليس ، ثم ذكر قصة الفيلسوف [كلكراتيس] ، وأسهب في الحديث عن القساوسة والرهبان الذين كانوا يتوافدون على مصر من سائر أصقاع الأرض .

وعندما وصل في حديثه إلى باخوم الذي زعم أنه أقام بمكة فترة من الزمن كأنه وجد كنزاً ثميناً فقال :
« والعجب أن أكثر المصريين يجهلون أن لهم في بناء الكعبة يداً ، وأنهم قد اشتركوا فيه » . (على هامش السيرة / ص : ٣٣٨)

وطبعاً فطه حسين يعتقد بأن المصريين أمة واحدة وأنهم من نسل الفراعنة ، والمسلمون ـــ في نظره ـــ مستعمرون لمصر كأي مستعمر فكيف نجمع بين القولين ؟!
٤ ـــ أساء طه للسيرة عندما سمى كتابه [على هامش السيرة] ، فأين هذا الكتاب من السيرة وعلومها ؟ وكم يكون يكون منصفاً لو أسماه [على هامش الشعر الجاهلي] ولكن أين طه والإنصاف ؟!

المبحث الخامس

الشيخان

ماذا أراد طه حسين من وراء تأليف كتاب عن أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ؟!
هل هو يحبهما فعلاً ، وهل فعل ذلك لوجه الله سبحانه وتعالى أم له أهداف أخرى ؟!
وكيف يجمع بين حبه لهما وجحوده بالقرآن الكريم الذي جعل منهما خير قادة أهل الأرض بعد أنبياء الله ورسله ؟!

هذا ماسنتولى الإجابة عليه في هذه الصفحات القليلة :

قال طه حسين عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه :
« والحمد لله الذي أتاح للإسلام عمر مثلاً أعلى للعدل والاستقامة [لاشك أن الرسول ﷺ هو المثل الأعلى وليس عمر] في الحكم والتفوق في أمره كله على من جاء ومن يجيء بعده من الخلفاء والملوك » . (الشيخان / ص : ١٢٩ و ٢٦٣)
وقال عنه في موضع آخر :
« لقد كان عمر قمة في عدله ومساواته وزهده ، وإن إسلامه كان فتحاً ، وهجرته نصراً ، وإمارته رحمة » . (الشيخان ص : ٣٨)

ومن قبل قال عن عمر في كتابه [في الشعر الجاهلي] :
« وقد ذكر الرواة أن عمر مر ذات يوم فإذا حسان في نفر من المسلمين ينشدهم شعراً في مسجد النبي ﷺ فأخذ بأذنه وقال :
أرغاءً كرغاء البعير ؟
قال حسان : إليك عني ياعمر ! فوالله لقد كنت أنشد في هذا المكان من هو خير منك . فيرضى عمر عنه ويمضي .

وفقه هذه الرواية يسير لمن يلاحظ ماقدمنا من أنّ الأنصار كانوا موتورين وأن عصبيتهم كانت لاتطمئن إلى انصراف الأمر عنهم ، فكانوا يتعززون بنصرهم للنبي ﷺ وانتصارهم من قريش ، وكان عمر قرشياً يكره عصبية أن تزدري قريش ، وينكر ماأصابها من هزيمة يعني في غزوة بدر » .

هذا كلام طه حسين عن عمر بن الخطاب في كتابه [في الشعر الجاهلي] ، وحاشا لله أن يكون الفاروق صاحب عصبية جاهلية . لقد كان يرى قتل أسرى بدر [وهم من قريش] وعدم قبول الفدية منهم ، وكان يتمنى أن يظفر بأخيه زيد أثناء المعركة ليقتله .

ومن جهة أخرى فالعصبية الجاهلية تتعارض مع روح الإسلام وجوهره ، وتتعارض مع وصفه له في كتاب [الشيخان] بأنه كان قمة في عدله ومساواته وزهده .

ولم يعلن طه عن تراجعه عما قاله عن عمر في كتابه في الشعر الجاهلي ، ولاندري كيف نوفق بين القولين ؟!

وليت تلامذة عميد مايسمى بالأدب العربي يفسرون لنا أسباب هذه التناقضات عند أستاذهم الكبير !!

التشكيك بالتاريخ الإسلامي :

تحدث المؤلف في مقدمة كتابه عن نواياه وأهدافه فقال :

« ... وأنا بعد ذلك أشك أعظم الشك فيما روي عن هذه الأحداث وأكاد أقطع بأن ماكتب القدماء من تاريخ هذين الإمامين العظيمين ، ومن تاريخ العصر القصير الذي وليا فيه أمور المسلمين ، أشبه بالقصص منه بتسجيل حقائق الأحداث التي كانت في أيامها .

وإذا كان من الحق أن النبي ﷺ نفسه قد كذب الناس عليه ، وكان كثير من هذا الكذب مصدره الاكبار والتقديس ، فلاغرابة في أن يكون اكبار صاحبيه العظيمين وتقديسهما مصدراً من مصادر الكذب عليهما أيضاً » .

وإذن فطه حسين اتخذ من الكتابة عن الشيخين ستاراً ليعبث في التاريخ الإسلامي كما يطيب له ، ويطعن بالرواة الثقات من أصحاب رسول الله ﷺ ومن جاء بعدهم من التابعين وتابعي التابعين رضوان الله عليهم أجمعين ... انظر إليه في المقدمة نفسها يتساءل بغباء مصطنع :
كيف يؤرخ هذه الأحداث من لم يشهدها ؟!

وعندما يأتيه الجواب المفحم : إن الذين شاهدوا هذه الأحداث بارك الله في أعمارهم فرووها للتابعين من العلماء المحققين . يقول مثيراً شبهة أخرى : « والذين يشهدون هذه المواقع ويشاركون فيها لايستطيعون أن يصفوها هذا الوصف الدقيق الصادق ، لأنهم لم يروا منها إلا أقلها وأيسرها ، لم يروا إلا ماعملوا هم وماوجدوا ، وقد شغلهم عما عمل غيرهم » .

وسبق أن سلطنا الأضواء على هذا الادعاء المتهافت عند حديثنا عن تدوين السيرة النبوية .
وفكّر طه ثم فكّر فلم يجد مايشكك به إلا قوله :
« إن الذين رووه ــ أي التاريخ الإسلامي ــ هم المنتصرون وحدهم ، بل من طريق الذين لم يشهدوا الانتصار بأنفسهم , وإنما نقلت إليهم أنباؤه نقلاً أقل مايمكن أن يوصف به أنه لم يكن دقيقاً . وهم لم يسمعوا أنباء هذا الانتصار من المنهزمين بين فرس وروم وأمم أخرى شاركتهم في الحرب وشاركتهم في الهزيمة فهم سمعوا صوتاً واحداً هو الصوت العربي ، وأيسر مايجب على المؤرخ المحقق أن يسمع أو يقرأ ماتحدث به أو كتبه المنهزمون والمنتصرون جميعاً » .

وردنا عليه من وجهين :
الوجه الأول : لقد كان الصوت المنتصر ضبطاً في نقله عدلاً في روايته ، ونحن نتحدى أصحاب طه في القديم والحديث وأن يقدموا منهجاً تفصيلياً كاملاً في تحقيق الأخبار التاريخية كذلك المنهج الذي قدمه علماء الأمة الإسلامية .
الثاني : لابل تحدث المنهزمون وكتبوا أكداساً ضخمة من الورق . ومن المنهزمين : اليهود ، والنصارى ، والمنافقون ، والباطنيون ، والشعوبيون ، والزنادقة ، وقد فعل هؤلاء الأفاعيل ، وكانوا وراء ثورة سفهاء الناس وأوباشهم ضد الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وأساتذة طه من المستشرقين

وغيرهم عيال على المنهزمين الذين حاولوا تشويه التاريخ الإسلامي وطمس حقائقه .
ولكن طه أحمق ، وحمقه أنساه الدروس التي تعلمها في باريس عن الدس والمراوغة وعدم مواجهة الحقائق بصراحة وحزم .

ويمضي طه — في فصول كتابه — في الدس والتشكيك بأهم روايات تاريخنا الإسلامي :
— فعن اجتماع سقيفة بني ساعدة يقول :
« ولست أطمئن إلى أكثر مايرويه الرواة من نصوص الحوار الذي كان بين أبي بكر وصاحبيه من جهة ، وبين الأنصار — أوسهم وخزرجهم — من جهة أخرى ، فهم يروون هذا الحوار رواية من شهد اجتماع القوم وسمع ماكان فيه من الأحاديث والخطب .
ثم لم يكتف بالسماع ، وإنما سجل ماقيل حرفاً حرفاً ، بل سجل حركات القوم وإشاراتهم . ولو قد استطاع لسجل نبرات الأصوات ، مع أن هذا الحوار وأمثاله لم يدون إلا بآخرة ، بعد انقضاء عصر الخلفاء الراشدين وصدر من ملك بني أمية .
ولم ينتقل هذا الحوار وأمثاله إلى القصاص والمؤرخين مكتوباً ، وإنما نقل إليهم مشافهة ، وصنعت فيه الذاكرة صنيعها ، وتعرض بعضه للنسيان ، وبعضه لتغيير اللفظ . وصنعت فيه الأهواء السياسية صنيعتها أيضاً » . (الشيخان / ص : ٣٨)
ليست مشكلة طه حسين مع حادث السقيفة ، أو مع مايروى عن أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ... وإنما مشكلته أعم من هذا وأعمق ... إن مشكلته مع القرآن الكريم — كما قد رأينا في الصفحات الماضية — ونبوة المصطفى ﷺ وماصح من أحاديثه .

ومشكلته أيضاً مع الصحابة رضوان الله عليهم ورجال خير القرون ، ومع التاريخ الإسلامي كله : في القديم والحديث . ومن الأدلة على ذلك مايلي :
— انظر إليه عندما ينقل خبراً متواتراً أجمعت الأمة على صحته يقول :
[يزعم الرواة] ، وكلمة يزعم تطبق على الخبر المشكوك فيه إذا ورد بهذه الصيغة .
— يسرد أخباراً صحيحة ويقول في التعليق عليها :
[وأنا بعد ذلك أشك فيما روي عن هذه الأحداث] .

[مع أن التكلف فيه ظاهر] .
[فلاحاجة إذن إلى أن تخترع الأحاديث لاثبات مالا حاجة إلى إثباته] .
ـــ ويقول عن الرواة المحققين من علماء الحديث ورجال خير القرون :
« ومايتبغي أن ننسى أن من الرواة من كانوا من الموالي الذين لم تبرأ قلوبهم من الضغن على العرب ، لأنهم فتحوا بلادهم وأزالوا سلطانهم ، ثم استأثروا من دونهم بالأمر أيام بني أمية .

وإذا كان الكذب قد كثر على رسول الله ﷺ فأي غرابة في أن يكثر على المؤمنين من أصحابه » . (الشيخان / ص : ٣٩)

نماذج من أباطيله :

١ ـــ عرض طه حسين الحوار الذي دار بين العباس بن عبد المطلب وعلي رضي الله عنهما حول الخلافة قبل وفاة الرسول ﷺ بقليل ثم قال معقباً على هذه الحادثة :
« فلاحاجة إذن إلى أن تخترع الأحاديث لاثبات مالاحاجة إلى إثباته ، كالحديث الذي يروى من أن العباس عرف الموت في وجه النبي ﷺ ، وكان يعرف الموت في وجوه بني عبد المطلب . والغريب أن الطبري يروي هذا الحديث من طريقين دون أن ينكر منه شيئاً مع أن التكلف فيه ظاهر » .
قلت : وليست الغرابة في رواية الطبري لهذا الحديث فقد رواه غيره :
ـــ رواه البخاري في صحيحه ـــ في كتاب المغازي ـــ .
ـــ ورواه ابن كثير من حديث الزهري عن عبد الله بن كعب بن مالك عن ابن عباس .
ـــ ورواه الإمام أحمد في مسنده .
ـــ ورواه القاضي أبو بكر بن العربي في عواصمه وبيّن أقوال العلماء المحققين فيه .
إذن ليست الغرابة في رواية الطبري له ، وإنما الغرابة كل الغرابة في رد طه لهذه الرواية دون الاعتماد على دليل علمي !!

أما قوله : [فلاحاجة إذن إلى أن تخترع الأحاديث ...] ففيه دلالة على أن الكذاب يظن بأن الناس جميعاً يكذبون ويخترعون الأحاديث والقصص .

وعندما أعيته الحجة لجأ إلى أسلوب آخر في الدفاع عن وجهة نظره ، فقال :
« وأعتقد أن علياً كان أكرم على نفسه وأشد حباً لرسول الله ﷺ من أن يقول هذه المقالة أو يفكر هذا التفكير » .

وقريب من هذا مايقوله شياطين الإنس ممن هم على شاكلة طه :
الإسلام دين عظيم وعقيدة رفيعة فلاتلوثوه بالسياسة والتنازع على السلطة ...
وهؤلاء من ألد أعداء الإسلام ، ولكنها كلمة حق يريدون بها باطل .
٢ ـــ وقال عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه :
« ويزعم الرواة أنه حين استسقى أخذ بيد العباس عم النبي [ﷺ] وتوسل به إلى الله ، وأنه لم يتم استسقاءه حتى أرسل الله الغيث . وواضح أن هذا تكلف مصدره التملق لبني العباس أثناء حكمهم » . (الشيخان / ص : ١٥١)

وهذا الحديث رواه البخاري في صحيحه عن أنس أن عمر خرج يستسقي وخرج بالعباس معه يستسقي به ، وقال :
« اللهم إنا كنا إذا قحطنا توسلنا إليك بنبينا فتسقينا ، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا ، قال : فيسقون » .

ورواه ابن كثير في البداية والنهاية [٧ / ١٦٢] ، وفصّل القول في شرح هذا الحديث شيخ الإسلام ابن تيمية في رسالته القيمة [التوسل والوسيلة ص ٦٤] .

وعلماء الحديث لايتملقون لأحد ، ولكن هذا ظن المنافق بغيره من الناس !!
٣ ـــ ومن خلال مايتظاهر به من تعظيم أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب والدفاع عنه ينكر أن يكون قد راجع أبا بكر معترضاً عليه لأنه أعلن الحرب على المرتدين .

قال طه :
« ويزعم الرواة أن عمر قد شرح الله صدره لقتال المرتدين حين رأى أن الله قد شرح لهذا القتال صدر أبي بكر . ولست أقبل هذه القصة بحال ، فوجوه المسلمين من أصحاب رسول الله [ﷺ] أعلم بدينهم من أن يجادلوا أبا بكر في الزكاة . ولم يكن عمر أقلهم علماً بالإسلام ، إلى ماعرف من شدة عمر

في الحق . ولم يكن عمر ولا أبو بكر قد عرفا هذا اللون من الجدل الذي ألفه الفقهاء والمتكلمون فيما بعد » . (الشيخان / ص : ٦٦)

ومراجعة عمر لأبي بكر صحيحة ، رواها البخاري ومسلم في صحيحيهما ، كما رواها أبو داود والترمذي والنسائي .

والرواية من حيث متنها صحيحة أيضاً . فقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يختلفون وتتعدد أقوالهم ... وكان أحدهم يذكّر الآخرين بحديث لرسول الله ﷺ في المسألة المختلف عليها ، فيتراجع الآخرون عن آرائهم ، ويصبح الحديث الصحيح حجة شرعية غير قابلة للاجتهاد ، ووجوه المسلمين والسابقون الأولون لايعرفون أحاديث رسول الله ﷺ كلها . أما قول طه حسين [ولست أقبل هذه القصة بحالٍ] فنحن لانهتم بقبوله لها أو رفضه ، وقد جحد ماهو أكثر أهمية منها عناداً وإصراراً على الباطل وتقليداً لأساتذته المستشرقين .

ولوغه في أعراض الصحابة :

شارك طه حسين جورجي زيدان وبروكلمان وغيرهما من المستشرقين في تجريح أصحاب رسول الله ﷺ ، فلمز أبا هريرة وسعد بن أبي وقاص ، وشتم معاوية بن أبي سفيان ، وأوغل في عرض سيف الله خالد بن الوليد ، ووجد في القصص التي اختلقها الباطنيون وغيرهم من أعداء الإسلام بغيته وضالته المنشودة للطعن بأعظم قائد عسكري بعد رسول الله ﷺ ، فتراه يذكر قصة قتل خالد لمالك بن نويرة ، واستدعاء أبي بكر له ثم يقول معقباً :
« وهذه القصة تبين لنا في وضوح ماأشرت إليه من عنف خالد وإسرافه في القتل ، وتظهر عن خلق آخر وهو حبه للتزوج ، وسنرى مظهراً آخر من مظاهر هذا الحب ، وتظهر لنا خلقاً ثالثاً لم يكن مقصوراً على خالد ، وإنما كان خلقاً معروفاً في عشيرته من بني مخزوم ، وهو العجب والخيلاء » . (الشيخان / ص : ٨٠)

ومازال هذا الظالم يتطاول على سيف الله خالد حتى جاء بأسطورة ترفع معظم أساتذته المستشرقين عن ذكرها . قال عن حروب خالد مع الفرس : « حلف في إحدى المواقع لئن أظفره الله على عدوه ليجدن في قتلهم حتى يجري

نهرهم بدمائهم . فلما انهزم العدو أمامه أمر المنادين ، فنادوا في الجيش أن تتبعوا الأسرى ولاتقتلوا منهم إلا من امتنع عليكم . فمضى المسلمون في تتبع المنهزمين حتى أخذوا منهم عدداً ضخماً ، وأراد خالد أن يبر بيمينه فصد الماء عن النهر وجعل يقدم الأسرى فيضرب أعناقهم في مجرى النهر يوماً وليلة حتى قال له القعقاع بن عمرو وآخرون معه ، وقد راعهم مارأوا من الإسراف في قتل الأسرى :

إن الدماء لاتجري ... فأجر الماء تبر يمينك . فلما أجرى الماء إلى النهر جرى ذلك النهر دماً ، فسمي نهر الدم » . (الشيخان / ص : ٨٧)

ومثل هذه الروايات لم يثبت شيء منها على الإطلاق ، ولم يذكر لنا طه حسين سند أية رواية لنناقشه ، وإنما اكتفى بمنهج غلاة الصوفية . « حدثني قلبي عن ربي » .

أما أسطورته الأخيرة فإضافة إلى عدم ثبوت سندها نقول :

- خالد بن الوليد لم تكن مدة قتاله مع الفرس طويلة . فقد أُمِرَ بالتوجه إلى الشمال .
- لم يقل لنا طه حسين كيف صد الماء عن النهر : هل كان يملك آلات حديثة ؟ كما أنه لم يقل لنا شيئاً عن اسم هذا النهر أو عمقه ؟
- هل كان يجهل خالد ماقاله له القعقاع وغيره ؟
- خالد بن الوليد رضي الله عنه كان قائداً مسلماً ملتزماً بدينه ، وامتثاله لأمر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في عزله — يوم اليرموك — وتولية أبي عبيدة مكانه غير خاف على طه حسين وغيره من أعداء الإسلام ... فكيف يريد منا عميد المنحرفين أن نصدّق أكاذيبه وأكاذيب المنافقين والرافضة في بطل صدّيق أعز الله به وبأمثاله دين الإسلام ؟

الخلاصة : لم يتحدث طه حسين في كتابه [الشيخان] عن سيرة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، وإنما اتخذ من ثنائه عليهما ستاراً لتحقيق أهداف منحرفة من أهمها :

- التشكيك بالأحاديث وبمنهج أهل السنة والجماعة في تحقيق الروايات .
- تطاول على الصحابة رضوان الله عليهم .
- اتهم الرواة المحققين من رجال خير القرون بكره العرب .
- هاجم الفتوحات الإسلامية من خلال اتهام بعض القادة بالقسوة ، وحاول التشكيك بالتاريخ الإسلامي كله .

وسلك في ذلك منهجاً لايحسد عليه :

فهو لايعرف فيما كتبه شيئاً اسمه التحقيق ، ويقيس الأمور بعقل وصفه من قبل بالتناقض والاضطراب ، ومع ذلك كان أسلوبه أقل شدة من كتبه السابقة ، ويبدو أنه أتقن فن المراوغة ، واستفاد من تجاربه السابقة ، وأدرك أهمية نصائح أساتذته المستشرقين .

المبحث السادس

الفتنة الكبرى

من أهم الأحداث المؤسفة في عهد الخلافة الراشدة مايلي :
ـــ ثورة السفهاء والمنافقين من الأمصار على ذي النورين الخليفة الثالث عثمان ابن عفان رضي الله عنه .

ـــ الحروب الدامية التي نشبت بين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما ، وماأسفرت عنها هذه الحروب من فتن ومصائب .

وقد وجد طه حسين في هذه الأحداث مادة خصبة لبث سمومه ، ونشر أفكاره الهدامة في كتابه [الفتنة الكبرِى] .

وسوف أعرض فيما يلي فقرات من هذا الكتاب ، ومن كتابيه : [الوعد الحق] ، و [مرآة الإسلام] لما بين هذه الكتب من تشابه في الحوادث والأشخاص والأمثلة التي يختارها .

وسأجد من يستغرب نقدي لهذه الكتب ، لاسيما وقد كتب عنها بعض الدعاة فبالغ في مدحها والإشادة بها ، وفَهِمَ من خلال قراءته لها أن طه قد هداه الله إلى الحق فتاب وأناب ، ويبدو أن إخواننا ـــ غفر الله لنا ولهم ـــ يقرأون بعض الكتاب دون بعضه الآخر ، أو يرجحون حسن النية في جميع أمورهم :

أولاً ـــ الخلافة ونظام الحكم في الإسلام :

يقارن طه حسين بين الخلافة في عهدي أبي بكر وعمر ، والخلافة في

عهدي عثمان وعلي رضي الله عنهم أجمعين فيقول :
« وسيرى الذين يقرأون هذا الحديث أن الأمر كان أجلّ من عثمان وعلي وممن شايعهما وقام من دونهما ، وأن غير عثمان لو ولي خلافة المسلمين في تلك الظروف التي ولي فيها عثمان لتعرض لمثل ماتعرض له من ضروب المحن والفتن ، ومن اختصام الناس حوله واقتتالهم بعد ذلك فيه .
وأكاد أعتقد أن الخلافة الإسلامية كما فهمها أبو بكر وعمر إنما كانت تجربة جريئة يوشك أن تكون مغامرة ، ولكنها لم تنته إلى غايتها ، لأنها أجريت في غير العصر الذي كان يمكن أن تجري فيه ، سبق بها هذا العصر سبقاً عظيماً » .

الخلافة في عهدي أبي بكر وعمر رضي الله عنهما كانت تجربة بل مغامرة كما يرى ويعتقد عميد المفسدين !! .

ويزعم أيضاً أن الشيخين نجحا في تحقيق العدل والحرية والمساواة لأنهما من أصحاب المواهب الفذة ، ترى أين هذه المواهب قبل تربية الرسول ﷺ لهما ؟!

ويستدرك طه فيرى أن تجربة الشيخين كانت محدودة ، ولم يكن الفاروق في آخر خلافته راضياً عن تجربته . انظر إليه يقول :
« سلكت الإنسانية في سبيل الحكم الصالح كل هذه الطرق ، وجربت كل هذه النظم ، فلم تنته إلى غاية ، ومازالت تشكو الظلم والجور ، وتضيق بالاستذلال والاستغلال ، وتبحث عن النظام القويم الذي يضمن للناس الحرية والعدل جميعاً . وهذا النظام القويم هو الذي حاولت الخلافة الإسلامية لعهد أبي بكر وعمر أن تنشئه ، فمات أبو بكر رحمه الله ولم يكد يبدأ التجربة ، وقتل عمر رحمه الله وقد خطا بالتجربة خطوات واسعة ولكنه لم يرض عنها ، فقد روي عنه أنه كان يقول في آخر خلافته : [لو استقبلت من أمري مااستدبرت ، لأخذت من الأغنياء فضول أموالهم فرددتها على الفقراء] » . الفتنة الكبرى : ١ / ٨

الخلافة الإسلامية ليست محاولة أو مغامرة أو تجربة كما زعم طه ... إنها نظام لم يعرف التاريخ له مثيلاً ، وقد حققت العدل والحرية والمساواة ، وكانت البداية منذ هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة وليس منذ بداية عهد أبي بكر رضي الله عنه ، ونجح الصديق في تطبيق النظام الإسلامي ، وكان مثالاً يحتذى به

بعد رسول الله ﷺ ، كما نجح الفاروق رضي الله عنه وقوله [لو استقبلت من أمري مااستدبرت] ليس فيه دليل على عدم نجاحه ، والأصل حكم المسلمين عليه وليس حكمه على نفسه في قضية من القضايا لأن الشعور بالتقصير أو بالخطأ من طبيعة أصحاب النفوس الأوابة إلى الحق . أما قول طه :

« إن الناس كانوا يعارضون حكم عمر لكنهم يخشون سلطانه ويخافون منه »

نعم لقد كان المنافقون والشعوبيون يعارضون حكم عمر رضي الله عنه ، أما قوله [كانوا يخشون سلطانه ويخافون منه] فيتعارض مع ماقاله في كتابه [الشيخان] ، وماقاله في كتابه [الشيخان] يتعارض مع ماقاله عنه في كتابه [في الشعر الجاهلي] !! حقاً إن طه كذاب وقح لايخجل من مثل هذه المواقف المتناقضة .

وبعد هذه المقدمات التي لابد منها ، تحدث طه حسين في فصل مستقل عن الحكم ونظام الخلافة فزعم بأن الحكم ليس إلهياً ، ولو كان كذلك لما أمر الله رسوله ﷺ باستشارة أصحابه ، كما زعم أنه لافرق في ذلك بين الإسلام والمسيحية :

« فليس بين الإسلام وبين المسيحية مثلاً فرق من هذه الناحية . فالإسلام دين يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويوجه إلى الخير ويصد عن الشر ، ويريد أن تقوم أمور الناس على العدل وتبرأ من الجور ، ثم يخلي بعد ذلك بينهم وبين أمورهم يدبرونها كما يرون مادامو يرعون هذه الحدود ، ولاتزيد المسيحية على هذا ولاتنقص منه ... » . (الفتنة الكبرى : ١ / ٢٧)

والذي أود التنبيه إليه أن طه يريد الانتهاء إلى النتيجة التالية : ليس في الإسلام نظام حكم ، والرسول ﷺ لم يكن رئيس دولة في المدينة ، وتجارب الخلفاء الراشدين باءت كلها بالفشل ... لكنه فضل المواربة والمخاتلة في عرض أفكاره ، وتجنب الوضوح والصراحة في ذلك .

وأهدافه لاتختلف عن أهداف علي عبد الرزاق وغيره من أعداء الإسلام ، وإن كان لكل أسلوبه الذي يمتاز به .

وعن نظام الحكم أيام النبي ﷺ يقول طه :

« لم يكن نظام الحكم إذن أيام النبي ثيوقراطية مقدسة ، وإنما كان أمراً من أمور الناس يقع فيه الخطأ والصواب ، ويتاح للناس أن يعرفوا منه وأن ينكروا وأن يرضوا عنه ويسخطوا عليه » .

ولايكتفي عدو الله بتشبيه نظام الحكم الإسلامي بالنصرانية التي لم تعرف الحكم وكان قائلهم يقول :
« دع مالقيصر لقيصر ومالله لله » . وإنما زعم عميد المفسدين أن هناك تشابهاً بين نظام الحكم الإسلامي بعد وفاة النبي ﷺ ، ونظام الحكم الروماني أيام الجمهورية ... ويعود بعد قليل فينكر هذا التشابه بين النظامين : الإسلامي والروماني ... وينتهي من هذه المخاتلة إلى القول : إن النظام الإسلامي ليس نظاماً إلهياً ، وإنما هو نظام إنساني تأثر بالدين !! ويقوم على عنصرين :
١ ــ « أحدهما معنوي وهو الدين الذي يأمر بالعدل والمعروف على الرعاة والرعية جميعاً » .

وهذا العنصر تلاشى بعد انتهاء خلافة الفاروق عمر بن الخطاب ، ولم يعد له وجود بعد وفاة أصحاب رسول الله ﷺ ، وحتى أصحاب رسول الله ﷺ تنافسوا وتقاتلوا على حطام الدنيا ــ على حد زعم طه ــ .
٢ ــ والعنصر الثاني : الأرستقراطية وقوامها القرب من رسول الله [ﷺ] ، فأصبح الحكم إلى قريش وحدها دون الأنصار الذين ليس لهم إلا حق المشورة ، والمشورة حق عام لكل مسلم ثم خطت قريش خطوة أخرى فنادت بتفضيل العرب على غيرهم من المسلمين .
ويقول عن قريش : إن استئثار قريش بالخلافة جرّ على المسلمين كثيراً من الفتن ، وأن هذين العنصرين [الديني والأرستقراطي] ماكان لهما أن يطاولا مر الدهر وتقلب الخطوب وتتابع الأحداث .

ويعتقد طه أن نظام الخلافة قد أخفق وتجربة الحكم الإسلامي انتهت بالفشل :
« ليس من شك في أن علياً قد أخفق في بسط خلافته على أقطار الأرض الإسلامية ، ثم هو لم يخفق وحده وإنما أخفق معه نظام الخلافة كله .
وظهر أن هذه الدولة الجديدة التي كان يرجى أن تكون نموذجاً للون جديد من ألوان الحكم والسياسة والنظام لم تستطع آخر الأمر إلا أن تسلك طريق الدول من قبلها . فيقوم الحكم فيها على مثل ماكان يقوم عليه من قبل من الأثرة والاستعلاء ونظام الطبقات ، الذي تستذل فيه الكثرة الضخمة ، لامن شعب واحد بل من شعوب كثيرة ، لقلة قليلة من الناس » . (الفتنة الكبرى : ٢ / ١٥٥)

ولنا على كلام طه حسين الملاحظات التالية :

١ ــ نظام الحكم في عهد النبي ﷺ جزء من الدين ، ومن جحده كان مرتداً وكذلك من شاقق رسول الله ﷺ من بعد ماتبين له الهدى . قال تعالى : ﴿ والنجم إذا هوى ماضل صاحبكم وماغوى ، وماينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى ﴾ (٢٠) .

٢ ــ وليس صحيحاً أن نظام الخلافة قد انتهى بانتهاء عهد الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم وأرضاهم.. لقد استمر نظام الخلافة طيلة عهد بني أمية ــ حماة الإسلام ودرعه الحصين ــ وطيلة عهد بني العباس .

ولم يهدم الخلافة غزو البرابرة التتار الذين فعلوا الأفاعيل في بلاد المسلمين ، ولامؤامرات الباطنيين الذين كانوا يتحالفون مع كل عدو للإسلام والمسلمين ...

ولم يهزم الخلافة أو يقوضها أيضاً الغزوات الصليبية التي دامت قرابة مائة عام رغم كل ماحشدوه من رجال وعتاد .

وبعد ثلاثة عشر قرناً نجح أعداء الله في هدم نظام الخلافة ، وفي تمزيق بلدان المسلمين واستعمارها . والخلافة اليوم مطلب ينشده المسلمون في مختلف بقاع الأرض ، وقد استعذبوا الموت والتشريد من أجل أن يكون الدين كله لله في هذه الأرض .

٣ ــ الإسلام لايعرف نظام الطبقات ، وإذا كان الله قد اختار العرب لحمل رسالة الإسلام ، ففضل الله جلّ وعلا يؤتيه من يشاء من عباده ، والمسلمون الطيبون لاينافسون العرب حقهم في الخلافة ، وهذا لايعني بحال من الأحوال أن العربي المسلم أفضل من الأعجمي المسلم ، ومن تناقضات طه أنه في مواضع أخرى يهاجم الشعوبية ويدغدغ عواطف القوميين العرب الذين هم على شاكلته .

---

٢٠ ــ سورة النجم ، الآيات : ١ ــ ٤ .

ثانياً ـــ موقفه من الصحابة :

أطلق طه حسين لسانه في أصحاب رسول الله ﷺ : شتماً وتجريحاً يكاد لايستثني من ذلك أحداً منهم .

ولاتسل عن أدلته ، فأدلته هواه ومافطر عليه من غلو وتطرف ، فأية رواية تعجبه من كتب الأدب أو التاريخ يتمسك بها ويعتبرها حقيقة ولو كانت أسطورة ، وإذا أعيته الحيلة انتحل شعراً ونسبه إلى صحابي جليل وزعم أنه يهاجم بهذا الشعر صحابي آخر .

يقول عن عمر بن الخطاب : لم يمت حتى ملته قريش لأنه كان بطاشاً . ويهاجم أبا بكر لأنه حصر الخلافة في قريش ، وعمر كان يعارضه بذلك ، ولو كان [سالم مولى أبي حذيفة] موجوداً لولاه عمر عند وفاته وهو ليس من قريش .

ويسهب في كتابه [الوعد الحق] في الحديث عن ظلم عثمان وطغيانه ، وأنه مازال يضرب ابن مسعود حتى كسر ضلعه ، وأشبع عمار بن ياسر ضرباً حتى أصابه الفتق وغشي عليه وفاتته صلوات الظهر والعصر والمغرب . ثم أفاق فتوضأ وصلاهن . (الوعد الحق : ١٧٠)

وعن طلحة بن عبيد الله يقول :
تأخر عن بيعة عثمان ثم بايعه ، ولما اشتد الخلاف كان من المؤلبين والمشاركين في حصار عثمان ، وكان يبحث عن الثراء فهلك وأهلك . ثم بايع علياً ونكث البيعة ثم هرب إلى مكة ، ومن مكة سار إلى البصرة لقتال علي عندما علم أن علياً لن يمكنه من الولاية وجمع المال ، وبعد أن اصطلح طلحة والزبير على هدنة مع عثمان بن حنيف عامل علي على البصرة عادا ونكثا الهدنة .

وعن الزبير يزعم أن علياً قال له قبل موقعة الجمل :
« كنا نعدك من آل عبد المطلب حتى نشأ ابنك ابن سوء ففرق بينك وبيننا » .

ولايصح شيء من هذه الأخبار ، فطلحة كان من الذين قال عنهم رسول الله ﷺ وهو على جبل حراء :

« اسكن حراء فماعليك إلا نبي أو صديق أو شهيد » (٢١) .

وقال ﷺ عن الزبير :
« لكل نبي حواري وحواري الزبير » (٢٢) .

وعن سبب سير عائشة رضي الله عنها إلى البصرة يقول :
« وكانت تنكر على علي فيما أعتقد [لاحظ قوله : فيما أعتقد وهذا يعني أن الحديث من الذاكرة] أمرين آخرين :
أحدهما : لم يكن لعلي فيه خيرة ، فقد تزوج فاطمة بنت رسول الله ورزق منها الحسن والحسين ، فكان أبا الذرية الباقية للنبي ، ولم يتح لها هي الولد من رسول الله [ﷺ] ، مع أنه قد أتيح لمارية القبطية أم إبراهيم في أواخر أيام النبي . فكان هذا العقم يؤذيها في نفسها بعض الشيء ، ولاسيما وهي كانت أحب نساء النبي إلى النبي ﷺ ، أما الأمر الآخر فهو أن علياً قد تزوج أسماء الخثعمية بعد وفاة أبي بكر رحمه الله ، وأسماء هي أم محمد ابن أبي بكر الذي نشأ في حجر علي ، فكانت عائشة تجد على علي لهذا كله » . (الفتنة الكبرى : ٢ / ٢٦)

ويصف صاحب الفتنة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها على جملها تخطب الناس وتحثهم على القتال بلسان زلق ، ومنطق عذب ، وحجة ظاهرة القوة ... وكل الذي قاله طه عن عائشة رضي الله عنها من نسج خياله وخيال من سبقه من اليهود والرافضة والمنافقين ... وحاشا لله أن تكون أم المؤمنين من النساء اللواتي يؤذيهن العقم أو أن تكون عدوة لأمير المؤمنين علي رضي الله عنه .

ويقول صاحب الفتنة عن نفر من أصحاب بيعة الرضوان أي عن مجلس الشورى الذي اختاره عمر بن الخطاب :
« فكل واحد منهم مخلصاً يرى أنه أقدر على احتمال العبء وأجدر أن يرعى ماينبغي له من حق ، وقد فوجىء المسلمون الذين كلفوا حراسة هؤلاء المشيرين مفاجأة أليمة حين رأوا هؤلاء المشيرين يختلفون في غير ائتلاف ، ويتنافسون في غير وفاق ، حتى قال أبو طلحة رئيس الحرسة :
لقد كنت من أن تدافعوها أخوف مني من أن تنافسوها » . (الفتنة

٢١ ــ رواه مسلم : ٤ / ١٨٨٠ // ٥٠ من فضائل الصحابة ــ طبعة عبد الباقي .
٢٢ ــ رواه مسلم : ٤ / ١٨٧٩ // ٤٨ من فضائل الصحابة ــ طبعة عبد الباقي .

الكبرى : ١ / ٦٠)

ماأفجر هذا الرجل وماأكذبه ، إن هؤلاء الذين يظلمهم قال تعالى عنهم : ﴿ لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم مافي قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً ﴾ (٢٣) .

وفي موضع آخر من فتنته يتهم الصحابة رضوان الله عليهم بالنفاق فيقول : « وكان الذين يعودون منهم إلى المدينة يلقون عمر فيتكلفون التجمل بسيرته ويحتالون في ألا يظهر على دقائق أمرهم وحقائقه . يلقونه مظهرين الشظف وغلظة الحياة وخشونة العيش ليرضى عنهم ويطمئن إليهم . فإذا خلوا إلى أنفسهم ، أو خلا بعضهم إلى بعض أخذوا بما ألفوا من لين الحياة ، وأشفقوا على عمر من حياته الخشنة تلك ، في كثير من الاكبار له والإعجاب به » . (الفتنة الكبرى : ٢ / ١٦٢)

ويعتقد طه أن بني أمية في عهد عثمان حكموا حكماً جاهلياً بعيداً عن الإسلام ، ويرى أن عثمان نكث عن بيعته لعبد الرحمن بن عوف ، وانحرف عن طريق صاحبيه .

وقال عن عمار بن ياسر :
« وربما جادل في أن عثمان قد قتل مؤمناً أو كافراً ... وقد خاصم الحسن ابن علي في ذلك . كان الحسن يرى أن عثمان مات مؤمناً ، وكان عمار يزعم أنه مات كافراً » . (الوعد الحق : ١٧١)

ولاأدري من أين جاء بهذه الرواية ، وكيف يجادل عمار الحسن بتكفير عثمان ، وهو يعلم مكانة عثمان عند رسول الله ﷺ ومن أجله كانت بيعة الرضوان ، وقد بشره رسول الله ﷺ بالجنة على بلوى تصيبه في حديث يرويه مسلم في صحيحه عن أبي موسى الأشعري .

وعن عمرو بن العاص يقول :
كان يكره بيعة علي لأنه لاينتظر من هذه البيعة منفعة أو ولاية أو مشاركة في الحكم ، ولهذا انضم إلي معاوية ، وكان ابنه عبد الله يرى أن أباه قد باع دينه

٢٣ ـــ سورة الفتح ، الآية : ١٨ .

بثمن قليل ، وفي موضع آخر من فتنته يتهمه بخراج مصر .

وعن معاوية يقول :
« وقد ضاق معاوية برجل عظيم الخطر من أصحاب النبي هو أبو ذر ... ولم يستطع أن يبطش به لمكانه من رضى رسول الله [ﷺ] وايثاره إياه ولسابقته في الإسلام . ولم يستطع أن يفتنه عن دينه بالمال » . (الفتنة الكبرى : ٢ / ٥٧)

وعن عمرو بن العاص ومعاوية يقول :
« وهنا يظهر عمرو بن العاص الذي لم يكن أقل دهاء ولاأدنى مكراً ولاأهون كيداً من معاوية » .

ومما قاله عن معركة صفين :
« فما أستبعد أن يكون الأشعث بن قيس ، وهو ماكر أهل العراق وداهيتهم ، قد اتصل بعمرو ابن العاص ، ماكر أهل الشام وداهيتهم ، ودبروا هذا الأمر بينهم تدبيراً » . (الفتنة الكبرى : ٢ / ٨١)

كل الأدلة التي اعتمد عليها في تقرير هذه النتيجة الخطيرة [فما أستبعد] ... فهل وُكِلَ هذا الفاجر الأشر بأمور لايعرفها علم التاريخ ؟
هل هو مسؤول عن تأريخ ماكانت تخفيه صدور الصحابة رضوان الله عليهم ؟!

وعن مروان بن الحكم يقول : إنه قاتل طلحة في موقعة الجمل .

ولايملك طه دليلاً. إن يتبع إلا الظن وماتهوى الأنفس . ومن جهة أخرى فطلحة ومروان كانا في صف واحد في موقعة الجمل فكيف توصل عميد المفسدين إلى هذه النتيجة ؟

ويقول عن بني أمية بشكل عام :
كانوا من الطلقاء ... وقد دخلوا الإسلام بعد أن غلبوا على أمرهم ... ثم عادوا إلى جاهليتهم مرة أخرى ، ومن الذين كفروا بعد إسلامهم ـــ على حد قول طه ـــ :
مروان بن الحكم ، والوليد بن عقبة ، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح .

الخلاصة :

١ ـــ ليست هذه المرة الأولى التي يهاجم فيها طه حسين أصحاب رسول الله ﷺ ... فقد سبق أن هاجمهم مرات ومرات في معظم كتبه ، وقد عرضنا في الصفحات الماضية أمثلة على ذلك من كتابه [الشيخان] .

٢ ـــ أما أهدافه فنوجزها فيما يلي :
عندما زعم بأن الخلافة تجربة فاشلة ، وقد انتهت بوفاة عمر بن الخطاب رضي الله عنه لابد له من الحديث عن رجال الخلافة ، وأصحاب رسول الله ﷺ بشكل عام محاولاً إزالة تلك الصورة المشرقة الوضاءة التي يحملها الناس عنهم .
ولهذا أسهب في الهجوم عليهم : فزعم بأن بعضهم منافقون وقد عادوا إلى الجاهلية مرة أخرى بعد رسول الله ﷺ [وهو لايقصد المرتدين] . وبعضهم الآخر استأثروا بالحكم ، وأقبلوا على متاع الدنيا فأثروا إثراءً فاحشاً .

وإذا كانت الخلافة تجربة ثبت فشلها ، وإذا كان جيل الصحابة أفضل وأطهر ممن جاءوا بعدهم فعودة الخلافة غير ممكن على الإطلاق .

٣ ـــ اعتمد طه حسين في كل ماذكره عن الصحابة على روايات لاأصل لها ، وكان قد رد روايات صحيحة ، وبعضها بلغ حد التواتر ، والأسباب التي رد فيها الروايات الصحيحة تنطبق على الروايات الملفقة ، وهذا هو شأن أصحاب الأهواء والبدع .

وماكتفى بالروايات التي لاأصل لها ، وإنما كان يكثر من القول : ومأستبعد ، وأظن ، وأضمر بنفسه [أي الصحابي] ، وبعد هذه الكلمات يترك المجال لخياله الخصب ثم يسجل خواطره الشريرة ويزعم أن هذا من التاريخ .

٤ ـــ من يقرأ ماكتبه طه عن بني أمية ـــ سواء كانوا من الصحابة أو من التابعين ـــ يظن أنه من غلاة الرافضة أو من الشعوبيين .

ومن يقرأ ماكتبه عن العلماء المحققين من رجال خير القرون يظن أنه من أعلام دعاة القومية العربية . وهو ليس من هؤلاء ولا من أولئك ، وإنما ينقل عن الجميع مايتفق مع أهوائه وحقده على الإسلام والمسلمين .

ثالثاً ــ دفاعه عن الملاحدة :

قال طه في مقدمة فتنته :
« وأنا أريد أن أنظر إلى هذه القضية نظرة خالصة مجردة ، لاتصدر عن عاطفة ولاهوى ، ولاتتأثر بالإيمان ولابالدين ، وإنما هي نظرة المؤرخ الذي يجرد نفسه تجريداً كاملاً من النزعات والعواطف والأهواء مهما تختلف مظاهرها ومصادرها وغاياتها » . (الفتنة الكبرى : ١ / ٥)

هذا ماوعد طه به قراؤه في مقدمة فتنته ، وقد صدق في واحدة وكذب في الأخرى :
صدق في نفي التأثر بالدين عن نفسه ، ومن يقرأ فتنته وجميع كتبه يعلم سوء نيته وخبث طويته وشدة عداوته للإسلام والمسلمين .

وكذب في ادعائه الإخلاص والتجرد من النزعات والعواطف والأهواء ، وقد ذكرنا فيما مضى أدلة كثيرة تؤكد كذب ماادعاه ، وسنبين فيما يلي أدلة أخرى من خلال عرضنا لبعض مواقفه من الملاحدة والمشركين .

يقول في دفاعه عن السفهاء والأوباش الذين فجروا الفتنة ، وثاروا ضد عثمان بن عفان رضي الله عنه :
« فسياسة عثمان في العزل والتولية لم تكن ملائمة للعهد الذي أعطاه . وليس من شك في أن الذين ضاقوا بهؤلاء العمال ، وثاروا عليهم ونقموا من عثمان توليتهم لم يكونوا مخطئين » . (الفتنة الكبرى : ١ / ١٨٩)

ويقول عن عبد الله بن سبأ :
« إن أمر السبئية وصاحبهم ابن السوداء ــ أي عبد الله بن سبأ ــ إنما كان متكلفاً منحولاً ، قد اخترع بآخرة حين كان الجدال بين الشيعة وغيرهم من الفرق الإسلامية . أراد خصوم الشيعة أن يدخلوا في أصول هذا المذهب عنصراً يهودياً إمعاناً في الكيد لهم والنيل منهم . أما أنا فلاأعلل الأمرين إلا بعلة واحدة وهي أن ابن السوداء لم يكن إلا وهماً » (الفتنة الكبرى : ٢ / ٩٠ ــ ٩١)

وفي دفاعه عن ابن سبأ وغيره من الغلاة الذين استجابوا له وآمنوا بأفكاره الشاذة :

« فابن السوداء لم يخرج مع علي إلى الشام ، وأصحاب ابن السوداء خرجوا معه ولكنهم كانوا أنصح الناس له وأوفى الناس بعهده ، وأطوع الناس لأمره . لم يتمردوا ولم يسعوا بالفساد بين الخصمين ، وإنما سمعوا وأطاعوا وأخلصوا الإخلاص كله ، حتى رفعت المصاحف خرج بعضهم مع المحكمة الذين أنكروا الصحيفة ومافيها ، كحرقوص بن زهير ، وأقام بعضهم على طاعة علي ، وإن أنكر الصحيفة وكره الحكومة كالأشتر » . (الفتنة الكبرى : ٢ / ٩٠)

ويعتقد طه أن جذور الخلاف نبتت بدون ابن سبأ ، والخلاف بين الصحابة أقوى من أن يحتاج لمثل ابن السوداء ، ثم يتسائل : أكان لابن سبأ أن يجد مجالاً لبث أفكاره بين من هم أكثر منه علماً ودراية بأحكام الإسلام ؟!

تعليق :

١ ــ يعتقد طه بأن ابن السوداء وأصحابه كانوا أنصح الناس لعلي ، وأوفى الناس بعهده ... ومما قاله في وصفهم أيضاً :
لم يسعوا بالفساد بين الخصمين ، وإنما سمعوا وأطاعوا وأخلصوا الإخلاص كله .

ومن قبل زعم بأن السوء والفساد جاء من جهة الصحابة لم يستثني منهم أحداً ، كما أنه لم يتهم من أصحاب ابن السوداء بالسوء والفساد أحداً .

وهذه منه شهادة من محب متيم لأحبائه ، وقد أعماه هذا الحب عن حقائق التاريخ ، وعما ادعاه من تجرد وإخلاص .
٢ ــ ردد مقولة الرافضة بأن ابن سبأ شخصية خيالية وهمية ، وقال بكل صفاقة :
أراد خصوم الشيعة أن يدخلوا في أصول هذا المذهب عنصراً يهودياً إمعاناً في الكيد لهم والنيل منهم .

وكل الذي قاله طه في هذه المسألة :
إن صاحب الطبقات لم يذكر اسمه . وهذا منه خطأ فادح فليس من منهج ابن سعد التوسع في مثل هذه الأمور .

وإذا كان ابن سعد لم يذكره ، فقد ذكره الطبري في تاريخه ، وورد ذكره في البداية والنهاية ، والكامل في التاريخ لابن الأثير ، ولسان الميزان ، وتهذيب ابن عساكر ، وابن خلدون في تاريخه .

وذكره آخرون من العلماء المحققين ، كما ورد ذكره في أمهات كتب الشيعة ومن أهمها :
رجال الكشي ، وعلل الشرايع ، والفقيه ، وتهذيب الأحكام [٢٤] .

ومما لاشك فيه أن الرافضة أكذب من طه حسين وأشد حرصاً منه على إنكار شخصية عبد الله بن سبأ .

٣ ـ تسائل طه بخبث :
أكان لابن سبأ أن يجد مجالاً لبث أفكاره بين من هم أكثر منه علماً ودراية بأحكام الإسلام ؟!

ويعلم طه أن ابن سبأ بث أفكاره بين دهماء الناس وعامتهم ، وليس بين الصحابة ، وهؤلاء الدهماء كان لهم دور مؤسف في قتل عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وفي معركتي صفين والجمل ومأأعقبهما من نكبات ومصائب .

وأراد عميد المفسدين من وراء هذا السؤال الانتهاء إلى النتيجة التالية : لاحاجة لمخرب يمشي بين الصحابة ، لقد كان الخراب قد استحوذ عليهم وراحوا يقاتلون بعضهم بعضاً عن قصد وتصميم لاعن خطأ أو وشاية .

وفي دفاعه عن الزنادقة يقول :
« ومن الخلفاء العباسيين من غلا في امتحان بعض الناس وأسرف في قتلهم ، يأخذ بعضهم بالشبهة والوشاية وسوء القالة ، كالذي صنع المهدي في تتبع الزنادقة » . (مرآة الإسلام / ص : ٢٩٢)

---

٢٤ ـ أبو هريرة وأقلام الحاقدين ، لمؤلفه عبد الرحمن عبد الله الزرعي ، دار الأرقم ، الكويت ـ ص : ٨٨ .

وفي دفاعه عن الحلاج [٢٥] يقول :
« وكذلك الأمر كلما اتصل رجال الدين ، والغلاة منهم في الرأي ، بالسلطان وسيطروا عليه .
فقد أشرنا آنفاً إلى الحلاج وقتله وصلبه » . (مرآة الإسلام : ٢٩٠)

ودافع طه أيضاً عن الزنج والقرامطة وزعم أنهم ثوار ضد الخلفاء الظلمة ، وأنهم مصلحون وشعارهم كان العدل والمساواة ... ثم يجد نفسه مضطراً بعد أسطر قليلة إلى الاعتراف بانحراف هاتين الثورتين .

وبعد : لقد قطع طه عهداً على نفسه في بداية كتابه أن يكون حيادياً متجرداً في بحثه ، ولكنه خان العهد كعادته ، ولم يستطع التخلي عن عواطفه نحو الزنادقة والملحدين أمثال : القرامطة ، والزنج ودعاة الحلول ووحدة الوجود ، ونحن لانستطيع التخلي عن عواطفنا ومحبتنا لأنبياء الله ، وأصحاب خاتم الأنبياء ﷺ ، وعموم الدعاة والمصلحين في كل عصر ومصر ، ويعلم الله أننا ماقلنا إلا مانعتقد أنه حق أماطه فلايعرف إلى الحق سبيلاً ، ويحشر المرء مع من أحب .

---

٢٥ ـــ هو الحسين بن منصور الحلاج ، كان جده مجوسياً من أهل فارس ، حكي عن غير واحد من العلماء إجماعهم على قتله ، وأنه قتل كافراً ، وكان مشعوذاً متلوناً ، ومازال يضل الناس ويموه عليهم حتى ادعى الربوبية ، فسجن في بغداد ، وأجمع الفقهاء على كفره وزندقته وأنه كان ممخرق ، قتل ببغداد بعد فتوى الفقهاء . (البداية والنهاية باختصار ١١ / ١٣٨)

الباب الثالث
المدرسة الإصلاحية

الفصل الأول : أضواء على سيرة
مؤسس المدرسة الإصلاحية
الفصل الثاني : موقف الإصلاحيين
من الخوارق والمعجزات
الفصل الثالث : نقد منهج الإصلاحيين
الفصل الرابع : ردود على شبهات
فصل في التحذير من مناهج ومؤلفات أخرى

الفصل الأول

أضواء على سيرة مؤسس المدرسة الإصلاحية

تمهيد :

مما لاشك فيه أن مؤسس المدرسة الإصلاحية وأستاذها الأول جمال الدين الأسد آبادي الفارسي الذي اشتهر بين الناس بالأفغاني ، ويُعد جمال الدين من أبرز رجالات العصر الحديث وأكثرهم شهرة ، وقد اختلف الناس في أمره اختلافاً كبيراً جداً :

اختلفوا في موطنه وولادته : هل هو أفغاني كما زعم ، أم إيراني ؟!

واختلفوا في مذهبه : هل هو شيعي رافضي أم سني حنفي ؟!

واختلفوا في تصوراته ومعتقداته : هل هو داعية مصلح أم هو ملحد مفسد ؟!

واختلفوا في أهدافه وغاياته : هل يهدف إلى وحدة الأمة الإسلامية ، أم يهدف إلى تكريس الفرقة والتجزئة بين بلدان العالم الإسلامي ؟!

وقبل كتابة هذا البحث استمعت إلى أقوال من أعرف من الذين يدافعون عن جمال الدين الأفغاني وصحبه ، وقرأت كثيراً من الكتب والمؤلفات التي كتبها أنصار المدرسة الإصلاحية وخصومها ، ثم وازنت بين هذه الأقوال ، وفكرت طويلاً قبل الانتهاء إلى نتيجة محددة ، ولم أتأثر بأقوال دعاة الجمود والتقليد الذين يقيمون النكير على كل من يدعو إلى التجديد والإصلاح ، ولم أعتمد على كتبهم ومقالاتهم ، وإنما اعتمدت على كتب ومؤلفات رواد هذه المدرسة وتلامذتهم وسائر المعجبين بهم .

ومن الجدير بالذكر أن هذا البحث قاصر على نقد منهج رواد هذه المدرسة فيما كتبوه عن سيرة رسول الله ﷺ ومعجزاته مع استطرادات قليلة وموجزة

يقتضيها الحال ، ومن ذلك ماذكرته عن حياة جمال الدين ومغامراته .
وبعد البحث والتنقيب ترجح عندي الأمور التالية :

نبذة عن حياة الأفغاني :

ولد جمال الدين عام ١٢٥٤ هـ الموافق ١٨٣٨ م في همدان — من أعمال إيران — في قرية [أسد آبادي] ، ومن أسرة شيعية ، ودرس في قزوين حيث كان والده يدرس فيها ، ثم انتقل به أبوه إلى طهران وعمره ١٢ سنة ، وجالس كبار علمائها وأخذ عنهم العلم ، ثم رحل إلى النجف مع والده ... فمكث فيها أربع سنوات درس فيها العلوم الشرعية ، والفلسفة ، والمنطق ، والرياضة ، وعلم النجوم ، والطب ، والكيمياء . وأنهى دراسته في النجف وعمره لايتجاوز ١٦ سنة .

وعرف أساتذته فيه النباهة والذكاء ، وحسده كثير من أترابه .

ومما ينبغي التأكيد عليه أن جمال الدين كان شيعياً ، وقد أُعِد في النجف ليلعب دوراً خطيراً بين أهل السنة في العالم الإسلامي ، ومن أدلتنا على ذلك مايلي :

١ — بدأ دراسته في قزوين ، وهي من مدن الشيعة في إيران ، وكان والده أحد المدرسين في مدارس قزوين ، ثم انتقل به إلى طهران .

ويتحدث جمال الدين عن هذه المرحلة ، ويعترف بأنه لبس العباءة والعمامة ، وتتلمذ على يد أكبر علماء الشيعة فيها [آقاخان صادق] .

واعترف جمال الدين أيضاً بأنه انتقل إلى العراق ليتابع دراسته في العتبات المقدسة — أي في النجف — والتي يؤمها طلاب العلم من جميع بلدان العالم الإسلامي التي يسكنها الشيعة .

٢ — من أشهر أساتذة جمال الدين :
آقاخان صادق ، مرتضى أحد مرجع الشيعة في النجف ، ميرزا محمود المجتهد ، الحافظ دراز ، حبيب الله القندهاري ... وهؤلاء جميعهم من مراجع الشيعة وآياتهم المعروفين في تلك المرحلة الزمنية .

٣ ــ قال الشيخ مصطفى عبد الرزاق (١) :
« اتفق من ترجموا للسيد جمال الدين على أن اسمه محمد جمال الدين واسم أبيه صفدر . وقد حرف هذا الإسم من كتبوا ترجمته بالعربية فقالوا : صفتر .

وصفدر لفظ فارسي من ألقاب الإمام علي ، مركب من كلمة [صف] العربية و[در] وصف من فعل دريدان الفارسي بمعنى افترس أو اقتحم .

ويجزم الشيخ مصطفى بأن محمد عبده يعرف بأن جمال الدين فارسي الأصل :
« ويدل على هذا قول الشيخ محمد عبده في فاتحة تعريبه لرسالة الرد على الدهريين :
[يحملني على ذكر شيء من سيرة هذا الرجل الفاضل مارأيناه من تخالف الناس في أمره وتباعد مابينهم في معرفة حاله ، وتباين صوره في مخيلات اللاقفين لخبره ، حتى كأنه حقيقة كلية تجلت في كل ذهن بما يلائمه ، أو قوة روحية قامت لكل نظر بشكل يشاكله] .

ويرى ــ أي الشيخ محمد عبده ــ أن السيد جمال الدين وإن كان في الحقيقة فارسياً فقد انتسب إلى الأفغان لأمرين :
آ ــ أن يكون من السهل عليه الظهور بمظهر السني لاالشيعي .
ب ــ أن يستطيع الخلاص من رقابة الحكومة الإيرانية لرعاياها في الخارج .
٤ ــ نشرت مجلة المقتطف نص رسالة أرسلها جمال الدين إلى صديقه الحاج حسن مستان الداغستاني في ١٥ ديسمبر ١٨٨١ م ، ولم تزل هذه الرسالة محفوظة عند صهر السيد الداغستاني العلامة الفارسي المرزا عبد المهدي فلاح الأصفهاني من الجالية الإيرانية في الإسكندرية ، وقد أوصاه جمال الدين بنشر الرسالة المذكورة بعد موته . وهذا نصها :
« ... إننا نأسف لحال الإيرانيين الذين ساقهم الظلم إلى هجران وطنهم ، وطلب وطن آخر فيه يرزقون ...

---

١ ــ هو مصطفى بن حسن بن أحمد عبد الرزاق ، كان وزيراً للأوقاف ، ثم شيخاً للأزهر ، ولد في [أبي جرج من قرى المنيا] سنة ١٣٠٢ هـ ، وكان من تلامذة الشيخ محمد عبده ، تخرج بالأزهر وأكمل دراسته في باريس ، وتوفي سنة ١٣٦٦ هـ . (عن الأعلام للزركلي ٨ / ١٣١)

ياصديقي المحترم إن ماذكرته الآن في هذه الرسالة هو مثال لحال إيران العمومية الحاضرة وقيسوا عليه مالم يذكر ، فيظهر لكم أن كل مصائب بلادنا الظلم لاسواه ...

التوقيع : جمال الدين الأفغاني

ثم يعلق عبد المهدي فلاح الأصفهاني المذكور آنفاً على هذه الرسالة المنشورة في المجلة فيقول :

« إن مشاهير الأحرارالايرانيين اضطروا في عهد الشاه ناصر الدين وعماله إلى هجر وطنهم والالتجاء إلى البلاد الشرقية الإسلامية ، هرباً من الظلم ، فلقب بعضهم — كالسيد جمال الدين — بالأفغاني ، وهو في الحقيقة إيراني صميم من بلدة أسد آباد من ولاية همذان في إيران ، كما أن صديقه الداغستاني من بلدة مراغة في ولاية تبريز بإيران » .

٥ — قال قدري قلعجي :

« حدثنا صديقنا الشاعر العراقي الكبير أحمد الصافي النجفي أنه لما لجأ إلى طهران خلال الثورة العراقية الأولى التي انتهت بتتويج الملك فيصل على العراق سنة ١٩١٩ م نزل في دار الحاج حسين آغا بن الحاج محمد حسن آغا الذي كان يعرف بأمين الضرب — أي أمين صك النقود — والذي يعرف اليوم بعد إلغاء الألقاب القديمة بالمهدوي ، وكان بيته ملجأ للثوار العراقيين اللاجئين إلى إيران ومنهم الميرزا محمد رضا ابن المجتهد الأكبر الميرزا أحمد رضا الشيرازي الذي أفتى بمحاربة الإنجليز في الثورة العراقية الأولى . وقد أخبره مضيفه أن السيد جمال الدين كان قد أقام في ضيافة أبيه حين قدم إلى إيران سنة ونصفاً ، وكان هو يومئذٍ شاباً فدرس عليه العربية ، وهو مايزال يحتفظ بالنصوص التي كان يترجمها له السيد من الفارسية إلى العربية أو بالعكس ، وقد أكد الحاج حسين آغا للأستاذ الصافي خلال ذلك الحديث أن السيد فارسي الأصل وهو من قرية أسد آباد وأسرته معروفة هناك » .

وقد قام قدري قلعجي برحلة إلى بلاد فارس وتأكد من وجود هذه الأسرة في إيران . وجاء في كتابه [جمال الدين الأفغاني] :

« قد أردت أن أتحقق من هذا خلال رحلة قمت بها إلى إيران في خريف ١٩٥١ م فإذا الإيرانيون مجمعون على أن السيد جمال الدين إيراني عريق ، واطلعت على كتاب فارسي عنه بعنوان [السيد جمال الدين الأسد آبادي

المعروف بالأفغاني] . وتعرفت في أسد آباد على أناس يؤكدون أنهم من أسرته ويسمى واحدهم [جمالي] نسبة إلى السيد » اه .

٦ ـــ قال الدكتور علي الوردي :

« إني بعد الدراسة التي قمت بها في هذا الموضوع أميل إلى الرأي الأول أي أن الأفغاني كان إيرانياً ولم يكن أفغانياً . وقد دفعني إلى هذا الرأي قرائن شتى أذكر أهمها فيما يلي :

آ ـــ هناك في قرية أسد آباد الإيرانية أشخاص كثيرون يدعون أنهم أقرباء جمال الدين وتعرف هذه القرية عند أهل القرى المجاورة ب [قرية جمال الدين] ولاتزال الغرفة التي ولد فيها الأفغاني باقية على حالها حتى الآن . وأعرف صديقاً قد زار قرية أسد آباد قبل الحرب العالمية الثانية واجتمع بأخت الأفغاني فيها . ويعيش في النجف اليوم رجل دين مسن اسمه السيد حسن الحسيني الهمذاني وهو يدعي أنه حفيد عم الأفغاني ، وقد زرته في أيلول ١٩٦٩ م في الدار التي قيل أن الأفغاني كان يسكنها عندما كان طالباً في النجف ، وليس هناك مايدل على أن هؤلاء جميعاً يكذبون .

ب ـــ صدر في برلين عام ١٩٢٦ م كتاب بالفارسية في سيرة الأفغاني بقلم المرزا لطف الله خان ويدعي المؤلف أنه ابن أخت الأفغاني ، وأنه اجتمع به في طهران عند ذهاب الأفغاني إليها عام ١٨٨٦ م ويحتوي الكتاب على صور فوتوغرافية واضحة تجمع الأفغاني والمرزا لطف الله خان مع زمرة من رجال الدين الإيرانيين ، وقد ترجم الكتاب إلى العربية في مصر عام ١٩٥٧ م ومن يقرأ الكتاب يشعر أنه لابد أن يحتوي على شيء من الحقيقة قليلاً أو كثيراً إذ من المستبعد أن يختلق المؤلف صلته القريبة بالأفغاني على هذه الصورة المكشوفة . وإذا كان الأفغاني أفغانياً حقاً فلماذا لم يظهر أحد من أقربائه الأفغانيين حتى الآن فيكذب المؤلف أو يتحداه على وجه من الوجوه ؟

ج ـــ عندما اشتد العداء أخيراً بين الشاه والأفغاني أخذ أعوان الشاه يشوهون سمعة الأفغاني فأشاعوا عنه أنه بابي وأنه غير مختون ، ولكنهم لم يشيعوا عنه أنه سني أو أفغاني وكان من السهل عليهم أن يفعلوا ذلك لو كان الأفغاني أفغانياً حقاً .

د ـــ المعروف عن الأفغاني أنه كان أثناء تجواله في الأقطار المختلفة يتصل بالإيرانيين وقد ينزل في ضيافتهم أحياناً ، فهو عند مروره بقفقاسيا نزل في ضيافة محمد علي خان الكاشاني ، وفي موسكو نزل في ضيافة القنصل الإيراني وعند

ذهابه إلى البصرة كان كثير التردد على السيد توفيق الهمذاني يزوره في داره الواقعة على نهر العشار ويأكل عنده الكليجة الإيرانية .

وعندما نفي من مصر لم يأت لتوديعه في السويس سوى القنصل الإيراني أحمد النفاوي ونفر من التجار الإيرانيين الساكنين في مصر ... فما هو السبب الذي جعل أولئك الإيرانيين يفعلون ذلك إن لم تكن لهم مع الأفغاني رابطة خاصة ؟!

هـ ـــ إن والد الأفغاني اسمه [صفدر] وهذا الإسم فارسي مركب من كلمتين هما [صف] و [در] ومعناها ممزق الصفوف فيها .
أضف إلى ذلك أن الأفغاني كان له في مصر خادم يتقن الفارسية اسمه [عارف أبو تراب] وإن اسم أبو تراب لايوجد في غير إيران ، وهو من الأسماء التي يتسمى بها الإيرانيون دون غيرهم .
و ـــ نجد في مقالات العروة الوثقى ذكراً لبعض القصص والأمثال الشعبية التي يتناقلها الناس في إيران والعراق ، وهي تكاد تكون خاصة بهم ، كقصص هيكل اصطخر ، وقصة الزنجي والطفل » [٢] .

هذه بعض الأدلة التي تؤكد أن جمال الدين إيراني وليس أفغانياً كما زعم بعض طلبته ، ولولا خشية الإطالة لسردت أدلة أخرى ذكرها كبار علماء الشيعة كما ذكرها مؤرخون آخرون غير الذين استشهدت بأقوالهم .

أسفاره ومغامراته :

١ ـــ كانت المحطة الأولى في رحلة جمال الدين الطويلة [أفغانستان] ، وقد وصلها عام ١٢٧٤ هـ ، ومالبث أن شارك في أحداثها السياسية ، فوقف إلى جانب الأمير محمد أعظم خان ضد أمير البلاد [دوست محمد خان] ، وأصبح جمال الدين من كبار المسؤولين بعد أن حسم الصراع لصالح محمد أعظم خان .

---

٢ ـــ المصادر التي اعتمدت عليها :
- مقدمة العروة الوثقى للشيخ مصطفى عبد الرزاق .
- جمال الدين الأسد آبادي ، للميرزا لطف الله خان .
- دعوة جمال الدين الأفغاني في ميزان الإسلام ، تأليف مصطفى فوزي بن عبد اللطيف غزال ، نشر دار طيبة وعنه نقلت أقوال الدكتور علي الوردي ، وأقوال قدري قلعجي ، ومانشرته المقتطف في عددها ٦٦ : ٤٩٦ .

وفي عام ١٢٨٥ هـ استولى الأمير شير علي خان على السلطة ، وطلب جمال الدين السماح له بمغادرة البلاد بعد أن فرضت عليه الإقامة الجبرية ، وعندما وافقت السلطة غادر أفغانستان متوجهاً إلى الهند .

٢ ـــ دخل بلاد الأناضول مرتين ، الأولى أيام السلطان عبد العزيز عام ١٢٨٦ هـ ، وعينه السلطان عضواً في المجلس الأعلى للمعارف ، وأخرج منها بعد خلاف مع شيخ الإسلام حسن فهمي أفندي إثر محاضرة ألقاها في دار الفنون ، واتهم بعدها بالإلحاد والمروق من الدين .

ودخل الأناضول مرة ثانية عام ١٣١٠ هـ في عهد السلطان عبد الحميد ، وبقي فيها حتى وافاه الأجل .

٣ ـــ دخل مصر مرتين ، بقي أربعين يوماً في الأولى ، وثمان سنوات في الثانية ، وفيها أنشأ الماسونية الفرنسية ، وألف الأحزاب المشبوهة التي تضم مختلف الأديان كالحزب الوطني الحر ، ومصر الفتاة .

ولعب دوراً مهماً في عزل الخديوي إسماعيل وتولية ولي عهده توفيق الذي كان عضواً في المحفل الماسوني الفرنسي الذي يرأسه جمال الدين .

٤ ـــ عندما طرده الخديوي توفيق من مصر ذهب إلى الهند ومكث فيها ثلاث سنين ، ولايعرف عنه فيها سوى أنه ألّف رسالة أسماها [الرد على الدهريين] .

٥ ـــ وفي عام ١٣٠٠ هـ غادر الهند قاصداً باريس ، وكان له فيها نشاط حافل من أهمه الاتصال بالجمعيات والمنظمات الثورية أمثال جمعية الاتحاد والترقي ، وجمعية العروة الوثقى السرية ، وكان يتنقل بين لندن وباريس وبطرسبرج ، وأقام صلات وثيقة مع كثير من المستشرقين وكبار المسؤولين الغربيين ، وأخرج مجلة العروة الوثقى ، فكان مديرها السياسي ومحمد عبده محررها الأول ، فصدر منها ١٨ عدداً ثم توقفت عن الصدور .

واستمرت إقامة جمال الدين الأفغاني في ديار الغرب سبع سنين ، منها أربع سنوات في روسيا القيصرية ، ماتزال أخبار إقامته فيها غامضة .

٦ ـــ جرى لقاء بين الشاه ناصر الدين شاه إيران وجمال الدين الأفغاني في ألمانيا ، وعرض الأول على الثاني منصب رئيس الوزراء ، فوافق جمال الدين وغادر أوربا قاصداً طهران سنة ١٣٠٧ هـ واستلم مهامه ، ولكن سرعان مااحتدم الصراع بينه وبين الشاه ، مما اضطر جمال الدين إلى الالتجاء إلى [مقام عبد العظيم] وهو من أحفاد الأئمة ومقامه حرم ومن دخله كان آمناً ، فمكث هناك

سبعة أشهر .

وفي شهر شعبان من عام ١٣٠٨ هـ اقتحمت السلطة مقام عبد العظيم وقبضوا على جمال الدين في شتاء قارس وأخرجوه من إيران فالتجأ إلى العراق . ومما يجدر ذكره أن إيران في ذلك العهد لايمكن أن يقع اختيار قادتها على عالم من علماء السنة من بلاد الأفغان ليكون الرجل الثاني أو الثالث في البلاط ... وعندما وقعت الواقعة بين الشاه ناصر الدين وجمال الدين الأفغاني لم يقل أحد من رجال البلاط أو من علماء الشيعة [وهم من أكثر الناس تتبعاً لمثل هذه القضايا] :

إن الأفغاني دخيل على إيران أو عميل من عملاء الخليفة العثماني لاسيما وهم يعرفون صلاته بآل عثمان ، وكل الذي قيل عنه : بابي مفسد .

٧ ـــ قال السلطان عبد الحميد عن الأفغاني :

« وقعت في يدي خطة أعدها في وزارة الخارجية الإنجليزية ، كل من مهرج اسمه جمال الدين الأفغاني ، وإنجليزي يدعى [بلنت] قالا فيها بإقصاء الخلافة عن الأتراك ، واقترحا على الإنجليز إعلان الشريف حسين أمير مكة خليفة على المسلمين . كنت أعرف جمال الدين هذا عن قرب وكان في مصر وكان رجلاً خطراً ، اقترح علي ذات مرة ـــ وهو يدعي المهدية ـــ أن يثير جميع مسلمي آسيا الوسطى . وكنت أعرف أنه غير قادر على هذا وكان رجل الإنجليز ، ومن المحتمل جداً أن يكون الإنجليز قد أعدوا الرجل لاختباري » [٣] .

لماذا أخفى نسبه ؟!

كانت إيران وكراً من أوكار التآمر ضد الخلافة الإسلامية ، وكان قادتها ـــ ولايزالون ـــ يستعينون بأعداء الإسلام من الإنجليز والفرنسيين وغيرهم من أجل تفتيت وحدة المسلمين .

وكان المسلمون السنة ـــ فى الأناضول ومصر والهند وفي كل مكان ـــ يرتابون من نوايا وأهداف كل عالم شيعي إيراني ولايثقون به ... وكان جمال الدين الأفغاني من الخبث والدهاء بحيث لاتخفى عليه مثل هذه الأمور ، وطالما أنه أعد نفسه أو أعده أعداء الإسلام ليلعب دوراً مشبوهاً في تاريخ أمتنا

٣ ـــ مذكرات السلطان عبد الحميد ، ترجمة محمد حرب عبد الحميد / ص : ٦٧ .

الحديث ... إذن لابد أن يقدم نفسه على أنه عالم من علماء الأفغان وأنه حنفي المذهب وهذا الذي كان .

قال [آغابزرك الطهراني] :

« ... وبالجملة فليس له في الأفغان — أي جمال الدين — أية علاقة إذ لم يولد بكنر ، ولم ينتقل مع أبيه إلى كابل ، ولم ينفهما دوست محمد خان أمير الأفغان ، ولا كانت لبني عمه سيادة على شيء من أراضيها ، ولايعرف عنهم الأفغانيون شيئاً ، فضلاً عن أن يكون لهم منزلة في قلوبهم وحرمة لنسبهم ، إذ لم يمتوا إلى السيد علي المحدث الترمذي بصلة ولارحم ، وإنما هذه أمور أملاها المترجم له على تلميذه الشيخ محمد عبده شارح [نهج البلاغة] مبالغة في تعمية الأمر وإغراقاً فيه ، وإلا فالأمر أوضح من أن يخفى .

ويكفي الشيعة الإمامية فخراً في إقبال مصر ورجالها أن يكون معلمها الأول ورئيس نهضتها الحديثة محمد عبده تلميذاً للمترجم له ، فقد صرح غير مرة بأنه أخذ كل ماعنده منه ، واعترف في مقدمته التي كتبها لرسالة المترجم له ، في الرد على الدهريين ، بالعجز عن تحديد منزلته العلمية ووصفها ... » [٤] .

وردد كثير من مراجع الشيعة وآياتهم المعاصرين ماقاله شيخهم [آغابزرك] عن عقيدة الأفغاني ومذهبه ودوره الذي لعبه بين أهل السنة . وأضاف بعضهم :

عندما حلّ الأفغاني في أرض مصر كان الشيخ محمد عبده سلفياً سنياً في عقيدته ومنهجه ، وبعد أن تتلمذ على يد جمال الدين أطلق لسانه في نقد منهج أهل السنة ، وأخذ يدعو إلى تقارب السنة مع الشيعة [٥] ، وألف كتابه النفيس — على حد زعمهم — [شرح نهج البلاغة] [٦] .

تعليق : هذه نبذة مختصرة عن حياة ومغامرات أستاذ المدرسة الإصلاحية ومؤسسها الباطني الخطير جمال الدين الأسد آبادي الفارسي .

---

٤ — طبقات أعلام الشيعة ، آغابزرك : ١ / ٣١٢ .

٥ — أصبح محمد عبده فعلاً من دعاة تقارب السنة مع الشيعة ، بل وكان يدعو إلى تقارب النصارى مع المسلمين ، وكانت له صلات قوية مع البهائيين ، وسوف نذكر شواهد وأمثلة على ذلك في الصفحات القادمة من هذا البحث إن شاء الله .

٦ — لم تثبت نسبة الكتاب إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، ولايستطيع أهل الرفض أن يقدموا أدلة على ذلك ، وقد استغلوا شرح محمد عبده لنهج البلاغة أبشع استغلال ، مع أن الشارح لم يكن مهتماً بالغايات والأهداف التي كان يتطلع إليها الرافضة .

ومن المؤسف أن كثيراً من أهل السنة لايزالون يثقون به ، ويعدّونه من كبار المجددين ومن أشهر المصلحين في العصر الحديث ، ولايلقون بالاً لكل مايثار حوله من شبهات لايجوز السكوت عنها ، وتراهم يرددون :
هذه أراجيف وأباطيل يرددها الخرافيون ، ودعاة الجمود والتقليد الذين يقدسون شيوخهم ، ويحاربون كل جديد يتعارض مع ماورثوه عن آبائهم وأجدادهم ، ونحن ندعو الذين لايزالون يحسنون الظن بجمال الدين أن يقرأوا الوثائق والمعلومات الجديدة التي تم العثور عليها ، ولايجمدوا على مواقف وآراء سطحية لاتغني عن الحق شيئاً ، وليعلموا أنه ليس كل من يحارب الخرافيين ودعاة التقليد والجمود ثقة ، وعلى كل حال فإذا أصرّ بعض العلماء والدعاة على موقفهم من الأفغاني ، فليس هذا مسوغاً لنا لنقلدهم في خطأهم بعد أن تكشفت لنا أدلة وبراهين كشفت حقيقة زعيم مايسمى بالمدرسة الإصلاحية وفضحت نواياه .



الفصل الثاني

موقف الإصلاحيين من الخوارق والمعجزات

كان جمال الدين الأفغاني مقلاً في إنتاجه العلمي ، ومن أهم مؤلفاته : رسالة صغيرة في الكيمياء القديمة ، ورسالة في الرد على الدهريين ألفها خلال إقامته في الهند ، وكتاب أسماه [تتمة البيان في تاريخ الأفغان] ألفه لأهداف سياسية معروفة ، فضلاً عن مقالات سياسية كان ينشرها في العروة الوثقى وغيرها من الصحف والمجلات الغربية والشرقية .

وإمام هذه المدرسة في السيرة وغيرها من العلوم الإسلامية الشيخ محمد عبده ... وكانت اهتماماته في التأليف قد بدأت بعد عودته من منفاه عام ١٨٨٩ م .

وليس للشيخ محمد عبده كتاب خاص في سيرة المصطفى ﷺ ، وإنما طرق موضوعات السيرة من خلال تفسيره للقرآن الكريم .

وأهم مؤلفات رواد هذه المدرسة التي سنختار أمثلة منها هي :

١ ـــ تفسير المنار ، وبقية كتب الشيخ محمد عبده في التوحيد والتفسير .
٢ ـــ « محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية » للشيخ محمد الخضري .
٣ ـــ « حياة محمد » للدكتور محمد حسين هيكل .

وسوف نعرج في هذه الدراسة على أقوال وآراء كبار كتاب هذه المدرسة أمثال : فريد وجدي ، الشيخ مصطفى المراغي ، محمود شلتوت ، وسوف لاندرس كل كتاب على حدة لأن الأهداف والنتائج متشابهة إلى حد بعيد عند رواد هذه المدرسة ، وإن كان هناك اختلاف فهو في الأسلوب والديباجة .

ويجب علينا ونحن نقوّم كتابات أعلام المدرسة الإصلاحية في السيرة أن ننتبه للأمور التالية :

١ ـــ عاصر محمد عبده وتلامذته شيوخاً في مصر جمدوا على التقليد ، وتنكروا للدليل ، وحاربوا كل جديد ولو كان فيه نفع للإسلام والمسلمين ، وآمنوا بالخرافة والشعوذة ... فجاءت المدرسة الإصلاحية لتطفىء النار بالنار ، ولترد على الغلو بغلو آخر .

٢ ـــ كان الشيخ محمد عبده تلميذاً للأفغاني في مصر ، وقد أعجب به أشد الإعجاب ، ووقف إلى جانبه في جميع معاركه السياسية ، وكان عضواً في المحفل الماسوني الفرنسي الذي أنشأه الأفغاني .

ورافق شيخه في أوروبا ، وكان المسؤول الثاني في مجلة العروة الوثقى وجمعيتها ، وكان الأفغاني ينتدب تلميذه لبعض المهمات الخاصة في لندن وباريس وبرلين .

وكان الشيخ يملي أفكاره فيكتبها التلميذ على شكل مقالة أو رسالة . وجملة القول كان محمد عبده لايرد أمراً يصدر عن شيخه ... وقد عبر التلميذ عن هذه المعاني وأكثر منها في رسالة بعث بها إلى شيخه الأفغاني عندما كان الأول في منفاه في بيروت . قال محمد عبده :

« ليتني كنت أعلم ماذا أكتب إليك وأنت تعلم مافي نفسي كما تعلم مافي نفسك ، صنعتنا بيديك ، وأفضت على موادنا صورها الكمالية ، وأنشأتنا في أحسن تقويم ، فيك عرفنا أنفسنا ، وبك عرفناك ، وبك عرفنا العالم أجمعين ، فعلمك بنا ، كما لايخفاك أعلم من طريق الموجب ، وهو علمك بذاتك ، وثقتك بقدرتك وإرادتك ، فعنك صددنا وإليك إليك المآب » (٧) .

وجاء في هذا الخطاب أيضاً :

« ... وألفت لحبك ممن حرم التشرف بلقائك قبيلاً ليس بالقليل ، يجلون قدرك ويعرفون لك فضلك ، وكنا وإخواننا كما شرح لك إبراهيم أفندي اللقاني ... ولسيرنا في تلك الحوادث نبأ طويل إذا أردت يامولاي أن أقدم إليك به تاريخاً ربما يكون مفيداً فأنا رهين الإشارة ، ونحن الآن في مدينة بيروت نقضي بها مدة ثلاث سنوات ، لالذنب جنيناه ولاجرم اقترفناه ... فها نحن سالكون في سنتك وعلى سنتك ولانزال إلى انقضاء الآجال ، ولولا أطفال لنا رضع ، ونساء لنا طوع ، أبينا لهم الذل ، وأنفنا لهم الضيم ، فأتينا بهم هنا إلى حيث أقمنا ،

---

٧ ـــ الإسلام والحضارة الغربية ، د. محمد محمد حسين / ص ص : ٧٢ ـــ دار الإرشاد .

لكنت أول من تلقاك في مدينة باريس لأسعد بالإقامة في خدمتك » [٨] .

ولاأدري بأي حق يهاجم محمد عبده دعاة التقليد والجمود وهذه هي حاله في مناجاة أستاذه وشيخه ؟!

حقا إن غلاة الصوفيين يترفعون عن مثل هذه العبارات في مخاطبة شيوخهم .

لقد استغرب تلامذة الشيخ محمد عبده أمثال رشيد رضا أسلوب هذه الرسالة ، لكنه ــ رضا ــ كتب عنه كلاماً لايختلف كثيراً عن الكلام الذي ورد في خطاب عبده للأفغاني .

وقصارى القول فإن بصمات الأفغاني ظاهرة فيما كتبه الشيخ محمد عبده قبل النفي وبعده ، ولاغرابة في ذلك فجمال الدين فارق الديار المصرية وهو يقول لمن يسألونه عن وصيته :

« حسبكم محمد عبده ، حسبكم محمد عبده من وصي أمين » [٩] .

٣ ــ تأثر الشيخ محمد عبده ببعض المستشرقين خلال إقامته في فرنسا ، واستمرت صلاته بهم بعد عودته من منفاه ، فكان يزورهم ويراسلهم ، كما كان بعضهم يزوره في مصر عندما أصبح مفتياً للديار المصرية ، ومن الجدير بالذكر أن العالم الغربي في تلك الفترة كان قد تحرر من هيمنة الكنيسة ، وعكف على عبادة العقل من دون الله سبحانه وتعالى ، فأراد محمد عبده أن يثبت لأصدقائه المستشرقين أن أصول الإسلام لاتتعارض مع المنطق والعقل ، أعني في ذلك أن محمد عبده أراد أن يثبت لهم أن أصول الإسلام لاتتعارض مع منطق وعقول أصحاب الأهواء والبدع من أمثاله ، أما الذين يلتزمون بمنهج أهل السنة والجماعة فبدهي أن لايكون هناك تعارض بين النصوص وعقولهم .

---

٨ ــ عبقرية الإصلاح والتعليم الإمام محمد عبده ، لعباس محمود العقاد ، ص ٩١ دار نهضة مصر .
٩ ــ عبقرية الإصلاح والتعليم الإمام محمد عبده ، عباس محمود العقاد / ص ٩٠ ، دار النهضة مصر .

عرض أقوالهم في المعجزات

أولاً ـــ موقف الشيخ محمد عبده :

أول من ضرب سهماً في هذا الشأن الرجل الثاني في المدرسة الإصلاحية الشيخ محمد عبده ، وكانت بدايته أول خطوة في الطريق ، ثم ترك المجال لغيره من تلامذته وأعوانه .

ومع كل ماحاول أن يحشده من أدلة يعزز بها رأيه فقد كانت خطوته غير عادية ، وكان فيها جرأة ملفتة للنظر ، ويدلنا على ذلك قوله :
« إن الخوارق الجائزة عقلاً ، أي التي ليس فيها اجتماع النقيضين ولاارتفاعهما ، لامانع من وقوعها بقدرة الله تعالى على يد نبي من الأنبياء ، ويجب أن نؤمن بها على ظاهرها ولايمنعنا هذا الإيمان من الاهتداء بسنن الله تعالى في الخلق واعتقاد أنها لاتتبدل ولاتتحول كما قال تعالى في كتابه الذي ختم به الوحي ، على لسان نبيه الذي ختم به النبيين فانتهى بذلك زمن المعجزات ، ودخل الإنسان بدين الإسلام في سن الرشد » (١٠) .

وإذن فقد اشترط الشيخ محمد عبده أن تكون الخوارق جائزة عقلاً ، وليس فيها اجتماع النقيضين أو ارتفاعهما ...

أما قوله : « فانتهى بذلك زمن المعجزات » ففيه غموض مقصود ، غير أنه يفصح عن أهدافه ومراميه في كتابه [الإسلام والنصرانية] حيث يقول :
« فالإسلام في هذه الدعوة والمطالبة بالإيمان بالله ووحدانيته لايعتمد على شيء سوى الدليل العقلي والفكر الإنساني الذي يجري على نظامه الفطري . فلايدهشك بخارق العادة ، ولايغشي بصرك بأطوار غير معتادة ، ولايخرس لسانك بقارعة سماوية ، ولايقطع حركة فكرك بصيحة إلهية » (١١) .

وراح محمد عبده في تفسيره يؤول كل معجزة ، مع مافي هذا التأويل من تمحل ، ومخالفات أصولية ، ومجانبة للحقائق والأدلة العلمية .

١٠ ـــ الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده : ٤ / ١٨٣ .
١١ ـــ مقدمة كتابه الإسلام والنصرانية .

يقول في تفسير قوله تعالى :

﴿ أو كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها قال أنى يحيي هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوماً أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحماً فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير ﴾ (١٢) .

فأماته الله مائة عام ثم بعثه قالوا : معناه ألبثه مائة عام ميتاً وذلك أن الموت يكون في لحظة واحدة ، وفاتهم من الموت مايمتد زمناً طويلاً وهو مايكون من فقد الحس والحركة والإدراك من غير أن تفارق الروح البدن بالمرة وهو ماكان لأهل الكهف وقد عبر عنه تعالى بالضرب على الآذان (١٣) .

وفي تفسير قوله تعالى :

﴿ وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعياً واعلم أن الله عزيز حكيم ﴾ (١٤) .

نقل محمد عبده أقوال المفسر [أبي مسلم] الذي استشهد به الرازي وهذا ملخصه :

« خذ أربعة من الطير فضمها إليك ، وآنسها بك حتى تأنس وتصير بحيث تجيب دعوتك ، فإن الطيور من أشد الحيوان استعداداً لذلك ، ثم اجعل كل واحدٍ منها على جبل ، ثم ادعها فإنها تسرع إليك لايمنعها تفرق أمكنتها وبعدها من ذلك . كذلك أمر ربك إذا أراد إحياء الموتى يدعوهم بكلمة التكوين [كونوا أحياء] فيكونوا أحياء ، كما كان شأنه في بدء الخلق إذ قال للسماوات والأرض إئتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين » .

وقال محمد عبده معلقاً :

« إن مافهمه أبو مسلم [أي إنكار تقطيع الطير] هو المتبادر من عبارة الآية الكريمة ... والواجب على من يريد فهم كتاب الله تعالى أن يتجرد من التأثر بكل ماهو خارج عنه ، فإنه الحاكم على كل شيء ولايحكم عليه شيء . ولله

---

١٢ ـــ سورة البقرة ، الآية : ٢٥٩ .

١٣ ـــ الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده ـــ ٤ / ٧٣٨ .

١٤ ـــ سورة البقرة ، الآية : ٢٦٠ .

در أبي مسلم ماأدق فهمه وأشد استقلاله فيه » (١٥) .

وفي تفسيره لقوله تعالى :

﴿ وقلنا ياآدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولاتقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين ﴾ (١٦) .

يرى أن الجنة الواردة في هاتين الآيتين هي بستان في ربوة فسمي الخروج منها هبوطاً لأن ماانتقلوا إليه دون ماكانوا فيه ، فوجود آدم وحواء أصلاً على الأرض ، وهبطا من مكان مرتفع إلى منخفض على الارض .

وفي تفسيره لسورة الفيل يقول :

« ... وفي اليوم الثاني فشا في جند الجيش داء الجدري والحصبة . قال عكرمة وهو أول جدري ظهر في بلاد العرب . وقال يعقوب بن عتبة فيما حدث : إن أول مارؤيت الحصبة والجدري ببلاد العرب ذلك العام ، وقد فعل ذلك الوباء بأجسامهم مايندر وقوع مثله فكان لحمهم يتناثر ويتساقط فذعر الجيش وصاحبه وولوا هاربين وأصيب الجيش ... » (١٧) .

وإذا كان شيخ المدرسة الإصلاحية لايجرؤ على إنكار المعجزات [وإن كان يلمح بذلك في بعض أقواله] ، فله من الكرامات موقف آخر ، يتلخص في قوله :

« وإنما الذي يجب الإلتفات إليه هو أن أهل السنة وغيرهم في اتفاق على أنه لايجب الاعتقاد بوقوع كرامة معينة على يد ولي لله معين بعد ظهور الإسلام فيجوز لكل مسلم ، باجماع الأمة ، أن ينكر صدور أي كرامة كانت من أي ولي كان ، ولايكون بإنكاره هذا مخالفاً لشيء من أصول الدين ولامائلاً عن سنة صحيحة ، ولامنحرفاً عن الصراط المستقيم » (١٨) .

١٥ ـــ المصدر السابق ـــ أي الأعمال الكاملة .

وأبو مسلم : هو محمد بن بحر الأصفهاني [٨٦٨ ـــ ٢٩٣٤] من المعتزلة . وقد خالف فيما ذهب إليه جمهور المفسرين ، وليس عنده دليل فيما قاله سوى الرأي . (عن وفيات الأعيان)

١٦ ـــ سورة البقرة ، الآيتان : ٣٥ و ٣٦ .

١٧ ـــ الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده : ٣ / ٤٧٣ .

١٨ ـــ الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده : ٣ / ٤٧٣ .

هل صحيح أن إجماع الأمة انعقد على إنكار صدور أي كرامة كانت من أي ولي كان ؟!
هذا ماسنتولى الإجابة عليه عند الانتهاء من عرض أقوال رواد المدرسة الإصلاحية .

ثانياً ـــ موقف الخضري :

للشيخ محمد الخضري كتابان في السيرة :
الكتاب الأول [نور اليقين في سيرة سيد المرسلين] ، وقد ألفه عندما كان في المنصورة ، ولم تكن علاقاته قد توطدت مع الإصلاحيين ، ولهذا كان الخضري معتدلاً في كتابه ، موضوعياً في بحثه ، ومن الأمثلة على ذلك أنه تحدث عن معجزات الرسول ﷺ : كشق الصدر ، وذكر حادثة الاسراء والمعراج كما وردت في صحيحي البخاري ومسلم ، وقصة بحيرا الراهب ... وإذا تجاوز عن ذكر بعضها : كمعجزة الغار ، وشاة أم معبد ، والمعجزات التي وقعت في بعض غزوات الرسول ﷺ ، فله عذر في ذلك لأن كتابه كان مختصراً .

أما الكتاب الثاني [محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية] فقد ألفه عندما انتقل إلى القاهرة وأصبح مدرساً للتاريخ الإسلامي في الجامعة ، وتوثقت صلاته بالشيخ محمد عبده وغيره من رواد المدرسة الإصلاحية .

ولهذا فقد أحجم عن ذكر المعجزات التالية :
حادث الفيل ، المعجزات التي أكرم الله بها نبيه خلال رحلة الهجرة ، وسائر المعجزات التي وقعت في غزوات الرسول ﷺ .

وتجاوز الخضري عن ذكر خبر شيطان العقبة ، وخبر الشيطان الذي حضر اجتماع دار الندوة .

وعن قصة بحيرا الراهب قال :
« وقد نقبنا كثيراً عن اسم هذا الراهب في كتب من عنوا بذكر أساقفة الشام

أو بصرى والمشهورين من رجال الدين فيهما فلم نجده » (١٩) .

وعند الحديث عن الاسراء والمعراج تمسك بحديث لايصح الإحتجاج به أمام حديث رواه الشيخان وغيرهما بروايات صحيحة بلغت حد التواتر ... وانتهى الخضري إلى القول : إن الاسراء والمعراج كانا بالروح دون الجسد لأن رؤيا الأنبياء حق ولأن أعينهم تنام ولاتنام قلوبهم ... ويرى أن استغراب المشركين متوقع لأنهم قوم معاندون ، ويدافع الخضري عن أصحاب هذا الرأي [أي الذين يقولون بأن الاسراء كان بالروح دون الجسد] .

ويشيد بسلامة منهجهم لأنهم لايتمسكون من الخوارق إلا بما شاهده رواته عياناً ، وصرحوا بمشاهدته في رواياتهم ووصل إليهم من طرق مأمونة الخطأ .

ومن المضحك أن للخضري رأيين في الإسراء والمعراج ، ولم يعتذر في محاضراته عن الرأي الذي كان يراه في كتابه [نور اليقين] ، وأكثر من ذلك لقد كان في كتابه الأول يهاجم الذين ينكرون الخوارق والمعجزات ، ومن الأدلة على ذلك قوله :

« ... ثم أعقب ذلك ماحصل من شق صدره وإخراج حظ الشيطان منه ، وليس هذا بالعجيب على قدرة الله تعالى ، فمن استبعد كان قليل النظر لايعرف من قوة الله شيئاً لأن خرق العادات للأنبياء ليس بالأمر المستحدث ولا المستغرب » .

---

١٩ ــ نقب الخضري عن اسم بحيرا الراهب في كتب من عنوا بذكر أساقفة الشام أو بصرى ، ولاأدري لماذا أعرض عن كتب الحديث والرجال وراح يبحث في كتب التاريخ وأخبار رجال الدين النصارى ؟!

وقد ورد ذكر الراهب بحيرا في سنن الترمذي ٤ / ٢٩٦ من حديث أبي موسى الأشعري وقال : هذا حديث حسن ، وقال الشيخ ناصر الألباني : وإسناده صحيح [عن فقه السيرة / ص ٦٨] . وتحدث الذهبي في تاريخ الإسلام ٢ / ٢٦ ــ ٣٠ طبعة القدسي عن قصة بحيرا الراهب فنقدها متناً وسنداً ــ بما فيها الرواية التي أخرجها الترمذي ــ وقال بعد كلامه على السند : وهو حديث منكر جداً .

وهذه هي المصادر التي يجب على الخضري أن يعتمد عليها ، ولايجوز أن يقدم عليها أساطير أهل الكتاب وإسرائيلياتهم .

ثالثاً ـ موقف حسين هيكل :

كتاب [حياة محمد] للدكتور حسين هيكل يمثل مواقف رواد المدرسة الإصلاحية من سيرة المصطفى ﷺ أصدق تمثيل لأنه كتاب شامل ، ليس فيه الإيجاز الذي ذهب إليه الخضري في نور اليقين أو في محاضراته ، ولم يطرق فيه موضوعات السيرة من خلال قضايا التفسير أو العقيدة كما فعل الشيخ محمد عبده .

لقد أرّخ سيرة الرسول ﷺ منذ ولادته وحتى التحاقه بالرفيق الأعلى بأسلوب لاتنقصه الصراحة ولا الوضوح .

وفوق هذا كله فالكتاب مشفوع بآراء وتوثيقات رواد المدرسة الإصلاحية ، فمن أهم مراجعه مؤلفات الشيخ محمد عبده ، ونقل موقفه من الخوارق الذي جاء في مقدمة كتاب [الإسلام والنصرانية] ثم اتكأ عليه في مواقفه المتطرفة التي لم يسبقه بها أحد من كتّاب المدرسة الإصلاحية .

وقدم للكتاب شيخ الأزهر [٢٠] ـ آنذاك ـ محمد مصطفى المراغي ، فدافع عن منهج هيكل ، وأيده في موقفه من المعجزات ، وكان مما قاله :
« ولم تكن معجزة محمد ﷺ القاهرة إلا في القرآن ، وهي معجزة عقلية . ومأأبدع قول البوصيري :
لم يمتحنا بما تعيا العقول به ... حرصاً علينا فلم نرتب ولم نهم » [٢١]

ودافع عن هيكل محمد رشيد رضا في قوله :
« أهم ماينكره الأزهريون والطرقيون على هيكل ـ أو أكثره ـ مسألة المعجزات أو خوارق العادات .
وقد حررتها في كتاب الوحي المحمدي من جميع مناحيها ومطاويها في الفصل الثاني وفي المقصد الثاني من الفصل الخامس ، بما أثبت به أن القرآن وحده هو حجة الله القطعية على ثبوت نبوة محمد ﷺ بالذات ، ونبوة غيره من الأنبياء

---

٢٠ ـ عندما أثيرت الضجة حول كتاب هيكل لم يكن محمد عبده على قيد الحياة ، وكان المراغي ورشيد رضا من أبرز قادة هذه المدرسة .
٢١ ـ مقدمة كتاب حياة محمد .

واياتهم بشهادته لايمكن في عصرنا إثبات آية إلا بها ، وإن الخوارق الكونية شبهة عند علمائنا لاحجة » (٢٢) .

وإذن فكتاب [حياة محمد] من أهم الكتب والمصادر التي نعرف من خلالها منهج المدرسة الإصلاحية في كتابة السيرة النبوية .

ونستطيع تلخيص أهداف هيكل وغاياته في النقاط التالية :

١ ــ قال هيكل يصف منهجه :

« إنها دراسة علمية على الطريقة الغربية الحديثة (!!) خالصة لوجه الحق ولوجه الحق وحده » .

وأخذ يعدد كتب المستشرقين التي عاونته في الاهتداء إلى غاية يطمئن إليها ــ على حد قوله ــ فذكر من أهمها :

ــ [حياة محمد] للمستشرق السير [وليم موير] وقد جاراه في تسمية الكتاب .

ـب وكتاب [الإسلام] للأب لامنس .

٢ ــ أراد هيكل في كتابه أن يجعل من حياة محمد ﷺ حياة عادية كحياة أي بطل أو زعيم ، فقال :

« فحياة محمد حياة إنسانية بلغت أسمى مايستطيع إنسان أن يبلغ ، ولقد كان ﷺ حريصاً على أن يقدر المسلمون أنه بشر مثلهم يوحى إليه ، حتى كان لايرضى أن تنسب إليه معجزة غير القرآن ، ويصارح أصحابه بذلك » .

هل كان ﷺ لايرضى أن تنسب إليه معجزة الإسراء والمعراج أو نبع الماء من بين أصابعه الشريفة أو حنين جذع النخلة ؟!

هذا ماسوف نتولى الإجابة عليه بعد صفحات من هذا البحث إن شاء الله .

٣ ــ حاول هيكل التشكيك بكتب السيرة والتاريخ في مواضع كثيرة من كتابه ، ومن ذلك قوله :

« فقد أضافت كتب السيرة إلى حياة النبي مالايصدقه العقل ولاحاجة إليه في ثبوت الرسالة » .

قلت : إن كان لايصدقه عقل من استعبدته حضارة الغرب وأسره منهج

٢٢ ــ مجلة المنار ، العدد الصادر في ٣ من شهر مايو سنة ١٩٣٥ م.

المستشرقين في البحث والتأليف ... فهذا لايغير من الحقيقة شيئاً ، ولايقدح بمنهج سلفنا الصالح من أئمة خير القرون ... وإن كان هيكل يعني ماورد في كتب السيرة من إسرائيليات وروايات موضوعة فنحن نوافقه في ذلك ، ولكن العلماء المحققين بيّنوا لنا الصحيح من الموضوع والغث من السمين .

٤ ـــ لم يقف المؤلف عند حدود التشكيك بكتب السيرة والتاريخ ، وإنما تجاوزه وحاول النيل من أمهات كتب الحديث ، وبشكل أخص الصحاح منها ، وسلك في ذلك سبلاً مختلفة منها زعمه أن القرآن هو المصدر الوحيد للسيرة ، وكل حديث يخالف القرآن غير صحيح ، انظر إلى قوله :

« فكل ماتعلق بسيرة محمد [ﷺ] يجب أن يعرض على القرآن ، فما وافقه كان حقاً ، ومالم يوافقه لم يكن بحق » .

ويستشهد في إثبات مقولته بحديث يرويه عن الرسول ﷺ :

« إنكم ستختلفون من بعدي ، فماجاءكم عني فأعرضوه على كتاب الله ... فما وافقه فمني ، وماخالفه فليس عني » .

وسوف نبيّن فيما بعد عدم صحة هذا الحديث وبطلانه ، كما أننا سوف نبيّن خطورة أهداف هيكل وغاياته .

وتمشياً مع منهج المؤلف من المعجزات والخوارق ، فقد أول بعضها ، وأنكر بعضها ، وتجاوز الحديث عن قسم منها ، ومن الأمثة على ذلك مايلي :

ـــ ففي تفسيره لحادث الفيل ردد ماقاله شيخه محمد عبده عن وباء الجدري الذي زعم أنه تفشى في الجيش وبدأ يفتك به حتى أفناه .

ـــ وعن حادث شق الصدر لايناقش الخبر من حيث صحته أو عدم صحته [مع أن الرواية صحيحة وقد وردت في صحيح مسلم] ، وإنما يرفض الخبر لأن العقل لايستسيغه ، ولايخجل من عرض أدلة المستشرقين : سير وليم موير ودرمنجم في رفض الحادث وترجيحه لهذه الأدلة .

ـــ وعن قصة سراقة يقول :

« وبدأت الشمس تنحدر ، وبدأ محمد [ﷺ] وأبو بكر يفكران في امتطاء جمالهما إذ كان من سراقة قيد البصر ، وكان جواد سراقة قد كبا به قبل ذلك مرتين لشدة ماجهده ، فلما رأى الفارس أنه وشيك النجاح وأنه مدرك الرجلين فرادهما إلى مكة أو قاتلهما إن حاولا عن نفسيهما دفاعاً ، نسي كبوة جواده

ولنره ليمسك بيده ساعة الظفر . ولكن الجواد في قومته كبا كبوة عنيفة ألقى بها الفارس من فوق ظهره يتدحرج في سلاحه . وتطير سراقة وألقي في روعه أن الآلهة مانعة منه ضالته ، وأنه معرض نفسه لخطر داهم إذا هم مرة واحدة لانفاذ محاولته ... » .

وهذا مثال من أمثلة كثيرة تبيّن لنا منهج هيكل في البحث ، وهو منهج المستشرقين الذي تحدثنا عنه في فصل سابق .

ـــ وعن الإسراء والمعراج ينقل أقوال [درمنجم] ويشاركه في السخرية من كثير من الروايات التي وردت في أمهات كتب الحديث والتاريخ الإسلامي ، ويتخذ منها وسيلة للتنديد بالمنهج الإسلامي في البحث والتأليف ـــ وإن كان يكتفي بالتلميح ولايجرؤ على التصريح ـــ مع أن علماء الحديث أثبتوا بطلان هذه الروايات وعدم صحتها ... وأخيراً ينتهي إلى القول : إن الإسراء كان بالروح لا بالجسد ، وهو الرأي الذي انتهى إليه أستاذه محمد عبده .

ـــ وعن شيطان العقبة يزعم هيكل أنه رجل خرج لبعض شأنه فعرف من أمر القوم فأراد أن يفسد عليهم تدبيرهم .

وبهذا وغيره ـــ مما سنتحدث عنه بعد قليل ـــ يكون هيكل قد خطا خطوة أخرى في طريق الانحراف الذي بدأه محمد عبده ... ثم توالت الخطوات وتعددت ، وليقرأ من شاء أقوال محمد فريد وجدي [٢٣] وزعمه أن شق الصدر وانشقاق القمر وسائر المعجزات الأخرى لايمكن إثباتها بدليل محسوس ، وقال أحمد أمين أشد من هذا القول ولله في خلقه شؤون .

هذه هي حقيقة موقف الإصلاحيين من الخوارق والمعجزات ، أما أفكارهم وتصوراتهم الأخرى فسوف نعرضها من خلال نقدنا لمنهجهم في البحث .

---

٢٣ ـــ مجلة الأزهر ، الجزء السابع من المجلد الحادي عشر ـــ مقالة لمحمد وجدي بعنوان « السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة » .

الفصل الثالث

نقد منهج الإصلاحيين

الوجه الأول : تقديمهم العقل على النقل :

جعل الإصلاحيون للعقل مكانة كبيرة ، وأخضعوا لسلطانه جميع ألوان العلوم والمعرفة دون تمييز بين النظرية منها والغيبية .

قال الشيخ محمد عبده في تعريف الوحي :
« الوحي عرفان يجده الشخص من نفسه ، مع اليقين بأنه من الله بواسطة أو بغير واسطة ، والأول بصوت يتمثل لسمعه أو بغير صوت » (٢٤) .

وقد خالف إمام المدرسة الإصلاحية أهل السنة في تعريفهم للوحي ، وحصره ضمن إطار العقل في قوله [عرفان يجده الشخص من نفسه] مع أن عقولنا قاصرة عن إدراك ذات الله جلّ وعلا وصفاته ، وكيفية مناداته وتكليمه لرسله ، ولايجوز وضع العقل في مرتبة قريبة من الوحي بله أن يكون نداً له .

ويمضي الشيخ محمد عبده في تضخيم دور العقل ، وتعظيم شأنه فيرى أنه من الممكن أن يهتدي الإنسان عن طريق العقل إلى واجب الوجود وإلى حياة بعد الموت ، وإلى قانون يشجع فيه الفضائل ويحذر فيه من الرذائل ، ... وشريعته هذه مقبولة إن لم تبلغه دعوة الرسل ، وفي موضع آخر يقول كلاماً قريباً من الكلام السابق :
« قال قائلون من أهل السنة ــ الكلام لمحمد عبده ــ : إن الذي يستقصي جهده في الوصول إلى الحق ، ثم لم يصل إليه ، ومات طالباً غير واقف عند الظن ، فهو ناج فأي سعة لاينظر إليها الحرج أكمل من هذه السعة » (٢٥) .

٢٤ ــ الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده : ٣ / ٤١٥ .
٢٥ ــ الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده : ٣ / ٢٨٢ .

ويعتقد الإصلاحيون بأن الإيمان بوجود الله تعالى وبقدرته على إرسال الرسل لايمكن معرفته إلا من طريق العقل . قال محمد عبده :
« وتقرر بين المسلمين كافة — إلا من لاثقة بعقله ولابدينه — أن من قضايا الدين مالا يمكن الاعتقاد به إلا من طريق العقل ، كالعلم بوجود الله وبقدرته على إرسال الرسل ، وعلمه بما يوحي به إليهم ، وإرادته لاختصاصهم برسالته ، ومايتبع ذلك مما يتوقف عليه فهم معنى الرسالة وكالتصديق بالرسالة نفسها . كما أجمعوا على أن الدين إن جاء بشيء قد يعلو على الفهم فلا يأتي بما يستحيل عند العقل » (٢٦) .

وعن تعارض العقل مع النقل قال محمد عبده :
« اتفق أهل الملة الإسلامية ، إلا قليلاً ممن لاينظر إليه ، على أنه إذا تعارض العقل والنقل أخذ بما دل عليه العقل ، وبقي في النقل طريقان :
طريق التسليم بصحة المنقول مع الاعتراف بالعجز عن فهمه ، وتفويض الأمر إلى الله في علمه ، والطريق الثانية :
تأويل النقل مع المحافظة على قوانين اللغة » (٢٧) .
والخلاصة : يعتقد الإصلاحيون بأنه لايمكن معرفة الله إلا عن طريق العقل لأنه أصل الشرع وعن طريقه آمنا بالله ، ورسلهِ ، والوحي ، واليوم الآخر ... ويقدم العقل على النقل عند التعارض .

ولم يأتنا الإصلاحيون بجديد ، وسوف نعرض فيما يلي نصاً من أقوال المعتزلة في هذه المسألة ، ومن يتأمله لن يجد أي خلاف بين أقوال الإصلاحيين وأقوال سلفهم من أهل الاعتزال :
« إذا تعارضت الأدلة السمعية والعقلية ، أو السمع والعقل ، أو الظواهر النقلية والقواطع العقلية ، أو نحو ذلك من العبادات ، فإما أن يجمع بينهما ، وهو محال ، لأنه جمع بين النقيضين ، وإما أن يردا جميعاً وإما أن يقدم السمع وهو محال ، لأن العقل أصل النقل فلو قدمناه عليه كان ذلك قدحاً في العقل الذي هو أصل النقل ، والقدح في أصل الشيء قدح فيه ، فكان تقديم النقل قدحاً في النقل والعقل جميعاً ، فوجب تقديم العقل ثم النقل إما أن يتأول ، وإما أن

٢٦ — المصدر السابق : ٣ / ٣٥٧ .
٢٧ — المصدر السابق : ٣ / ٢٨٢ .

يفوض » [٢٨] .

وفي ردنا على الإصلاحيين نلخص بعض ماقاله علماء أهل السنة الذين عاصروا أهل الاعتزال قبل بضعة قرون :

١ ـ قال محمد عبده : « تقرر بين المسلمين ، كافة إلا من لا ثقة بعقله ولا بدينه ، أن من قضايا الدين مالا يمكن الاعتقاد به إلا من طريق العقل كالعلم بوجود الله وبقدرته على إرسال الرسل ... ويخلص من هذا إلى القول : إن علماء الأمة متفقون على أن العقل أصل النقل » .

ليس صحيحاً مادعاه من اتفاق بين علماء المسلمين ، بل الصحيح أن كبار علماء خير القرون متفقون على عكس مازعمه ومن أبرزهم :

ابن المبارك ، والشافعي ، وأحمد بن حنبل ، وإسحاق ابن راهويه ، وأبو يوسف ، ومالك بن أنس وكثير غيرهم .

بل وليس صحيحاً أن أهل الاعتزال متفقون على أن العقل أصل في ثبوت النقل ، فالمعتدلون منهم قالوا : إنها طريقة صحيحة لكن السلف أعرضوا عنها لطول مقدماتها وغموضها ، وأكد المعتدلون من أهل الاعتزال أنهم يخافون على سالكها من الشك والتطويل .

فمن أين جاء إمام المدرسة الإصلاحية بهذا القرار والاتفاق ؟!

والعقل لايمكن أن يكون أصلاً في ثبوت النقل ، لأن ماهو ثابت ، ثابت علمنا به أو لم نعلم ، وعدم العلم ليس علماً بالعدم ، وعدم علمنا بالحقائق لاينفي ثبوتها في أنفسها .

فثبوت الرسالة ليس موقوفاً على وجودنا أو عقولنا ، أو على الأدلة التي نعلمها بعقولنا . فالعقل إذن ليس أصلاً لثبوت الشرع في نفسه لأن المعلوم مستغني عن العلم .

فوحدانية الله سبحانه وتعالى ، وأسماؤه ، وصفاته ثابتة سواء علمنا بها أو لم نعلم ، وهي مستغنية عن علمنا بها ... وكذلك القول في كتب الله المنزلة ، وفي رسله ، وملائكته ...

---

٢٨ ـ نقل شيخ الإسلام ابن تيمية هذا القول عن أئمة أهل الاعتزال في سفره النفيس « درء تعارض العقل والنقل » : ١ / ٤ .

فكيف يزعم محمد عبده أن الذين خالفوا قوله من علماء السلف ليسوا ثقة ولايعتد برأيهم ؟!

٢ ـــ لايمكن أن يتعارض عقلي قطعي مع نقلي قطعي ، أما إذا كان النصان أحدهما قطعي والآخر ظني ، أو كانا ظنيين ، يقدم الأرجح سمعياً كان أو عقلياً ، والأصل في التقديم الترجيح والدليل وليس لأنه سمعي أو عقلي (٢٩) .

وإذا سلمنا جدلاً بتعارض العقلي القطعي مع النقلي القطعي ، فيكون العيب في العقل لأنه دل على صحة النقل ووجوب قبول ماأخبر به الرسول ﷺ ، ثم عاد ينقض هذه الدلالة وذلك يوجب فسادها ، وإذا تعارض دليلان أحدهما علمنا فساده ، والآخر لم نعلم فساده كان تقديم مالم يعلم فساده أقرب إلى الصواب من تقديم مايعلم فساده (٣٠) .

والعقل الذي يقدمه الإصلاحيون على النقل ينفي اليوم ماسبق وأثبته بالأمس ، فأهل الفترات وضعوا أحكاماً على العباد ، وجدت العقول التي تنورت بالشرع بهتانها وضلالها وجهلها ، مع أنهم أدركوا بعقولهم أشياء وافقت الشرع لكن عقولهم بقيت قاصرة عن إدراك أكثر ماجاء به الشرع ، رغم أنها كانت عقولاً باهرة .

فالعقل إذن قاصر الإدراك في علمه ومفتقر إلى التنبيه ، والإنسان كلما يأتيه زمن يعقل مالم يكن يعقله ولايختص ذلك عنده بمعلوم دون معلوم ولابذات دون صفة ولافعل دون حكم .

والمعلومات عند العلماء ثلاثة أقسام :

ـــ قسم لايعلمه الإنسان البتة كالمغيبات عنه .

ـــ وقسم آخر ضروري لايشكك فيه كعلم الإنسان بوجوده ، وعلمه بأن الاثنين أكثر من الواحد وأن الضدين لايجتمعان .

ـــ والقسم الثالث نظري يمكن العلم به ويمكن أن لايعلم به ـــ وهي النظريات ـــ وتعلم بواسطة لابأنفسها . وهذا القسم ـــ أي الثالث ـــ هو المجال الوحيد الذي من الممكن أن يخوض فيه العقل ، ومع ذلك فأهل العقول متفقون على أن لايمكن الاتفاق فيها لاختلاف القرائح والأنظار .

٢٩ ـــ الأدلة السمعية والنقلية والشرعية أسماء لمسمى واحد .
٣٠ ـــ درء تعارض العقل والنقل : ١ / ١٧١ .

وماجاء به الرسول ﷺ معلوم بالاضطرار كتوحيد الله ، وإثبات المعاد ، وإيجاب العبادات وتحريم الظلم والفواحش وماكان معلوماً بالاضطرار لايمكن أن يناقضه عقلي قطعي ، لأن الله مطلع على أمور عباده ومعلوماته غير متناهية ، بينما معلومات العبد ناقصة ومتناهية ويعجز أن يصنع شيئاً دون مشيئة الله سبحانه وتعالى . قال تعالى :
﴿ لمن شاء منكم أن يستقيم ، وماتشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين ﴾ (٣١) .

ورسول الله ﷺ بلغ البلاغ المبين ، الذي فرق فيه بين الحق والباطل ، وبين الهدى والضلال ... فكيف نجعل العقل حاكماً على الله تعالى بعد كل هذا ؟! (٣٢) .

وكيف نتصور أن الله يقول شيئاً ناقصاً لايثبت أمام العقل ؟!

وكيف نقدم الناقص على الكامل في أمور معلومة من الدين بالضرورة ؟!
٣ ــ كان سلفنا الصالح رضوان الله عليهم يكرهون الفلسفة وشكوكها ، ويجتنبون الخوض فيها إلا إذا كانوا مضطرين لاظهار الحق وقهر الباطل .

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال :
اتقوا الله في دينكم . قال سحنون : يعني الانتهاء عن الجدل فيه ، وخرّج ابن وهب عن عمر أيضاً أن أصحاب الرأي أعداء السنن ، أعيتهم أن يحفظوها ، وتفلتت منهم أن يعوها ، واستحيوا حين سئلوا أن يقولوا لانعلم ، فعارضوا السنن برأيهم ، فإياكم وإياهم .

وقال مالك بن أنس رحمه الله :
الكلام في الدين أكرهه ، ولم يزل أهل بلدنا ــ أي المدينة ــ يكرهونه وينهون عنه ، نحو الكلام في رأي جهم والقدر ، وكل مأأشبه ذلك .
ولاأحب الكلام إلا فيما تحته عمل . فأما الكلام في الدين وفي الله عز وجل فالسكوت أحب إلي ، لأني رأيت أهل بلدنا ينهون عن الكلام في الدين إلا فيما تحته عمل .

---

٣١ ــ سورة التكوير ، الآيتان : ٢٨ و ٢٩ .
٣٢ ــ الاعتصام للشاطبي : ٢ / ٢٣٢ ــ ٢٣٦ .

وقال أحمد بن حنبل رحمه الله :

لايفلح صاحب الكلام أبداً ولاتكاد ترى أحداً نظر في الكلام إلا وفي قلبه دغل .

وقال ابن عبد البر :

الكلام في الدين نحو القول في صفات الله وأسمائه ، وضرب مثلاً نحو رأي جهم والقدر ثم قال :

والذي قاله مالك عليه جماعة الفقهاء قديماً وحديثاً من أهل الحديث والفتوى ، وإنما خالف في ذلك أهل البدع ... وأما الجماعة فعلى ماقال مالك رحمه الله . إلا أن يضطر أحد إلى الكلام فلايسعه السكوت إذا طمع في رد الباطل وصرف صاحبه عن مذهبه ، وخشي ضلالة عامة أو نحو هذا .

وكان الربيع بن خيثم يقول (٣٣) :

ياعبد الله ! ماعلمك الله في كتابه من علم فاحمد الله ، وماستأثر عليك به من علم فكله إلى عالمه ، لاتتكلف فإن الله يقول لنبيه :

﴿ قل ماأسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين ﴾ (٣٤) .

وقال جلّ من قائل :

﴿ فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ماتشابه منه ابتغاء الفتنة ﴾ (٣٥) .

وقال :

﴿ والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا ﴾ (٣٦) .

٤ ــ لم يكن كلام محمد عبده دقيقاً فيما نقله عن إجماع أهل السنة والجماعة ، ولم يكن منصفاً فيما قاله عن علماء السلف الذين خالفوا ضلالاته :

[إلا قليلاً ممن لاينظر إليهم] وقوله :

[إلا من لاثقة بعقله ولابدينه] .

وقد بدأنا بنقد موقفهم من العقل لأنه أشد خطراً من تأويلهم للمعجزات والخوارق .

٣٣ ــ الاعتصام للشاطبي : ٢ / ٢٣٢ ــ ٢٣٦ .

٣٤ ــ سورة ص ، الآية : ٨٦ .

٣٥ ــ سورة آل عمران ، الآية ٧ .

٣٦ ــ سورة آل عمران ، الآية : ٧ .

الوجه الثاني ـــ لايجوز تأويل أو إنكار المعجزات والكرامات :

زعم الإصلاحيون أن المعجزات انتهت مع بداية بعثة المصطفى ﷺ ، والقرآن الكريم هو معجزة الله الوحيدة على خلقه ... وقال زعيم هذه المدرسة : لايجب الاعتقاد بوقوع كرامة معينة على يد ولي لله معين بعد ظهور الإسلام .

والذي يعتقده أهل السنة والجماعة : لايجوز لمسلم أن ينكر أو يؤول المعجزات التي أكرم الله بها خاتم أنبيائه ﷺ ، لأن هذه المعجزات ثابتة بالتواتر ، فبعضها نص عليه القرآن الكريم كالإسراء وانشقاق القمر ، وبعضها ثبت بأحاديث صحاح لايرقى إليها شك ومن الأمثلة على ذلك :
ـــ روى البخاري في صحيحه عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : عطش الناس يوم الحديبية والنبي ﷺ بين يديه ركوة فتوضأ ، فجهش الناس نحوه فقال : مالكم ؟ قالوا : ليس عندنا ماء نتوضأ ولانشرب إلا مابين يديك فوضع يديه في الركوة فجعل الماء يثور بين أصابعه كأمثال العيون فشربنا وتوضأنا . قلت : كم كنتم ؟ قال : لو كان مائة ألف لكفانا ، كنا خمس عشرة مائة (٣٧) .
ـــ وروى البخاري في صحيحه عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : كنا نعد الآيات بركة وأنتم تعدونها تخويفاً ، كنا مع رسول الله في سفر فقلّ الماء ، فقال :
« اطلبوا فضلة من ماء » فجاءوا بإناء فيه ماء قليل فأدخل يده في الإناء ثم قال : « حي على الطهور المبارك والبركة من الله » فلقد رأيت الماء ينبع من بين أصابع رسول الله ﷺ ، ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل» (٣٨) .
ـــ روى البخاري في صحيحه عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن امرأة من الأنصار قالت لرسول الله ﷺ :
يارسول الله ألا أجعل لك شيئاً تقعد عليه ؟ فإن لي غلاماً نجاراً ، قال : « إن شئت » فعملت له المنبر ، فلما كان يوم الجمعة قعد النبي ﷺ على المنبر الذي صنع فصاحت النخلة التي كان يخطب عندها حتى كادت أن تنشق فنزل النبي ﷺ حتى أخذها فضمها إليه ، فجعلت تئن أنين الصبي الذي يسكت حتى

٣٧ ـــ فتح الباري : ٧ / ٣٩٨ .
٣٨ ـــ فتح الباري : ٧ / ٤٠٣ .

استقرت قال :

« بكت على ماكانت تسمع من الذكر » (٣٩) .

ومن معجزاته ﷺ : هطول المطر فور استسقائه ، والبركة في الطعام في غزوة تبوك ، وفي غزوة الخندق ، وحادثة سراقة بن مالك ، وانقياد الشجر بأمره ، وإخباره ﷺ عن مصارع المشركين في بدر قبل مصرعهم ، وإخباره عن مقتل أمراء مؤتة قبل أن يأتي الخبر بمقتلهم ، وإخباره عن كتاب حاطب بن أبي بلتعة الذي بعثه إلى مكة ، وإخباره عن رجل يقاتل معه أنه من أهل النار فكان كذلك ، وإخباره عن استشهاد عمر وعثمان رضي الله عنهما .

ويعتقد أهل السنة بوقوع كرامة معينة على يد ولي لله معين . ومن الأمثلة على ذلك أن الصحابي الجليل أسيد بن حضير رضي الله عنه كلما كان يقرأ سورة الكهف ينزل من السماء مثل الظلة فيها أمثال السرج ، وهي الملائكة يستمعون لقرائته .

وأبو بكر الصديق رضي الله عنه لما ذهب بثلاثة أضياف معه إلى بيته ، وكان لايأكل لقمة إلا ربا من أسفلها أكثر منها ، فشبعوا وصارت أكثر مما هي قبل ذلك . وقد وردت هاتان الروايتان في صحيح البخاري ، باب علامات النبوة في الإسلام .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله :

« وقد جمع الله لنبينا محمد ﷺ جميع أنواع المعجزات والخوارق . أما العلم والأخبار الغيبية والسماع والرؤية فمثل أخبار نبينا ﷺ على الأنبياء المتقدمين وأممهم ومخاطبته لهم وأحواله معهم ، وغير الأنبياء من الأولياء وغيرهم بما يوافق ماعند أهل الكتاب الذين ورثوه بالتواتر أو بغيره من غير تعلم له منهم ، وكذلك أخباره عن أمور الربوبية والملائكة والجنة والنار بما يوافق الأنبياء قبله من غير تعلم منهم ، ويعلم أن ذلك موافق لنقول الأنبياء ، تارة بما في أيديهم من الكتب الظاهرة ونحو ذلك من النقل المتواتر ، وتارة بما يعلمه الخاصة من علمائهم ، وفي مثل هذا قد يستشهد أهل الكتاب وهو من حكمة إبقائهم بالجزية وتفصيل ذلك ليس هذا موضعه » .

وقال شيخ الإسلام عن الخوارق :

---

٣٩ ــ فتح الباري : ٥ / ٢٢٢ .

« وأما المعجزات التي لغير الأنبياء من باب الكشف والعلم فمثل عمر في قصة سارية ، وإخبار أبي بكر بأن ببطن زوجته أنثى ، وإخبار عمر بمن يخرج من ولده فيكون عادلاً ، وقصة صاحب موسى في علمه بحال الغلام ، والقدرة مثل قصة الذي عنده علم من الكتاب ، وقصة أهل الكهف ، وقصة مريم ، وقصة خالد بن الوليد ، وسفينة مولى رسول الله ﷺ وأبي مسلم الخولاني ، وأشياء يطول شرحها . فإن تعداد هذا مثل المطر وإنما الغرض التمثيل بالشيء الذي سمعه أكثر الناس . وأما القدرة التي لم تتعلق بفعله فمثل نصر الله لمن ينصره وإهلاكه لمن يشتمه » (٤٠) .

ويؤمن أهل السنة والجماعة بالمعجزات والخوارق كما روتها الأخبار الصحيحة دون تحريف أو تأويل أو تعطيل لأن الله سبحانه وتعالى لايعجزه شيء في الأرض ولافي السماء .

أما الخوارق النى ينسبها الخرافيون والقبوريون والباطنيون إلى شيوخهم وقادتهم فهي ــ إن صحت ــ أحوال شيطانية .

وبهذا يتضح فساد أقوال الإصلاحيين في المعجزات والكرامات .

الوجه الثالث ــ ليس الأمر كما يقولون بحديث الآحاد :

قال الشيخ محمد عبده :
« ولايمكن أن يتخذ حديثاً من حديث الآحاد دليلاً على العقيدة مهما قوي سنده ، فإن المعروف عند الأئمة قاطبة أن أحاديث الآحاد لاتفيد إلا الظن ، وإن الظن لايغني من الحق شيئاً » .

وعن رفع المسيح عليه السلام يقول :
« إنه حديث آحاد متعلق بأمر اعتقادي لأنه من أمور الغيب ، والأمور الاعتقادية لايؤخذ منها إلا بالقطعي ، لأن المطلوب فيها اليقين ، وليس في الباب حديث

٤٠ ــ مجموعة الرسائل والمسائل لشيخ الإسلام ابن تيمية الجزء الخامس ص ٤ و ٦ ، دار الباز للنشر والتوزيع ، مكة المكرمة . ومما يجدر ذكره أن الشيخ محمد رشيد رضا هو الذي أشرف على طباعة هذا الكتاب الذي يعد خير رد نرد به على رواد هذه المدرسة .

متواتر » (٤١) .

وليس الأمر كما يقولون (٤٢) في حديث الآحاد ، لأن حديث الآحاد أنواع :
فقد يتفرد به واحد فيسمى « غريباً » فإن اشترك اثنان أو ثلاثة في روايته عن الشيخ ، سمي « عزيزاً » ، فإن رواه جماعة أكثر من ثلاث سمي « مشهوراً » .
وأمر الشهرة نسبي ، فقد يشتهر عند أهل الحديث أو يتواتر ماليس عند غيرهم بالكلية .

وهناك تداخل بين المتواتر والآحاد ، لأن الحديث المتواتر ليس لرواته عدد معين ، وقد يكون هناك تواتر بالمعنى دون اللفظ (٤٣) . قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله :

« ... أما من أنكر تواتر حديث واحد فيقال له :
التواتر نوعان : تواتر عن العامة ، وتواتر عن الخاصة ، وهم أهل علم الحديث .
فأحاديث الشفاعة والصراط والميزان والرؤية وفضائل الصحابة ونحو ذلك متواتر عند أهل العلم ، وهي متواترة المعنى وإن لم يتواتر لفظ بعينه ، وكذلك معجزات النبي ﷺ الخارجة عن القرآن متواترة أيضاً ، وكذلك سجود السهو متواتر أيضاً عند العلماء ، وكذلك القضاء بالشفعة ونحو ذلك .

وعلماء الحديث يتواتر عندهم مالا يتواتر عند غيرهم ، لكونهم سمعوا مالا يسمع غيرهم ، وعلموا من أحوال النبي ﷺ مالم يعلم غيرهم ، والتواتر لايشترط له عدد معين ، بل من العلماء من ادعى أن له عدداً يحصل له به العلم من كل ماأخبر به كل مخبر ، ونفوا ذلك عن الأربعة وتوقفوا فيما زاد عليها ، وهذا غلط فالعلم يحصل تارة بالكثرة ، وتارة بصفات المخبرين ، وتارة بقرائن تقترن بأخبار وبأمور أخرى .

وأيضاً فالخبر الذي رواه الواحد من الصحابة والاثنان : إذا تلقته الأمة بالقبول والتصديق أفاد العلم عند جماهير العلماء ، ومن الناس من يسمي هذا :

---

٤١ ــ الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده : ٥ / ٣٧ .
٤٢ ــ من الذين يتفقون مع محمد عبده في هذه المسألة : الشيخ مصطفى المراغي ، ومحمود شلتوت ، وهيكل ، والخضري .
٤٣ ــ انظر الباعث الحثيث .

المستفيض . والعلم هنا حصل بإجماع العلماء على صحته ، فإن الاجماع لايكون على خطأ ، ولهذا كان أكثر متون الصحيحين مما يعلم صحته عند علماء الطوائف : من الحنفية ، والمالكية ، والشافعية ، والحنبلية ، والأشعرية ، وإنما خالف في ذلك فريق من أهل الكلام كما قد بسط في موضعه » (٤٤) .

وإذن فالجزم بأن حديث الآحاد لايمكن أن يتخذ دليلاً على العقيدة — مهما قوي سنده — ليس صحيحاً ، ولايملك قائله دليلاً على ذلك .

بل ثبت الدليل على الأخذ بخبر الواحد ، فرسول الله ﷺ كان يرسل الآحاد من الصحابة إلى الأمصار والملوك ليبلغوا الناس رسالة الإسلام ، وكان رسول الله يبلغ الناس أحكام العقيدة والأحكام العملية بدون تفريق بينهما ، وكان خبر هذا الواحد قطعياً وليس ظنياً ، وقال رسول الله ﷺ :

[نضر الله امرءاً سمع مقالتي فأداها كما سمعها ، فرب مبلغ أوعى من سامع] (٤٥) .

فلما ندب رسول الله إلى استماع مقالته وحفظها امرءاً — والامرؤ واحد — دل على أنه لايأمر أن يؤدى عنه إلا ماتقوم به الحجة على من أدى إليه ، لأنه إنما يؤدي عنه حلال ، وحرام يجتنب ، وحد يقام ، ومال يؤخذ ويعطى ، ونصيحة في دين ودنيا . ودل على أنه قد يحمل الفقه غير فقيه يكون له حافظاً ولايكون فقيهاً » (٤٦) .

ولو كان هناك دليل قطعي على أن العقيدة لاتثبت بخبر الآحاد كما يزعمون لصرح بذلك الصحابة والتابعون رضوان الله عليهم .

وعملياً يصعب التفريق بين أحكام العقيدة والأحكام العملية ، فالعقيدة يقترن معها عمل ، والعمل يقترن معه عقيدة ، ورسول الله ﷺ عندما أرسل آحاداً من الصحابة كمصعب للمدينة ، ومعاذ لليمن وغيرهما ، طلب منهم أن يبلغوا العقيدة والعمل ، والعمل ليس مقصوراً على عمل الجوارح ، بل أعمال القلوب أصل لعمل الجوارح ، وأعمال الجوارح تبع ، فكل مسألة عملية فإنه يتبعها إيمان القلوب وتصديقه وحبه ، وذلك عمل بل هو أصل العمل » (٤٧) .

---

٤٤ — فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ، الرياض : ١٨ / ٦٩ .

٤٥ — رواه الترمذي وابن ماجة ، وإسناده صحيح .

٤٦ — الرسالة للإمام الشافعي / ص : ٤٠٦ .

٤٧ —وجوب الأخذ بحديث الآحاد في العقيدة ، رسالة للشيخ محمد ناصر الدين الألباني .

وكان الصحابة رضوان الله عليهم يأخذون بخبر الواحد . روى الإمام الشافعي عن سفيان عن الزهري عن سعيد بن المسيب أن عمر بن الخطاب كان يقول :
« الدية للعاقلة ولاترث المرأة من دية زوجها شيئاً ، حتى أخبره الضحاك بن سفيان أن رسول الله كتب إليه أن يورث امرأة شيم الضبابي من ديته ، فرجع إليه عمر » (٤٨) .

وكذلك كان التابعون وتابعو التابعين ، ولم يصلنا عنهم أنهم ردوا حديثاً صحيحاً لأنه آحاد لايفيد إلا الظن أو أنهم فرقوا بين أحكام العقيدة والأحكام العملية .

فأين من هذا قول محمد عبده :
« فإن المعروف عند الأئمة قاطبة أن أحاديث الآحاد لاتفيد إلا الظن ، وأن الظن لايغني من الحق شيئاً » (٤٩) .

الوجه الرابع ـــ الإصلاحيون وأحاديث الصحيحين :

أفرد البخاري في صحيحه للمعجزات باباً مستقلاً أسماه [علامات النبوة] ، وليس فيه أحاديث غريبة ، ومع ذلك فليس لهذه الأحاديث كلها أية قيمة عند الإصلاحيين لأنها أحاديث آحاد لاتفيد إلا الظن ، وإن الظن لايغني من الحق شيئاً ـــ كما زعم محمد عبده ـــ ، وماثبت تواتره اللفظي يؤولونه تأويلاً يتفق مع رأيهم القائل بتقديم العقل على النقل عند التعارض ... وبهذا يكون محمد عبده قد مهد الطريق أمام تلامذته ليعبثوا في دين الله ، ومن الأمثلة على ذلك قول محمد حسين هيكل في كتابه حياة محمد بأن الحديث النبوي كُتِبَ بعد وفاة الرسول ﷺ بأكثر من قرنين ، وصار الحديث الصحيح في الحديث الكذب كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود بسبب تعدد الفرق

٤٨ ـــ رواه أحمد في المسند ٣ / ٤٥٢ وأبو داود والترمذي قال : حديث حسن صحيح وكلاهما أخرجه في كتاب الفرائض ، الباب الثامن عشر .

٤٩ ـــ إن الحديث في مثل هذا الكتاب يقتضي الإيجاز ، ومن شاء المزيد فليعد إلى كتاب الأحكام في أصول الأحكام لابن حزم ، وكتاب مختصر الصواعق المرسلة لابن القيم .

السياسية ، ومسايرة العلماء لحكامهم .

وفي موضع آخر يشكك بمنهج العلماء في تصحيح الأحاديث فيقول : « وكثير من هذه الأحاديث التي صحت عنهم ــ أي عند بعض علماء الحديث ــ كانت موضع نقد وتمحيص عند غيرهم من العلماء انتهى بهم إلى نفي الكثير منها ، كما كان الشأن في مسألة الغرانيق » .

وفي موضع ثالث تطاول هيكل على صحيحي البخاري ومسلم فقال : « ومع ماأبداه جامعو الحديث من حرص على الدقة لاريب فيه ، فقد جرح بعض العلماء كثيراً من الأحاديث التي أثبتها جامعوها على أنها صحيحة . قال النووي في شرح مسلم :
استدرك جماعة على البخاري ومسلم أحاديث أخلا بشرطهما فيها ، ونزلت عن درجة ماالتزماه » (٥٠) .

ومثل هذه الأباطيل كثيرة في كتاب هيكل [حياة محمد] ، ومن ذلك قوله : لم يصح عند البخاري أكثر من أربعة آلاف حديث من بين ستمائة ألف حديث .

ويقول عن علماء وأئمة خير القرون : ماكان لهم ولا لغيرهم أن ينازعوا [المأمون] في آرائه مخافة مايحل بهم .

ومما يجدر ذكره أن هيكل يردد كالببغاء أكاذيب أساتذته المستشرقين في كل ماقاله عن الحديث النبوي ، ومن جهة أخرى فالإصلاحيون يتفقون معه في هذه القضايا ، وقد دافعوا عن كتابه دفاع المستميت ... وفي ردنا على هؤلاء جميعاً نقول :

١ ــ تحدثنا في باب سابق عن تدوين الحديث النبوي ، ومنهج علمائنا في الجرح والتعديل ، ومعرفة الصحيح من الضعيف والموضوع ... ثم ذكرنا أقوال وشهادات عدد من علماء الغرب الذين أعربوا عن إعجابهم بمنهج المسلمين في البحث والتثبت ، وكل ماسبق ذكره أدلة تؤكد بطلان ادعاء هيكل ومجانبته للصواب فيما قاله عن تدوين الحديث .

٢ ــ مجموع أحاديث البخاري المكررة سبعة آلاف ومائتان وخمسة وسبعون

٥٠ ــ حياة محمد ، الدكتور محمد حسين هيكل : ص ٦٧ .

حديثاً ، وعددها من غير المكرر أربعة آلاف ، وأحاديث صحيح مسلم بلا تكرار أربعة آلاف ، ومآأخذ على البخاري ومسلم في صحيحيهما [٢١٠] حديثاً ، اشترك البخاري ومسلم في اثنتين وثلاثين منها ، واختص البخاري ب ٧٨ ، ومسلم ب ١٠٠ .

وهذه الأحاديث [٢١٠] صحيحة في حد ذاتها ، لكنها ليست مستجمعة لشروطهما الشديدة ، لأن عملهما كان قمة في التدقيق والتحقيق ، لقد عاش البخاري رضي الله عنه ستة عشر عاماً يدقق في صحيحه الذي أجمع المسلمون على أنه أصدق كتاب بعد القرآن الكريم ، ولاأدري لماذا نقل هيكل كلام النووي الآنف الذكر ولم ينقل كلامه التالي :
« اتفق العلماء رحمهم الله علي أن أصح الكتب بعد القرآن الكريم الصحيحان : البخاري ومسلم ، وتلقتهما الأمة بالقبول ، وكتاب البخاري أصحهما وأكثرهما فوائد ومعرفة ظاهرة وغامضة ، وقد صح أن مسلماً كان ممن يستفيد من البخاري ويعترف بأنه ليس له نظير في علم الحديث ، وهذا الذي ذكرناه من ترجيح كتاب البخاري هو المذهب المختار الذي قاله الجماهير وأهل الاتقان والحذق والغوص على أسرار الحديث » [٥١] .

وقال الشيخ أبو عمرو بن الصلاح رحمه الله :
« جميع ماحكم مسلم بصحته في هذا الكتاب فهو مقطوع بصحته ، والعلم النظري حاصل بصحته في نفس الأمر وهكذا ماحكم البخاري بصحته في كتابه وذلك لأن الأمة تلقت ذلك بالقبول سوى من لايعتد بخلافه ووفاقه في الإجماع » .

وقال أبو جعفر محمود بن عمرو العقيلي :
« لما ألف البخاري كتاب الصحيح عرضه على أحمد بن حنبل ويحي بن معين وعلي بن المديني وغيرهم ، فاستحسنوه وشهدوا له بالصحة ، إلا في أربعة أحاديث . قال العقيلي : والقول فيها قول البخاري وهي صحيحة » [٥٢] .
٣ ــ وأحاديث الصحيحين متواترة المعنى ، وإن لم يتواتر لفظ بعينه . قال أبو الطيب صديق حسن خان رحمه الله تعالى :
« والخلاف في إفادة خبر الآحاد الظن أو العلم مقيد بما إذا لم يضم إليه مايقويه ،

٥١ ــ صحيح مسلم بشرح الإمام النووي : ١ / ١٤ .
٥٢ ــ هدي الساري ، لابن حجر العسقلاني .

وأما إذا انضم إليه مايقويه ، أو كان مشهوراً أو مستفيضاً ، فلايجري فيه الخلاف المذكور ، ولانزاع في أن خبر الواحد إذا وقع الإجماع على العمل بمقتضاه فإنه يفيد العلم ، لأن الإجماع عليه قد صيره من المعلوم صدقه .
وهكذا خبر الواحد إذا تلقته الأمة بالقبول ، فكانوا بين عامل به ومتأول له ــ والتأويل فرع القبول ــ ومن هذا القسم أحاديث صحيحي البخاري ومسلم » .
« واختار ابن الصلاح أن ماأخرجه الشيخان في صحيحيهما أو رواه أحدهما : مقطوع بصحته ، والعلم اليقيني النظري واقع به واستثنى من ذلك أحاديث قليلة تكلم عليها بعض أهل النقد من الحفاظ ، كالدارقطني وغيره ، وهي معروفة عند أهل هذا الشأن ، ونقل مثل هذا القول العراقي ــ في شرحه على ابن الصلاح ــ عن الحافظ أبي الفضل محمد بن طاهر المقدسي ، وأبي نصر عبد الرحيم عبد الخالق بن يوسف ، ونقله البلقيني عن أبي إسحاق ، وأبي حامد الاسفرائيني ، والقاضي أبي الطيب ، والشيخ أبي إسحاق الشيرازي من الشافعية ، وعن السرخسي من الحنفية ، وعن القاضي عبد الوهاب من المالكية ، وعن أبي يعلى وأبي الخطاب وابن الزاغوني من الحنابلة ، وعن أكثر أهل الكلام من الأشعرية ، وعن أهل الحديث قاطبة ، وهو الذي اختاره الحافظ ابن حجر والمؤلف » (٥٣) .

ونقل ابن القيم في كتابه [الصواعق المرسلة] عن فقهاء الحنفية بأن خبر المستفيض يوجب العلم ، كما في قول الرسول ﷺ [لاوصية لوارث] .
والمستفيض هو المشهور نفسه وهذا يعني أنه حديث آحاد ، وانفرد فقهاء الحنفية بجعله قسماً بين المتواتر والآحاد ، وهذا التقسيم لايغير من الحقيقة شيئاً .
٤ ــ أما قول هيكل : لم يصح عند البخاري أكثر من أربعة آلاف حديث من بين ستمائة ألف حديث فهو افتراء محض يرد عليه البخاري نفسه :
« لم أخرج في هذا الكتاب إلا صحيحاً ، وماتركت من الصحيح أكثر » (٥٤) ، ويكذّب قول هيكل إجماع المحققين من أهل الحديث على أن البخاري لم يخرج في كتابه كل حديث صحيح .

---

٥٣ ــ الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث ، تأليف أحمد محمد شاكر .
٥٤ ــ رواه الاسماعيلي عن البخاري ، ونقل مثل هذا القول عن البخاري : ابراهيم بن معقل النسفي ، ومحد بن أبي حاتم البخاري الوراق .

٥ ـــ زعم هيكل أن علماء الحديث كانوا ينافقون للحكام !!
ونحن لاننكر أن نفراً من أدعياء العلم كانوا كذلك في القديم والحديث ، ولكن المنهج الدقيق الذي رسمه علماء الحديث كشف الوضاعين وماخفي من أمرهم وماظهر ... لقد قيض الله لأمتنا رجالاً صدقوا ماعاهدوا الله عليه . فبينوا لنا الحديث الصحيح من الضعيف أو الموضوع ، كما بينوا حال الرواة وأوضاعهم وتاريخهم ، ولم تأخذهم في الله لومة لائم ، وصنفوا كتباً جليلة القدر في هذا الفن ، وقد أشرنا إليها في الباب السابق من هذا الكتاب [منهج رجال خير القرون في كتابة السيرة النبوية] .

وأين هيكل من محنة الإمام أحمد بن حنبل على يد الطاغية المأمون ؟!

بل أين هيكل من محنة الإمام مالك ، وأبي حنيفة النعمان ، والشافعي ، والبخاري وغيرهم وغيرهم من فحول علماء الحديث ؟!

ولكن هيكل كان من الذين ينافقون للحكام ، وتهالك على الوزارة في نظام فاسد يدين بالولاء للإنجليز ، وهو يظن بغيره كظنه بنفسه ، وشتان شتان بينه وبين رجال خير القرون (٥٥) .

الوجه الخامس ــ تعارض الحديث مع القرآن :

يرى هيكل أنه لابد من عرض الحديث على القرآن الكريم ، فإن وافقه كان الحديث صحيحاً ، وإن خالفه فليس صحيحاً مهما قوي سنده ... ويستدل على ذلك بما يلي :

١ ـــ بما ورد عن النبي ﷺ :
« إنكم ستختلفون من بعدي ، فماجاءكم عني فأعرضوه على كتاب الله ... فماوافقه فمني ، وماخالفه فليس عني » .

٢ ـــ قال ابن خلدون :
« وإنني لاأعتقد صحة سند حديث ولاقول عالم صحابي يخالف ظاهر القرآن

٥٥ ـــ من أعلام المدرسة الإصلاحية الذين نحو هذا المنحى أحمد أمين في كتابيه فجر الإسلام وضحاه ، بل كانت كتبه أشد خطراً من كتاب حياة محمد لهيكل ، وقد ذكرت شيئاً يسيراً عن منهجه فيما كتبته عن المستشرقين .

وإن وثقوا رجاله ، فرب راو يوثق للاغترار بظاهر حاله وهو سيء الباطن . ولو انتقدت الروايات من جهة فحوى متنها ، كما تنتقد من جهة سندها ، لقضت المتون على كثير من الأسانيد بالنقص . وقد قالوا :
إن من علامة الحديث الموضوع مخالفته لظاهر القرآن أو القواعد المقررة في الشريعة أو البرهان العقلي أو للحس والعيان وسائر اليقينيات » (٥٦) .

أما الحديث الذي استدل به هيكل فليس صحيحاً ــ رغم كثرة رواياته ــ .
قال الشافعي رحمه الله :
« ماروى هذا أحد يثبت حديثه في شيء صغير ولاكبير ، وإنما هي رواية منقطعة عن رجل مجهول ونحن لانقبل مثل هذه الرواية في شيء » (٥٧) .

وقال البيهقي : « رواه خالد بن أبي كريمة عن أبي جعفر عن رسول الله ﷺ ، وخالد مجهول ، وأبو جعفر ليس بصحابي فالحديث منقطع » .

وقال البيهقي أيضاً :
« والحديث الذي روي في عرض الحديث على القرآن باطل لايصح ، وهو ينعكس على نفسه بالبطلان فليس في القرآن دلالة على عرض الحديث على القرآن » (٥٨) .

وقال ابن حزم في الحسين بن عبد الله ــ أحد رواة هذا الحديث من بعض الطرق ــ :
« الحسين بن عبد الله متهم بالزندقة » . وقال عبد الرحمن بن مهدي :
« إنه من وضع الخوارج والزنادقة » (٥٩) .

والحديث في متنه غير صحيح لتعارضه مع قوله تعالى :
﴿ ياأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم ، فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ﴾ (٦٠) .

---

٥٦ ــ حياة محمد ، للدكتور حسين هيكل / ص : ٦٧ .
٥٧ ــ الرسالة / ص : ٢٢٥ .
٥٨ ــ مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة للسيوطي / ص : ١٥ و ٦ .
٥٩ ــ الإحكام لابن حزم : ٢ / ٧٦ .
٦٠ ــ سورة النساء ، الآية : ٥٩ .

وقوله تعالى :
﴿ وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾ (٦١) .

وقوله تعالى :
﴿ وماينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى ﴾ (٦٢) .
وقوله ﷺ :
« من أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني فقد عصى الله » (٦٣) .

ومانقله هيكل عن ابن خلدون من تعارض الحديث مع ظاهر القرآن ، أو مع البرهان العقلي ، أو مع الحس والعيان ليس صحيحاً وقد أخطأ ابن خلدون فيما ابتدعه من قواعد جديدة في علوم الحديث ، وليس حال ابن خلدون كحال هيكل .

إن أعداء السنة النبوية توسعوا في نقد متون الأحاديث وضعفوا كل حديث يتعارض مع أهوائهم وبدعهم ، وخلافنا معهم ليس حول بضعة أو مئات الأحاديث أو حول طريقة تصحيح الأحاديث وتضعيفها ... إن الخلاف أعمق وأشمل : إنهم ــ أعداء السنة ــ لايؤمنون ببعثة المصطفى ﷺ ولايعتقدون بأن الله قد أنزل القرآن على عبده ورسوله محمد ﷺ ، ولايرون أن الله جلت قدرته قد ميّز نبيه ﷺ بشيء من المعجزات وخوارق العادات .

هذا هو حقيقة خلافنا مع أعداء السنة من المستشرقين وغيرهم فهل يعرف هيكل ذلك أم يجهله ؟!

لانريد أن نحاسب هيكل على نواياه ، وكل الذي نعلمه عنه أنه ردد أقوال المستشرقين وحاول أن يلبسها لبوساً شرعياً فضل بذلك وأضل .

---

٦١ ــ سورة النحل ، الآية : ٦٤ .
٦٢ ــ سورة النجم ، الآية : ٣ ــ ٤ .
٦٣ ــ رواه البخاري : كتاب الجهاد ، باب « يقاتل من وراء الأمير ويتقي به » ، ومسلم ٣ / ١٤٦٦ // ٣٢ ، ٣٣ كتاب الإمارة ــ طبعة عبد الباقي .

الوجه السادس ــ الغرانيق والنقد العلمي الحديث :

قال هيكل في قصة الغرانيق :
« رواها ابن سعد في طبقاته الكبرى ، ولم يعرض لها بنقد ، ووردت في الصحيح من بعض كتب الحديث مع اختلاف في الرواية ، وذكرها ابن كثير في كتابه البداية والنهاية فقال :
[ذكروا قصة الغرانيق ، وقد أحببنا الاضراب عن ذكرها صفحاً لئلا يسمعها من لايضعها في موضعها ، إلا أن أصل القصة في الصحيح] .

وزعم هيكل أن القصة وردت في صحيح البخاري ، وبعد ذكر أقوال العلماء قال ــ أي هيكل ــ :
« أما أنا فلم أتردد في نفي القصة دون أن أكتفي بما للرسل من عصمة بل استعنت بقواعد النقد العلمي الحديث » (٦٤) .

وفي أقوال هيكل مغالطات كثيرة نوجز الرد عليها فيما يلي :
١ ــ الذي ورد في صحيح البخاري أن الرسول ﷺ عندما قرأ سورة النجم سجد وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس ، وليس في صحيح البخاري أن الشيطان تكلم على لسان رسول الله :
تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى ، والغريب في القصة ليس سجود المشركين ، بل الغريب ذكر أصنام المشركين بخير على لسان رسول الله ﷺ .
٢ ــ والذي أضرب ابن كثير عن ذكره كلام بعض المفسرين ، وقد أوهم هيكل القراء بأن ابن كثير اعترف بصحة القصة ، وهذا لم يقله ابن كثير .
٣ ــ قال ابن خزيمة عن قصة الغرانيق :
« هذا من وضع الزنادقة » . وقال البيهقي : « هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل وجميع رواتها مطعون فيهم » .

ومن كبار العلماء الذين ردوا هذه القصة وبيّنوا عدم صحتها :
ــ أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد المعروف بابن العربي توفي سنة ٥٤٢ هـ في تفسيره .
ــ القاضي عياض بن موسى بن عياض ٥٤٤ هـ في كتابه [الشفا في حقوق

٦٤ ــ حياة محمد ، لهيكل / ص : ٦٧ .

المصطفى] .

ـــ القرطبي في تفسيره أحكام القرآن .

ـــ الكرماني من شراح البخاري ٧٨٦ هـ .

ـــ الشوكاني ١٢٥٠ هـ في فتح القدير .

ـــ الآلوسي في تفسيره روح المعاني ١٢٧٠ هـ .

ـــ صديق حسن خان في تفسيره فتح البيان .

وكل من هؤلاء العلماء له أدلته في رد القصة وبيان عدم صحتها .

وللشيخ محمد ناصر الدين الألباني رسالة أسماها [نصب المجانيق لنسف قصة الغرانيق] تتبع رواتها وبين بطلانها (٦٥) .

وإذن فقصة الغرانيق ليست صحيحة من حيث سندها ، أما الاعتماد على قواعد مايسمى بالنقد العلمي الحديث في رد القصة وغيرها فتلاعب في الدين وتقليد أعمى للمستشرقين .

الوجه السابع ـــ إنكارهم نزول المسيح :

عند تفسير قوله تعالى :

﴿ إذ قال الله ياعيسى إني متوفيك ورافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا ﴾ .

عرض الشيخ محمد عبده أقوال العلماء في نزول المسيح عليه السلام ثم انتهى إلى ترجيح عدم نزوله ، وأوّل الآية فقال :

رافعك : الرفع هو رفع الروح بعد وفاته العادية ، ونزوله وحكمه في الأرض بغلبة روحه وسر رسالته على الناس .

وقال :

فإذا سأل سائل عن المسيح الدجال وقتل عيسى له .

فالجواب أن الدجال رمز للخرافات والدجل والقبائح التي تزول بتقرير الشريعة علي وجهها والأخذ بأسرارها وحكمها ، وأن القرآن أعظم هاد إلى هذه الحكم والأسرار وسنة الرسول ﷺ مبينة لذلك فلاحاجة للبشر إلى إصلاح وراء الرجوع إلى ذلك » (٦٦) .

٦٥ ـــ انظر رسالة نصب المجانيق للشيخ الألباني .

٦٦ ـــ الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده : ٥ / ٣٨ .

ونحا الشيخ محمود شلتوت منحى محمد عبده فأنكر نزول المسيح عليه السلام في قوله :
« إنه لامحل له بعد سقوط رفعه حياً » (٦٧) .

وعن رفعه قال : رفع روحه بعد وفاته .

ويلتقي محمد عبده وشلتوت ومعظم الإصلاحيين مع القاديانية في هذا الاعتقاد .
ونزول المسيح عليه السلام ثابت بالكتاب والسنة ، وقد أشار القرآن الكريم إلى نزوله في قوله تعالى :
﴿ وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله وماقتلوه وماصلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه مالهم به من علم إلا اتباع الظن وماقتلوه يقيناً بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً . وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً ﴾ (٦٨) .

وورد في الصحيحين : عن أبي هريرة قال ، قال رسول الله ﷺ :
« والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويفيض المال حتى لايقبله أحد ، وحتى تكون السجدة خيراً له من الدنيا ومافيها » ، ثم يقول أبو هريرة : اقرأوا إن شئتم :
﴿ وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً ﴾ (٦٩) .

والأحاديث في نزول المسيح عليه السلام كثيرة ، ذكر الشوكاني منها في التوضيح تسعة وعشرين حديثاً مابين صحيح وحسن وضعيف منجبر منها ماهو مذكور في أحاديث الدجال ومنها ماهو مذكور في أحاديث المنتظر ، وتنظم إلى ذلك أيضاً الآثار الواردة عن الصحابة فلها حكم الرفع إذ لامجال للاجتهاد في ذلك .

---

٦٧ ــ مجلة الرسالة العدد : ٣٦٢ .
٦٨ ــ سورة النساء ، الآيات : ١٥٧ و ١٥٨ و ١٥٩ .
٦٩ ــ أخرجه الشيخان واللفظ للبخاري ، انظر فتح الباري ٦ / ٤٩٠ // ٣٤٤٨ السلفية ، كتاب الأنبياء باب نزول عيسى عليه السلام ، ومسلم ١ / ١٣٥ // ٢٤٢ ، ٢٤٣ من كتاب الإيمان .

وقال أبو الحسن الإبري :

« قد تواترت الأخبار واستفاضت بكثرة رواتها عن المصطفى ﷺ بخروج المهدي وأنه من أهل بيته وأنه يملك سبع سنين وأنه يملأ الأرض عدلاً وأنه يخرج مع عيسى صلى الله على نبينا وعليه وسلم فيساعده على قتل الدجال بباب لد بأرض فلسطين وأنه يؤم هذه الأمة ويصلي عيسى خلفه » اهـ (٧٠) .

وقصارى القول إن الأحاديث الواردة في نزول عيسى عليه السلام متواترة ، وكذا الواردة في المهدي المنتظر وفي الدجال ، وهي في الصحاح والمعاجم والمسانيد .

حسن الترابي ونزول المسيح :

أنكر أستاذ الحقوق الدستورية في الجامعات السودانية الدكتور حسن عبد الله الترابي نزول المسيح عليه السلام في آخر الزمان ، فقلت له في مجلس ضمنا قبل أكثر من إحدى عشرة سنة كيف تنكر حديثاً متواتراً ؟! قال : أنا لاأناقش الحديث من حيث سنده وإنما أراه يتعارض مع العقل ، ويقدم العقل على النقل عند التعارض .

وقال أيضاً : هناك أحاديث قالها الرسول ﷺ بصفته البشرية ، وهي ليست حجة رغم صحة أسانيدها ، وتوسع في ذكر نماذج من هذه الأحاديث .

ونادى ــ غفر الله لنا وله ــ بوجوب تجديد بعض كتب الأصول ، وفي محاضرة له في مؤتمر للطلبة المسلمين (٧١) في الولايات المتحدة الأمريكية سئل عن الاجتهاد والتقليد فقال :

هذه الشروط ــ أي شروط الاجتهاد ليست منضبطة كشروط الدكتوراة والماجستر هنا في الولايات المتحدة الأمريكية .

وتأكد لي أن الدكتور حسن الترابي لم يتراجع عن هذه الآراء بل مازال يدعو لها ولما هو أشد خطورة منها . لقد سئل في المحاضرة التي أشرت إليها

٧٠ ــ نظم المتناثر من الحديث المتواتر ، تأليف العلامة محمد بن جعفر الكتاني ، ص : ٢٢٨ ، دار الكتب السلفية بمصر . والإبري هو أبو الحسين محمد بن الحسين بن إبراهيم الإبري السجستاني مصنف كتاب مناقب الشافعي .

٧١ ــ كانت هذه المحاضرة بعد أربع سنين من اشتراك الدكتور حسن الترابي في الحكم ، وكان وقتذاك وزيراً للعدل .

قبل قليل عن السنة والشيعة ، وعن الأسباب التي دعته إلى تأييد ثورة الخميني في إيران فكان مما قاله :

« ليس صحيحاً أن التراث السني والشيعي متباينان هذا التباين ، فكتاب الشوكاني دليل لنا رغم أنه شيعي زيدي ، ومايجمع المسلمين أكثر مما يفرقهم ، فمايجمعهم ٩٥٪ ومايفرقهم ٥٪ .

وسئل هل أنت على المذهب الشيعي فأجاب : أنا لاأسمي نفسي شيعياً ولاسنياً .

سني و شيعي لاتعني أنه يتبع سنة الرسول أو لايتبعها . معناها حزب سياسي ، ومرشح لكل حزب ، وأنا لاأصوت لهذا ولا لهذا .

وقال :

أما القرآن فكلنا نتفق عليه ، أما أحاديث الرسول ﷺ فنتفق على معظمها سنة وشيعة ، أما التراث السني والشيعي ففيه من الترهات والخرافات عند أهل السنة والشيعة ، وفيه فوائد .

ومضى الدكتور الترابي — في محاضرته — يتحدث في قضايا حساسة يحتاج طرحها إلى بحث شاق ، وعلم جم ، وإحاطة فعلية بأصول الإسلام وفروعه .

ولي على آرائه في هذه المحاضرة وغيرها ملاحظات أعرضها فيما يلي بشيء من الإيجاز :

١ — موقفه من نزول المسيح عليه السلام لايختلف عن موقف الإصلاحيين ، وقد أشرت إلى فداحة خطأهم في الصفحات الماضية .

٢ — أما الأحاديث التي قالها الرسول ﷺ بصفته البشرية — على حد زعم الترابي ومن سبقه إلى مثل هذا القول — فالعبرة فيها بكمال النهاية لابنقص البداية ، وكمال النهاية في حديث تأبير النخل قوله ﷺ :
« أنتم أعلم بأمر دنياكم » ، ويكون هذا الحديث ناسخاً للحديث الأول .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله :

« الأنبياء صلوات الله عليهم معصومون فيما يخبرون به عن الله تعالى وفي تبليغ رسالاته باتفاق الأمة . وأما العصمة في غير مايتعلق بالتبليغ فللناس فيه نزاع :

والقول الذي عليه جمهور الناس ـــ وهو الموافق للمنقول عن السلف ـــ إثبات العصمة من الإقرار على الخطأ والذنوب مطلقاً » (٧٢) .

والمشكلة عند أصحاب هذا الرأي أنهم يعدون كل حديث يخالف أهواءهم من الأحاديث التي قالها ﷺ بصفته البشرية .

٣ ـــ لأدري كيف تكون شروط الاجتهاد غير منضبطة عند علماء الأصول ، وتكون شروط الدكتوراة والماجستر منضبطة في الولايات المتحدة الأمريكية ؟!

إن الذين يعرفون جامعات الولايات المتحدة يعلمون أن شهادات معظمها مزورة ، ولم تعد مقبولة حتى في بعض الدول المتخلفة .

٤ ـــ قال الترابي عن الشوكاني رحمه الله :

« فكتاب الشوكاني دليل لنا رغم أنه شيعي زيدي » ، وجوابنا على ذلك : كان الشوكاني زيدياً ، ثم اعتنق مذهب أهل السنة ، وتخلى عن مذهب الزيدية ، وعاش بقية حياته في صراع مع بني قومه ، وكتابه الذي فات المحاضر ذكر اسمه هو نيل الأوطار وهو من كتب أهل السنة ومراجعهم المهمة .

ومن جهة أخرى فهناك بون شاسع بين الزيدية ، والاثني عشرية الإمامية التي يدين بها زعيم الثورة الإيرانية [آية الله الخميني] ، ولاأدري كيف اختلطت الأمور على الدكتور الترابي ووقع بمثل هذا الخطأ المؤسف ؟!

٥ ـــ زعم الترابي أن السنة والشيعة يتفقون على ٩٥٪ من أصول الإسلام وفروعه ... ليته أخبرنا كيف توصل إلى هذه الاحصائية التي تشبه إلى حد كبير نتائج انتخابات الرؤساء العسكريين في دول العالم الثالث .

ويبدو أن حسن الترابي ـــ هداه الله ـــ سمع ذكر هذه النسبة من دعاة التضليل الشيعة الذين يسمون أنفسهم دعاة التقريب بين المذاهب ، أو أن الأمور التبست عليه فظن أنه ليس هناك من فروق تستحق الذكر بين الزيدية والإمامية الاثني عشرية .

وكان من أبسط الواجبات عليه قبل أن ينتهي إلى هذه النتائج المؤسفة أن يعود إلى أمهات كتب الشيعة الإمامية الاثني عشرية أمثال :

الكافي للكليني ، وفصل الخطاب في إثبات تحريف كتاب رب الأرباب

---

٧٢ ـــ فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية : ٢ / ٢٨٣ طبع كردستان العلمية بالقاهرة .

للطبرسي ، ، وسائل الشيعة للحر العاملي ، وروضات الجنات في أحوال العلماء والسادات للموسوي الخونساري ، وتفسير الصافي للكاشاني ، والخصال للصدوق ، وتنقيح المقال للمامفاني ، والاستبصار فيما اختلف من الأخبار للطوسي .

ومن أهم كتبهم الحديثة : المراجعات للمدعو عبد الحسين شرف الدين ، وعقائد الإمامية للدكتور محمد رضا مظفر ، واقع الشيعة لمحمد المهدي الشيرازي ، أبو هريرة عبد الحسين شرف الدين .

بل من أبسط الواجبات على المحاضر أن يعود إلى كتب زعيم الثورة الإيرانية الخميني ومن أشهرها : تحرير الوسيلة ، والحكومة الإسلامية .

لو عاد المحاضر إلى هذه المراجع المهمة عند الشيعة الإمامية لعلم علم اليقين أننا نختلف معهم اختلافاً لالقاء بعده . ومن أهم الأمور التي نختلف معهم فيها :

ــ القرآن الكريم : فهم يعتقدون أن لهم قرآناً غير قرآننا يسمى مصحف فاطمة ، وليس فيه من قرآننا حرف واحد .
ــ السنة : فالرافضة لايؤمنون بصحة أي حديث عند أهل السنة ولو كان متواتراً إلا إذا رواه أئمتهم . وليس أئمتهم من آل البيت وإنما من الآيات والمراجع الذين أشربوا حب الكذب وأسموه تقية .
ــ يعتقد الرافضة كفر أصحاب رسول الله ﷺ إلا خمسة أو سبعة منهم .
ــ يؤمن الرافضة بعصمة أئمتهم الاثني عشر من الخطأ والزلل ... ومثل هذا الاعتقاد يتعارض مع المفاهيم الديموقراطية التي ينادي بها الترابي ويزعم أنها مفاهيم إسلامية .
ــ ومن الأمور الخطيرة التي يعتقدها أهل الرفض : التقية ، والرجعة ، وتعظيم المشاهد والقبور ، والقول بكفر أهل السنة ... وليس هذا اعتقاد فئة منهم وإنما هو اعتقاد جميع آيات ومراجع الإمامية الاثني عشرية .

فأين ال ٩٥٪ التي تجمع بيننا وبين الرافضة ، فإن قال الترابي : إن بين أهل السنة خرافيون يعظمون المشاهد و القبور ، قلت : ليس بين الشيعة من لايعظم المشاهد والقبور ويحج إليها ، أما الخرافيون من المتسبين لأهل السنة فأعمالهم تتعارض مع الأدلة الشرعية من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وليس

عند الشيعة أدلة تتعارض مع تعظيم المشاهد والقبور .
٦ ــ من حق الترابي أن يكون شيعياً أو سنياً أو حيادياً كما يصور له عقله ، ولكن ليس من حقه القول : إن السنة لاتعني الالتزام بسنة المصطفى ﷺ ، وهو لايملك دليلاً يدعم فيه قوله وهيهات له ذلك .

أما تصويره للسنة والشيعة بحزبين متنافسين وهو لايريد أن يصوت لهذا الحزب أو لذاك ... فأمر مؤسف !! كيف لايعترف الدكتور بجهله التام في عقائد الشيعة وأصولهم وتاريخهم ؟!

أهذا هو الاجتهاد الذي يتحدث عنه في محاضرته الآنفة الذكر ، وغيرها من المحاضرات السابقة واللاحقة ؟!

أهذه هي مفاهيم التجديد في أصول الفقه وغيره التي ينادي بها أستاذ الحقوق الدستورية الدكتور حسن الترابي ؟!
إنها جرأة والله لايحسد عليها .
وبعد : هذه ملاحظات عن الدكتور الترابي وجدت نفسي مضطراً لذكرها خلال حديثي عن موقف الإصلاحيين من نزول عيسى عليه السلام في آخر الزمان ، وكم أتمنى أن يشرح الله صدر الترابي للحق ويتراجع عن مثل هذه البدع التي يدعو لها وماذلك على الله بعزيز .

الوجه الثامن ــ موقفهم من الملائكة والجن :

قال الشيخ محمد عبده :
« يشعر كل من فكر في نفسه ووازن بين خواطره عندما يهم بأمر فيه وجه للحق أو للخير ، ووجه للباطل أو للشر ، بأن في نفسه تنازعاً كان الأمر قد عرض فيها على مجلس شورى ، فهذا يورد وذاك يدفع ، واحد يقول افعل وآخر يقول لاتفعل ، حتى ينتصر أحد الطرفين ، ويترجح أحد الخاطرين ، فهذا الشيء الذي أودع في أنفسنا ونسميه قوة وفكراً ، ــ وهو في الحقيقة معنى لايدرك كنهه ، وروح لانكتنه حقيقتها ــ ، لايبعد أن يسميه الله ملكاً ، أو يسمي أسبابه ملائكة ، أو ماشاء من الأسماء ، فإن التسمية لاحجر فيها على الناس فكيف

يحجر فيها على صاحب الإرادة المطلقة والسلطان النافذ والعلم الواسع » [٧٣] .

ونقل الشيخ مصطفى صبري عن الشيخ محمود شلتوت ــ أحد تلامذة محمد عبده ــ أنه قال :

لقد جارى القرآن في مسألة وجود الشيطان عقيدة العرب الجاهليين . وكان شلتوت في تفسيره كلما مر على ذكر الشيطان قال :

« إنه الوسواس ونوازع الشر » [٧٤] .

وقال تلامذة محمد عبده : « إن التسمية وحدها لاتعطي أحداً علم الحقيقة ، وإن من فهم الحقيقة لايحجبها عنه اختلاف التسمية ، وأراد بهذا ــ أي محمد عبده ــ أن يحتج على الماديين ويقنعهم بصحة ماجاء به الوحي من طريق علمهم المسلم عندهم » [٧٥] .

وليطمئن تلامذة محمد عبده أننا لانعتقد بأن شيخهم ينكر وجود الملائكة والجن . ولو كان الأمر كذلك لكان مرتداً عن الإسلام ... ولكن هل يجوز له ــ ومن أجل إقناع الماديين ــ أن يسمي الملائكة قوة وفكراً ثم يقول : [فهذا الشيء الذي أودع في أنفسنا ونسميه قوة وفكراً ... لايبعد أن يسميه الله ملكاً ، أو يسمي أسبابه ملائكة] ؟!

وليس الأمر كما يقول : فالملائكة خلق من خلق الله لايعصون له أمراً ، ولايستنكفون عن عبادته ، ويفعلون مايؤمرون ، وقد ورد ذكرهم في القرآن الكريم في أكثر من ثمانين آية ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة ﴾ [٧٦] .

﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين ﴾ [٧٧] .

﴿ من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين ﴾ [٧٨] .

---

٧٣ ــ الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده : ٤ / ١٤٣ .

٧٤ ــ مقالة كتبها الشيخ محمد شلتوت في مجلة الرسالة العدد : ٤٦٢ [عن كتاب القول الفصل للشيخ مصطفى صبري] .

٧٥ ــ تفسير المنار : ٢٦٨ ، وتحذير العبقري من محاضرات الخضري للشيخ محمد العربي التباني .

٧٦ ــ سورة البقرة ، الآية : ٣١ .

٧٧ ــ سورة البقرة ، الآية : ٣٤ .

٧٨ ــ سورة البقرة ، الآية : ٩٨ .

﴿ يعلمون الناس السحر وماأنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت ﴾ [٧٩] .
ويقول سبحانه وتعالى عن الملائكة الموكلين بالنار وعذابها :
﴿ ياأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لايعصون الله ماأمرهم ويفعلون مايؤمرون ﴾ [٨٠] .

والملائكة أنواع : فمنهم الموكل بأداء الوحي إلى الرسل ، وهو الروح الأمين جبريل عليه السلام ، ومنهم الموكل بالقطر وهو ميكائيل عليه السلام ، ومنهم الموكل بالصور وهو إسرافيل ، ومنهم الموكل بقبض الأرواح وهو ملك الموت ، ومنهم الموكل بأعمال العباد وهم الكرام الكاتبون ، ومنهم الموكل بالجنة ونعيمها وهم رضوان ومن معه ، ومنهم الموكل بالنار وعذابها وهم مالك ومن معه ، ومنهم حملة العرش ، ومنهم ملائكة يدخلون البيت المعمور كل يوم ثم لايعودون إليه ، وغيرهم كثير جداً .

والجن كذلك خلق من خلق الله سبحانه وتعالى ، منهم من آمن بدعوة محمد ﷺ ، ومنهم الكافرون ، وقد ورد ذكرهم في القرآن الكريم في أكثر من ثلاثين آية ، وورد ذكر الشيطان في أكثر من تسعين آية .

ولايصح لمحمد عبده ولالغيره أن يتلاعب في اللفظ رغبة منه في هداية ملحد ، فالحرص على سلامة التصور الإسلامي أهم عند الله من توبة مشرك . وقد فتح محمد عبده باب الشر على مصراعيه أمام من جاء بعده من تلامذته فزعم بعضهم أن الشيطان هو نوازع الشر ، ورد بعضهم الآخر الأحاديث الصحيحة التي أشارت إلى دور الجن وأثرهم لأنها ظنية كما يزعمون .

الوجه التاسع ـــ خرافة تحضير الأرواح والدعوة إلى وحدة الوجود :

قال الشيخ محمد مصطفى المراغي في شهادة التوثيق التي منحها لهيكل في مقدمة كتابه [حياة محمد] :
« وعلم استحضار الأرواح فسر للناس شيئاً كثيراً مما كانوا فيه يختلفون ، وأعان على فهم تجرد الروح وإمكان انفصالها وفهم ماتستطيعه من السرعة في طي

٧٩ ـــ سورة البقرة ، الآية : ١٠٢ .
٨٠ ـــ سورة التحريم ، الآية : ٦ .

الابعاد ، وقد انتفع الدكتور هيكل بشيء من هذا في تقريب قصة الاسراء فأتى بشيء طريف » .

وقال هيكل :
« وأحسبك لو سألت الذين يقولون بالاسراء بالروح في هذا لما رأوا فيه عجباً بعد الذي عرف العلم في وقتنا الحاضر من إمكان التنويم المغناطيسي للتحدث عن أشياء واقعة في جهات نائية » .

وعن وحدة الوجود قال هيكل :
« ففي الاسراء والمعراج في حياة محمد الروحية معنى سام غاية السمو . معنى أكبر من هذا الذي يصورون ، والذي قد يشوب بعضه من خيال المتكلمة الخصب حظ غير قليل .
فهذا الروح القوي قد اجتمعت فيه في ساعة الأسراء والمعراج وحدة هذا الوجود بالغة غاية كمالها . لم يقف أمام ذهن محمد وروحه في تلك الساعة حجاب من الزمان أو المكان أو غيرهما من الحجب التي تجعل حكمنا نحن في الحياة نسبياً محدوداً بحدود قوانا المحسة،والمدبرة ، والعاقلة .
تداعت في هذه الساعة كل الحدود أمام بصيرة محمد ، واجتمع الكون كله في روحه ، فوعاه منذ أزله إلى أبده ، وصوره في تطور وحدته إلى الكمال عن طريق الخير والفضل والجمال والحق في مغالبتها وتغلبها على الشر والنقص والقبح والباطل بفضل من الله ومغفرة . وقال أيضاً :
فمحمد أدرك وحدة الكون والوجود ، وانعدمت أمامه نهائية المكان » (٨١) .

ولاأدري من أي شيء أعجب ؟!
أمن اعتقاد الشيخ المراغي [شيخ الأزهر في عصره وأحد أعلام المدرسة الإصلاحية] بصحة استحضار الأرواح ، وهم الذين أنكروا بعض المعجزات وأولوا بعضها الآخر رغم صحة أسانيدها .
أم من إيمان هيكل بوحدة الوجود . وقد كفر النصارى لأنهم زعموا بأن الله اتحد بعيسى بن مريم . قال تعالى :
﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم ﴾ (٨٢) . فكيف بمن زعم بأن الله متحد مع جميع مخلوقاته ، وقد حسم علماء السلف الصالح القول في

٨١ ــ حياة محمد ، محمد حسين هيكل / ص : ٢٠٧ و ٢٠٨ .
٨٢ ــ سورة المائدة ، الآية : ١٧ .

هذه المسألة فأكدوا كفر من يؤمن بوحدة الوجود ، لأن الله سبحانه وتعالى متصف بصفات الكمال لايشبهه شيء من مخلوقاته :
﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾ (٨٣) .

وإذا جاز لبعضهم التماس الأعذار لهيكل لأنه يجهل الحكم الشرعي في وحدة الوجود أو لأن ماقاله زلة قلم ... لاأدري كيف سكت محمد رشيد رضا والشيخ محمد مصطفى المراغي عن إبداء أي نقد حول هذه المسألة ، واكتفيا بتأييد منهج المؤلف ومهاجمة الذين نقدوا الكتاب وذكروا مافيه من أخطاء وانحرافات ؟!

الوجه العاشر ــ موقفهم من السحر :

أنكر الشيخ محمد عبده أن يكون لبيد بن الأعصم قد سحر الرسول ﷺ ، وقال في دفاعه عن وجهة نظره :
« وقال كثير من المقلدين الذين لايعقلون ماهي النبوة ، ولا مايجب لها: إن الخبر بتأثير السحر في النفس الشريفة قد صح ، فيلزم الاعتقاد به ، وعدم التصديق من بدع المبتدعين ، لأنه ضرب من إنكار السحر ، وقد جاء القرآن بصحة السحر .

فانظر كيف ينقلب الدين الصحيح ، والحق الصريح في نظر المقلدين بدعة ... يحتج بالقرآن على ثبوت السحر ، ويعرض عن القرآن في نفي السحر عنه ﷺ ، وعده من افتراء المشركين عليه ويؤول في هذه ولايؤول في تلك ، مع أن الشيطان الذي قصده المشركون ظاهر ، لأنهم كانوا يقولون : إن الشيطان يلابسه عليه السلام وملابسة الشيطان تعرف بالسحر عندهم وضرب من ضروبه ، وهو بعينه أثر السحر الذي نسب إلى لبيد ، فإنه قد خالط إدراكه في زعمهم .

والذي يجب اعتقاده أن القرآن مقطوع به ، وأنه كتاب الله بالتواتر عن المعصوم ﷺ ، فهو الذي يجب الاعتقاد بما يثبته ، وعدم الاعتقاد بما ينفيه وقد جاء بنفي السحر عنه عليه السلام ، فحيث نسب القول بإثبات حصول السحر إلى المشركين أعدائه ، ووبخهم على زعمهم هذا ، فإذن هو ليس بمسحور قطعاً .

٨٣ ــ سورة الشورى ، الآية : ١١ .

وأما الحديث ـــ على فرض صحته ـــ فهو حديث آحاد ، والآحاد لايؤخذ في نفيها عنه إلا باليقين ، ولايجوز أن يؤخذ فيها بالظن والمظنون ، على أن الحديث الذي يصل إلينا من طريق الآحاد إنما يحصل الظن عند من صح عنده ، أما من قامت له الأدلة على أنه غير صحيح فلاتقوم به عليه حجة .

وعلى أي حال ـــ فلنا بل علينا أن نفرض الأمر في الحديث ـــ ولانحكمه في عقيدتنا ونأخذ بنص الكتاب وبدليل العقل ، فإنه إذا خولط النبي في عقله ـــ كما زعموا ـــ جاز عليه أن يظن أنه بلغ شيئاً وهو لم يبلغه ، أو أن شيئاً ينزل عليه وهو لم ينزل عليه ، والأمر ظاهر لايحتاج إلى بيان » .

وانتقل محمد عبده من التخصيص إلى التعميم فقال :
على أن نافي السحر بالمرة لايجوز أن يعد مبتدعاً . والسحر لغة : صرف الشيء عن حقيقته . وفي تفسير قوله تعالى :
﴿ فأنى تسحرون ﴾ قال : أنى تؤفكون وتصرفون . وسحر فرعون كان ضرباً من الحيلة .

وقال في وصف الذين يعتقدون بأن لبيد بن الأعصم سحر الرسول ﷺ :
« ولو كان هؤلاء يقدرون الكتاب قدره ، ويعرفون من اللغة مايكفي لعاقل أن يتكلم ماهذروا هذا الهذر ، ولاوصموا الإسلام بهذه الوصمة ، لكن من تعود القول بالمحال ، لايمكن الكلام معه بحال ، نعوذ بالله من الخبال » (٨٤) .

وقال حسين هيكل عن سحر لبيد لرسول الله ﷺ :
« وهي قصة اضطربت فيها الروايات اضطراباً شديداً يؤيد رأي القائل بأنها محض اختراع لاشيء فيها من الحق » (٨٥) .

وفي حدود مااطلعت عليه من كتب الإصلاحيين لاأعرف أحداً منهم خالف الشيخ محمد عبده في موقفه من السحر .

مناقشة أقوالهم :

١ ـــ لم يقل هيكل كيف اضطربت الروايات في قصة سحر لبيد بن الأعصم لرسول الله ﷺ ، ومن القائل بأنها محض اختراع ؟!

---

٨٤ ـــ الأعمال الكاملة : ٥ / ٥٦٩ ، وتفسير جزء عم / ص : ١٨٣ .

٨٥ ـــ حياة محمد ، ص : ٤٠٣ .

فالحديث رواه أحمد ، وابن ماجة ، والنسائي بأسانيد صحيحة ، واتفق عليه البخاري ومسلم في صحيحيهما ، وهذا يعني بأن الحديث متواتر في معناه لأن الأمة تلقت الكتابين بالقبول والتصديق (٨٦) .

ومن جهة أخرى فقد روى الحديث هشام عن عائشة رضي الله عنهما ، وهشام من أوثق الناس وأعلمهم ، ولم يقدح فيه أحد من الأئمة بما يوجب رد حديثه ، ورواه غير هشام عن عائشة ، ولم يتكلم فيه أحد من أهل الحديث بكلمة واحدة (٨٧) .

فأين هذا الاضطراب المزعوم في سند الحديث بل كيف تكون القصة محض اختراع وهذه هي أسانيدها التي لايرقى إليها شك ؟!

ليس في الحديث اضطراب والحمد لله ، وإنما الاضطراب في عقل هيكل لأنه من أجهل الناس بحديث رسول الله ﷺ ، وبسبب هذا الجهل يسارع إلى قبول أقوال أهل البدع رغم تهافتها وخلوها من الأدلة والبراهين العلمية ، كما يسارع إلى ترديد أقوال أساتذته المستشرقين بدلاً من التصدي لهم ودحض افتراءاتهم التي يسمونها حقائق علمية .

٢ ــ لم يتأثر عقل رسول الله ﷺ بالسحر ، وماحدث له كان مرضاً عارضاً شفاه الله منه ، ولاتعارض بين العصمة ومرض الجسد والجوارح .

قال الشنقيطي رحمه الله :

« وأما وقوع المرض له بسبب السحر فلايجر خللاً لمنصب النبوة ، لأن المرض الذي لانقص فيه في الدنيا يقع للأنبياء ، ويزيد من درجاتهم في الآخرة عليهم الصلاة والسلام ، وحينئذ فإذا خيل له بسبب مرض السحر أنه يفعل شيئاً من أمور الدنيا وهو لم يفعله ، ثم زال ذلك عنه بالكلية بسبب اطلاع الله (٨٨) تعالى له على مكان السحر وإخراجه إياه من محله ودفنه فلانقص يلحق بالرسالة من هذا كله ، لأنه مرض كسائر الأمراض لاتسلط له على عقله بل هو خاص بظاهر جسده ، حيث صار يخيل إليه تارة فعل الشيء من ملامسة بعض أزواجه وهو

---

٨٦ ــ أحمد ٤ / ٣٦٧ ، والبخاري ١ / ١٩١ ــ ١٩٧ في الطب ، ومسلم : باب السحر ، والنسائي ٧ / ١١٢ ــ ١١٣ ، وابن ماجة .

٨٧ ــ انظر التفسير القيم لابن القيم / ص : ٥٦٤ .

٨٨ ــ وكان ذلك من المعجزات التي منّ الله بها على نبيه ﷺ .

لم يفعله ، وهذا في زمن المرض لايضر ، والعجب ممن يظن هذا الذي وقع من المرض بسبب السحر لرسول الله ﷺ قادحاً في رسالته مع ماهو صريح في القرآن في قصة موسى مع سحرة فرعون ، حيث صار يخيل إليه من سحرهم أن عصيهم تسعى فثبته الله كما دل عليه قوله تعالى :

﴿ قلنا لاتخف إنك أنت الأعلى ، وألق مافي يمينك تلقف ماصنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولايفلح الساحر حيث أتى ، فألقي السحرة سجداً قالوا آمنا برب هارون وموسى ﴾ (٨٩) ، ولم يقل أحد من أهل العلم ، ولامن أهل الذكاء أن ماخيل لموسى عليه الصلاة والسلام أولاً من سعي عصي السحرة قادح في رسالته ، بل وقوع مثل هذا للأنبياء عليهم الصلاة والسلام يزيد قوة الإيمان بهم لكون الله تعالى ينصرهم على أعدائهم ، ويخرق لهم العادات بالمعجزات الباهرة ، ويخذل السحرة والكفرة ، ويجعل العاقبة للمتقين ، كما هو مبين في آيات الكتاب المبين » اهـ .

٣ ـــ يهتم الإصلاحيون أشد الاهتمام بتعليقات المشركين الفلاسفة ، ويحسبون لمواقفهم وأقوالهم ألف حساب ، ولهذا تراهم يلوون أعناق النصوص ويقدمون أقوالهم الشاذة على ماصح من حديث رسول الله ﷺ إرضاء لغير المسلمين من الفلاسفة والمتكلمين .

وفي سحر لبيد لرسول الله ﷺ زعم الإصلاحيون بأن القرآن ينكر أن يكون الرسول ﷺ مسحوراً في قوله تعالى :

﴿ وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً ﴾ (٩٠) .

فمن أثبت الرواية فقد أثبت اتهام الكفار لرسول الله ﷺ الذي رده القرآن . ولاأدري لماذا هذا الاهتمام بأقوال المشركين . فقد ذكر القرآن أنهم كانوا يقولون :

﴿ مالهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ﴾ (٩١) .

فهل نكذبهم ونقول : لم يكن الرسول يأكل الطعام ولا كان يمشي في الأسواق ؟!

---

٨٩ ـــ سورة طه ، الآيات : ٦٨ ـــ ٧٠ .
٩٠ ـــ سورة الفرقان ، الآية : ٨ .
٩١ ـــ سورة الفرقان ، الآية : ٧ .

قال الشنقيطي رحمه الله :

« وهذا الحديث الصحيح الذي هو في أعلى درجات الصحيح السبع لاتفاق الشيخين عليه وغيرهما غير مصادم لنص القرآن الذي هو قوله تعالى إخباراً عن قول الكفرة :

﴿ إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً ﴾ لأن المراد به عندهم أنه مجنون ، فهو كقولهم : إن هو إلا رجل مجنون ، وحاشاه عليه الصلاة والسلام من ذلك ، وإن قدر ضعيف العقيدة أن ظاهر قوله تعالى في الآية السابقة يصادم هذا الحديث ، فقولهم هذا الذي ذكر الله عنهم في القرآن كان قبل قصة سحر اليهودي للنبي ﷺ الذي مرض بسببه ـــ كما عرفنا ـــ وبه تعلم أنه لامنافاة بين الآية المذكورة (٩٢) وبين سحر اليهودي له عليه الصلاة والسلام » .

وبعد : هذه ردود موجزة على أهم ماأثاروه من شبهات في مسألة سحر لبيد لرسول الله ﷺ ، وهناك أمور أخرى لم أتعرض لها لأنه سبق أن بسطت القول فيها في الصفحات الماضية من هذا البحث ومن أشهرها :

- ـــ قولهم : إنه حديث آحاد يفيد الظن ، وأن الظن لايغني من الحق شيئاً .
- ـــ وجوب تقديم العقل على النقل الصحيح عند التعارض ـــ على حد زعمهم ـــ .
- ـــ قولهم : يجب عرض الحديث على القرآن الكريم ، وإذا تعارض مع ظاهر القرآن وكان سنده صحيحاً فهو ضعيف ولاحجة فيه .

سيد قطب وسحر لبيد :

قال سيد قطب رحمه الله :

« وقد وردت روايات ـــ بعضها صحيح لكنه غير متواتر ـــ أن لبيد بن الأعصم اليهودي سحر النبي ﷺ في المدينة ... قيل أياماً ، وقيل أشهراً حتى كان يخيل إليه أنه يأتي النساء وهو لايأتيهن في رواية ، وحتى كان يخيل إليه أنه فعل الشيء ولم يفعله في رواية ، وأن السورتين نزلتا رقية لرسول الله ﷺ ، فلما استحضر السحر المقصود ـــ كما أخبر في رؤياه ـــ وقرأ السورتين انحلت العقد ، وذهب عنه السوء .

---

٩٢ ـــ أضواء البيان للشنقيطي ، تفسير سورة طه : ٤ / ٣٩٩ ، واستفدت من بحث للدكتور سعد المرصفي قدمه في المؤتمر العالمي الثالث للسيرة : ٢ / ٤٢٧ .

ولكن هذه الرواية تخالف أصل العصمة النبوية في الفعل والتبليغ ، ولاتستقيم مع الاعتقاد بأن كل فعل من أفعاله ﷺ وكل قول من أقواله سنة وتشريعاً ، كما أنها تصطدم بنفي القرآن عن الرسول ﷺ أنه مسحور ، وتكذيب المشركين فيما كانوا يدعونه من هذا الإفك . ومن ثم تستبعد هذه الروايات ... وأحاديث الآحاد لايؤخذ بها في أمر العقيدة ، والمرجع هو القرآن . والتواتر شرط للأخذ بالأحاديث في أصول الاعتقاد . وهذه الروايات ليست من المتواتر فضلاً على أن نزول هاتين السورتين في مكة هو الراجح مما يوهن أساس الروايات الأخرى » (٩٣) .

أخطأ سيد رحمه الله عندما ظن بأن الحديث الصحيح يتعارض مع أصل العصمة .

وأخطأ عندما ظن أن حديث السحر يتعارض مع الآيات القرآنية .

وأخطأ مرة ثالثة عندما قال : إن الحديث من الآحاد ، والتواتر شرط للأخذ بالأحاديث في أصول الاعتقاد .

وأخطأ مرة رابعة عندما رجح نزول هاتين السورتين في مكة ، ولم يقدم دليلاً على ذلك ، ومن هذا الترجيح انتهى — غفر الله له — إلى تضعيف الروايات التي أكدت سحر لبيد لرسول الله ﷺ ، وفي البداية كان يقول بصحة بعض هذه الروايات لكنه يردها لأنها غير متواترة .

نعم أخطأ سيد رحمه الله ولاغرابة في ذلك فهو بشر ، وكل ابن آدم خطاء ، وقد سبق لي الرد على النتائج التي انتهى إليها سيد من خلال ردودي على الإصلاحيين في قصة سحر لبيد لرسول الله ﷺ .

ويظلم سيد قطب صنفان من الناس :

يظلمه بعض تلامذته ومحبيه لأنهم معجبون به أشد الأعجاب :

معجبون بثباته على الحق ، وصبره على الأذى في سبيل الله .

معجبون بسعة أفقه ، وصفاء فطرته ، وعمق خبرته ... ونحن نشاركهم في ذلك كله .

---

٩٣ — في ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب ، المجلد السادس ، طبعة الشروق .

ولكن هؤلاء الناس ليسوا على استعداد أن يسمعوا من أحد قوله : أخطأ سيد في هذه المسألة ، ولو كان قد أخطأ فعلاً ، فعقولهم مغلقة مقفلة . لهؤلاء نقول :
مامن عالم من علماء المسلمين إلا قد رَدَّ أو رُدَّ عليه ، كما قال الإمام مالك رحمه الله .

وكان سيد قطب رحمه الله أواباً إلى الحق عندما يتبين له ، وقد تراجع في الطبعة الثانية من الظلال عن آراء ومواقف وردت في الطبعة الأولى فكيف يعترف الرجل بأخطائه بكل تواضع وأمانة ، ولايعترف بعض محبيه بأنه قد أخطأ في مواضع محدودة من ظلاله ؟!

فإن أصر هؤلاء الشباب على القول : لا لم يخطأ سيد ، قلنا لهم : إذن فإنكم تضعونه في مصاف الأنبياء ، وترون عصمته من الأخطاء ، ولافرق في ذلك بينكم وبين الرافضة الذين يقولون بعصمة بعض أئمتهم ، وهذا منكم انحراف عن عقيدة ومنهج أهل السنة والجماعة ، واعلموا ــ غفر الله لنا ولكم ــ أن للحب حدوداً شرعية ، وتجاوز هذه الحدود يقود إلى الشرك الأكبر في بعض الحالات ، واقرأوا إن شئتم كيف كانت بداية عبادة اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى .

أما الصنف الآخر من الناس فلايذكرون سيداً رحمه الله إلا من خلال أخطائه العلمية :
فتارة يزعمون بأنه أشعري ، وتارة أخرى يقولون : إنه من دعاة وحدة الوجود ، وفي غير هذه وتلك يرددون أقوال الظالمين :
إنه من غلاة الخوارج !!
وماكان رحمه الله أشعرياً ولاصوفياً ، وإنما كان أديباً من تلامذة العقاد ، وعندما سلك طريق الدعاة اتجه إلى الكتابة في العلوم الإسلامية كالتوحيد والتفسير وغيرهما ، فوفقه الله سبحانه في معظم ماكتب ، واجتمع في أسلوبه الصفات والمزايا التالية :

ــ كان رحمه الله جريئاً لايخشى في الله لومة لائم ، وكان يعلم أن الطاغوت يتربص به الدوائر ، ويقدم له العروض والاغراءات ، فأعرض رحمه الله عن المناصب الرفيعة والجاه العريض ابتغاء مرضاة الله سبحانه وتعالى وطمعاً بجنته .

ـــ كان متجرداً لايتعصب لمذهب من المذاهب أو حزب من الأحزاب ، وماكان يتحدث عن نفسه ولو فعل لكان معه كثير من الحق ، وقد بلينا في هذا العصر بأشخاص لايذكرون مكرمة ولافضلاً إلا من خلال الحديث عن ذواتهم .
ـــ لاأعرف كاتباً في العصر الحديث عرض مشكلات العصر كسيد رحمه الله ، فقد كان أميناً في عرضها وفي وضع الحلول المناسبة لعلاجها .
ـــ كان بعيداً عن الغلو ، وكانت أدلته من الكتاب والسنة وأقوال الأئمة .
ـــ كانت له جولات وجولات في شرح معاني لاإله إلا الله محمد رسول الله ، وتوضيح مدلولات الألوهية ، والتحذير من الشرك والنفاق .

ووقع رحمه الله ببعض الأخطاء ، ولكنه لم يكن صوفياً وقد رد على الصوفيين في مواضع كثيرة من الظلال ، ولم يكن من المؤمنين بمنهج الخوارج وكتبه تشهد على ذلك ، ولم يكن من أهل الاعتزال أو من فلول المدرسة الإصلاحية وقد رد عليهم في تفسير سورة الفلق ، وفي تفسير سورة الفيل ، وفي كتابه خصائص التصور الإسلامي .

فاتقوا الله في الرجل ، ولاتضخموا الأخطاء وتنفخوا فيها واذكروا قول الشاعر :

أقلوا عليهم لاأبا لأبيكم من اللوم أو سدوا المكان الذي سدوا

الوجه الحادي عشر ـــ موقفهم من الصحابة :

قال الخضري في المحاضرة الثامنة عشرة من محاضراته :
إن علياً بن أبي طالب رضي الله عنه كان يرى نفسه أحق بالخلافة من سواه ، ولما لم يكن له مساعد يساعده على نيل الحق الذي رآه لنفسه أذعن لرأي الجمهور .

وفي موضع آخر يعود إلى لمز علي رضي الله عنه فيزعم أنه خرج من المدينة عند حصار عثمان رغم ماكان بينهما من مراسلات في بداية الحصار ، وعند انتقال الخلافة إلى أمير المؤمنين علي رضي الله عنه يرى الخضري أنه لم يبايعه إلا الثوار وبعض أهل البيت .

وفي موضع ثالث يقول : لايمكننا أن نبرر عمل الفريقين المتحاربين في موقعة الجمل من كل الوجوه ، فتراه يلوم طلحة والزبير وعائشة ... ويلوم علياً لأنه ـــ على حد قوله ـــ ليس عنده أناة ، وقد استعان بالسبئية قتلة عثمان رضي الله عنه .

ونقل عن الطبري رواية مفادها أن أهل الكوفة شكوا عماراً لعمر فاختبره أمير المؤمنين عمر فلم يحسن الإجابة فعزله .

وهذه الروايات التي حشدها الخضري ثبت ضعفها وتهافتها ، ولايكفي أن يقول الخضري : قال الطبري ، ففي تاريخ الطبري الصحيح والضعيف والموضوع .

ومن جهة أخرى فالخضري كشيخ يعرف الآيات القرآنية التي تحدثت عن فضائل الصحابة رضوان الله عليهم ، وجهادهم مع رسول الله ﷺ ، ويعرف أيضاً الأحاديث النبوية التي ميزتهم عن غيرهم من العلماء والدعاة الذين جاءوا بعدهم ، ويكفيهم شرف الصحبة ... ولهذا لم يكن الخضري مؤدباً فيما ذكره عنهم ، وهو الذي كرر القول في كتبه عند ذكر المستشرقين : قال بعض الأجلاء من المستشرقين !! فكيف يكون المستشرقون أجلاء ، ويكون أمير المؤمنين علي بن أبي طالب متهماً بالتعاون مع السبئية قتلة عثمان ؟!

ورأينا فيما مضى كيف صفق هيكل طرباً وتأييداً لقول ابن خلدون : « وإنني لأعتقد صحة سند حديث ولاقول عالم صحابي يخالف ظاهر القرآن وإن وثقوا رجاله ، فرب راو يوثق للاغترار بظاهر حاله وهو سيء الباطن » (٩٤) .

ولايغرنك قولهم [يخالف ظاهر القرآن] والمقصود بهذا عندهم يخالف فهمهم الشاذ للقرآن .

وحاول أحمد أمين نسف قول علماء الجرح والتعديل : [الصحابة كلهم عدول] بأسلوب يقطر خبثاً ولؤماً ، حيث زعم أن بعض الصحابة كان ينقد بعضهم الآخر ويشكّون في صدقهم ، كما زعم أن بعض علماء الجرح والتعديل

---

٩٤ ـــ انظر الوجه الخامس ـــ تعارض الحديث مع القرآن .

من أهل السنة قالوا : إن الصحابة ليسوا عدولاً (٩٥) .

والأسلوب الذي سلكه كل من هيكل وأحمد أمين أشد خطورة من الأسلوب الذي سلكه الخضري ، وجميعهم قطوف من أشجار المدرسة الإصلاحية .

الوجه الثاني عشر ـــ انهزامية مؤسفة :

قلت في بداية هذا البحث : لقد تأثر الشيخ محمد عبده بالمستشرقين الذين اتصل بهم في لبنان وباريس ولندن ، وقد استمرت صلاته بهم وتعاونه معهم بعد عودته من منفاه .

وكانت أورووربا ـــ وقتذاك ـــ تعكف على عبادة إله جديد أسمته العقل ، فكل شيء فيها يجب أن يعرض على العقل ، ولايكون مقبولاً ومنطقياً إلا إذا شهد له العقل ووثقه ، وكان معظم الغربيين يكرهون الكنيسة لأنها ـــ عندهم ـــ تعني الظلم والتسلط والاستبداد والاستغلال والجهل والرجعية والجمود والتخلف .

وفي مصر وبعد عودة محمد عبده من منفاه أراد أن يثبت للأوروبيين أن للعقل مكانة كبيرة في الإسلام ، وأن المعجزة القطعية الوحيدة التي يؤمن بها المسلمون هي القرآن الكريم ... ولهذا أسس الشيخ مدرسته ، وشاركه في إقامة أعمدتها تلامذة لايختلفون عنه في أفكارهم وتصوراتهم ، ومعظمهم تتلمذ على أيدي المستشرقين .

وقال تلامذة الشيخ محمد عبده والمعجبون به وبمدرسته : لقد أراد الشيخ من وراء ذلك دعوة الغربيين إلى الإسلام بأيسر أسلوب وأسهله ... وكان يخاطبهم بطريقة يألفونها ... وبسبب هذا انتشرت أفكاره في الشرق والغرب ، وأصبح فيلسوف الإسلام ، ومجدد هذا العصر ، وقد أعجب الغربيون به غاية الإعجاب ، وترجمت أفكاره إلى معظم لغات العالم .

ونوجز ردنا عليهم فيما يلي :

---

٩٥ ـــ انظر الوجه الرابع ـــ الإصلاحيون وأحاديث الصحيحين .

إن الخوارق والمعجزات تنبني على الأدلة السمعية لاعلى الأدلة العقلية التي يدركها الإنسان ولو لم يسمعها من الأنبياء كوجود الله تعالى .

والذين ينكرون المعجزات ينكرونها على ظن أنها غير ممكنة ، وهم من غفلتهم يقيسون الامكان والاستحالة بمقياس قدرة الإنسان ، وينسون قدرة الله تعالى التي ليس ببعيد عنها أن تهدم السموات والأرض وتنشئها من جديد .

والمستشرقون ــ سواء الذين اتصل بهم الشيخ محمد عبده أو الذين لم يتصل بهم ــ صنفان من الناس :
صنف منهم لايؤمنون بالله سبحانه وتعالى ولا باليوم الآخر ولا بالجنة والنار ... ومن العبث أن ندخل مع هؤلاء الناس في نقاش حول معجزات وخوارق العادات ، وإنما نقطة البداية معهم تكون في سرد الأدلة النقلية والعقلية على إثبات وجود الله سبحانه وتعالى .
وصنف آخر منهم يدينون بالنصرانية ويؤمنون بنبوة عيسى عليه السلام ، والسؤال الذي يفرض نفسه :
كيف يزعم هؤلاء المستشرقون أن المسيح عليه السلام ابن الله ، ويضفون عليه كثيراً من الخرافات التي ماأنزل الله بها من سلطان ولايؤمنون بمعجزات المصطفى ﷺ ؟!

إن المشكلة عند المستشرقين النصارى ليست في إثبات المعجزات أو نفيها ، وإنما المشكلة أنهم أهل هوى ، فهم ينكرون المعجزة إن كانت إسلامية ويؤمنون بها إن كانت نصرانية .

وكنا نتمنى أن يكون رواد المدرسة الإصلاحية قد اتصلوا بالمستشرقين والعلماء الغربيين الذين يؤمنون بخوارق العادات من أمثال « ستيوارت ميل » الذي قال في رده على المستشرق « هيوم » :
« إن من لايؤمن بموجود فوق الطبيعة ولايتدخله في شؤون العالم لايقبل فعل إنسان خارق للعادة على أنه معجزة ، ويؤوله مطلقاً بما يخرجه عن كونه معجزة ، لكن إذا أومن بالله فلايكون تأثيره في العالم وسلطته عليه فرضية محضة بل احتمالاً جدياً .

والحكم بعدم تدخل الله في شؤون العالم إنما يمكن بمعرفة السنة الإلهية في الماضي أو بمعرفة مايلزم منطقياً أن تكون السنة الإلهية كذلك . وقد أنصف

[ويليام استانلي جوون] حين قال :
« القدرة التي خلقت العالم لاتعجز عن حذف شيء منه أو إضافة شيء إليه ، ومن السهل أن يقال عنه إنه غير متصور عند العقل ، لكن الذي يقال عنه أنه غير متصور ليس غير متصور إلى درجة وجود العالم » .
وقال « أميل سسه » :
« إن العالم مع كونه ترقى كثيراً في مطالعته الطبيعية لم يثبت في وقت من الأوقات أن القوانين الطبيعية قوانين ضرورية هندسية » يعني أميل أنها ليست مستحيلة التغير .
وقال « له يينج » :
« ليست القوانين الطبيعية عندي محضة كما ادعى [بايل] ولاضرورية بالضرورة الهندسية » .
وقال « هوكسله ي » — من مشاهير علماء الإنجليز — :
« أنا لاأعلم محالاً غير التناقض ، ولهذا يوجد محال منطقي ولايوجد محال طبيعي . يوجد محال عقلي ولايوجد محال تجربي » .
وقال الرياضي الشهير « هانري بووانكاريه » في كتابه الفرضية والعلم :
« القانون التجربي عرضة دائماً للتصحيح فهو لايزال يتوقع تبديله بقانون أقوى منه » (٩٦) .
لانستغرب أن يقلد الإصلاحيون هؤلاء المستشرقين والعلماء الغربيين لو كانوا هم الذين اتصلوا معهم في أوروبا ، ولانستغرب أيضاً أن يصفقوا لهم قائلين :
إن الإيمان بالخوارق وكافة الأمور الغيبية لايتعارض مع الحقائق العلمية .
وعجيب أمر هؤلاء الناس كيف يهاجمون الذين يقلدون أئمة الإسلام بأسلوب هابط وهم الذين يقلدون المستشرقين ويتبعونهم في أمور لايجوز فيها إلا مخالفتهم وعدم اتباعهم . إن عرض الإسلام بهذه الصورة يدل على انهزامية محمد عبده وصحبه أمام الحضارة الغربية ، وفي الدعوة إلى الله لابد أن تكون الوسيلة من جنس الغاية ، وقد حذر الله سبحانه وتعالى خير خلقه من طاعة المشركين أو التودد إليهم بقوله تعالى :
﴿فلا تطع المكذبين ، ودّوا لو تدهن فيدهنون﴾ (٩٧) .

---

٩٦ — القول الفصل بين الذين يؤمنون بالغيب والذين لايؤمنون ، لمؤلفه الشيخ مصطفى صبري .
٩٧ — سورة القلم ، الآيتان ٨ و ٩ .

وبعد :

هذه مقتطفات اخترناها من أقوال رواد المدرسة الإصلاحية في سيرة المصطفى ﷺ ومعجزاته ، وقد تجاوزت عن ذكر أمثلة أخرى من أهمها مايلي :

١ ــ إنكارهم معجزة انشقاق القمر في عهد رسول الله ﷺ ، رغم أن الحديث أخرجه أحمد والبخاري ومسلم والترمذي وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه وأبو نعيم والحاكم والبيهقي عن علي وابن مسعود وحذيفة وجبير بن مطعم وابن عمر وابن عباس وأنس .

قال ابن عبد البر :

« روى حديث انشقاق القمر جماعة كثيرة من الصحابة وروى ذلك عنهم أمثالهم من التابعين ثم نقله عنهم الجم الغفير إلى أن انتهى إلينا وتأكد بالآية الكريمة (٩٨) :

﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ، وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر ﴾ .

٢ ــ قولهم :

إن الإسراء تم بالروح دون الجسد . ومن يتأمل الأحاديث التي خرجها : البخاري ، ومسلم ، وأحمد ، والترمذي ، والنسائي ، والبيهقي ، وابن جرير الطبري لايداخله شك أن الإسراء والمعراج كانا بالروح والجسد ، ولايصح الاحتجاج برواية ابن إسحاق أمام هذه الأحاديث الصحاح ..

٣ ــ قول محمد عبده : إن آدم وحواء كانا أصلاً على الأرض ، وقد هبطا من مكان مرتفع فيها إلى آخر منخفض .

وفي تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وأرسل عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول ﴾ ، زعم أنه فشا في جند أبرهة داء الجدري والحصبة .

وفي تفسيره لقوله تعالى : ﴿ فأماته الله مائة عام ثم بعثه ﴾ قال : لايعني هذا أن روحه فارقت جسده .

---

٨ ــ شرح الزرقاني على المواهب اللدنية للقسطلاني : ٦ / ١٢ ، وتحذير العبقري من محاضرات الخضري للشيخ محمد العربي التباني ١ / ١٢٧ ، وتفسير ابن كثير .

وفي تفسيره لقوله تعالى : ﴿ فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ﴾ ، زعم أن المقصود ليس تقطيع الطير وإنما مؤانسته مع بقائه حياً .

تجاوزت عن الرد على مثل هذه المزاعم وغيرها لأنني سأكرر القول : إنها تعارض ماصح من أحاديث المصطفى ﷺ ، ولأنني لم أتتبع جميع انحرافاتهم فيما كتبوه عن سيرة المصطفى ﷺ ومعجزاته ، والمجال لايتسع لهذا لأن الحديث عنهم جزء من هذا الكتاب ، وحسبي أن الأمثلة التي اخترتها كافية لبيان انحراف منهجهم ، وفساد تصوراتهم ، وكثرة اعتمادهم على أقوال المبتدعين والمستشرقين .

لم يعد مستغرباً :

ـــ لم يعد مستغرباً عن الشيخ محمد عبده فتاويه المشهورة : كجواز لبس البرنيطة ، وإباحة الربا اليسير ، ولا فتواه بأكل لحم الحيوان الذي يضرب على رأسه بالبلطة حتى تضعف مقاومته ثم يذبح بعد موته دون أن يذكر اسم الله عليه ، وجواز الاستعانة بغير المسلمين ، يسوغ لنفسه ـــ بهذه الفتوى ـــ تعاونه مع اللورد كرومر ، واستعانته به ضد خصومه من علماء الأزهر وغيرهم (٩٩) .
ـــ ولم يعد مستغرباً تلك العلاقات الوثيقة التي أقامها الشيخ محمد عبده مع عباس ـــ نجل البهاء ـــ منظم الدعوة البهائية خلال إقامة الأول في بيروت ، وكان عباس يداوم على مجالسة محمد عبده وحضور دروسه ، وظل يراسله بعد عودة الشيخ إلى مصر .

واطلع محمد عبده على رسالة بخط ميرزا فيها بيان مذهبهم وأعرب عن ارتياحه لما ورد فيها من أفكار وتصورات ، وعندما بيّن محمد رشيد رضا لشيخه انحرافات البهائيين قال الشيخ :
أنا لم أفهم من عباس أفندي شيئاً من هذا !! (١٠٠)
وهل صحيح أن رجلاً حاد الذكاء كمحمد عبده لايعرف أن البهائيين يدعون إلى نسخ الإسلام ، وتوحيد الأديان ، وتعطيل الجهاد ، وموالاة الانجليز ؟!

---

٩٩ ـــ وردت فتاوى محمد عبده في كتبه ، وذكر بعضها تلميذه أحمد أمين في كتابه زعماء الإصلاح [٢٨٠ ـــ ٣٣٧] .
١٠٠ ـــ الأعمال الكاملة : ٥٣٤/٣ .

لانعتقد ذلك ، ومما يضاعف الشكوك عندنا وجود بعض القواسم المشتركة بين دعوة البهائيين ومايدعو الشيخ إليه ومن ذلك :
إنكار نزول المسيح عليه السلام ، والدعوة إلى توحيد الأديان . وقد أشار رشيد رضا في الجزء الثاني من تاريخه إلى مفاوضات محمد عبده مع القسيس الإنجليزي إسحاق تيلور ، للتقريب بين الإسلام والنصرانية ، وبيّن اشتراك اليهود فيها في الجزء الأول من تاريخ الإمام (١٠١) .

ومن قبل تعاون مع الرافضة ، بل كان تلميذاً لرجلهم الخطير جمال الدين الأفغاني ، فلماذا لايكون لقاؤه مع البهائيين جولة من جولاته المشبوهة ؟!
ـــ ولم يعد مستغرباً قول اللورد كرومر في كتابه [مصر الحديثة] :
« إن العفو صدر عن الشيخ محمد عبده بسبب الضغط البريطاني » .

لم يعد مستغرباً لأنه ظل طوال حياته بعد عودته يسالم الإنجليز ويتعاون معهم ، ولأن الإنجليز لعبوا دوراً مهماً في تعيينه مفتياً لمصر ، وكان في كل مرة يختلف مع الخديوي يلجأ إلى الإنجليز ، وحبس كرومر خصومه وأصحاب الجرائد الذين هاجموه بسبب فتاويه الآنفة الذكر .
ـــ ولم يعد مستغرباً حرص الشيخ محمد عبده على حضور مجلس الأميرة نازلي التي كانت لاتتكلم إلا بالسياسة وهو لايتكلم بالسياسة .

وعندما غضبت الأميرة مما كتبه قاسم أمين عن المرأة أمر الشيخ تلميذه فألف كتابه المشهور الذي يدعو فيه إلى السفور ، وجاءت النتائج التي انتهى إليها قاسم أمين تناقض مع ماكان يقوله ويدعو إليه قبل أيام من تأليف الكتاب ، كل ذلك من أجل إرضاء امرأة جاء بها الإنجليز لتؤدي دوراً خطيراً في مصر .

لم يعد مستغرباً هذا كله عن محمد عبده ولاعن شيخه الأفغاني لأن انحراف المناهج أشد خطورة من انحراف الإنسان في بعض مواقفه وأعماله .

---

١٠١ ـــ الإسلام والحضارة الغربية ، د . محمد محمد حسين ص ٩٨ دار الإرشاد بيروت .

الفصل الرابع

ردود على شبهات

شن كثير من أصحاب الأقلام حملة ظالمة ضد كل من ينقد تصورات وآراء محمد عبده وتلامذته ، وماكنا لنلقي لهم بالاً لولا أن بينهم رجالاً طيبين ظنوا بأن أعلام هذه المدرسة دعاة مجددون وعظماء مصلحون ، ولايرون فيهم انحرافاً عن منهج أهل السنة والجماعة ... وقد قرأت بتدبر وإمعان شيئاً غير قليل مما كتبه هؤلاء الطيبون ، وسوف أبسط القول في الرد على أهم ماأثاروه من شبهات :

الشبهة الأولى : قالوا : حسد المقلدون الجامدون الإمام الشيخ محمد عبده على المكانة الرفيعة التي تبوأها في عصره ، وساءهم إعجاب علماء الغرب بشخصيته الفذة ، والتفاف المثقفين العرب حوله ، فناصبه المقلدون العداوة والبغضاء ، ونسجوا حوله الأراجيف والافتراءات التي لاأصل لها .

قلت : ليس غريباً حسد المقلدين الجامدين للشيخ محمد عبده وصحبه ، بل لقد أفتى بعضهم بكفره وردته عن الإسلام ... ولهذا فقد أعرضت عن أقوالهم فيه ، وأقبلت على مؤلفات وكتب الشيخ فأخذت منها نصوصاً واضحة لاتنقصها الصراحة ولا الوضوح ، كما أقبلت على كتب ومؤلفات تلامذته فأخذت منها مزيداً من الأدلة التي استشهدت بها .

أما إعجاب علماء الغرب والمثقفين العرب به فهو حجة عليهم وليست لهم لأن علماء الغرب الذين أعجبوا به مستشرقون مشركون ، وأصدقاؤه من المثقفين العرب إما أن يكونوا نصارى أو من أبناء المسلمين الذين يدعون إلى العلمانية وتقليد الغربيين في الصغيرة والكبيرة ولاأدري كيف نجمع بين حب هؤلاء لمحمد عبده وشيخه جمال الدين الأفغاني وكرههم للإسلام والمسلمين (١٠٢) ؟!

١٠٢ — من تلامذة محمد عبده الذي نجاه الله من كثير من الانحرافات محمد رشيد رضا ولكن الشاذ لاحكم له .

وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد أمرنا أن نحب في الله ونكره في الله بنصوص بيّنة من كتابه الكريم وسنة رسوله الأمين فكيف أحب محمد عبده هؤلاء الملاحدة ولم يتبرأ منهم ويعتزل مجالسهم ؟!

فليدلنا محبوا محمد عبده عن آثار دعوته بين هؤلاء الناس الذين كانوا يدعون إلى نبذ الإسلام وعدم الإحتكام إلى شريعة الله سبحانه وتعالى ، ويقرأ الشيخ كتبهم ومؤلفاتهم ولاينابذهم ويتبرأ منهم ، بل تراه ينابذ علماء الأزهر وينعتهم بأقبح النعوت وأحطها لأنهم مقلدون رجعيون !!
سبحان الله : كيف يبيح لنفسه تقليد الغربيين ويحرم على غيره تقليد رجال خير القرون من الأئمة المحققين ؟!
وهل تعني التقدمية التردد على صالون الأميرة نازلي وإقامة أوثق العلاقات مع اللورد كرومر ، وعميل الإنجليز سليم بن روفائيل بن جرجس عنحوري ، وأديب إسحاق ، وسليم نقاش ، وسعيد البستاني ، وحنين نعمة الله الخوري ؟!
أم تعني التقدمية تربية أمثال : قاسم أمين ، وأحمد أمين ، ومحمد حسين هيكل ، وسعد زغلول ؟!
هؤلاء هم صفوة أصدقاء وتلامذة الشيخ محمد عبده،وصدق من قال :
« تسألني من تعاشر أسألك من أنت » .

ويسرف في الخطأ من كان ينشد حب هؤلاء النفر من الناس ، أو من كان يحسد من يحبه هؤلاء الضالون المضلون .
الشبهة الثانية : قالوا : اعتمد الإمام محمد عبده فيما ذكره عن المعجزات وغيرها على أدلة من الكتاب والسنة وليس على أقوال المستشرقين كما زعم خصومه .
قلت :في مواضع قليلة اعتمد الشيخ محمد عبده وصحبه على أدلة وردت في بعض كتب علماء القرون الأولى ولكن : هل كل ماورد في هذه الكتب صحيح ، وماهي درجة الأدلة التي اعتمد عليها من الصحة ؟!

ومن خلال الأمثلة التي عرضناها فيما مضى من هذا البحث ــ ومالم نعرضه أكثر ــ تبين لنا أن الشيخ وصحبه كانوا يعرضون عن الأدلة والروايات الصحيحة التي لايرقى إليها شك ويتمسكون بالروايات الضعيفة أو الموضوعة ، وهذا هو أسلوب المستشرقين ، فليس كل مايقوله المستشرقون مفتعلاً ولاأصل له في كتب ومؤلفات رجال خير القرون .

ولو أن اجتهاد الشيخ ورفاقه كان قاصراً على مسألة أو مسألتين لقلنا : اجتهد الإصلاحيون في هذه المسألة فأخطأوا ، وهم مأجورون على اجتهادهم إن شاء الله ... ولكن المشكلة أخطر وأعمق وأشمل ، المشكلة مشكلة منهج نستطيع تحديد فقراته فيما يلي :

١ ــ إن العقل ركن المعتقدات الأول فما أوجبه كان واجباً ، وماأحاله كان محالاً ، ومأأجازه كان جائزاً .

٢ ــ إذا عارض الخبر العقل ، وجب تأويل الخبر بما يزيل هذا التعارض .

٣ ــ الخبر إذا كان رواته آحاداً فلايصلح أن يكون دليلاً على ثبوت الأمور الاعتقادية ، لأن الأمور الاعتقادية الغرض منها القطع ، والخبر الظني الثبوت أو الدلالة لايفيد القطع .

٤ ــ المعجزات لاتثبت بخبر الآحاد ، لأن المطلوب فيها اليقين ، وخبر الآحاد لايقين فيه .

٥ ــ لابد من عرض الحديث على القرآن الكريم ، فإن وافقه كان الحديث صحيحاً ، وإن خالفه فليس صحيحاً مهما قوي سنده (١٠٣) .

وانطلاقاً من هذا المنهج أنكر الإصلاحيون نزول المسيح عليه السلام في آخر الزمان ، كما أنكروا حجية معظم الأحاديث الواردة في الصحيحين والتي تلقتها الأمة بالقبول جيلاً بعد جيل .

وبعضهم اشتط في غلوه فأنكر وجود الجن والشياطين ، وزعم صحة تحضير الأرواح ووحدة الوجود .

ومهما قال بعض الطيبين في دفاعهم عن محمد عبده وتلامذته لايستطيعون أن يقولوا : الإصلاحيون برءاء من نسبة هذا المنهج إليهم .

وإذا كان الأمر كذلك فمن هذا المنطلق يكون الخلاف مع الإصلاحيين أو تأييدهم ، ولانقبل من الطيبين ــ الذين يعتقدون أن هذا المنهج ليس منهج أهل السنة والجماعة ــ أن يتجاهلوا هذه الظاهرة ويتمسكوا بموقف الإصلاحيين من الإسراء والمعراج ، ويتعبوا أنفسهم في حشد الأدلة التي تؤكد أن ابن إسحاق

١٠٣ ــ انظر قصص الأنبياء للشيخ عبد الوهاب النجار ــ وهو أحد أعمدة هذه المدرسة ، وماسبق ذكره في هذا البحث من أقوال الشيخ محمد عبده ، وحياة محمد للدكتور محمد حسين هيكل / ص : ٦٧ .

وغيره سبق محمد عبده إلى القول : كان الإسراء والمعراج بالروح دون الجسد .
الشبهة الثالثة : قالوا : كان محمد عبده وتلاميذه شجى في حلاقيم أدعياء العلم والتحقيق من المبشرين والمستشرقين ... وحاربوهم بسلاحهم العصري وبأسلوب البحث العلمي ، فكشفوا جهالاتهم ، وفندوا مفترياتهم ، وألحقوا بهم الهزائم الساحقة . كان ذلك منذ أن اصطدم جمال الدين ومحمد عبده بالفيلسوف الفرنسي [رينان] في باريس ، فطأطأ الرأس واضطر إلى الاعتذار ، ثم حطم محمد عبده [هانوتو] وزير خارجية فرنسا في مقالاته الشهيرة التي تهجم فيها على الإسلام ... فكيف يسوغ لمسلم أن يجعلهم متأثرين أو تلاميذ لأعداء الإسلام الكائدين ؟!
قلت : نعم قرأنا ماكتبه محمد عبده وتلاميذه في الدفاع عن الإسلام وفي الرد على رينان وعلى آخرين من المستشرقين ، ولاغرابة في هذا فالإصلاحيون مسلمون ويدافعون عن الإسلام ضد أعدائه ، لكنهم ينطلقون فيما يكتبون عن الإسلام من منهج فيه كثير من الانحراف .

وصحيح أن محمد عبده وتلاميذه كانوا قد ردوا على بعض المستشرقين والمبشرين ، لكنهم في الوقت نفسه كانوا يحتفظون بعلاقات متينة ومشبوهة مع مبشرين ومستشرقين آخرين .

يقول كرومر في تقريره السنوي عن عام ١٩٠٥ في الفقرة [٧] التي كتبها بعنوان [الشيخ محمد عبده] ، بمناسبه وفاته :
« كان لمعرفته العميقة بالشريعة الإسلامية ، ولآرائه المستنيرة ، أثرُها في جَعْل مشورته والتعاون معه عظيم الجدوى » .

ثم يقول ، بعد أن يُشبّه دور محمد عبده في مصر بدور السيد أحمد خان في الهند :
« والأيام وحدها هي التي ستكشف ، عما إذا كانت الآراء التي تعتنقها المدرسة التي تزعمها الشيخ محمد عبده ، سوف تستطيع التسرب إلى المجتمع الإسلامي . وأنا شديد الرجاء في أن تنجح في اكتساب الأنصار تدريجياً .

فلاريب أن مستقبل الإصلاح الإسلامي ، في صورته الصحيحة المباشرة بالآمال ، يكمن في ذلك الطريق الذي رسمه الشيخ محمد عبده ، وإنَّ أتباعه ليستحقون أن يُعاوَنوا بكل ماهو مستطاع من عطف الأوربي

وتشجيعه » (١٠٤) .

إذن كان الطاغوت الإنجليزي اللورد كرومر يستشير محمد عبده ويتعاون معه ، ويرجو لمدرسته أن تكتسح العالم الإسلامي ، ويدعو بني قومه إلى مساندة الإصلاحيين والوقوف إلى جانبهم ، ولهذا صدر العفو عن الشيخ محمد عبده وتبوأ أرفع المناصب الإسلامية — مفتي الديار المصرية — ، كما تبوأ تلميذه سعد زغلول أرفع المناصب التعليمية — أصبح وزيراً للمعارف — ثم رئيساً للوزراء فيما بعد ، وكان كرومر لايخفي تأييده لزعيم المدرسة الإصلاحية ومناصرته ضد خصومه من علماء الأزهر وغيرهم .

لاأدري ماذا سيكون رد الطيبيين الذين لايزالون يحسنون الظن بإمام المدرسة الإصلاحية ، هل ينكرون تأييد كرومر له ؟! أم ينكرون دور الإنجليز في تنصيبه مفتياً للديار المصرية ؟! ونحن ندعوهم إلى قراءة كتب ومؤلفات تلاميذ الشيخ الذين يحبونه أشد الحب فهم أعرف منا ومنهم بحاله .

« أما وِلْفِردْ بْلَنْتْ فصلته بمحمد عبده قديمة ترجع إلى صلته بأستاذه جمال الدين وصلته بالثورة العرابية . ثم جدد بلنت هذه الصلة بمحمد عبده بعد عودته من المنفى ، إذ كانا يسكنان في دارين خلويتين متقاربتين بالمطرية . وكانا يلتقيان كل يوم ليتبادلا الحديث في موضوعات ، كما ذكر المستر بلنت في مقدمة النسخة العربية من مذكراته الخاصة ، بمصر التي راجعها محمد عبده قبل وفاته ، ونشرت من بعد تحت اسم [التاريخ السري لاحتلال مصر] .

يقول بلنت في يومياته عن صديقه محمد عبده ، بعد أن سجل حديثاً جرى بينهما عن الجنس البشري ومعاملة القوي للضعيف :
« وعبده لايؤمن بنهاية سعيدة للجنس البشري . وأخشى أن أقول إن محمد عبده — بالرغم من أنه المفتي الأعظم — ليس له من الثقة في الإسلام أكثر مما لي من الثقة في الكنيسة الكاثوليكية »(١٠٥).

وبلنت كان من المتحررين الذين لايؤمنون بالمسيحية ، ولايحسنون الظن بالكنيسة الكاثوليكية

---

١٠٤ — الإسلام والحضارة الغربية للدكتور محمد محمد حسين / ص : ٩٢ ، دار الإرشاد .
١٠٥ — المصدر السابق / ص : ٩٥ .

لاأدري مرة أخرى ماالذي كان يربط محمد عبده بالمستشرق [بلنت] ، وهل يقول محبوه كان يدعوه إلى الإسلام ؟!

ولكن هذه الدعوة لايمكن أن تستمر دهراً طويلاً ، ولايمكن أيضاً أن يجهل محمد عبده حقيقة مايعتقده [بلنت] .

ونحب أن نطمئن فلول الإصلاحيين أ ننا لانثق بما قاله بلنت عن محمد عبده ، ولسنا مع الذين يقولون بكفره وردته عن الإسلام ، ولكن كيف يكون الجلوس مع بلنت أحب إلى نفس زعيم المدرسة الإصلاحية من الجلوس مع علماء الأزهر وكبار دعاة الإسلام ؟!
والخلاصة : تصدى الشيخ محمد عبده لبعض المستشرقين فرد عليهم ، واحتفظ بعلاقات قوية مع بعضهم الآخر ، وكان من أبرز الذين يدافعون عن الإسلام في عصره ، والدفاع عن الإسلام ليس دليلاً على سلامة المنهج ، فالرافضة يدافعون عن الإسلام ، وكذلك الصوفيون وأهل الاعتزال ، ومامنا من لايشك بانحراف مناهجهم وكثرة بدعهم .
الشبهة الرابعة : تترس المعجبون بشخصية الشيخ محمد عبده بكتب ومؤلفات محمد رشيد رضا في دفاعهم عن منهج المدرسة الإصلاحية وبيان سلامته من الانحراف ... وفي ذلك خلط واضح نوجز الرد عليه فيما يلي :
رواد المدرسة الإصلاحية ليسوا نمطاً واحداً من الناس ، ومايقال عن منهج أحدهم وأسلوبه في التفكير لاينطبق على الآخرين بشكل دقيق ، وهذا لايتعارض مع القواسم المشتركة التي تجمع بينهم .

فجمال الدين الأفغاني يختلف عن تلميذه محمد عبده . فالأول فيلسوف كثر الكلام حول إيمانه بالله واليوم الآخر ، وباطني يقول شيئاً ويعتقد غيره ، وسياسي يعتمد في تحقيق أهدافه وطموحاته على العنف والاغتيالات والمؤامرات .
أما الثاني فقد تأثر بأفكار شيخه عندما كان ملتصقاً به ، واختلف منهجه كثيراً عندما ابتعد عنه ، ومن مظاهر هذا الاختلاف نبذه للسياسة والعنف ، وانصرافه للتربية والتعليم .

ويختلف محمد رشيد رضا عن شيخه محمد عبده . فالأول أسلم منهجاً ، وأصفى عقيدة ، وأبعد عن مواطن الشبهات ... ومن يطالع تفسير المنار سوف

يلاحظ اختلاف منهج الشيخ عن منهج تلميذه ، وبشكل أخص في القسم الذي انفرد التلميذ بتفسيره . لقد كان رشيد رضا يعتمد فيما فسر وألف على ماصح من أحاديث الرسول ﷺ وأقوال الصحابة رضوان الله عليهم ، وكان يجتهد في حدود ذلك .

ولم يكن رحمه الله من الذين يقدمون العقل على النقل الصحيح عند توهم التعارض ، أو من الذين يردون معظم أحاديث البخاري ومسلم لأنها عندهم من الآحاد متجاهلين تواترها من جهة المعنى . وقد أثرى المكتبة الإسلامية بمؤلفات وأبحاث مهمة انتصر فيها لعقيدة ومنهج أهل السنة والجماعة ، وبيّن ضعف وتهافت ادعاءات أعداء الإسلام ... ومع ذلك فلنا عليه بعض الملاحظات التي نوجزها فيما يلي :

١ ــ تأثر بشيوخه فأوّل بعض المعجزات ، ونذكر على سبيل المثال لا الحصر تأويله لمعجزة انشقاق القمر رغم تخريج البخاري ومسلم لها .

٢ ــ في كتابه تاريخ الإمام ناقش أموراً خطيرة عن جمال الدين الأفغاني منها : إلحاده وكفره ، وشربه للخمر ، ونشاطه في المحافل الماسونية ، وحاول تبرئته من كل ماألصق به ، ولكن التهم أقوى من الأسلوب الذي اتخذه رشيد رضا في دفاعه عن الأفغاني .

٣ ــ وكذلك كان شأنه فيما كتبه عن شيخه محمد عبده ، ومن ذلك قوله : « إن هذا الرجل أكمل من عرفت من البشر ديناً وأدباً ونفساً وعقلاً وخلقاً وعملاً وصدقاً وإخلاصاً ، وإن من مناقبه ماليس له فيه ندّ ولاضريب ، وإنه لهو السري الأحوذي العبقري » .

وقال قبل ذلك :

« وإنني وأيم الحق لَم أطلع له على عمل إلا الحقيق بلقب المثل الأعلى من ورثة الأنبياء » .

هل صحيح أن رشيد رضا لم يطلع على عمل لشيخه إلا كان حقيقياً بلقب المثل الأعلى من ورثة الأنبياء ؟!

ألم يطلع رشيد رضا على سعي محمد عبده للتقريب بين الإسلام والنصرانية بل واليهودية ؟!

---

١٠٦ ــ عبقرية الإصلاح والتعليم الإمام محمد عبده ، عباس محمود العقاد / ص : ١٩٠ ، مكتبة النهضة مصر .

ألم يطلع على خبر انتساب شيخه للمحفل الماسوني ؟!
ألا يعلم رشيد رضا العلاقات التي كانت بين محمد عبده وزعيم البهائيين ؟!

إن رشيد رضا يعلم هذا وغيره لأنه كان ملتصقاً به ، وذكر بعض هذه الأمور في كتابه [تاريخ الإمام] !!

ولاأدري لماذا يشن رشيد رضا الحملات ضد المقلدين ويقيم النكير عليهم وهذه هي حاله مع شيخه ، ومن قبل رأينا كيف كان محمد عبده يخاطب الأفغاني .

لهذا فإني أدعو الذين يقرأون كتب رشيد رضا إلى الحذر من أفكار شيخه التي كان يستشهد بها كثيراً ، ومما ينبغي التأكيد عليه أن منهج رشيد رضا أصبح أكثر استقامة بعد موت محمد عبده .

وعلى كل حال فقد نسبت كل قول إلى قائله فيما كتبته عن المدرسة الإصلاحية ، وليس مقبولاً أن يرد علينا المعجبون بمحمد عبده أو بالأفغاني بأقوال رشيد رضا ، فليس الآخير صورة طبق الأصل عن شيخه أو عن الأفغاني وكل امرء بما كسب رهين .



فصل في التحذير من مناهج ومؤلفات أخرى

لم أتطرق فيما مضى من هذا الكتاب إلى جميع المناهج والمؤلفات المنحرفة ، وإنما تحدثت عن أشهرها وأهمها ، كما تحدثت عن منهج رجال خير القرون في كتابة السيرة ، ويستطيع القارىء الفطن أن يطبق هذا المنهج على كل كتاب في السيرة .

وسوف أشير في هذا الفصل إلى مناهج ومؤلفات أخرى مكتفياً بنقل فقرات منها ، متوخياً الإيجاز قدر الاستطاع ، وعندما أضطر إلى التعليق فسوف أتجنب الإطالة والإسهاب .

أولاً ـــ الشيوعيون

١ ـــ من مناهج وزارة المعارف في اليمن الجنوبي :

جاء في صفحة [١٤] من كتاب « السيرة والبحوث الإسلامية » المقرر في الصف الثالث الإعدادي عن الرسول ﷺ :
« وكان يرفض عبادة الأصنام التي كانت شائعة بين بني قومه وكثيراً ماكان يعتزل وحيداً في الجبل متأملاً مفكراً . ذهب مع عمه في تجارة إلى الشام وكان لهذه الرحلة أثر هام في حياة الشاب محمد ، فقد مر بكثير من البلدان والمدن التجارية الحضرية وتعرف إلى الراهب بحيرا في مدينة بصرى الشام الذي كان على درجة عالية من الثقافة والاطلاع على الأساطير القديمة وأخبار الشعوب وتاريخها والأديان السماوية وكتبها المقدسة وقد أشار هذا الراهب إلى مواهب الشاب العربي وتوقع له قيادة العرب » .

وتحت عنوان [خلافة عثمان بن عفان وانفجار الصراع بين الجناح اليميني والجناح الديمقراطي في الإسلام] جاء في صفحة [٢٤] من الكتاب المذكور :

« يعتبر علي مؤسس الاتجاه الديمقراطي في الإسلام بينما عثمان حامي الجناح اليميني ، وفي عهد علي نشط الجدل الفكري الاجتماعي الذي ولد فيما بعد الاتجاهات الفكرية التقدمية في المدن التجارية الإسلامية : كالشيعة ، والخوارج ، والقرامطة ، والمعتزلة ، وإخوان الصفا » .

تعليق :

زعموا ـــ قاتلهم الله ـــ أن علياً مؤسس الاتجاه الديمقراطي في الإسلام ، وعثمان حامي الجناح اليميني ... كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً ، فعلي وعثمان رضي الله عنهم من السابقين الأولين الذين رباهم سيد ولد آدم ﷺ ، ولم تكن مثل هذه الأسماء معروفة ،بل وليس في الإسلام يمين أو يسار .

ومن جهة أخرى يرى شيوعيو اليمن بأن الشيعة والخوارج ، والقرامطة ، والمعتزلة ، وإخوان الصفا من التقدميين ، ومما يجدر ذكره أن بعض هذه الفرق مرتدون عن الإسلام كالقرامطة وإخوان الصفا ، وبعضهم الآخر ضالون منحرفون ، وذكرنا فيما مضى من هذا الكتاب ثناءهم على القرامطة لأنهم من رواد الشيوعية الأوائل ، والطيور على أشكالها تقع .

والمشكلة أن هذه المناهج تدرس في بلد يدين المواطنون فيه بالإسلام ، وكان لأبنائه فضل نشر الإسلام في مختلف بقاع الأرض .

ومثل هذه الأباطيل تدرس في غير اليمن الجنوبي ، فلقد علمت من إخوة ثقات اطلعوا على نشرة صادرة عن حزب البعث الإشتراكي عند بداية سيطرتهم على سورية جاء فيها أن علياً وأبا ذر من الكادحين ، وأن عثمان بن عفان وعمرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان من المترفين ، وأن هناك صراعاً طبقياً كانت تدور رحاه بين الكادحين والمترفين ، وماكان البعثيون عند بداية حكمهم يجرؤون على نشر مثل هذه الأفكار على الملأ ، وإنما كانوا يكتفون بتدريسها للحزبيين في جلساتهم المغلقة .

٢ ـــ محمد رسول الحرية :

للكاتب عبد الرحمن الشرقاوي رئيس تحرير مجلة روز اليوسف سابقاً ، وأحد وجوه اليساريين في مصر ، وكان محامياً عن الشيوعيين عند اعتقالهم في عام ١٩٦٨ .

أكد في مقدمة كتابه بأنه لايكتب عن محمد [ﷺ] الرسول وإنما يكتب عن محمد الرجل ، كما أنه يكتب للذين يؤمنون بنبوة محمد ﷺ والذين لايؤمنون .

ثم أخذ يدندن حول تفسير قوله تعالى : ﴿ إنما أنا بشر مثلكم ﴾ ، وقد اقتطع الآية عما قبلها ومابعدها : ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه ، فليعمل عملاً صالحاً ولايشرك بعبادة ربه أحداً ﴾ (١) .

وشتان شتان بين معنى الآية وماأراده الكاتب ، ولهذا فهو يحاول قطع النبي ﷺ عن الوحي . انظر إلى قوله :

« ويخرج محمد على الناس بعد حين يأمرهم ألا يدخلوا البيوت حتى يستأذنوا من أهلها ويأمر النساء ألا يبدين زينتهن للمحارم من الرجال إلا ماظهر منها ... ثم يأمر نساءه ـــ بصفة خاصة ـــ أن يحتجبن ، لأنهن لسن كأحد من النساء . لماذا ... لسن كأحد من النساء ؟! ... لماذا يفرض الحجاب على نسائه ؟! على أنه صمم ألا يدخل في مهاترات شخصية ... ومضى يأمر نساءه بالإعراض عن متاع الحياة الدنيا ، ويحضهن على أن ينبذن أحلام الغنى ، وأخذ يضع لكل المؤمنات والمؤمنين قواعد للسلوك فيما بينهم ... وأنذر من يخالف بعذاب عظيم » .

وقوله عن الوحي :

« ولكنه في تلك الليلة من رمضان أغفى قليلاً ثم نام ، فرأى من يعرض عليه كتاباً ويطلب منه أن يقرأ فقال ماأنا بقارىء ، ولكنه ألح عليه أن يقرأ ، فسأله ماذا أقرأ فقال له اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم ، علم الإنسان مالم يعلم ، وعندما استيقظ من نومه ، كان يحفظ ماسمعه في النوم » .

---

١ ـــ سورة الكهف ، الآية : ١١٠ .

وعن صراع الطبقات يقول :

« لقد بدأ الصراع إذن : الأغنياء يدافعون عن وجودهم ، والفقراء عن حقهم في الحياة الكريمة ، وعن أحلامهم في عالم أفضل » .

ويصور قضية أهل الصفة وكأنها قضية اجتماعية طبقية ، وزعم أن رسول الله ﷺ قال لقومه عن تقسيم أموال بني النضير :

« إن إخوانكم المهاجرين ليس لهم مال ، فإن شئتم في ذلك ، قسمتم أموال بني النضير وأموالكم بينكم جميعاً ، وإن شئتم أمسكتم أموالكم وقسمت هذه فيهم خاصة » .

وليس صحيحاً مازعمه عبد الرحمن الشرقاوي عن تخيير الرسول لقومه في تقسيم أموال بني النضير ، وأنه ﷺ هو الذي فرض الحجاب على النساء ، ونصوص القرآن واضحة بيّنة في ذلك ، لكن المؤلف يحاول أن يقطع الرسالة عن الرسول ، ويتلاعب في اختيار العبارات والألفاظ ، وفي إظهار مالايبطن ، أما الوحي فإجماع المسلمين في القديم والحديث منعقد على أنه لم يكن حلماً ، والأدلة من الكتاب والسنة تؤكد أن رسول الله ﷺ كان يرى جبريل عليه السلام رأي العين ويتحدثان بلسان عربي مبين .

٣ ـ محمد والقوى المضادة :

للدكتور محمد أحمد خلف الله ، وكان قد تقدم به لكلية الآداب عام ١٩٤٢ لنيل درجة الماجستير ، وكان عنوان البحث « جدل القرآن » ، ثم أسماه فيما بعد « محمد والقوى المضادة » بسبب استنكار الدعاة والعلماء للقضايا والآراء الشاذة التي أثارها الكاتب في بحثه الأول « جدل القرآن » .

وأول مايلمح القارىء من الكتاب بعد الاطلاع عليه جيداً أن الكاتب يكثر من استخدام الألفاظ التي يستخدمها الشيوعيون وغيرهم من اليساريين والثوريين .

انظر إلى قوله :

« وهذه الوظائف التي يحددها القرآن الكريم للنبي عليه السلام هي الوظائف التي يقوم بها كل قائد يتخذ من العمل الثوري وسيلة إلى تحقيق الإصلاح بأبعاده المختلفة » . (ص : ١١٣)

وإلى قوله :
« لقد كان المشركون من أهل مكة من الأغنياء من الطبقة الرأسمالية التي حققت ثراء فاحشاً عن طريق التجارة ، ولم تكن هذه الطبقة تشعر بحاجة إلى الجد والكد من أجل حصولها على المال الذي تنفقه في صد الناس عن سبيل الله » . (ص : ٢٢٨)

وإلى قوله :
« ولقد كان أهل الكتاب من سكان المدينة من الطبقة الرأسمالية أيضاً » . (٢٢٩)

ويتلاعب في تفسير قوله تعالى : ﴿ وإذا سمعوا ماأنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين ﴾ ، فيزعم أنها تنطبق على كافة النصارى وقد أبعد النجعة فيما زعم وافترى بهتاناً عظيماً . (ص ١٣٠)

وعن شكل الدولة بعد وفاة رسول الله ﷺ يقول :
« ولقد أصبح الاختيار بعد محمد عليه السلام حقاً من حقوق الناس حقاً تنازل عنه الله للناس » .

ويقول أيضاً :
« وفي الإسلام دولة مدنية يختار رئيسها من بين المدنيين ويطلب إليه تطبيق أحكام الدين ، والصيغة التي يتم اختياره عليها متروك أمرها للمسلمين » . (ص ٥٢)

ويدندن الكاتب حول اعتبار القرآن المصدر الوحيد للتلقي ، ويكثر من الاعتماد على أقوال ابن سينا ، وإخوان الصفا وغيرهم من الضالين المضلين ، كما يعتمد من جهة أخرى على أقوال الشيخ محمد عبده وتلميذه رشيد رضا عند حديثه عن المعجزات وخوارق العادات . ولولا خشية الإسهاب لعرضت نماذج أخرى من كتابات اليساريين وأراجيفهم ، ولكن في هذا القدر الكفاية .

ثانياً ــ الرافضة

كثيرة هي كتب الرافضة ومؤلفاتهم التي تطعن بأحاديث السيرة النبوية المتفق على صحتها ، وتصور رسول الله ﷺ وكأنه مغلوب على أمره ، وتتهم السابقين الأولين من أصحاب رسول الله ﷺ بالكذب والمكر والتضليل بل والكفر في كثير من الأحيان ، وقد تفنن علماؤهم في القديم والحديث ــ في اختلاق الأحاديث النبوية ، والقصص والروايات الكاذبة وإلصاقها بالصحابة رضوان الله عليهم ، وينقل هذه الروايات عنهم من لايقدر على تمييز الموضوع من الصحيح من المسلمين ، أو ينقلها عنهم أعداء الإسلام كالمستشرقين ومن نحا نحوهم .

ومن بين هذه الكتب الكثيرة سوف أختار فقرات من كتاب حديث زعم مؤلفه في المقدمة أنه كان في بحثه متجرداً مخلصاً حسن النية ، واعترف بفضل الرجال الأوائل الذين سبقوا إلى التأليف في السيرة ، وذكر منهم : شرحبيل بن سعد ، وابن شهاب الزهري ، وعروة بن الزبير ، وابان بن عثمان ، وعاصم بن عمرو بن قتادة ، وموسى بن عقبة ، وابن إسحاق . لكنه قال بعد الثناء عليهم : « مع العلم بأنهم قد أضافوا إليها ماليس منها إما عن حب وهوى ، وإما عن حقد وسوء نية ، وبالإضافة إلى ذلك يجد الباحث في المؤلفات الأولى منها محاولة مقصودة لطمس بعض الحقائق وتحيزاً لأشخاص لايعتمد على المنطق وحوادث التاريخ ، ولكن ذلك لايمنعنا من تسجيل حسناتهم إلى جانب مااقترفوه من السيئات » . (ص : ١٠)

وحسبنا هنا مازعمه المؤلف عن تجرده وحسن نيته ، واعترافه بدور كبار أئمة أهل السنة ، ولم يستطع أن يذكر من بينهم اسماً واحداً لعالم من علماء أهل الرفض والتشيع .

اسم الكتاب : سيرة المصطفى ــ نظرة جديدة .
المؤلف : هاشم معروف الحسيني .
الناشر : دار القلم ــ بيروت / لبنان .

وأول مايلاحظه من يفرغ من قراءة الكتاب بتدبر وإمعان أن المؤلف اتخذ من سيرة الرسول ﷺ ستاراً لتعظيم دور علي بن أبي طالب رضي الله عنه ودور

أبيه وأبنائه ، وأنصف لو سمى كتابه سيرة علي بن أبي طالب ... ولكن أين الرافضة من العدل والإنصاف ؟!

فعن ولادة علي يقول :

« وجاء في كثير من المرويات أن فاطمة بنت أسد لما وضعت علياً [ع] امتنع عن ثديها أياماً ثلاثة فكان محمد [ص] يغذيه من ريقه يلقمه لسانه فلايزال في فمه حتى يرتوي ويشبع » . (ص : ٨١)

وعن ولادة الحسين يقول :

« جاء عن أبي عبد الله الصادق [ع] أنه كان إذا بكى يقول لفاطمة أن بكاءه يؤذيني فيأخذه ويضع ابهامه في فمه فيمتص منها ، وفي رواية ثانية أنه كان يضع لسانه في فمه فيمتص منه مايكفيه » . (ص : ٤٤٩)

وراح المؤلف بعد استدلاله بهاتين الروايتين الملفقتين يتحدث بإسهاب عن سر تغذية الرسول ﷺ لعلي من لسانه ، انظر إليه يقول :

« لقد تولاه الرسول بالتعليم وبث في روحه دقائق الحكمة وأسرار الكون والمعرفة ، وبصره بخلق السموات والأرض ، حتى أدرك من الحقائق مالم يدركه بعد الرسول إنسان سواه (٢) ، ولم تكن فيه صفة إلا وهي مشدودة إلى صفة من صفات النبي العظيم » . (ص : ٨٣)

وقال أيضاً :

« لقد أراد الرسول أن يغذي علياً ساعة وجوده في دنيا الناس التي غلب على أهلها الباطل والغدر والنفاق ، أراد أن يغذيه من لسانه الذي لايعرف غير الحق والصدق » . (ص : ٨٢)

ومتى كانت هذه التغذية ؟! لقد كانت قبل البعثة وقبل أن يكون محمد ﷺ رسولاً نبياً ، ولاتسل الرافضة عن أسرار هذه التناقضات لأنهم أعدوا لكل سؤال الجواب الذي يناسبه ، ولايعجزهم وضع الأحاديث والروايات ونسبتها إلى رسول الله ﷺ ، وإلى علي وأبنائه رضي الله عنهم وأرضاه .

وعن فضائل أمير المؤمنين يزعمون أن علياً رضي الله عنه قال عن نفسه : « أنا عبد الله وأخو رسول الله ، وأنا الصديق (٣) الأكبر لايقولها بعدي إلا كذاب

٢ ــ ومما يعتقده الرافضة أن علياً والأئمة الاثنى عشرية أفضل من أنبياء الله ، ويستثنون رسول الله ﷺ من هذه الأفضلية .

٣ ــ أي لايقولها بعد إسلام علي إلا كذاب ويقصدون أبا بكر رضي الله عنه .

صليت قبل الناس سبع سنين » . (ص : ١١٦)

وعن إسلام أبي طالب تحدث من صفحة ٢٠٦ إلى ٢٢٠ ، ونسب إلى محمد بن علي الباقر قوله :
« لو وضع إيمان أبي طالب في كفة وإيمان هذا الخلق في الكفة الأخرى لرجح إيمانه » .

كما نسب إلى علي بن موسى الرضا قوله لإبان بن محمود :
« إنك إن لم تقر بإيمان أبي طالب كان مصيرك إلى النار » . (ص : ٢٠٨)

وختم حديثه عن إسلام أبي طالب بالأبيات التالية :

ولولا أبو طالب وابنه [٤] لما مثل الدين شخصاً فقاما
وما ضر مجد أبي طالب جهول لغا أو بصير تعامى
كما لايضر آيات الصباح من ظن ضوء النهار الظلاما
(ص : ٢٢٠)

وفي الفصل الرابع والعشرين ومابعده أي [من صفحة ٦٩٣ وحتى ٧٣٤] يتحدث المؤلف عن الإمامة زاعماً أن رسول الله ﷺ أوصى بها لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه ، ولكن كبار الصحابة خالفوا أمر رسول الله ﷺ واستأثروا بالخلافة ، وهكذا يقف الرأي العام إلى جانب القوي الظالم ، واستدل على صحة مقولته بقول ابن طائفته محمد جواد مغنية :
« لقد بايع نفر قليل من المسلمين في بداية الأمر أبا بكر بالخلافة وساعدته الظروف والأوضاع على استجلاب الجماهير وتمت له السلطة دون غيره من الصحابة ، وأصبح هو الآمر الناهي باسم خليفة رسول الله ، فاستدل السنة بخلافة أبي بكر على صحة تلك البيعة لابآية أو رواية ولابإجماع أو عقل » .

ويستطرد في هجومه على أهل السنة فيقول :
« فتبنى السنة حكم ابن أبي سفيان واعترفوا به ودافعوا عنه لالشيء إلا لأنه قد أصبح حاكماً وهم يعلمون بأن معاوية وأباه لم يخلصا للإسلام ولو ساعة واحدة » .

وعن استشهاد عمار رضي الله عنه يقول :

٤ ــ فأين نصر الله وتمكينه لنبيه ، بل أين دور رسول الله ﷺ ؟!
٥ ــ يعني قاتله الله الشيخين أبا بكر وعمر كما يعني ذي النورين وكبار الصحابة رضي الله عنهم أجمعين .

« وقد قتله معاوية ، ومع ذلك فقد رفض السنة أن ينعتوه بالبغي كما نعته من لاينطق عن الهوى ، ورفضوا ذلك وهم على يقين من قول الرسول ، بل قالوا إن معاوية قد اجتهد وأخطأ وهو معذور ومأجور بقتل عمار وسب علي [ع] على المنابر » . (ص : ٧٠١ و ٧٠٢)

كذب الرافضي في كل مانقلناه عنه ومن أهم افتراءاته قوله [وهم يعلمون — أي أهل السنة — بأن معاوية وأباه لم يخلصا للإسلام ولو ساعة واحدة] لابل يعلم أهل السنة بإخلاص معاوية وفضله وتكفيه صحبة رسول الله ﷺ وكذلك كان أبوه .

وكذب الرافضي عندما زعم بأن أهل السنة رفضوا أن ينعتوا معاوية بالبغي ، والصحيح أن أهل السنة يعتقدون بأن معاوية بغى على عليّ رضي الله عنهما ويقولون كذلك : لقد اجتهد معاوية وأخطأ ، ولاتعارض بين القولين ، وفضلاً عن هذا وذاك فمعاوية لم يقتل عماراً ولاأمر بقتله .

نعم لقد كذب الرافضي في هذا وفي غيره والرافضة لايخجلون من الكذب ولايخشون الله سبحانه وتعالى . ولو وقف هاشم معروف الحسيني عند حدود تعظيم دور علي رضي الله عنه لهانت المسألة ... لكنه تجاوز هذه الحدود وبالغ في شتم السابقين الأولين من أصحاب رسول الله ﷺ ، وفي التشكيك بهم وتحقير أدوارهم في نصرة هذا الدين .

— فمن أدلة الكاتب على فشل أبي بكر رضي الله عنه عجزه عن إقناع أبيه أبي قحافة وابنه عبد الرحمن ، ويشكك في الروايات التي تقول بأن الزبير وعثمان وطلحة وغيرهم أسلموا عن طريق أبي بكر ، ونقل الكاتب عن أبناء طائفته أقوالاً كثيرة في تجريح أبي بكر منها عقوقه لأبيه وكيف تركه فقيراً مدقعاً سيء الحال مع أنه على حد زعمهم [أي أهل السنة] كان محسناً واستمال إلى الإسلام جماعة بواسطة إحسانه وأمواله . (انظر من صفحة ١٢٢ إلى ١٢٦)

ويقول في الصفحة [١٤٩] :

« وموضع التساؤل فيما جاء في كتب السيرة من أن أبا بكر كان يشتري أولئك المعذبين ليخلصهم من ساداتهم ، هو أن قريشاً كانت تنكل وتعذب العبيد الذين آمنوا بمحمد وغيرهم من المستضعفين حتى لاينتشر الإسلام وليكونوا عبرة ونكالاً لغيرهم ، وكانت تود لو أن محمداً [ص] يساومهم على جميع مايملكون ويتراجع

عما جاء به ودعا إليه فكيف تتنازل قريش عن ملكيتهم لأبي بكر وتترك تعذيبهم ، ومااالذي يمنعها من تعذيبهم إذا أعتقهم أبو بكر أو غيره ، في حين أنهم كانوا يتعمدون الإساءة لكل من ليس له عشيرة تمنع عنه بغيهم أو حليف يستجير به » .
وفي مواضع كثيرة يتهم هاشم الحسيني أبا بكر بالخوف والجبن ، ويحاول تجريده من كل فضل ومكرمة ، ففي هجرة الرسول ﷺ يسهب في الحديث عن دور علي بن أبي طالب البطولي وكيف ضرب أروع الأمثلة في الفداء والتضحية ... ثم يقول عن أبي بكر رضي الله عنه :
« في حين أن أبا بكر حين التجأ مع الرسول إلى الغار كان الرسول يطمئنه ويمنيه السلامة بواسطة الوحي ومع ذلك فلقد كان يبكي ويرتعش من الخوف وكاد أن يفقد وعيه ، والنبي يقول له : لاتحزن إن الله معنا » (ص : ٢٥٣) ، وبعد هذا الاتهام يقول بخبث : « أقول ذلك مع تقديري لمكانة أبي بكر وصحبته المبكرة للرسول [ص] » . (ص : ٢٥٣)

وفي الصفحة (٢٥٦) يقول :
« فلم يحدث التاريخ عنه بأنه كان من ذوي البطولات والتضحيات الجسام في سبيل محمد [ص] وقصة الغار واضطرابه الشديد وهو مع النبي يطمئنه ويخفف من جزعه واضطرابه خلال المدة التي قضاها مع النبي [ص] في الغار تشهد بذلك » .

وفي الصفحتين [٤١١ و ٤١٢] زعم الرافضي الخبيث أن أبا بكر وعمر بن الخطاب كانا من الفارين الذين التجأوا إلى الصخرة يوم أحد ، وقال بعض من على الصخرة ليت لنا رسولاً إلى عبد الله بن أبي ليأخذ لنا أماناً من أبي سفيان ، ياقوم إن محمداً قد قتل فارجعوا إلى قومكم قبل أن يأتوكم فيقتلوكم .

وفي الفصل الخامس والعشرين [٧٠٥] يتحدث الرافضي عن جيش أسامة وأن أبا بكر وعمر كانا في جيش أسامة ، فلماذا ضمهما الرسول ﷺ إلى هذا الجيش ، وترك علياً في المدينة ، مع أن تاريخهما معه في حروبه وغزواته لايشهد لهما بالبطولات ولايغنيان في ساعة الشدة عن شيء ؟!

يجيب المؤلف على هذا السؤال زاعماً أن رسول الله ﷺ أبعدهما عن المدينة حتى لايقع منهما توثب على الإمامة ، ولذلك لم يجعل أمير المؤمنين علي في ذلك الجيش ليتم له الأمر بدون منازع » . (ص : ٧٠٩ و ٧١٠)

وفي الصفحة [٧١٤] يذكر المؤلف أن رسول الله ﷺ عاتب أبا بكر وعمر بسبب عدم انضمامهما إلى جيش أسامة ، وفي [٧٠٦] يقول المؤلف :
« وفي رواية مشهورة بين المحدثين أنه كان يقول ـــ أي الرسول ﷺ ـــ ويكرر انفذوا جيش أسامة ، لعن الله من تخلف عن جيش أسامة » .
ـــ وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خلط بين حياته قبل الإسلام وحياته بعده فقال :
« كان حاد الطبع سريع الغضب ومن الأشداء في قريش على محمد وأتباعه » . (ص : ١٧٢)

وسخر الرافضي الحاقد من الروايات الصحيحة التي تتحدث عن مناقب عمر الطيبة ومآثره الحميدة فقال :
« إن تاريخه قبل الإسلام وبعده خلال حروب النبي [ص] وغزواته لايعطيه شيئاً من البطولات والتضحيات في سبيل مصلحة الإسلام » . (ص : ١٧٥)

ويستطرد المؤلف في الحديث عن موقف عمر بن الخطاب بعد وفاة الرسول ﷺ فيزعم أنه لم يكن جاداً عندما قال إن الرسول لم يمت ، وقد استطاع بحيلته أن يسيطر على عدد كبير من الجماهير التي تنفعل بكل فكرة تعرض لها ، وتستبد بها المحاكاة والتقليد الأعمى ويسقط العقل وسلطانه ... إن عمر بن الخطاب كان أبعد الناس عن التعلل بمثل هذه الأوهام ، ولم يتردد لحظة واحدة في وفاة النبي ... ولذا تخلف عن جيش أسامة ، وحينما طلب النبي دواة وقرطاساً ليملي عليهم عهده قال إنه ليهجر حسبنا كتاب الله ... ومضى الرافضي الحاقد في هذره عما أسماه مؤامرة دبرها عمر بن الخطاب ليبعد الإمامة عن علي بن أبي طالب ، يضاف إلى هذا مانقلناه من فقرات عند حديثنا عن أبي بكر يتهم فيها عمر بن الخطاب بالخوف والجبن . (انظر من صفحة ٧٠٥ وحتى صفحة ٧٣٤)
ـــ ويتحدث هاشم معروف الحسيني عن زوجات الرسول ﷺ [٤٥٩ ـــ ٤٧٦] فيتجاهل عائشة رضي الله عنها اللهم إلا مايأتي عرضاً ، وفيما ذكره عن حديث الإفك [٤٨٢ ـــ ٤٩٢] زعم أن عائشة قالت للنبي ﷺ أن مارية يأتيها ابن عم لها من الأقباط واتهمتها به مما دعا النبي [ص] أن يرسل علياً في طلبه فوجده أجب أمسح أي ليس له مما للرجال قليل أو كثير ، وأنكر أن تكون آيات : ﴿ إن الذين جاؤوا بالإفك ﴾ قد نزلت ببراءة عائشة مما اتهمها به المنافقون وغيرهم في غزوة بني المصطلق .

وقصد المؤلف فيما قاله عن عائشة رضي الله عنها أمرين :
الأول : اتهمها بالكذب لأنها ــ على حد قوله ــ رمت مارية رضي الله عنها بالزنى ، وثبت براءة مارية .
الثاني : حاول أن يجرد أم المؤمنين عائشة من كل مكرمة فزعم أنه لاعلاقة لها البتة بسبب نزول الآيات [١١ ــ ٢٠] من سورة النور .

ولاتسل الرافضة في مثل هذا الأمر وغيره عن أدلتهم ، فهم في كل مايرمون به أصحاب رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم لايأتون بأدلة ولايقولون إلا الكذب وماتهوى الأنفس .
ــ أما عثمان رضي الله عنه فليس من السابقين الأولين ، وليس صحيحاً أنه كان ينفق أمواله في سبيل الله ، وفوق هذا وذاك فلقد كان جباناً ويذكر الرافضي المفتري أنه فر حينما بدأت معركة أحد حتى قطع شوطاً بعيداً ولم يرجع إلى النبي إلا بعد ثلاث ، كما كان رضي الله عنه ــ على حد قول الرافضي ــ مترفاً وقد سلط الأمويين والمروانيين على رقاب الناس يعبثون في الأموال والأعراض ويتجاهرون بالمنكرات . (انظر الصفحات : ١٤٠ ، ١٤٢ ، ٤٢٠)

وقصارى القول : لم يسلم من تجريح الرافضي من الصحابة إلا علي ، وعمار بن ياسر ، وأبو ذر الغفاري ، وحمزة ، وسلمان الفارسي ... أما غير هؤلاء الصحابة فكان يهاجمهم بأسمائهم أو بتعميم حكمه وإطلاقه .

وإذن فلقد كذب هاشم الحسيني عندما زعم في مقدمة كتابه أنه سيكون في بحثه متجرداً حسن النية ، ورغم ذلك كان يتهم كبار علماء الأمة من رجال خير القرون بعدم التجرد ، كما كان يرميهم بسوء النية ، ولله في خلقه شؤون !!

إننا ــ أهل السنة ــ نتقرب إلى الله بحب علي بن أبي طالب وعموم آل بيت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم ، ولايخالطنا شك بأن علياً أول من أسلم من الغلمان ، ونعترف بشجاعته وعلمه وعدله وصدقه .

ولانفرق بين أحد من أصحاب رسول الله ﷺ إلا بالأسبقية والتقوى ، أما الرافضة فلو كانوا يحبون رسول الله ﷺ لأحبوا أصحابه وآل بيته من نسائه ، ومن المؤسف أن هاشم الحسيني ــ مع كل ماذكره من أباطيل ــ ليس من غلاة المؤلفين الرافضة .

ثالثاً ـ الأدباء

ألف الدكتور محمد حسين هيكل كتابه « حياة محمد » في الثلاثينات ، ولقي رواجاً واسعاً في أوساط المثقفين مما دعا المؤلف إلى إعادة طبعه أكثر من مرة ، وأغرى نجاح هيكل زملاءه ومن جاء بعده من الأدباء إلى الكتابة في الإسلاميات ، وبشكل أخص في سيرة الرسول وصحبه وآل بيته صلى الله عليه وعلى آل بيته وصحبه وسلم ، ومن أشهر هؤلاء الأدباء :
طه حسين ، وأحمد أمين ، وتوفيق الحكيم ، وعباس محمود العقاد ، وعبد الحميد جودة السحار ، والدكتورة عائشة عبد الرحمن ـ بنت الشاطىء ـ ، وغيرهم .

ولم تكن أهداف الأدباء وغاياتهم واحدة ، فمنهم الملاحدة الذين شككوا بالقرآن الكريم والسنة النبوية أمثال طه حسين [٦] ومن نحا نحوه ، ومنهم من كان يكتب عن قناعة ومحبة ، وكان يفند شبهات أعداء الإسلام ، ويدافع عن سيرة الرسول وصحبه وآل بيته صلى الله عليه وعلى صحبه وآل بيته وسلم ، ومن أبرزهم عباس محمود العقاد .

وإذا كانت أهداف هؤلاء الأدباء ليست واحدة ، فهناك قدر مشترك فيما بينهم من الأخطاء نوجزها فيما يلي :

١ ـ كانوا يكتبون عن عبقرية محمد ﷺ ، وإنسانيته ، ورحمته ، وعدله ، ومساواته بين الناس ، وماكانوا يكتبون عن الجانب الغيبي في الإسلام ، ولاعن الوحي والبعث والنشور ... وجملة القول كانوا يكتبون عن بشرية الرسول ﷺ ، أما الجانب الآخر فمنهم من لايؤمن به ، ومنهم من كان يخشى من نقد المستشرقين وتلامذتهم .

٢ ـ تمتاز مؤلفات الأدباء بحسن الأسلوب ، وجمال التعبير ، ودقة التصوير ، وجودة الوصف ... وكان بعضهم مهتماً باختلاق القصص والروايات ، كما كان يفعل القصاص في العصور الأولى ، أو كما كان يكتب الأدباء الغربيون عن الأساطير اليونانية وغيرها .

٣ ـ لايهتم هؤلاء الأدباء بسند الرواية ، وبيان صحتها من ضعفها ، وأهم

٦ ـ سبق أن تحدثت فيما مضى من هذا الكتاب عن طه حسين ، ومحمد حسين هيكل ، وأحمد أمين ، وبيّنت فساد منهجهم .

المصادر التي يعتمدون عليها كتب التاريخ والأدب القديمة ، وكتب أساتذتهم المستشرقين ، كما كانوا يكثرون من الاعتماد على آراء الشيخ محمد عبده وأقواله .

٤ — من هؤلاء الأدباء من كان ينكر المعجزات وخوارق العادات ، ومنهم من كان يؤولها أو يتجاهل ذكرها .

ومن جهة أخرى كانوا يردون الروايات التي تخالف عقولهم لأن العقل عندهم مقدم على النقل عند التعارض .

وإنني إذ أحذر المسلمين من كتب ومؤلفات هؤلاء الأدباء أود تنبيههم إلى أهمية دور الأدباء الدعاة في كتابة السيرة : شعراً ، وقصة ، ونثراً ، شريطة أن يحترموا منهج رجال خير القرون في كتابة السيرة النبوية ، وفي الروايات الصحيحة متسع لمن أراد أن يخوض غمار هذا الميدان .

رابعاً ـــ مع الغزالي في كتابه « فقه السيرة »

الشيخ محمد الغزالي من كبار الدعاة إلى الله في هذا العصر ، كما أنه من قدامى الكتاب الإسلاميين ، وإن نسيت لاأنسى أن كتابه « من هنا نعلم » كان من أوائل الكتب التي قرأتها في الخمسينات ، وانتشرت كتبه بسبب سهولتها ولأنه يتحدث عن مشكلات العصر ويحاول وضع حلول لها ، وفضلاً عن هذا وذاك فيمتاز الغزالي بحسن الأسلوب وجمال التعبير .

أما كتابه « فقه السيرة » فمن أجود كتبه ، وفيه فوائد كثيرة من أهمها صدق عاطفة المؤلف فيما يكتبه عن سيرة الرسول ﷺ ، ويظهر لنا صدق عاطفته من خلال قوله في المقدمة :

« إنني أكتب في السيرة كما يكتب جندي عن قائده ، أو تابع عن سيده ، أو تلميذ عن أستاذه ولست مؤرخاً محايداً مبتوت الصلة بمن يكتب عنه » . (ص : ٥) (٧) .

ويحذر المؤلف في مواضع كثيرة من كتابه من مخاطر الجمود والتقليد ويدعو إلى استئناف حياة إسلامية يكون الدين فيها كله لله سبحانه وتعالى .

والكتاب مع مافيه من إيجابيات كثيرة لم يسلم من الخطأ ، وأهم مانأخذه على المؤلف مايلي :

حول أحاديث الكتاب :

قام الشيخ محمد ناصر الدين الألباني بتحقيق الأحاديث التي وردت في كتاب « فقه السيرة » ، وأعيد نشر الكتاب مع الهوامش التي أضافها الشيخ ناصر . فقال الغزالي تحت عنوان « حول أحاديث هذا الكتاب » :

« ... لكن القارىء سيرى في تعقيبات الشيخ ناصر الدين مايبعث ريبته في هذا الظن [أي اعتماد المؤلف على المصادر المحترمة في كتابة السيرة] . وهنا أراني مكلفاً بشرح المنهج الذي سرت عليه » .

---

٧ ـــ منشورات عالم المعرفة .

ومما قاله الغزالي في هذا الشأن :

« قد يكون الحديث ضعيفاً عند جمهرة المحدثين ، لكني أنا قد أنظر لمتن الحديث فأجد معناه متفقاً كل الاتفاق مع آية من كتاب الله ، أو أثر من سنة صحيحة فلاأرى حرجاً من روايته ، ولاأخشى ضيراً من كتابته .

خذ مثلاً أول حديث حكم الأستاذ بتضعيفه [أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمة ، وأحبوني بحب الله] قد يرى الأستاذ المحدث أن تحسين الترمذي وتصحيح الحاكم لاتعويل عليهما في قبول هذا الحديث ، وله ذلك بيد أني لم أجد في المطالبة بحب الله ورسوله مايحملني على التوقف فيه ولذلك أثبته وأنا مطمئن .

وفي الوقت الذي فسحت فيه مكاناً لهذا الأثر — على مابه — صددت عن إثبات رواية البخاري ومسلم مثلاً للطريقة التي تمت بها غزوة بني المصطلق . فإن رواية الصحيحين تشعر بأن الرسول ﷺ باغت القوم وهم غارون ماعرضت عليهم دعوة الإسلام ، ولابدا من جانبهم نكوص ، ولاعرف من أحوالهم مايقلق ، وقتال يبدؤه المسلمون على هذا النحو مستنكر في منطق الإسلام ، مستبعد في سيرة رسوله . ثم رفضت الاقتناع بأن الحرب قامت وانتهت على هذا النحو . وسكنت نفسي إلى السياق الذي رواه ابن جرير ... فهو على ضعفه الذي كشفه الأستاذ الشيخ ناصر يتفق مع قواعد الإسلام المتيقنة ، أنه لاعدوان إلا على الظالمين » (٨) .

ومن المؤسف أن المؤلف لم يراع منهج أهل الحديث في تصحيح الأحاديث وتضعيفها ، وإنما اعتمد على عقله ، وعقله صوّر له أن رواية الشيخين في غزوة بني المصطلق تتعارض مع قواعد الإسلام المتيقنة !!

موقف الغزالي من المعجزات :

ويقول الغزالي عن المعجزات :

« ومن المحققين من يرى أن القرآن هو المعجزة الفريدة لرسول الله ﷺ وهم يلحظون في هذا الحكم التعريف اللفظي للمعجزة من أنها خارق للعادة مقرون بالتحدي ، ولم يعرف هذا التحدي إلا بالقرآن . وقد ملنا إلى قريب من هذا الرأي ، لابالنظر إلى التعريف اللفظي للمعجزة بل بالنظر إلى القيمة الذاتية للخوارق

٨ — فقه السيرة / ص : ١٠ و ١١ مع الاختصار .

الأخرى بالنسبة إلى الأهداف الرفيعة التي جاء بها الإسلام » . (ص : ٤٨)

وقال أيضاً :

« وقد سرت في المسلمين لوثة شنعاء في نسبة الخوارق إلى الصالحين منهم ، حتى كادت جمهرتهم تقرن بين علو المنزلة في الدين وخرق قوانين الأسباب والمسببات ، وحتى من المؤلفين في علم التوحيد من يقول :

واثبتن للأولياء الكرامة ومن نفاها فانبذن كلامه

وصلة هذا الإثبات بعلم التوحيد كصلته بعلم النحو أو علم الفلك !! أي أن حقيقة الدين بعيدة عن هذه البحوث ، سواء انتهت بالسلب أو الإيجاب » . (ص : ٤٩)

الغزالي في هذا كله يردد أقوال زعماء المدرسة الإصلاحية دون أن يقدم جديداً ، وسبق أن عرضت أقوال زعماء المدرسة الإصلاحية وبيّنت تهافتها وضعفها ، وعرضت نماذج من معجزات الرسول ﷺ ، وكيف أخبر عن أمور غيبية مالبثت أن حدثت في الفصل الخامس من الباب الذي تحدثت فيه عن المستشرقين ، بل والغزالي لم يقل بإنكار المعجزات كلها ، لقد أثبت في كتابه بعض المعجزات وأول بعضها الآخر ، فكان موقفه كموقف المعتدلين من الإصلاحيين ، وانظر إلى قوله : [وقد ملنا إلى قريب من هذا الرأي] أي إلى اعتبار القرآن المعجزة الفريدة لرسول الله ﷺ .

وعجيب وصفه الكرامات بأنها لوثة شنعاء مع أنها ثابتة بأدلة صحيحة لايرقى إليها شك ، ولو أن الغزالي هاجم الخرافيين الذين ينسبون لشيوخهم كرامات ماأنزل الله بها من سلطان لأيدناه دون تردد أو تذمر ، لكنه بكل أسف عمم حكمه في إنكار الكرامات ، وهذا منه لوثة وليس الإيمان بالكرامات لوثة .

وفي كتب الغزالي الأخيرة كثر هجومه على أهل الحديث الذين يكرهون التعصب المذهبي الذميم ، ولايقبلون الفتاوى إلا بأدلتها ، وعلمت أنه كان لبعضهم موقف من آراء الغزالي وفتاويه عندما كان يدرس في إحدى الجامعات ، فغضب منهم وأطلق حكمه على المنهج وعلى الداعين له ، وليس على شباب ربما صدرت عنهم بعض الأخطاء نحوه أو نحو غيره ، ومشكلة الغزالي الذي رافقته منذ شبابه التسرع في اتخاذ المواقف ، ثم يحشد أقواله في كتاب ينشره على عجل ، ويقول بعد حين من الزمن بكل صراحة : غضبت فقلت أسوأ ماأعرف ورضيت فقلت

أحسن ماأعرف !! وهذا خلق بعض الشعراء وليس خلق الدعاة غفر الله لنا وله .

وفي الوقت الذي يهاجم الغزالي فيه الدعاة السلفيين أصحاب العقيدة السليمة نراه يسرف في حسن الظن بالرافضة ، ويزعم أن خلافنا معهم في فروع الدين وليس في أصوله ، وطالب بإقامة وحدة مع ألد أعداء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم ، وتجاهل تاريخهم الأسود ، وواقعهم ومخططاتهم التي ينفذونها في مختلف أرجاء العالم الإسلامي ، وتوج موقفه من الرافضة بزيارة إيران وتأييد ثورة الخميني ، وشارك في لقاءات عالمية دعا إليها ثوار الخميني ، واستغل الرافضة موقف الغزالي وأمثاله أبشع استغلال . ومرة أخرى أقول : لاأدري من أي شيء أعجب أمن موقف الغزالي من دعاة الإسلام السلفيين أم من موقفه من أهل الرفض والتشيع . اللهم إنا نسألك حسن الخاتمة .



الفهرس

القسم الأول

الباب الأول

ماأشبه الليلة بالبارحة

الفصل الأول

العالم قبل البعثة

الفصل الثاني

العالم اليوم

الفصل الثالث

العالم الإسلامي اليوم

الباب الثاني

منهج خير القرون في كتابة السيرة النبوية

الفصل الأول

تدوين السيرة

الفصل الثاني
الجرح والتعديل

الفصل الثالث
شبهات

القسم الثاني

السيرة النبوية في كتابات أصحاب المناهج المنحرفة

الباب الأول
المستشرقون

الفصل الأول
أهداف المستشرقين وغاياتهم

الفصل الثاني
دراسة لكتاب تاريخ الشعوب الإسلامية

الفصل الثالث
دراسة لكتاب الدعوة إلى الإسلام

الفصل الرابع
من تناقضات المستشرقين

الفصل الخامس
ردود حاسمة

الباب الثاني
دعاة التغريب

الفصل الأول
دعاة التغريب النصارى

الفصل الثاني
طه حسين

الباب الثالث

المدرسة الإصلاحية

الفصل الأول

أضواء على سيرة مؤسس المدرسة

الفصل الثاني

موقف الإصلاحيين من الخوارق والمعجزات

عرض أقوالهم في المعجزات

الفصل الثالث

نقد منهج الإصلاحيين

الفصل الرابع

ردود على شبهات

فصل في التحذير من مناهج ومؤلفات أخرى